ضعفاً[١] ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالياء أي والله يكفر أو الإخفاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش[٢] ويعقوبَ بالنون مرفوعاً على أنه جملة فعلية مبتدأة أو اسمية معطوفة على ما بعد الفاء أي: ونحن نكفر، وقرأ نافع وحمزة والكسائي به مجزوماً على محل الفاء وما بعده، وقرىء بالتاء مرفوعاً ومجزوماً والفعل للصدقات. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ترغيب في الإسرار.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

(٢٧٢) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد والحث على المحاسن والنهي عن المقابح كالمن والأذى وإنفاق الخبيث. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ صريح بأن الهداية من الله تعالى وبمشيئته، وإنها تخص بقوم دون قوم. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ من نفقة معروفة. ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تَمُنّوا عليه ولا تنفقوا الخبيث. ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ حال، وكأنه قال وما تنفقون من خير فلأنفسكم غير منفقين إلا لابتغاء وجه الله وطلب ثوابه، أو عطف على ما قبله أي وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجهه فما بالكم تمنّون بها وتنفقون الخبيث. وقيل: نفي في معنى النهي. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابُه أضعافاً مضاعفة، فهو تأكيد للشرطية السابقة، أو ما يخلف للمنفق استجابة لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً»[٣] روي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار ورضاع في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم، فكرهوا لَمّا أسلموا أن ينفعوهم فنزلت[٤]. وهذا في غير الواجب

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٩٢) من طريق علي بن أبي طلحة عنه. وأورده الترمذي الحكيم في نوادره (ص٣٧٦) عن ابن عباس قال: «جعل الله صدقة التطوع يفضُل سرّها علانيتها سبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها تفضُل سرّها بخمسة وعشرين ضعفاً، وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

(٢) ابن عياش، هو شعبة بن عياش بن سالم الأسدي، ويكنى أبا بكر، وهو إمام عالم اشتهر بالرواية عن عاصم أحد القراء السبعة، وتوفي ابن عياش (١٩٣)هـ بالكوفة.

(٣) أخرج البخاري (٣/ ٣٠٤ رقم ١٤٤٢) ومسلم (٢/ ٧٠٠ رقم ٧٥/ ١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يُصبحُ العِبادُ فيه إلاّ ملكان ينزلان فيقول أحدهما: «اللهمَّ أعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تلفاً».
وفي الباب أحاديث وآثار. انظر تخريجها في «الزهد» للإمام وكيع (٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٨ رقم ٣٧٩).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٤٠٢) ـ والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٥) و(٤/ ١٥٦) =

أما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكفار. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تُنْقَصون ثواب نفقاتكم.

(٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بمحذوف أي اعمدوا للفقراء، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، أو صدقاتكم للفقراء. ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أحصرهم الجهاد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به. ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ ذهاباً فيها للكسب. وقيل هم أهل الصفة كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة، وكانوا يَخْرُجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ. ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين. ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال، ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ من الضعف ورثاثة الحال، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد. ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحاً. وهو أن يلازم المسؤول حتى يعطيه، من قولهم لَحَفَنِي من فَضْل لَحَافِه، أي أعطاني من فضل ما عنده، والمعنى أنهم لا يسألون وإن سألوا عن ضرورة لم يُلحّوا. وقيل: هو نفي للأمرين كقوله:

على لا حِب لا يهتدي بمناره

فنصبه على المصدر فإنه كنوع من السؤال، أو على الحال. ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء.

الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

(٢٧٤) ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي يَعُمُّون الأوقات والأحوال بالخير. نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية. وقيل في أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه: لم يملك إلا أربعة دراهم فتصدّق بدرهم ليلاً ودرهم نهاراً، ودرهم سراً ودرهم علانية. وقيل: في ربط الخيل في سبيل الله والإنفاق عليها[1]. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر الذين

= والطبري (٣/ ٩٥) والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٤ رقم ١٢٤٥٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩١) كلهم من طريق سفيان عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الذهبي على شرط البخاري ومسلم. وأخرجه البزار (٣/ ٤٢ ـ كشف) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٢٤) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(١) لعل تقديم الليل على النهار والسرّ على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار (أبو السعود ١/ ٢٦٥).

ينفقون، والفاء للسببية. وقيل للعطف والخبر محذوف أي ومنهم الذين ولذلك جوز الوقف على وعلانية.

(٢٧٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا شائع في المطعومات وهو زيادة في الأجل، بأن يباع مطعوم بمطعوم أو نقد بنقد إلى أجل، أو في العِوَض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه، وإنما كتب بالواو كالصلاة للتفخيم على لغة وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم. ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبُط الإنسان فيصرع، والخبط ضرب على غير اتّساق كخبْط العشواء. ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي الجنون، وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجني يَمَسُّه فيختلطُ عقلُه ولذلك قيل: جَنَّ الرجلُ[1]. وهو متعلق بلا يقومون أي لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكل الربا، أو بيقوم أو بيتخبط فيكون نُهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لاختلال عقولهم ولكن لأن الله أربى في بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا﴾ أي ذلك العقاب بسبب أنهم نَظَموا الربا والبيعَ في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلالَه. وكان الأصل إنما الربا مثلُ البيع ولكن عُكِسَ للمبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا به البيع، والفرق بيِّن فإنّ من أعطى درهمين بدرهم ضيع درهماً، ومن اشترى سلعة تساوي درهماً بدرهمين فلعل مساس الحاجة إليها، أو توقع رواجها يجبر هذا الغبن. ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا﴾ إنكار لتسويتهم وإبطال القياس بمعارضة النص. ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فمن بلغه وَعْظ من الله تعالى وزجر كالنهي عن الربا[2]. ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ فاتعظ وتبع النهي. ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ تقدم أخذه التحريم ولا يسترد منه، وما في موضع الرفع بالظرف إن جعلت مَنْ موصولة، وبالابتداء إن جعلت شرطية على رأي سيبويه إذ الظرف غير معتمد على ما قبله. ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان من قبول الموعظة وصدق النية. وقيل يحكم في شأنه ولا اعتراض لكم عليه. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا، إذ الكلام فيه. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم كفروا به.

---

(١) قول البيضاوي: وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع.. وقوله: وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجني يمسه فيختلط عقله...

وهي مسألة اعتزالية خالف فيها المعتزلةُ أهلَ السنة، وهي: هل للشياطين أثر على الإنسان من حيث المسّ والصرع بما يتأثر فيه جسمه وعقله؟

فالمعتزلة ينكرون قدرة الشيطان على المسّ والصرع، وقالوا بأن الآية واردة على ما يزعمه العرب ويعتقدونه من أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع وأن الجنيّ يمسه فيختلط عقله. ونسب الألوسي ذلك إلى القفال من الشافعية... (انظر الكشاف للزمخشري ١/ ١٦٥ وتبعه البيضاوي وكذا أبو السعود ١/ ٢٦٦).

أما أهل السنة فيرون أن للشيطان القدرة على الصرع وللجني القدرة على المسّ. وقد دلت الأحاديث صراحة على ذلك. وتأثيرهم على من يستكين بأوهامه وتخيلاته لسلطانهم، أو يتعرض لتقبل مسهم وتخبطاتهم باستعاذته بهم والتماسه نفعهم، أو استخدامهم للإضرار بأعدائه من إخوانه من الإنس، أو يغفل عن ذكر الله وتلاوة القرآن ويتجافى عن التحصن بالأوراد والاستعاذات المأثورة.

(انظر روح المعاني للألوسي ٣/ ٤٩ والعقيدة الإسلامية لعبدالرحمن حبنكة ص٢٨٩).

(٢) «من ربه» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجيء الموعظة للتربية (أبو السعود ١/ ٢٦٦).

يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

(٢٧٦) ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه. ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه، وعنه عليه الصلاة والسلام «إن الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربي أحدكم مهرَه»[١]. وعنه عليه الصلاة والسلام «ما نقصت زكاة من مال قط»[٢]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ لا يرضى ولا يحب محبته للتوابين. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مُصرّ على تحليل المحرمات. ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في ارتكابه.

(٢٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم منه. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عَطَفَهُمَا على ما يعمّهما لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من آت. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فائت.

(٢٧٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بقلوبكم فإن دليله امتثال ما أُمِرتم به. روي: أنه كان لثَقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. فنزلت[٣].

---

(١) أخرج البخاري (٣/٢٧٨ رقم ١٤١٠) و(١٣/٤١٥ رقم ٧٤٣٠) ومسلم (٢/٧٠٢ رقم ٦٣، ٦٤/١٠١٤) والترمذي (٣/٤٩ ـ ٥٠ رقم ٦٦١ و٦٦٢) والنسائي (٥/٥٧ رقم ٢٥٢٥) وابن ماجة (١/٥٩٠ رقم ٨٨٢) والدارمي (١/٣٩٥) ومالك (٢/٩٩٥ رقم ١) وأحمد في المسند (٢/٢٦٨، ٣٣١، ٣٨٢، ٤٠٤، ٤١٨، ٤١٩، ٤٣١، ٤٧١، ٥٣٨، ٥٤١).
كلهم من طرق عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدَّق بعَدْلِ تمرةٍ من كسبٍ طيّبٍ ـ ولا يقبل الله إلاّ الطيِّب ـ فإن الله يتقبَّلُها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبهِ كما يربِّي أحدُكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل».

(٢) أخرج أحمد في المسند (١/١٩٣) عن عبدالرحمن بن عوف قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث والذي نفس محمد بيده إن كنت لحالفاً عليهن، لا ينقصُ مالٌ من صدقة فتصدقوا، ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها ـ وقال أبو سعيد مولى بني هاشم ـ إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا يفتح عند باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر».
● وأخرج أحمد أيضاً في المسند (٤/٢٣١) عن أبي كبشة الأنماري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: فأما الثلاث الذي أقسم عليهن فإنه ما نقص مال عبد صدقة، ولا ظلم عبد بمظلمة فيصبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزاً ولا يفتح باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي احدثكم حديثاً فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر...» الحديث.
● وأخرج مسلم (٤/٢٠٠١ رقم ٦٩/ ٢٥٨٨) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مالٍ، ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاَّ عزاً. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/١٠٦) عن السدي وفي إسناده «موسى بن هارون» وقد أخذ التفسير عن كتاب فأرسله عن عمرو بن حماد. =

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

(٢٧٩) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا عَلِم به، وقرأ حمزة وعاصم في رواية ابن عياش فآذنوا أي فأعلموا بها غيركم، من الأَذَن وهو الاستماع فإنه من طرق العلم. وتنكير حرب للتعظيم وذلك يقتضي أن يُقاتَلَ المُرْبي بعد الاستتابة حتى يفيء إلى أمر الله، كالباغي، ولا يقتضي كفره. روي: أنها لما نزلت قالت ثَقيف لا يَدْيَ لنا بحرب الله ورسوله[1]. ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء واعتقاد حِلّه. ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالمطل والنقصاق، ويُفْهم منه أنهم إن لم يتوبوا فليس لهم رأس مالهم وهو سديد على ما قلناه، إذ المصرّ على التحليل مرتدّ وماله فيء.

(٢٨٠) ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم ذو عسرة. وقرىء ذا عسْرة أي وإن كان الغريم ذا عسرة. ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكمُ نظِرة، أو فعليكم نَظِرة، أو فليكن نظرة وهي الإنظار. وقرىء فَنَاظِرُه على الخبر أي فالمستحق ناظِرُه بمعنى منتظره أو صاحب نظرته على طريق النّسب، وفَنَاظِرْهُ على الأمْر أي فسامِحْه بالنظرة. ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار، وقرأ نافع وحمزة بضم السين، وهما لغتان كمَشْرَقة ومَشْرُقة. وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

وأَخْلَفُوكَ عَدَ الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾ بالإبراء. وقرأ عاصم بتخفيف الصاد. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أكثر ثواباً من الإنظار، أو خير مما تأخذون لمضاعفة ثوابه ودوامه. وقيل: المراد بالتصدق الإنظار لقوله عليه الصلاة والسلام «لا يَحِلُّ دَيْنُ رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»[2] ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما فيه من الذكر

= وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/١٠٧) عن ابن جريج، وفي إسناده «سنيد» وهو ضعيف.
وأخرجه أبو يعلى ـ كما في المجمع (٤/١١٩ ـ ١٢٠) ـ عن ابن عباس في سياق أطول وقال الهيثمي: فيه «محمد بن السائب الكلبي» وهو كذاب.

(١) أي لا قوة ولا قدرة لنا بحرب الله ورسوله.

(٢) أخرج أحمد في المسند (٤/٤٤٣) والطبراني في الكبير (١٨/٢٤٠ رقم ٦٠٣) كلاهما من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش، عن أبي داود ـ الأعمى ـ عن عمران بن حُصين ولفظ أحمد «من كان له على رجل حقٌّ فمن أخّره كان له بكل يوم صدقة».
ولفظ الطبراني «إذا كان للرجل على رجل حق فأخره إلى أجله كان له صدقة، فإن أخره بعد أجله كان له بكل يوم صدقة». وأبو داود الأعمى كذاب.
● وأخرج أحمد في المسند (٥/٣٦٠) والحاكم في المستدرك (٢/٢٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٥/٣٥٧) وأبو نعيم في أخبار أصفهان (٢/٢٨٦).
كلهم من رواية عبدالوارث، عن محمد بن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ =

الجميل والأجر الجزيل.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

(٢٨١) ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه. وقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم[١]. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما عملت من خير أو شر[٢] ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة[٣] وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً وقيل أحداً وثمانين يوماً. وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة ساعات.

= يقول: «من أنظر مُعْسِراً فله بكل يوم صدقة قبل أن يحِلَّ الدَّيْن فإذا حلَّ الدَّيْنُ فأَنْظَره بعد ذلك فله بكل يومٍ مثله صدقه». قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: إنما هو على شرط مسلم وحده، لأن سليمان بن بريدة لم يخرج له البخاري شيئاً، وإنما أخرج هو ومسلم لأخيه «عبدالله بن بريدة».
والحديث صححه الألباني في الإرواء (رقم: ١٤٣٨) والصحيحة (رقم: ٨٦).
● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ١٥١ رقم ١١٣٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من أنظر مُعْسِراً إلى مَيْسَرَته أنظره الله بذنبه إلى توبته».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٣٥) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه الحكم بن الجارود ضعفه الأزدي وشيخ الحكم وشيخ شيخه لم أعرفهما.
● وأخرج البخاري (٤/ ٣٠٧ رقم ٢٠٧٧) و(٥/ ٥٨ رقم ٢٣٩١) و(٦/ ٤٩٤ رقم ٣٤٥١) ومسلم (٣/ ١١٩٤ رقم ٢٦/ ١٥٦٠) كلاهما من حديث حذيفة مرفوعاً «تلقَّت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا: أَعَمِلْت من الخير شيئاً؟ قال: كنت أداين الناس فآمر فتياني أَن يُنظروا المُعْسِر، ويتجوَّزوا عن الموسر، قال: قال الله عز وجل: تجوّزوا عنه».

(١) تنكير اليوم للتفخيم والتهويل، وتعليق الاتقاء به للمبالغة في التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال (أبو السعود ١/ ٢٦٨).

(٢) وتعميم التوفية لكل نفس للمبالغة في تهويل اليوم.. (أبو السعود ١/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٣٧) والطبراني ـ كما في «المجمع» (٦/ ٣٢٤) ـ بإسناد رجال أحدهما ثقات وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١١٦) وقال: أخرجه أبو عبيد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه... من طرق عن ابن عباس وهو حديث صحيح. وأخرج ابن أبي شيبة عن السدي وعطية العوفي، مثله. وأخرج ابن الأنباري عن أبي صالح وسعيد بن جبير. مثله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۖ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

(٢٨٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي إذا داين بعضكم بعضاً، تقول: دايته إذا عاملته نسيئة معطياً أو آخذاً. وفائدة ذِكْرِ الدين أن لا يُتوهم من التداين المجازاة، ويُعْلم تنوعه إلى المؤجل والحالّ، وأنه الباعث على الكتبة ويكون مرجع ضمير فاكتبوه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم الأيام والأشهر لا بالحصاد وقدوم الحاج. ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ لأنه أوثق وأدفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلم[1]. ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ مَنْ يكتب السوية لا يزيد ولا ينقص، وهو في الحقيقة أمر للمتداينَيْن باختيار كاتب فقيه ديِّن حتى يجيء مكتوبَهُ موثوقاً به معدّلاً بالشرع[2]. ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع أحد من الكتاب. ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ مثل ما علمه الله من كتبة الوثائق، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها كقوله ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[3]. ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة المُعْلَمة. أَمَرَ بها بعد النهي عن الإباء عنها تأكيداً، ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر فيكون النهي عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة. ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ وليكن المملي مَنْ عليه الحق لأنه المُقِرُّ المشهودُ عليه، والإملال والإملاء واحد. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي المملي، أو

(١) أخرج الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٠٥ رقم ١٢٩٠٣) والحاكم (٢/ ٢٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٨) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ١١٦ ـ ١١٧).
كلهم من طرق عن قتادة، عن أبي حسان الأعرج أن ابن عباس سئل عن السلف، فقال: أشهد أن الله أحله، وأنزل فيه أطول آية في كتاب الله «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه».
قال الحاكم: صحيح على شرطهما، وقال الذهبي: إبراهيم بن بشار الرمادي، عن ابن عينية.
قلت لم ينفرد به إبراهيم، فله طرق أخرى عند غير الحاكم لكنه ليس من رجال الشيخين.
وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (رقم: ١٣٦٩).

(٢) وحذف المفعول إما لتعينه أو للقصد إلى إيقاع نفس الفعل أي ليفعل الكتابة.
وقوله تعالى «بينكم» للإيذان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفي بكلام أحدهما (أبو السعود ١/ ٢٦٩).

(٣) القصص: «٧٧».

الكاتب[١] . ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾ ولا ينقص. ﴿مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي من الحق، أو مما أُملي عليه[٢] . ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ ناقص العقل مبذراً. ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ صبياً أو شيخاً مختلاً. ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ أو غير مستطيع للإملال بنفسه لخرس أو جهل باللغة. ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي الذي يلي أمره ويقوم مقامه من قَيِّم إن كان صبياً أو مختل العقل، أو وكيل أو مترجم إن كان غير مستطيع. وهو دليل جَرَيان النيابة في الإقرار، ولعله مخصوص بما تعاطاه القيِّم أو الوكيل. ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان. ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ من رجال المسلمين، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود وإليه ذهب عامة العلماء وقال أبو حنيفة: تقبل شهادة الكفار بعضهم على بعض. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين. ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ فليشهد أو فليُسْتَشهد رجل وامرأتان، وهذا مخصوص بالأموال عندنا وبما عدا الحدود والقصاص عند أبي حنيفة . ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ لعلمكم بعدالتهم[٣] . ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ عِلَّةُ اعتبار العدد أي لأجل أنّ إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتها ذكرتها الأخرى، والعلةُ في الحقيقة التذكير ولكن لما كان الضَّلال سبباً له نُزِّل منزلتَه كقولهم: أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه، وكأنه قيل: إرادةَ أن تُذَكِّر إحداهما الأخرى إن ضلت، وفيه إشعار بنُقصان عقلهن وقلة ضبطهن. وقرأ حمزة إن تضلّ على الشرط فتُذَكِّرُ بالرفع. وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب فَتُذْكِرَ من الإذكار[٤] . ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ لأداء الشهادة أو التحمل، وسموا شهداء قبل التحمُّل تنزيلاً لما يشارِف منزلة الواقع، وما مزيدةٌ. ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ﴾ ولا تَمَلُّوا من كثرة مداياتكم أن تكتبوا الدين أو الحق أو الكتاب. وقيل كنّى بالسأم عن الكسل لأنه صفة المنافق، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لا يقول المؤمن كسلت»[٥] ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ صغيراً كان الحق أو كبيراً، أو مختصراً كان الكتاب أو مُشْبِعاً. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المَدْيون.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى أن تكتبوه. ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أكثر قسطاً. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها، وهما مبنيان من أقسط وأقام على غير قياس، أو من قاسَطَ بمعنى ذي قسط وقويم، وإنما صحت الواو في أقوَمُ كما صحت في التعجب لجموده. ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ وأقرب في أن لا تشكوا في جنس الدين وقَدْرِه وأَجَلِه والشهودِ ونحو ذلك. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ استثناء من الأمر بالكتابة. والتجارةُ الحاضرة تعمّ المبايعة بدين أو عين، وإدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد أي: إلا أن تتبايعوا يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوا، لبُعده عن التنازع

---

(١) جمع بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة في التحذير (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٢) شدد القرآن في تكليف المملي حيث جمع بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس لما فيه من الدواعي إلى المنهي عنه، فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٣) قوله «ممن ترضون» تخصيصهم بالوصف المذكور مع أن اعتباره ينبغي أن يكون في كل شهيد وذلك لقلة اتصاف النساء به (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٤) ولعل إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى لتأكيد الإبهام والمبالغة في الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال بإحداهما بعينها والتذكير بالأخرى (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٥) لم أقف عليه.

والنسيان. ونصب عاصم تجارة على أنه الخبر والاسم مضْمَر تقديره إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كقوله:

بني أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بَلاَءَنَا إِذَا كَانَ يَوْماً ذَا كَوَاكِبَ أَشْنَعَا

ورَفَعَها الباقون على أنها الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة. ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذا التبايع، أو مطلقاً لأنه أحوط. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة. وقيل: إنها للوجوب ثم اختُلف في إحكامِها ونسخها. ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يَحْتمل البناءين، ويدل عليه أنه قرىء ولا يضار بالكسر والفتح. وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتحريف والتغيير في الكَتْب والشهادة، أو النهي عن الضرار بهما مثل أن يُعَجِّلا عن مهم ويُكَلَّفا الخروج عما حُدَّ لهما، ولا يُعطى الكاتب جَعْله، والشهيد مؤنة مجيئه حيث كان. ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ الضرار أو ما نهيتم عنه. ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ خروج عن الطاعة لا حق بكم. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ كرر لفظة «الله» في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه. ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

(٢٨٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي مسافرين. ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ فالذي يُسْتَوثقُ به رهان، أو فعليكم رهان، أو فليؤخذ رهان. وليس هذا التعليق لاشتراط السفر في الارتهان كما ظنه مجاهد[١] والضحاك[٢] رحمهما الله تعالى لأنه عليه السلام رَهَنَ درعه في المدينة من يهودي على عشرين صاعاً من شعير أخذه لأهله[٣]، بل لإقامة التوثق للارتهان مقام التوثق بالكتابة في السفر الذي

---

(١) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي إمام في التفسير، ولد في مكة، وسمع عائشة وأبا هريرة، وعبدالله بن عمرو، وعبدالله بن عباس، وكان أقل أصحابه رواية عنه في التفسير ولكنه أوثقهم. قال: قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، أقف عند كل آية أسأله: فيما نزلت وكيف كانت؟ وهو أحد القائلين بالمذهب العقلي في تفسير القرآن. تنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة. قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبُك به» وقال الذهبي: «أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به» وله تفسير اعتمد عليه الشافعي والبخاري وغيرهما. مات سنة (١٠٤هـ).
[معجم المفسرين لنويهض (٢/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣) والتفسير والمفسرون للذهبي (١/ ١٠٦ ـ ١٠٩)].

(٢) الضحاك: هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم ويقال أبو محمد الخراساني كان معلماً مرموق المكانة، ومفسراً مشهوراً. توفي سنة ١٠٥ وقيل غير ذلك.
[تهذيب التهذيب (٤/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) والميزان (٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦)].

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ٣٠٢ رقم ٢٠٦٨) و(٤/ ٣١٩ رقم ٢٠٩٦) و(٤/ ٣٩٩ رقم ٢٢٠٠) و(٤/ ٤٣٣ رقم ٢٢٥٢) و(٥/ ٥٣ رقم ٢٣٨٦) و(٥/ ١٤٢ رقم ٢٥٠٩) و(٦/ ٩٩ رقم ٢٩١٦) و(٨/ ١٥١ رقم ٤٤٦٧) ومسلم (٣/ ١٢٢٦ =

هو مظنة إعوازها. والجمهور على اعتبار القبض فيه غير مالك. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فَرُهُن كسُقُف وكلاهما جمعُ رهنٍ بمعنى مرهون، وقرىء بإسكان الهاء على التخفيف. ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي بعضُ الدائنين بعضَ المديونين واستغنى بأمانته عن الارتهان. ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ﴾ أي دينه، سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به. وقرىء الذي ايتُمِن بقلب الهمزة ياء، والذي ائْمِنَ بإدغام الياء في التاء وهو خطأ لأن المنقلبة عن الهمزة في حكمها فلا تدغم[1]. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في الخيانة وإنكار الحق وفيه مبالغات[2]. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾ أيها الشهود، أو المدينون والشهادة شهادتهم على أنفسهم. ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي يأثم قلبه أو قلبه يأثم. والجملة خبر إنّ. وإسنادُ الإثم إلى القلب لأن الكتمان مقترَفُه، ونظيرُه: العين زانية والأُذُن زانية، أو للمبالغة فإنه رئيس الأعضاء وأفعالُه أعظم الأفعال، وكأنه قيل: تمكن الإثم في نفسه وأخذ أشرف أجزائه وفاقَ سائر ذنوبه. وقرىء قَلْبَه بالنصب كحسنٌ وجهَه. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تهديد.

لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

(٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني ما فيها من السوء والعزم عليه لترتب المغفرة والعذاب عليه. ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة. وهو حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض[3]. ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مغفرته. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه، وهو صريح في نفي وجوب التعذيب. وقد رفَعَهُما ابن عامر وعاصم ويعقوب على الاستئناف، وجَزَمَهُما الباقون عطفاً على جواب الشرط، ومن جزم بغير فاء جعلهما بدلاً منه بدل البعض من الكلّ أو الاشتمال كقوله:

متَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بنَا فِي دِيَارِنَا تجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا

وإدغام الراء في اللام لحْن إذ الراء لا تدغم إلا في مثلها. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإحياء والمحاسبة[4].

= رقم ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦/١٦٠٣) والنسائي (٧/ ٢٨٨ رقم ٤٦٠٩) من حديث عائشة.

● وأخرجه البخاري (٤/ ٣٠٢ رقم ٢٠٦٨) و(٥/ ١٤٠ رقم ٢٥٠٨) والنسائي (٧/ ٢٨٨ رقم ٤٦١٠) من حديث أنس.

(١) وقد أورد الألوسي قبول البعض لما رده البيضاوي (روح المعاني ٣/ ٦٣).

(٢) وفي الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالا يخفى (أبو السعود ١/ ٢٧٢).

(٣) الروافض: سُمُّوا بالرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر ـ وقيل لرفضهم زيد بن علي رضي الله عنه عندما أنكر عليهم الطعن في أبي بكر وعمر ـ، ومنعهم من ذلك فرفضوه فقال لهم زيد: رفضتموني؟ قالوا: نعم فبقى عليهم هذا الإسم. وأجمعت الرافضة على إثبات الإمامة عقلاً، وأن إمامة علي وتقديمه ثابت نصاً وأن الأئمة معصومون، وقالوا: إن الأمة ارتدت بتركها إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلى غير ذلك من الأقوال الفاسدة. وهم أربع وعشرون فرقة.

(٤) حصل إشكال كبير في فهم هذه الآية، حتى إنه أشكل على الصحابة أنفسهم. =

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

(٢٨٥) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ شهادة وتنصيص من الله تعالى على صحة إيمانه والاعتداد به، وإنه جازم في أمره غير شاك فيه [١]. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ لا يخلو من أن يُعْطَفَ المؤمنون على الرسول فيكونَ الضمير الذي ينوب عنه التنوين راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أو يُجْعَلَ مبتدأ فيكونَ الضمير للمؤمنين، وباعتباره يَصح وقوعُ كلٌّ بخبره خبرَ المبتدأ، ويكونُ إفرادُ الرسول بالحكم إمّا لتعظيمه أو لأن إيمانه عن مشاهدة وعيان وإيمانهم عن نظر واستدلال. وقرأ حمزة والكسائي: وكتابَه يعني القرآن أو الجنس. والفرقُ بينه وبين الجمع أنه شائع في وُحْدان الجنسِ والجمع في جموعه، ولذلك قيل: الكتاب أكثر من الكتب [٢]. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي يقولون لا نفرق. وقرأ يعقوب لا يُفَرِّقُ بالياء، على أن الفعلَ لكلٌّ، وقرىء لا يُفَرِّقُون حملاً على معناه كقوله تعالى ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [٣] واحد في معنى الجمع لوقوعه في سياق النفي كقوله تعالى ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [٤] ولذلك دخل عليه بين، والمراد نفي الفرق بالتصديق والتكذيب ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ أجبنا. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك. ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ اغفر لنا غفرانك، أو نطلب غفرانك [٥].

= إلا أن نص الآية يفيد أن الله تعالى يحاسب على ما تخفيه وما تظهره النفس، إلا أنه يغفر حديث النفس، ويؤيده قوله عليه السلام: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، مالم تتكلم أو تعمل به».
ورجح الشوكاني في فتح القدير (١/ ٣٠٥) بأن الآية منسوخة.
ولعل الأول أولى وهو اختيار الألوسي فانظر أدلته وسبب اختياره في ذلك (روح المعاني ٣/ ٦٤).
وفي الآية لفَتات بيانية: حيث قدم الجار والمجرور على الفاعل في قوله «يحاسبكم به الله» وذلك للاعتناء به.
وقدم الإبداء على الإخفاء بخلاف قوله تعالى: «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله» ـ آل عمران: ٢٩ ـ فلما أن المعلق بما في أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصل فيها الأعمال الظاهرة، أما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية.. كما أن مرتبة الإخفاء مقدمة على مرتبة الإبداء (أبو السعود ١/ ٢٧٣).

(١) قوله «من ربه» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وتنبيه على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له عليه السلام (أبو السعود ١/ ٢٧٤).

(٢) وتغيير النظم عن سابقه لبيان التفاوت بين إيمانه عليه السلام وإيمانهم.
وفيه نوع تفصيل لما أجمل في سابقه وذلك لبيان الكفاية في الإيمان الإجمالي إن لم يوجد ما يخالفه (أبو السعود ١/ ٢٧٤).

(٣) النمل: «٨٧».

(٤) الحاقة: «٤٧».

(٥) قدم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لأن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول. =

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع بعد الموت وهو إقرار منهم بالبعث.

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تسعه قدرتُها فضلاً ورحمةً، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوْقها ويتيسر عليها كقوله تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1] وهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمِحَال ولا يدل على امتناعه. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير. ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من شر لا يَنتفع بطاعتها ولا يتَضرر بمعاصيها غيرُها. وتخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشر لأن الاكتساب فيه احتمال والشرّ تشتهيه النفس وتنجذب إليه فكانت أجدَّ في تحصيله وأَعْمَلَ بخلاف الخير. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي لا تؤاخذنا بما أدّى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط وقلة مبالاة، أو بأنفسهما إذ لا تَمْتنع المؤاخذة بهما عقلاً فإن الذنوب كالسموم فكما أن تناولها يؤدي إلى الهلاك ـ وإن كان خطأ ـ فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضيَ إلى العقاب وإن لم تكن عزيمة، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمةً وفضلاً فيجوزُ أن يدعوَ الإنسان به استدامةً واعتداداً بالنعمة فيه، ويؤيد ذلك مفهوم قوله عليه الصلاة والسلام «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»[2]. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ

= والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للمبالغة في التضرع والجُوار (أبو السعود ١/ ٢٧٦).

(١) البقرة: «١٨٥».

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٦/ ٢٥٠) ـ لكن بلفظ: «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وقال الألباني في الإرواء (رقم: ٨٢) الحديث بلفظ «رفع عن أمتي...» منكر.

● وله شاهد من حديث ابن عباس:

أخرجه ابن ماجة (١/ ٦٥٩ رقم ٢٠٤٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٥٧) من رواية عطاء بن أبي رباح عنه، بلفظ «إن الله تجاوز عن أمتي...».

قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٥٣): «إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع ـ والظاهر أنه منقطع بين عطاء وابن عباس بدليل زيادة «عبيد بن عمير» في الطريق ـ وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد ابن مسلم، فإنه كان يدلس تدليس التسوية» هـ.

● والطريق التي أشار إليها البوصيري، أخرجه ابن حبان في الموارد رقم (١٤٩٨) والدارقطني (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١) والحاكم (٢/ ١٩٨) وابن حزم في أصول الأحكام (٥/ ١٤٩) كلهم من طريق الأوزاعي، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبيد بن عمير، عنه، بلفظ «تجاوز...».

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وقال الألباني احتج به ابن حزم، وصححه الشيخ أحمد شاكر ـ محقق المُحلّى ـ وصححه الألباني لكن أعله أبو حاتم في العلل (١/ ٤٣١) بدعوى أن الأوزاعي لم يسمعه عن عطاء، إنما سمعه من رجل لم يسمه.

ورده الألباني فقال: إن الأوزاعي ثقة. بل إمام جليل، فلا يجوز تضعيف حديث الثقة لا سيما إذا كان مثل الأوزاعي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٣٣ رقم ١١٢٧٤) من طريق مسلم بن خالد الزنجي عن سعيد العلاف، عنه. ومسلم الزنجي، وسعيد العلاف كلاهما ضعيفان.

● وأخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٩٢١) في ترجمة عبدالرحيم بن زيد العمي، بلفظ «عفا لي، أو غفر لي...» والعمى ضعيف.

● وله شاهد من حديث أبي ذر، وثوبان، وابن عمر، وأبي بكرة كلها فيها كلام تكلم عليها ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» رقم (٣٩). =

﴿عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عبأ ثقيلاً يأصِر صاحبه أي يحبسه في مكانه، يريد به التكاليف الشاقة. وقرىء ولا تُحَمِّل بالتشديد للمبالغة. ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ حَمْلاً مثل حَمْلك إياه على من قبلنا، أو مثل الذي حمّلته إياهم فيكون صفة لإصراً. والمراد به ما كُلف به بنو إسرائيل من قتل الأنفس وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة في اليوم والليلة وصرف ربع المال للزكاة، أو ما أصابهم من الشدائد والمحن. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء والعقوبة، أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية، وهو يدل على جواز التكليف بما لا يُطاق وإلا لما سئل التخلص منه، والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى المفعول الثاني. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة. ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ وتَعَطّف بنا وتفضل علينا. ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيدنا. ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، أو المراد به عامة الكفرة.

روي أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة فعلت[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام «أنزل الله تعالى آيتين من كنوز الجنة، كتبها الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل»[2]. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ

= وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة رقم (٥٢٨). وقال: «ومجموع هذه الطرق تُظْهر أن للحديث أصلاً. . . . وقد صحح ابن حبان والحاكم وغيرهما هذا الخبر كما أشرت إليه، وقال النووي في الروضة وفي الأربعين: إنه حسن. . .» هـ.

وخلاصة القول: إن الحديث حسن والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (١/ ١١٦ رقم ٢٠٠/ ١٢٦) والطبري في «جامع البيان» (٣/ ١٤٣ ـ ١٤٤) والترمذي (٥/ ٢٢١ رقم ٢٩٩٢) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٣٩٢) ـ والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٢١٠ ـ ٢١١). من حديث ابن عباس. وغفل الحاكم فاستدركه في المستدرك (٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧).

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٥٤٥) من حديث أبي مسعود الأنصاري وفي إسناده الوليد بن عباد، قال عنه ابن عدي: ليس من المعروفين. وأبان بن أبي سلمة عياش وهو متروك.

● قلت: أخرج الترمذي (٥/ ١٥٩ ـ ١٦٠ رقم ٢٨٨٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٩٦٧) والدارمي (٢/ ٤٤٩) وأحمد (٤/ ٢٧٤) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٢).

من حديث النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان.

وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرج الطبراني في الكبير (٧/ ٣٤٢ رقم ٧١٤٦) من حديث شداد بن أوس مثل حديث النعمان بن بشير المتقدم.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣١٢) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٣٨) وقال: أخرجه الطبراني بسند جيد.

● وأخرج أحمد (٥/ ٣٨٣) والطبراني في الكبير (٣/ ١٨٨ رقم ٣٠٢٥) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٦٠ رقم ٢٣٩٩) وفي دلائل النبوة (٥/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥) كلهم من طريق ربعي بن حراش عن حذيفة عن النبي ﷺ. قال: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣١٢، ٣٢٤): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال=

الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[١]. وهو يرد قول من استكْرَه أن يقال سورة البقرة، وقال: ينبغي أن يقال السورة التي تذكر فيها البقرة، كما قال عليه الصلاة والسلام «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة وتركها حسرة، ولن يستطيعها البَطَلَة قيل: يا رسول الله وما البطلة؟ قال: السحرة»[٢].

☆ ☆ ☆

= الصحيح» هـ.

● وأخرج مسلم (١/ ٣٧١ رقم ٤/ ٥٢٢) من هذا الوجه قال: قال النبي ﷺ «فضلنا على الناس بثلاث: جُعِلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتُها لنا طَهوراً إذا لم نجد الماء» وذكر خصلةً أخرى، قلت: هذه الخصلة: «أعطيت خواتيم البقرة من كنز تحت العرش». فقد قال الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٣): أخرج مسلم حديث أبي مالك الأشجعي عن ربعي بن حراش عن حذيفة، فذكره.

● وأخرج ابن الفريس في «فضائل القرآن» رقم (١٧٤) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة، عن علقمة ـ عن أبي مسعود البدري قوله «من قرأ خاتمة سورة البقرة في ليلة أجزأت عنه عن قيام الليل» ـ.

قلت: ولعل هذا هو الأشبه أي الموقوف فجعله أبان بن عياش مرفوعاً.

لكن يشهد له الحديث الآتي في التعليقة التالية.

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٣١٧ رقم ٤٠٠٨) و(٩/ ٥٥ رقم ٥٠٠٨، ٥٠٠٩) و(٩/ ٨٧ رقم ٥٠٤٠) و(٩/ ٩٤ رقم ٥٠٥١) ومسلم (١/ ٥٥٤ رقم ٨٠٧/٢٥٥) وأبو داود (٢/ ١١٨ رقم ١٣٩٧) والترمذي (٥/ ١٥٩ رقم ٢٨٨١) والنسائي في «فضائل القرآن» رقم (٤٣، ٤٤، ٤٥) وفي عمل اليوم والليلة رقم (٧١٨ و٧١٩ و٧٢٠ و٧٢١) وابن ماجة (١/ ٤٣٥ رقم ١٣٦٩) والدارمي (٢/ ٤٥٠) كلهم من رواية عبدالرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود. وفي بعض الطرق عن عبدالرحمن بن يزيد، عن علقمة عنه، ثم قال عبدالرحمن: ثم لقيته وهو يطوف بالبيت فحدثنيه».

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد الخدري ـ كما في الجامع الصغير رقم (٤٨٤١). وقال المناوي: فيه إسماعيل بن أبي زياد الشامي. قال الذهبي، قال الدارقطني: يضع الحديث. وأورده الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٢٤٢ رقم ٣٣٦٥) وحكم عليه بالوضع.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥١) وكذلك الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٢/ ٣٤٤ رقم ٣٥٥٩).

● وأخرج الحديث مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٣ رقم ٨٠٤/٢٥٢) من حديث أبي أمامة مرفوعاً «اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركةٌ، وتركها حَسْرَةٌ، ولا تستطيعُها البطلَةُ». قال معاوية: بلغني أن البطلةَ السحرةُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

(١) ﴿الٓمٓ﴾.

(٢) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إنما فَتَحَ الميمَ في المشهور ـ وكان حقها أن يوقف عليها لإلقاء حركة الهمزة عليها ـ ليدلّ على أنها في حكم الثابت لأنها أسقطت للتخفيف لا للدّرج، فإن الميم في حكم الوقف كقولهم واحدٌ اثنان بإلقاء حركة الهمزة على الدالِ لا لالتقاء الساكنين فإنه غير محذور في باب الوقف، ولذلك لم تحرك الميم في لام. وقرىء بكسرها على توهم التحريك لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو بكر بسكونها والابتداء بما بعدها على الأصل. ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1] روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور في البقرة الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي آل عمران الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي طه وعنت الوجوه للحي القيوم»[2].

---

(١) الحيّ: الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، والقيوم: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. ومن ضرورة اختصاص هذين الوصفين به تعالى استحقاق المعبودية به تعالى (س٢/ ٢).

(٢) أخرج الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٢ رقم ٧٩٢٥) من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ «اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ في ثلاث سُوَر من القرآن في البَقَرَةَ وآل عِمْران وطه». وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٦٣). والحاكم (١/ ٥٠٦) كلهم من طريق الوليد بن مسلم، عن عبدالله بن العلاء بن زبر، عن أبي القاسم عنه.

وأخرجه الطبراني في الكبير أيضاً (٨/ ٢١٤ ـ ٢١٥ رقم ٧٧٥٨) وابن ماجة (٢/ ١٢٦٧ رقم ٣٨٥٦) من طريق عمرو بن أبي سلمة عن عيسى بن موسى عن غيلان بن أنس عن القاسم عنه. =

(٣) ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن نُجُوماً. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، أو بالصدق في أخباره، أو بالحجج المحققة أنه من عند الله، وهو في موضع الحال[1]. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب. ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ جُمْلةً على موسى وعيسى. واشتقاقهما من الوَرى والنَّجْل، ووزنُهما بتَفْعِلَة وإفْعِيل تعسّفٌ لأنهما أعجميان، ويؤيد ذلك أنه قرىء الأنجيل بفتح الهمزة وهو ليس من أبنية العربية، وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي التوراة بالإمالة في جميع القرآن، ونافعُ وحمزةُ بين اللفظين إلا قالون فإنه قرأ بالفتح كقراءة الباقين.

(٤) ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل تنزيل القرآن. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ على العموم إن قلنا إنا متعبدون بشرع مَنْ قبلنا، وإلا فالمراد به قومهما. ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يريد به جنسَ الكتب الإلهية، فإنّها فارقة بين الحق والباطل. ذُكِرَ ذلك بعد ذكر الكتب الثلاثة ليعمّ ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل، أو الزبور أو القرآن. وكُرِّر ذكره بما هو نعت له مدحاً وتعظيماً وإظهاراً لفضله من حيث إنه يشاركهما في كونه وحياً مُنَزّلاً ويتميز بأنه معجز يفرّق بين المحق والمبطل، أو المعجزات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم[2]. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنَّقْمةُ عقوبة المجرم، والفعل منه نَقِمَ بالفتح والكسر، وهو وعيد جيء به بعد تقرير التوحيد والإشارة إلى ما هو العمدة في إثبات النبوة تعظيماً للأمر وزجراً عن الإعراض عنه.

(٥) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أيُّ شيء كائن في العالم كلياً كان أو جزئياً إيماناً أو كفراً، فعبّر عنه بالسماء والأرض إذِ الحِسّ لا يتجاوزُهما. وإنما قَدَّم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها، وهو كالدليل على كونه حياً.

(٦) وقولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي من الصور المختلفة، كالدليل على القيومية والاستدلال على أنه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره. وقرىء تَصَوَّرَكم أي صوركم

= ● وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد:

أخرج أبو داود (٢/١٦٨ رقم ١٤٩٦) والترمذي (٥/٥١٧ رقم ٣٤٧٨) وابن ماجة (٢/١٢٦٧ رقم ٣٨٥٥) كلهم من طريق عبيدالله بن أبي زياد، عن شهر بن حوشب، عنها عن النبي ﷺ: قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين «وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمٰن الرحيم» [البقرة: ١٦٣] وفاتحة آل عمران «آلمَ اللهُ لا إله إلا هو الحيُّ القيوم» وأخرجه أحمد(٦ـ٤٦١) من هذا الوجه لكن عنده قال في هاتين الآيتين:(اللَّهُ لا إله إلا هو الحي القيوم) و«آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم»: إن فيها اسم الله الأعظم.

قال الترمذي: حسن صحيح. قلت: لعله نظراً إلى شاهده المذكور من حديث أبي أمامة، وإلا ففيه «عبيدالله بن أبي زياد القداح» ليس بالقوي [التقريب: ١/٥٣٣].

وشهْر بن حوشب: ليس بالقوي أيضاً [الضعفاء والمتروكين للنساء (رقم: ٣١٠)].

وحسن الألباني حديث أسماء بنت يزيد، وحديث أبي أمامة وانظر «الصحيحة» رقم: (٧٤٦) وصحيح أبي داود.

(١) وصيغة التفعيل في «نزّل» للدلالة على التنجيم.

وتقديم الظرف «عليك» على المفعول «الكتاب» للاعتناء بالمقدم والتشويق للمؤخر (س ٢/٤).

(٢) التنوين في عذاب للتفخيم.

لنفسه وعبادته. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يَعْلمُ غيرُه جملةَ ما يَعْلمُه ولا يقْدِر على مثل ما يفعله. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إشارة إلى كمال قدرته وتناهي حكمته. قيل: هذا حِجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، فإن وفد نجران لما حاجّوا فيه رسول الله ﷺ نزلت السورة من أولها إلى نَيِّف وثمانين آية تقريراً لما احتَجَّ به عليهم وأجاب عن شبههم.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

(٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أُحكمت عبارتها بأن حُفِظت من الإجمال والاحتمال. ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصْلُهُ يُرد إليها غيرها. والقياسُ أمهاتُ فأُفرد على تأويل كل واحدة، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ محتَمِلات لا يتضح مقصودها ـ لإجمالٍ أو مخالفةِ ظاهرٍ ـ إلا بالفحص والنظر، ليظهر فيها فضلُ العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقَّف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معاليَ الدرجات. وأما قوله تعالى ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[1] فمعناه أنها حُفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ، وقوله ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[2] فمعناه أنه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ. وأُخَرُ جمع أخرى، وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر ولا يلزم منه معرفته، لأن معناه أن القياس أن يعرفَ ولم يعرفْ لا أنه في معنى المعرف أو عن أخر من. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عُدول عن الحق كالمبتدِعَة[3]. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ طَلَبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه. ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وطَلَبَ أن يؤولوه على ما يشتهونه، ويُحتمل أن يكون الداعي إلى الاتباع مجموع الطَّلِبتين أو كل واحدة منهما على التعاقب، والأول يناسب المعانِد والثاني يلائم الجاهل. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه. وَمنْ وقف على إلا الله فَسَّرَ المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية، أو بمُبَادِلِ القاطِعِ على أن ظاهره غير مراد ولم يدل على ما هو المراد. ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ استئناف موضح لحال الراسخين، أو حال منهم، أو خبر إنْ جَعَلْتَه مبتدأ. ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي كل من المتشابه والمحكم من عنده، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن

(١) هود: «١».
(٢) الزمر: «٢٣».
(٣) والزيغ هو الميل عن الاستقامة.
وجعل قلوبهم مقراً للزيغ مبالغة في عُدُولهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد (س ٢/ ٨).

وحسن النظر وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس. واتصالُ الآية بما قبلها من حيث إنها في تصوير الروح بالعلم وتربيته وما قبلَها في تصوير الجسد وتسويته، أو أنها جواب عن تشبث النصارى بنحو قوله تعالى ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[1]. كما أنه جواب عن قولهم لا أب له غير الله، فتعين أن يكون هو أباه بأنه تعالى مصوِّر الأجنة كيف يشاء فيصور من نطفةِ أبٍ ومن غيرها، وبأنه صوره في الرحم والمصوِّر لا يكون أبَ المصوَّر.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

(٨) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ من مقال الراسخين. وقيل: استئناف، والمعنى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويلٍ لا ترتضيه، قال عليه الصلاة والسلام «قلب ابن آدم بين أُصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه»[2]. وقيل: لا تُبْلنا ببلايا تَزيغ فيها قلوبُنا. ﴿بَعْدَ

---

(١) النساء: «١٧١».

(٢) وهو حديث صحيح بمتابعاته وشواهده:
● أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٠٢، ٣١٥) والترمذي (٥/ ٥٣٨ رقم ٣٤٢٢) كلاهما من طريق شهر بن حوشب عن أم سلمة رضي الله عنها.
وقال الترمذي: حديث حسن. فلعله نظراً إلى شاهدة عند مسلم، وإلا شهر بن حوشب ليس بالقوي كما تقدم.
● وأخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢٥١) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٠٠ رقم ٢٢٤) والآجري في الشريعة ص٣١٧ من طريق علي بن زيد ـ بن جدعان ـ عن أم محمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمٰن... الحديث.
وفي سنده: علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.
وللحديث شواهد:
(منها): حديث عبدالله بن عمرو بن العاص. أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٤٥ رقم ١٧/ ٢٦٥٤) وأحمد (٢/ ١٦٨) وابن أبي عاصم (١/ ١٠٠ رقم ٢٢٢) والآجري في الشريعة ص٣١٦ كلهم من طريق أبي عبدالرحمٰن الجُبُلي عنه.
(منها): حديث أنس بن مالك: أخرجه أحمد (٣/ ١١٢) وابن أبي عاصم (١/ ١٠١ رقم ٢٢٥) والآجري في الشريعة ص٣١٦ كلهم من طريق الأعمش عن أبي سفيان ـ طلحة بن نافع ـ عنه.
(ومنها): حديث النواس بن سمعان أخرجه النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٩/ ٦١) ـ وابن ماجة (١/ ٧٢ رقم ١٩٩) وأحمد (٤/ ١٨٢) وابن أبي عاصم: (١/ ٩٨ رقم ٢١٩) والآجري في الشريعة (ص٣١٧) والحاكم (١/ ٥٢٥) و(٤/ ٣٢١) والبغوي في شرح السنة (١/ ١٦٦) وابن حبان (رقم: ٢٤١٩ ـ موارد) كلهم من طريق عبدالرحمن بن يزيد، عن بسر بن عبيدالله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني عنه.
قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٦٩ رقم ٦٩): هذا إسناد صحيح.
(ومنها): حديث نعيم بن همار أخرجه ابن أبي عاصم (١/ ٩٩ رقم ٢٢١) والطبراني في الكبير ـ كما في «المجمع» (٧/ ٢١١) ـ وقال الهيثمي: رجاله ثقات.
وقال الألباني: حديث صحيح وإسناده حسن.

﴿إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق والإيمان بالقِسمين من المحكم والمتشابه، وبعدَ نصب على الظرف، وإذ في موضع الجر بإضافته إليه، وقيل إنه بمعنى إن. ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تُزْلِفُنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقاً للثبات على الحق أو مغفرة للذنوب. ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ لكل سؤال، وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله وأنه متفضل بما ينعم على عباده لا يجب عليه شيء.

رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

(٩) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ لحساب يوم أو لجزائه[١]. ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء، نبهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما يتعلق بالآخرة فإنها المقصد والمآل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فإن الإلهية تنافيه، وللإشعارِ به وتعظيمِ الموعودِ لَوّنَ الخطاب. واستدل به الوعيديةُ[٢]، وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو لدلائل منفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقاً[٣].

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عام في الكفرة. وقيل: المراد به وفد نجران، أو اليهود، أو مشركو العرب. ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي من رحمته، أو طاعته على معنى البدلية، أو من عذابه[٤] ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حطبها. وقرىء بالضم بمعنى أهل وقودها[٥].

(١١) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ متصل بما قبله أي لن تغني عنهم كما لم تغن عن أولئك أو تُوقَد بهم كما توقد بأولئك، أو استئناف مرفوع المحل تقديره دأبُ هؤلاء كدأبهم في الكفر والعذاب، وهو مصدر دَأَبَ في العمل إذا كدح فيه فنقل إلى معنى الشأن. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عطف على آل فرعون. وقيل استئناف. ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ حال بإضمار قد، أو استئناف بتفسير حالهم، أو خبر إن ابتدأتَ بالذين من قبلهم[٦]. ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف الكفرة.

---

(١) حُذِف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه تهويلاً له وتفظيعاً لما يقع فيه (س ٢/ ٩).

(٢) الوعيدية هم المعتزلة الذين يقولون بأنه تعالى وعد المؤمنين بالثواب وأوعد العاصين بالعقاب. فيقولون بالوعد والوعيد. أما أهل السنة فيقولون بالعفو نتيجة للتوبة.

(٣) وقوله «إن الله لا يخلف الميعاد» إظهار للاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشىء من ذكر اليوم المهيب وللإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف (س ٢/ ٩).

(٤) وتقديم الأموال على الأولاد مع توسيط حرف النفي إما لعراقة الأولاد في كشف الكروب أو لأن الأموال هي أول ما يفزع إليها عند نزول الخطوب (س ٢/ ١٠).

(٥) وإيثار الجملة الإسمية في قوله «وأولئك هم وقود النار» للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وللدلالة على كمال ملابستهم للنار (س ٢/ ١٠).

(٦) والالتفات إلى التكلم بقوله «كذبوا بآياتنا» للجري على سنن الكبرياء، وإلى الغيبة ثانياً بقوله «فأخذهم الله» =

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي قل لمشركي مكة ستغلبون يعني يوم بدر، وقيل لليهود فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع فحذّرهم أن يَنْزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغماراً[1] لا علم لهم بالحرب لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، فنزلت[2]. وقد صَدَّق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من دلائل النبوة. وقرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما على أن الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ تمام ما يقال لهم، أو استئناف وتقديره بئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم.

(١٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الخطاب لقريش أو لليهود، وقيل للمؤمنين. ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يوم بدر. ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين، وكان قريباً من ألف، أو مثلي عدد المسلمين وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وذلك كان بعد ما قَلّلهم في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم وتوجهوا إليهم، فلما لاقوْهم كثروا في أعينهم حتى غُلِبوا مِدَداً من الله تعالى للمؤمنين، أو يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين وكانوا ثلاثة أمثالهم ليثبتوا لهم ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم الله به في قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[3]. ويؤيده قراءة نافع ويعقوب بالتاء، وقرىء بهما على البناء للمفعول أي يريهم الله أو يريكم ذلك بقدرته. وفئة بالجرّ على البدل من فئتين والنصب على الاختصاص، أو الحال من فاعل التقتا[4]. ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ رؤية ظاهرة معاينة. ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ نصره كما أيد أهل بدر. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي التقليل والتكثير أو غلبة القليل عديم العدة في الكثير شاكي السلاح، وكون الواقعة آية أيضاً يحتملها ويحتمل وقوع الأمر على ما أخبر به الرسول ﷺ. ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لعظة لذوي البصائر. وقيل لمن أبصرهم.

= بإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة (س ٢/ ١١).

(١) أغماراً أي لا تجربة لهم ولا علم.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢٢٩) معلقاً، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (٨١ ـ ٨٢) من طريق ابن إسحاق، وأخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤) والطبري في جامع البيان (٣/ ١٩٢).
وأبو داود في السنن (٣/ ٤٠٢ رقم ٣٠٠١) من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عكرمة عنه ومحمد هذا مجهول والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٣) الأنفال: «٦٦».

(٤) وصف الفئة الأولى «المؤمنة» بالقتال في سبيل الله مدحاً لهم واعتداداً بقتالهم وإيذاناً بأنه المدار في تحقق الآية. بينما وصف الفئة الثانية بالكفر ولم يصفها بما يقابل صفة الفئة الأولى إسقاطاً لقتالهم عن درجة الاعتبار وإيذاناً بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة (س ٢/ ١٢).

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

(١٤) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي المشتهَيات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها كقوله تعالى ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾[1]. والمزيِّن هو الله تعالى لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زينه ابتلاء، أو لأنه يكون وسيلة إلى السعادة الأخروية إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، أو لأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع. وقيل الشيطان فإن الآية في معرض الذم. وفرق الجبائي[2] بين المباح والمحرم[3]. ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ بيان للشهوات. والقنطار المال الكثير. وقيل مائةُ ألف دِينار. وقيل ملءِ مَسْك ثور. واختلف في أنه فِعْلال أو فِنْعَال، والمقنطرة مأخوذة منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة. والمسوَّمة المُعْلَمة من السَّوْمة وهي العلامة، أو المرعية من أسام الدابة وسوَّمها، أو المطهمة[4]. والأنعام الإبل والبقر والغنم[5] ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إشارة إلى ما ذكر. ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية.

(١٥) ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ يريد به تقرير أن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا[6]. ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ استئناف لبيان ما هو خير، ويجوز أن يتعلق اللام بخير ويرتفع جنات على هو جنات، ويؤيده قراءة من جرها بدلاً من خير. ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر من النساء. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر في جميع القرآن بضم الراء ما خلا الحرف الثاني في المائدة وهو قوله تعالى ﴿رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[7] بكسر الراء، وهما لغتان. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، أو بأحوال الذين اتقوا

---

(١) ص: «٣٢».

(٢) الجبائي هو: محمد بن عبدالوهاب الجُبَّائي البصري، ولد سنه (٢٣٥هـ) من أئمة المعتزلة بالبصرة، وإليه تنسب فرقة الجبائية، ونسبته إلى «جبى» من قرى البصرة له تفسير مطول، رد عليه الأشعري. توفي سنة (٣٠٣هـ) ودفن بـ«جبى» [الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٦)].

(٣) وفي قوله تعالى «زين» إيثار صيغة المبني للمفعول جرياً على سنن الكبرياء (س ٢/ ١٤).

(٤) قوله «المطهمة» أي التامة الخلق.

(٥) وفي قوله «من النساء والبنين» فقدم حب النساء لعراقتهن في معنى الشهوة فإنهن حبائل الشيطان. ولم يتعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن (س ٢/ ١٤).

(٦) إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق إليه (س ٢/ ١٥).

(٧) المائدة: «١٦».

فلذلك أعد لهم جنات[١]. وقد نبه بهذه الآية على نعمه فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله تعالى لقوله تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٢] وأوسطها الجنة ونعيمها.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

(١٦) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ صفة للمتقين، أو للعباد، أو مدح منصوب أو مرفوع. وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها.

(١٧) ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما، وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبل الخير، وأما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها. وتوسيطُ الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها، وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروع أجمع سيما للمجتهدين، قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون.

(١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها وإنزالِ الآيات الناطقة بها. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالإقرار. ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ بالإيمان بها والاحتجاج عليها، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل في قسمه وحكمه، وانتصابه على الحال من الله وإنما جاز إفراده بها ولم يَجُز جاء زيد وعمرو راكباً لعدم اللبس كقوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[٣]، أو مِنْ هو والعاملُ فيها معنى الجملة أي تفرّد قائماً أو أَحُقُّه لأنها حال مؤكدة، أو على المدح، أو الصفةِ للمنفي وفيه ضَعْف للفصل وهو مندرج في المشهود به إذا جعلته صفة أو حالاً من الضمير. وقرىء القائمُ بالقسط على البدل عن هو أو الخبر لمحذوف. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحُكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيعلم أنه الموصوف بهما. وقَدّم العزيز لتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته. ورفعُهما على البدل من الضمير أو الصفة لفاعل شهد.

---

(١) قوله «والله بصير بالعباد» إشارة وإشعار إلى أن من ذكر يستحق وصفه بالعبودية الحقة (س ٢/ ١٦).

(٢) التوبة: «٧٢».

(٣) الأنبياء: «٧٢».

وقد روي في فضلها أنه عليه الصلاة والسلام قال «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفّى بالعهد، أَدْخِلوا عبدي الجنة». وهي دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله.

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ. وقرأ الكسائي بالفتح على أنه بدل من أنه بدل الكل إنْ فُسِّر الإسلام بالإيمان أو بما يتضمنه، وبدل اشتمال إنْ فُسِّر بالشريعة، وقرىء إنّه ـ بالكسر ـ وأنَّ ـ بالفتح ـ على وقوع الفعل على الثاني واعتراضِ ما بينهما أو إجراءِ شَهِدَ مجرى قال تارة وعلم أخرى لتضمنه معناهما. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى، أو من أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام فقال قوم إنه حق وقال قوم إنه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقاً، أو في التوحيد فثلثت النصارى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[1]. وقيل هم قوم موسى اختلفوا بعده. وقيل هم النصارى اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالآيات والحجج. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرئاسة، لا لشبهة وخفاءٍ في الأمر. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وعيد لمن كفر منهم[2].

(٢٠) ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ في الدين، أو جادلوك فيه بعدما أقمت الحجج. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ أخلصت نفسي وجملتي له لا أشرك فيها غيره، وهو الدين القويم الذي قامت به الحجج ودعت إليه الآيات والرسل. وإنما عبّر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ عطف على التاء في أسلمت وحسُن للفصل، أو مفعول معه. ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ الذين لا كتاب لهم كمشركي العرب[3]. ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما أسلمت لما وضّحت لكم الحجة، أم أنتم بعدُ على كفركم ونظيره وقوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[4] وفيه تعيير لهم بالبلادة أو المعاندة. ﴿فَإِنْ

---

(١) التوبة: «٣٠».

(٢) قوله «فإن الله» إظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة.
وفي ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه.. دلالة على كمال شدة عقابهم (س٢/١٨).

(٣) قوله «للذين أوتوا الكتاب» وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفي المتعاطفين (س ٢/١٩).

(٤) المائدة: «٩١».

﴿أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي فلم يضروك إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وعد ووعيد.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(٢١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هم أهل الكتاب الذين في عصره عليه السلام، قَتَل أولهم الأنبياء ومتابعيهم وهم رضُوا به وقصدوا قتل النبي ﷺ والمؤمنين ولكن الله عصمهم، وقد سبق مثله في سورة البقرة. وقرأ حمزة ويقاتِلون الذين. وقد منع سيبويه إدخال الفاء في خبر إنْ كليت ولعل ولذلك قيل الخبر[1].

(٢٢) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ كقولك زيدٌ فافْهَم رجلٌ صالح، والفرق أنه لا يغير معنى الابتداء بخلافهما. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يدفع عنهم العذاب.

(٢٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة أو جنس الكتب السماوية، ومن للتبعيض أو للبيان. وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير[2]. ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الداعي محمد عليه الصلاة والسلام وكتاب الله القرآن، أو التوراة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام دخل مدراسهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت. فقال: على دين إبراهيم. فقالا له إن إبراهيم كان يهودياً فقال: هلموا إلى التوراة فإنها بيننا وبينكم. فأبيا فنزلت . وقيل نزلت في الرجم. وقرىء ليُحْكَمَ على البناء للمفعول فيكون الاختلاف فيما بينهم، وفيه دليل على أن الأدلة السمعية حجة في الأصول. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعاد لتوليهم مع علمهم بأن الرجوع إليه واجب. ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض، والجملة حال من فريق وإنما ساغ لتخصصه بالصفة.

---

(١) تقييد قتل النبيين بغير حق للإيذان بأنه كان عندهم أيضاً بغير حق.
وقوله «ويقتلون الذين يأمرون بالقسط» كرر فعل القتل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما في الوقت (س ٢/ ١٩).

(٢) التعبير عما أوتوه بالنصيب للإشعار باختصاصه بهم وكونه حقاً من حقوقهم التي يجب مراعاتها والعمل بموجبها. وتنكير النصيب للتفخيم لا للتحقير لأنه لا يساعده مقام المبالغة في تقبيح حالهم (س ٢/ ٢٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢١٧) وفي سنده (محمد بن أبي محمد) مجهول. وأورده السيوطي في «الدر» (٢/ ١٧٠) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من حديث ابن عباس.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التولي والإعراض. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائغ والطمع الفارغ. ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أن النار لن تمسهم إلا أياماً قلائل، أو أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تَحِلّة القَسَم.

(٢٥) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ استعظام لما يحيق بهم في الآخرة وتكذيب لقولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات. روي أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضَحُهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار[١]. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت. وفيه دليل على أن العبادة لا تَحْبُط وأن المؤمن لا يخلُد في النار، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها، فإذن هي بعد الخلاص منها[٢] ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الضمير لكل نفس على المعنى لأنه في معنى كل إنسان.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ الميم عوض عن يا، ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم كدخول يا عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم. وقيل: أصله يا ألله أُمّنا بخير[٣]، فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته. ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ يتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرفَ المُلاّك فيما يملكون، وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية. ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ تعطي منه ما تشاء مَنْ تشاء وتسترد، فالملك الأول عام والآخران بعضان منه. وقيل: المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى قوم[٤] ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان. ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذَكَر الخير وحده لأنه المقضي بالذات والشر مقضي بالعَرَض، إذ لا يوجد شر جزئي مالم يتضمن خيراً كليا، أو لمراعاة الأدب في الخطاب، أو لأن الكلام وقع فيه إذ روي أنه عليه السلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، فظهر فيه صخرة عظيمة لم يعمل فيها المعاوِل، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعتها

---

(١) ذكره الألوسي في تفسيره (٣/ ١١٢) بدون سند. ولم يعزهُ لأحد.

(٢) المراد به جزاء ما كسبت، إلا أنه أقيم المكسوب مقام جزائه إيذاناً بكمال الاتصال والتلازم بينهما حتى كأنهما شيء واحد (س ٢/ ٢١).

(٣) أي دلّنا على خير أو أقصِدنا به.

(٤) وإيثار الإيتاء على التملك لأن ملك غيره بطريق المجاز (س ٢/ ٢١).

وبرق منها برقٌ أضاء منه ما بين لابَتَيْها[١] لكأن بها مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر وكبر معه المسلمون وقال «أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء. وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرةٌ على كلها فأبشِروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يُمَنِّيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق فنزلت[٢]. فنبه على أن الشر أيضاً بيده بقول ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عَقّب ذلك ببيان قدرته على معاقبة الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة الذلّ والعز وإيتاء الملك ونزعه. والولوج: الدخول في مَضيق، وإيلاج الليل والنهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقص. وإخراج الحي من الميت وبالعكس إنشاء الحيوانات من موادها وإماتتُها، أو إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة منه. وقيل: إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر الميْت

---

(١) اللابة هي الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السوداء (المصباح المنير مادة «لوب»).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج٢١/ ١٣٣ ـ ١٣٤) والواحدي في أسباب النزول (ص٨٣ ـ ٨٤) والبغوي في تفسيره (٣/ ٥١٠) عن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني قال: ثنى أبي، عن أبيه به.
وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٨٣) في ترجمة سلمان، قال: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي قديك، قال: حدثني كثير بن عبدالله المزني عن أبيه عن جده به.
قلت: وكثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني، المدني، ضعيف، ومنهم من نسبه إلى الكذب [التقريب (٢/ ١٣٢ رقم ١٧)].
والخلاصة أن الحديث ضعيف.
وأخرجه أبو يعلى في المسند (٣/ ٢٤٤ رقم ٣٢/ ١٦٨٥) وأحمد في المسند (٤/ ٣٠٣) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» رقم (٤٣٠) وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٤٢١ ـ ٤٢٢) والنسائي في السير ـ كما في تحفة الأشراف (٢/ ١٦٥) ـ من طرق كلهم من رواية ميمون أبي عبدالله عن البراء بن عازب مختصراً، وإسناده ضعيف.
وتصحفت «عن ميمون» في الدلائل «ابن ميمون».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٣٠ ـ ١٣١) وقال: رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبدالله، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات.
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٣) وقوله «بيدك الخير» قدم الخير فأفاد التخصيص أي بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك. (س ٢/ ٢١).

بالتخفيف.

(٢٨) ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نُهوا عن موالاتهم لقرابة وصداقة جاهلية ونحوهما حتى لا يكون حبهم وبغضهم إلا في الله، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية. ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء[1]. ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي من ولايته في شيء يصح أن يسمى ولاية، فإن موالاة المتعاديين لا يجتمعان قال:

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِي صَدِيقُكَ لَيْسَ النوكُ عَنْكَ بِعَازِبِ

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه، أو اتقاء. والفعل معدى بمن لأنه في معنى تحذروا وتخافوا. وقرأ يعقوب تَقِيَّة. منع عن موالاتهم ظاهراً وباطناً في الأوقات كلها إلا وقتَ المخافة، فإن إظهار الموالاة حينئذ جائز كما قال عيسى عليه السلام: كن وسطاً وامش جانباً. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه، وهو تهديد عظيم مُشْعِر بتناهي النهي في القبح. وذِكْرُ النفس ليُعْلَم أن المحذَّرَ منه عقاب يَصْدُر منه تعالى فلا يُؤْبَه دونه بما يُحْذَرُ من الكفرة.

قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۖ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي أنه يَعلم ضمائركم من ولاية الكفار وغيرها إن تخفوها أو تبدوها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيعلم سركم وعلنكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نُهيتم عنه. والآية بيان لقوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[2] وكأنه قال ويحذركم نفسه لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلها وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها، فلا تجْسُروا على عصيانه إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها[3].

(٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ يوم منصوب بتودّ، أي تتمنى كل نفس يوم تجد صحائف أعمالها أو جزاء أعمالها من الخير والشر حاضرة لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً، أو بمضمر نحوُ اذْكُر، وتود حال من الضمير في عملت

---

(١) «ومن يفعل» عبر عنه بالفعل للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره (س ٢/ ٢٣).

(٢) آل عمران: «٢٨».

(٣) وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار في قوله «والله على كل شيء قدير» لتربية المهابة وتهويل الخطب.

أو خبر لما عملت من سوء، وتجد مقصور على ما عملت من خير، ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود. وقرىء وَدّت وعلى هذا يصح أن تكون شرطية ولكن الحمل على الخبر أَوْقعُ معنى لأنه حكاية كائن وأوْفق للقراءة المشهورة[1]. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ كرره للتأكيد والتذكير. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم فترجى رحمته ويخشى عذابه.

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمالٍ أدركته فيه بحث يحملها على ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمالَ الحقيقي ليس إلا لله وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول في عبادته والحرص على مطاوعته. ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر أي يرضَ عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم في جوار قدسه، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع نبيه[2] ﷺ. روي: أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه[3]. وقيل: نزلت في وفد نجران لما قالوا: إنما نعبد المسيح حباً لله[4]. وقيل: في أقوام زعموا على عهده ﷺ أنهم يحبون الله فأُمِروا أن يَجْعَلوا لقولهم تصديقاً من العمل[5].

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ يحتمل المضي والمضارعة بمعنى فإن تتولوا. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم، وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على أن التولي كفر، وإنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

(٣٣) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالرسالة والخصائص الروحانية

---

(١) «ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء» ذكر إحضار الخير دون الشر للإشعار بكون الخير مراداً بالذات، وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية (س ٢/ ٢٤).

(٢) وضع الاسم الجليل موضع الإضمار للإشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة (س ٢/ ٢٥).

(٣) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٨٦) من رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢٣٣) عن محمد بن جعفر بن الزبير.
وكذلك الواحدي في «أسباب النزول» (ص٨٧). وفي سنده ضعف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢٣٢) من ثلاثة طرق عن الحسن مرسلاً. وهو ضعيف. وكذا أخرجه عن ابن جريج أيضاً.

والجسمانية، ولذلك قَوُوا على مالم يقوَ عليه غيرهم. لما أوجب طاعة الرسول وبين أنها الجالبة لمحبة الله عقّب ذلك ببيان مناقبهم تحريضاً عليها. وبه استُدِل على فضلهم على الملائكة. وآلُ إبراهيم: إسماعيلُ وإسحق وأولادهما ـ وقد دخل فيهم الرسول ﷺ ـ وآل عمران موسى وهٰرون ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، أو عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان بن العازار بن أبي يوذ بن يوزن بن زربابل بن سالیان بن يوحنا بن أوشيا بن أمون بن منشكن بن حازقا بن أخاز بن يوثام بن عوزيا بن يورام بن سافط بن ايشا بن راجعيم بن سليمان بن داود بن ايشى بن عويد بن سلمون بن ياعز بن نحشون بن عمياد بن رام بن حصروم بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة[1].

ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

(٣٤) ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ حال أو بدل من الآلين أو منهما ومن نوح، أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. وقيل بعضها من بعض في الدين. والذرية الولد يقع على الواحد والجمع فِعْلِيَّة من الذر أو فَعُولَة من الذرء أبدلت همزتها ياء ثم قلبت الواو ياء وأدغمت. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بأقوال الناس وأعمالهم فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميع بقول امرأة عمران عليم بنيتها.

(٣٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى﴾ فينتصب به إذْ على التنازع. وقيل نصبه بإضمار اذكر، وهذه حنة بنت فاقوذ جدة عيسى، وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهٰرون فظن أن المراد زوجته، ويرده كفالة زكريا فإنه كان معاصراً لابن ماثان وتزوج ابنته ايشاع، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة من الأب روي أنها كانت عاقراً عجوزاً، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يُطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته فقالت: اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خَدَمِه، فحملت بمريم وهلك عمران. وكان هذا النذر مشروعاً في عهدهم للغلمان فلعلها بَنَت الأمر على التقدير أو طلبت ذَكَراً[2] ﴿مُحَرَّرًا﴾ معتقاً

---

(١) خص آل عمران بالذكر مع اندراجهم في آل إبراهيم لإظهار مزيد الاعتناء بأمر عيسى بسبب الاختلاف في شأنه.
والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء.
ولم يذكر اصطفاء إبراهيم نفسه لأنه مفهوم من اصطفاء آله، ولم يصرح به لكمال شهرة أمره في الخلة وكونه إمام الأنبياء (س ٢/ ٢٦).

(٢) التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن
إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة.
وتأكيد الجملة لإبراز وفور الرغبة في مضمونها.
وتقديم الجار والمجرور «لك» للاعتناء به (س٢/ ٢٧).

لخدمته لا أشغله بشيء، أو مخلَصاً للعبادة ونصبه على الحال. ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ ما نذرته. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لقولي ونيتي[1].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ الضمير لما في بطنها وتأنيثه لأنه كان أنثى، وجاز انتصاب أنثى حالاً عنه لأن تأنيثها علم منه فإن الحال وصاحبَها بالذات واحداً، أو على تأويل مؤنث كالنفس والحَبَلَةِ. وإنما قالته تحسراً وتحزناً إلى ربها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي بالشيء الذي وضعت. هو استئناف من الله تعالى تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بشأنها. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وَضَعْتُ على أنه من كلامها تسلية لنفسها أي ولعل لله سبحانه وتعالى فيه سراً، أو الأنثى كانت خيراً. وقرىء وَضَعْتِ على أنه خطاب الله تعالى لها. ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ بيان لقوله والله أعلم أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهِبت، واللام فيهما للعهد ويجوز أن يكون من قولها بمعنى وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت فتكون اللام للجنس. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ما قبلها من مقالها وما بينهما اعتراض، وإنما ذكرت ذلك لربها تقرباً إليه وطلباً لأن يعصمها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها فإن مريم في لغتهم بمعنى: العابدة. وفيه دليل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة. ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجيرها بحفظك[2]. ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة. وعن النبي ﷺ «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسه إلا مريم وابنها»[3]. ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

(٣٧) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ فرضي بها في النذر مكان الذَّكَر. ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي بوجه حسن يُقبَل به النذائر، وهو إقامتها مقام الذَّكَر، أو تسلمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة. روي أن حنة لما ولدتها لفَّتْها في خِرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وقالت: دونكم هذه النذيرة،

---

(١) قصر صفتي السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى وانقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهال (س٢/٢٨).

(٢) وصيغة المضارعة للدلالة على الاستمرار (س٢/٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦/٤٦٩ رقم ٣٤٣١) و(٨/٢١٢ رقم ٤٥٤٨) ومسلم (٤/١٨٣٨ رقم ١٤٦ و١٤٧/٢٣٦٦) كلاهما من طريق الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.

فتنافسوا فيها لأنها كانت ابنة إمامهم وصاحب قربانهم، فإن بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم فقال زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها فأبوْا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها زكريا. ويجوز أن يكون مصدراً على تقدير مضاف أي بذي قبول حسن، وأن يكون تقبّل بمعنى استقبل كتقضّى وتعجل أي فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن. ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ شدد الفاء حمزة والكسائي وعاصم، وقصروا زكريا غير عاصم في رواية ابن عياش على أن الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول أي جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، وخفف الباقون. ومدّوا زكرياء مرفوعاً. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي الغرفة التي بنيت لها، أو المسجد، أو أشرف مواضعه ومقدمها، سمي به لأنه محل محاربة الشيطان كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس[1]. ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ جواب كلما وناصبُه. روي: أنه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس. ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبوابُ مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء. وجعل ذلك معجزة زكريا يدفعه اشتباه الأمر عليه. ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا تستبعده. قيل تكلمت صغيرة كعيسى عليه السلام ولم ترضَع ثدياً قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلاً به. وهو يحتمل أن يكون من كلامهما وأن يكون من كلام الله تعالى. روي أن فاطمة رضي الله تعالى عنها أهدت لرسول الله ﷺ رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها وقال: «هلمي يا بنيّة» فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فقال لها: «أنّى لك هذا؟!» فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل» ثم جمع علياً والحسن والحسين وجمع أهل بيته عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها[2].

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٨) ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ في ذلك المكان أو الوقت، إذ يستعار هنا وثم وحيث للزمان،

---

(١) وتقديم الظرف «عليها» للاعتناء بأمرها (س٢/ ٣٠).

(٢) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٨٦) وعزاه لأبي يعلى من حديث جابر.
وأورده الحافظ في «الكافي الشافِ» رقم (٢١٣) وقال: رواه أبو يعلى من حديث جابر، وهو من رواية ابن طيعة عن ابن المنكدر عنه. والمتن ظاهر النكارة.
● ولم أعثر عليه في مسند أبي يعلى المطبوع والله أعلم.

لِمَا رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى. ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كما وهبتها لحنَّة العجوز العاقر. وقيل لما رأى الفواكه في غير أَوَانِهَا انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ، فسأل وقال هب لي من لدنك ذرية، لأنه لم يكن على الوجوه المعتادة وبالأسباب المعهودة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه.

(٣٩) ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي من جنسهم كقولهم زيد يركب الخيل. فإن المنادي كان جبريل وحده. وقرأ حمزة والكسائي فناداه بالإمالة والتذكير. ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي قائماً في الصلاة. ويصلي صفة قائم، أو خبر، أو حال آخر، أو حال من الضمير في قائم. ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي بأن الله. وقرأ نافع وابن عامر بالكسر على إرادة القول، أو لأن النداء نوع منه. وقرأ حمزة والكسائي يَبْشُرُكَ[1]، ويحيى اسم أعجمي، وإن جُعل عربياً فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل. ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي بعيسى عليه السلام سمي بذلك لأنه وُجِد بأمره تعالى[2] دون أب فشابه البدْعيات التي هي عالم الأمر، أو بكتاب الله سمي كلمة كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته. ﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويفوقهم، وكان فائقاً للناس كلهم في أنه مَا هَمَّ بمعصية قط. ﴿وَحَصُورًا﴾ مبالِغاً في حبس النفس عن الشهوات والملاهي. روي أنه مر في صباه بصبيان فدعُوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقت. ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئاً منهم أو كائناً من عداد من لم يأت كبيرة ولا صغيرة.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

(٤٠) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ استبعاداً من حيث العادة، أو استعظاماً، أو تعجيباً، أو استفهاماً عن كيفية حدوثه. ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن وأثر فيّ، وكان له تسع وتسعون ولامرأته ثمان وتسعون سنة. ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد، من العَقْر وهو القطع لأنها ذات عقر من الأولاد. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يفعل ما يشاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر، أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يفعل ما يشاء من خلق الولد، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي الله على مثلِ هذه الصفة، ويفعل ما يشاء بيان له، أو كذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك، والله يفعل ما يشاء بيان له.

(٤١) ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً﴾ علامة أعرف بها الحَبَلَ لاستقبله بالبشاشة والشكر وتزيح مشقة

---

(١) قال تعالى في سورة مريم «إنا نبشرك بغلام» ـ مريم «٧» ـ بإسناد التبشير إلى نون العظمة. بينما عدل هنا عن إسناد التبشير إلى نون العظمة ـ كما وقع في سورة مريم ـ للجري على سنن الكبرياء كما في قولهم: أمير المؤمنين يأمر لك بكذا، فالمعنى واحد (س٢/ ٣٢).

(٢) أي بقوله كنْ.

الانتظار. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ثلاثاً، وإنما حَبَسَ لسانَه عن مكالمتهم خاصة ليُخْلص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاءً لحق النعمة، وكأنه قال آيتك أن يُحْبَس لسانك إلا عن الشكر، وأحسنُ الجواب ما اشتق من السؤال. ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بنحو يدٍ أو رأس، وأصله التحرك ومنه الراموز للبحر، والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام ما دل على الضمير. وقرىء رَمَزاً بفتحتين ـ كخدم ـ جمع رَامز ورُمُزاً ـ كرُسُل ـ جمع رَموز على أنه حال منه ومن الناس بمعنى مترامزين كقوله:

متَى مَا تَلْقَنِي فَرْدَيْنِ تَرْجُف ... رَوَانِفُ أَلْيَتَيْكَ وَتُسْتَطَارَا

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحبسة، وهو مؤكد لما قبله مبين للغرض منه، وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب. وقيل من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر الليل. ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى. وقرىء بفتح الهمزة جمع بِكْرٍ كسِحْر وأسحار.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

(٤٢) ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ﴾ كلموها شفاهاً كرامة لها، ومن أنكر الكرامة زعم أن ذلك كانت معجزة لزكريا أو إرهاصاً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن الإجماع على أنه سبحانه وتعالى لم يستنبىء امرأة لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾[1]، وقيل ألهموها. والاصطفاء الأول تقبُّلها من أمها ـ ولم يُقبلْ قبلها أنثى ـ وتفريغُها للعبادة وإغناؤُها برزق الجنة عن الكسب وتطهيرُها عما يُستقذر من النساء، والثاني هدايتُها وإرسال الملائكة إليها وتخصيصُها بالكرامات السنية كالولد من غير أب وتبرئتُها مما قذفتها به اليهود بإنطاق الطفل وجعلها وابنها آية للعالمين[2].

(٤٣) ﴿يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها. وقدّم السجود على الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب، أو ليقترن اركعي بالراكعين للإيذان بأن من ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين. وقيل المراد بالقنوت إدامة الطاعة كقوله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾[3]، وبالسجود

---

(١) يوسف: «١٠٩».

(٢) «وإذ قالت الملائكة» أي واذكر إذ قالت... كرر التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الأحكام السابقة، فإنها من أحكام التربية الجسمانية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها (س٢/ ٣٥).

(٣) الزمر: «٩».

الصلاة كقوله تعالى ﴿وَأَدْبَرَ ٱلسُّجُودِ﴾[1]، وبالركوع الخشوع والإخبات.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ما ذكرنا من القصص من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ أقداحهم للاقتراع، وقيل اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركاً. والمراد تقرير كونه وحياً على سبيل التهكم بمنكريه، فإن طريق معرفة الوقائع المشاهَدة والسماع وعدم السماع معلوم لا شبهة فيه عندهم فبقي أن يكون الاتهام باحتمال العيان ولا يظن به عاقل. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أي يلقونها ليعلموا، أو يقولوا أيهم يكفل مريم. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تنافساً في كفالتها[2].

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بدل من إذ قالت الأولى وما بينهما اعتراض، أو مِنْ إذ يختصمون على أنّ وقوع الاختصام والبشارة في زمان متسع كقولك لقيته سنة كذا. ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح لقبه وهو من الألقاب المشرَّفة كالصِدِّيق، وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه: المبارك، وعيسى معرب ايشوع واشتقاقُهُما من المسْح لأنهما مَسْحٌ بالبركة أو بما طهره من الذنوب أو مَسَحَ الأرضَ ولم يَقُم في موضع أو مَسَحه جبريل، ومن العَيْس وهو بياض يعلوه حمرة، تَكَلُّفٌ لا طائل تحته. وابنُ مريم لما كان صفةً تُمَيِّزُ تمييزَ الأسماء نُظِمَت في سلكها، ولا ينافي تعدد الخبر وإفراد المبتدأ فإنه اسم جنس مضافٌ، ويُحتمل أن يراد به أن الذي يُعرف به ويتميز عن غيره هذه الثلاثة فإن الاسم علامة المسمى والمميز له ممن سواه، ويجوز أن يكون عيسى خبر مبتدأ محذوف وابن مريم صفته، وإنما قيل ابن مريم والخطاب لها تنبيهاً على أنه يولد من غير أب إذ الأولاد تنسب إلى الآباء ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب. ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ حال مقدرة من كلمة، وهي وإن كانت نكرة لكنها موصوفة، وتذكيره للمعنى. والوجاهة في الدنيا النبوة وفي الآخرة الشفاعة ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ من الله، وقيل إشارة إلى علو درجته في الجنة أو رَفْعه إلى السماء وصحبة الملائكة.

(٤٦) ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً كلامَ الأنبياء من غير تفاوت. والمهْد مصدر سمي به ما يُمَهَّد للصبي في مضجعه. وقيل إنه رُفِع شاباً والمراد وكهلاً بعد

---

(١) ق: «٤٠».

(٢) وتكرير «وما كنت لديهم» مع تحقق المقصود بعطف «إذ يختصمون» على «إذ يقولون»... للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه السلام عند إلقاء الأقلام وعدم حضوره عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته عليه الصلاة والسلام، لا سيما إذا أريد باختصامهم تنازعُهم قبل الاقتراع فإن تغيير الترتيب في الذكر مؤكد له (س٢/ ٣٦).

نزوله، وذِكْرُ أحواله المختلفة المتنافية إرشاداً إلى أنه بمعزل عن الألوهية ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال ثالث من كلمة أو ضميرُها الذي في يُكَلِّم.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تعجب، أو استبعاد عادي، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ القائل جبريل، أو الله تعالى وجبريل حكى لها قول الله تعالى. ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك.

(٤٨) ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ كلام مبتدأ ذكر تطييباً لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم لما علمت أنها تلد من غير زوج، أو عطف على يبشرك أو وجيهاً. والكتاب الكِتْبَة أو جنس الكتب المنزلة، وخصّ الكتابان لفضلهما. وقرأ نافع وعاصم ويعلمه بالياء[1].

(٤٩) ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ منصوب بمضمر على إرادة القول تقديره: ويقول أُرْسِلت رسولاً بأني قد جئتكم، أو بالعطف على الأحوال المتقدمة مضمناً معنى النطق فكأنه قال: وناطقاً بأني قد جئتكم، وتخصيص بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد على من زعم أنه مبعوث إلى غيرهم[2]. ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ نَصْبٌ بدل من أني قد جئتكم، أو جَرّ بدل من آية، أو رفع على هي أني أخلق لكم والمعنى: أقدر لكم وأصور شيئاً مثل صورة الطير، وقرأ نافع إني بالكسر ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف أي في ذلك الشيء المماثل. ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيصير حياً طياراً بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه. وقرأ نافع هنا وفي المائدة طائراً بالألف والهمزة. ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الأكمه الذي ولد أعمى أو الممسوح العين، روي: أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى مَنْ أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداوي إلا بالدعاء[3]. ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرر بإذن الله دفعاً لتوهم الألوهية، فإن

---

(١) وهي قراءة أبو جعفر ويعقوب أي بالياء. وقرأ الباقون بالنون «ونعلمه» (المبسوط ص١٤٣).

(٢) وقوله «من ربكم» تعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامتثال بما سيأتي من الأوامر (س٢/ ٣٨).

(٣) وتخصيص هذين الداءين لأنهما مما أعيا الأطباء رغم أنهم كانوا في غاية الحذاقة في زمنه عليه السلام (س٢/ ٣٩).

الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية. ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ موفقين للإيمان فإن غيرهم لا ينتفع بالمعجزات، أو مصدقين للحق غير معاندين.

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

(٥٠) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ عطف على رسولاً على الوجهين، أو منصوب بإضمار فعلٍ دلّ عليه قد جئتكم أي وجئتكم مصدقاً. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ مقدر بإضماره، أو مردود على قوله: أني قد جئتكم بآية، أو معطوف على معنى مصدقاً كقولهم جئتك معتذراً ولأطيّب قلبك. ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام كالشحوم والثُّروب والسمك ولحوم الإبل والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخاً لشرع موسى عليه الصلاة والسلام ولا يُخِلُّ ذلك بكونه مصدقاً للتوراة، كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بتناقض وتكاذب، فإن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الأزمان ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(٥١) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي جئتكم بآية أخرى ألهمنيها ربُّكم وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فإنه دعوة الحق المجمع عليها فيما بين الرسل الفارقة بين النبي والساحر، أو جئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ اعتراض والظاهر أنه تكرير لقوله ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم، والأول لتمهيد الحجة والثاني لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتّب عليه بالفاء قولَه تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي لما جئتكم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعون فيما أدعوكم إليه، ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العلمية فإنه بملازمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن بيّن أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «قل آمنت بالله ثم استقم»[1].

(٥٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ تحقَّقَ كفرُهم عنده تَحَقُّقَ ما يُدركُ بالحواس. ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ملتجئاً إلى الله تعالى أو ذاهباً أو ضاماً إليه، ويجوز أن يتعلق الجارّ بأنصاري مضمناً

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٥ رقم ٣٨/٦٢) من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي.
وكذلك أخرجه ابن ماجة (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٢) والترمذي (٤/ ٦٠٧ رقم ٢٤١٠) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٢٠) وأحمد في المسند (٣/ ٤١٣) و(٤/ ٣٨٥).

معنى الإضافة، أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله تعالى في نصري. وقيل (إلى) ههنا بمعنى مع أو في أو اللام. ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حواري الرجل خاصتُه من الحَوَر وهو البياض الخالص، ومنه الحواريات للحضريات لخلوص ألوانهن، سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم، وقيل كانوا ملوكاً يلبسون البيض استنصر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام من اليهود، وقيل قصارين يحُورون الثياب أي يبيضونها. ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم[1].

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدانيتك، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس.

(٥٤) ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي الذين أحس منهم الكفر من اليهود بأن وَكَّلوا عليه من يقتلُه غَيْلة. ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شَبَهَه على من قصد اغتياله حتى قُتل. والمكر من حيث إنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يُسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والازدواج[2] ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أقواهم مكراً وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب.

(٥٥) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لمَكَر الله أو خير الماكرين أو لمضمر مثل وقع ذلك. ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض من توفيت مالي، أو متوفيك نائماً إذ روي أنه رفع نائماً، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت. وقيل أماته الله سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهبت النصارى[3]. ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي. ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من سوء جوارهم أو

---

(١) طلبوا منه عليه السلام الشهادة بذلك يوم القيامة إيذاناً بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية (س٢/ ٤٢).

(٢) المكر هو صرف الغير عما يقصده بحيلة، وهو ضربان محمود ومذموم، ولا يمنع وصفه تعالى بذلك فإن مكره بحق حيث يعاقب الجاحدين والظالمين بما يستحقون، ومن مكره تعالى أنه يملي للظالمين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم يأخذهم بغتة...

(٣) الخلاف الذي حصل بين العلماء في وفاة عيسى عليه السلام ورفعه للسماء، لعل أرجح الأقوال فيها أنه تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم. انظر (روح المعاني ٣/ ١٧٩ وفتح القدير ١/ ٣٤٥).
ولعله الأوفق بظاهر الآيات، ولا يوجد ما يمنعه حتى نقول بخلاف الظاهر.

قصدهم ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعاونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتبعوه من آمن بنبوته من المسلمين والنصارى وإلى الآن لم تسمع غلبة لليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة. ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام ومن تبعه ومن كَفَر به، وغَلَّب المخاطبين على الغائبين. ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

(٥٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

(٥٧) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ تفسير للحكم وتفصيل له. وقرأ حفص فيوفيهم بالياء[1]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تقرير لذلك.

(٥٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره، وهو مبتدأ خبرُه ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ حال من الهاء ويجوز أن يكون الخبرَ ونتلوه حالاً على أن العامل معنى الإشارة، وأن يكونا خبرين، وأن ينتصب بمضمر يفسره نتلوه. ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ المشتمل على الحكم، أو المحكم الممنوع عن تطرق الخلل إليه، يريد به القرآن وقيل اللوح.

(٥٩) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ إن شأنه الغريب كشأن آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ جملة مفسرة للتمثيل مبينة لما به الشَّبه، وهو أنه خُلِق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم، شُبِّه حالُه بما هو أغرب منه إفحاماً للخصم وقطعاً لمواد الشبهة، والمعنى خلق قالَبه من التراب. ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي أنشأه بشراً كقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[2] أو قدّر تكوينه من التراب ثم كوّنه، ويجوز أن يكون ثم لتراخي الخِبر لا المخبَر. ﴿فَيَكُونُ﴾ حكاية حال ماضية.

(٦٠) ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبر محذوف أي هو الحق، وقيل الحق مبتدأ ومن ربك خبره، أي الحق المذكور من الله تعالى. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات أو لكل سامع.

(٦١) ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ من النصارى. ﴿فِيهِ﴾ في عيسى. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي من البينات الموجبة للعلم. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ هلموا بالرأي والعزم. ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا

---

(١) وقرأ الباقون بالنون «فنوفيهم» (المبسوط ص١٤٣).

(٢) المؤمنون: «١٤».

﴿وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يدعُ كل منا ومنكم نفسَه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويَحْمِل عليها، وإنما قدمهم على الأنفس لأن الرجل يخاطر بنفسه لهم ويحارب دونهم. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتباهل بأن نلعن الكاذب منا. والبُهْلة بالضم والفتح اللعنة، وأصله الترك من قولهم بَهَلْت الناقة إذا تركتُها بلا صرار. ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ عطف فيه بيان. روي أنهم لما دُعوا إلى المباهلة قالوا حتى ننظر فلما تخالَوْا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهَلَ قوم نبياً إلا هَلَكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادِعوا الرجل وانصرِفوا فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمةُ تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمِّنوا» فقال أسقُفُهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهِلُوا فتَهْلِكوا. فأذعنوا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية ألفي حُلّة حمراء وثلاثين درعاً من حديد. فقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده لو تَبَاهَلُوا لمُسِخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصلَ اللهُ نجران وأهلَه حتى الطير على الشجر»(١). وهو دليل على نبوته وفضل من أتى بهم من أهل بيته.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾

(٦٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما قُص من نبأ عيسى ومريم. ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ بجملتها خبر إنّ، أو هو فصل يفيد أنّ ما ذكره في شأن عيسى ومريم حق دون ما ذكروه، وما بعدَه خبرٌ واللام دخلت فيه لأنه أقرب إلى المبتدأ من الخبر، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ صَرّح فيه بِمَنْ المزيدة للاستغراق تأكيداً للرد على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركه في الألوهية.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨) رقم (٢٤٥): من طريق محمد بن مروان السدي، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس به وليس فيه ذكر ما صالح عليه، أي ألفي حلة.
قلت: فيه ابن مروان: متروك متهم بالكذب.
● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢٩٩) عن محمد بن حميد، عن جرير، عن المغيرة عن الشعبي، ومحمد بن حميد: ضعيف.
● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٣٠٠) عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير ومحمد بن حميد وسلمة: ضعيفان.
● وأخرج أبو داود (٣/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠ رقم ٣٠٤١) من طريق إسماعيل بن عبدالرحمٰن القرشي ـ وهو المعروف بالسُّدِّي ـ عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفَيْ حُلَّةٍ، النِّصْفُ في صَفَر والبقيّةُ في رجب، يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم. . . .» وهو طرف من هذه القصة.
قال المنذري في «المختصر» (٤/ ٢٥١): «في سماع السُّدِّي من عبدالله بن عباس نظر. وإنما قيل: إنه رآهُ، ورأى ابن عمر، وسمع من أنس بن مالك رضي الله عنهم» هـ.
وقال الألباني في «ضعيف أبي داود»: ضعيف الإسناد.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

(٦٣) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم. ووَضَعَ المظهر موضع المضمر ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراضَ عن التوحيد إفسادٌ للدين والاعتقادِ المؤدي إلى فساد النفس بل وإلى فساد العالم.

(٦٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعم أهل الكتابين، وقيل يريد به وفد نجران أو يهود المدينة. ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب ويفسرها ما بعدها. ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن نوحده بالعبادة ونخلص فيها. ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن يعبد. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولا نقول عزيز بن الله ولا المسيح بن الله ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل، لأن كلاً منهم بعضُنا بشرٌ مثلُنا. روي أنه لما نزلت ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال: «أليس كانوا يُحِلّون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم قال: «هو ذاك»[2]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي لزمتكم الحجة فاعترِفوا بأنا مسلمون دونكم، أو اعترِفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل.

(تنبيه) انظر إلى ما راعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحِجاج، بيّن أولاً أحوال عيسى عليه الصلاة والسلام وما تعاوَرَ عليه من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر ما يَحُل عُقدتهم ويُزيح شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما

---

(١) التوبة: «٣١».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٧٨ رقم ٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث «عبدالسلام بن حرب» و«غطيف بن أعين» ليس بمعروف في الحديث» هـ.
قلت: عبدالسلام هذا ثقة حافظ له مناكير كما ذكره ابن حجر في التقريب (١/ ٥٠٥ رقم ١١٨٦) وأما غطيف هذا ضعفه ابن حجر في التقريب (٢/ ١٠٦ رقم ٢١) والذهبي في الميزان (٣/ ٣٣٦) ووثقه ابن حبان (٧/ ٣١١) وذكره ابن أبي حاتم (٧/ ٥٥ رقم ٣١٥) ولم يتكلم فيه بشيء، وكذلك البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٠٦ رقم ٤٧١) مع إخراجه للحديث، وللحديث شاهدان:
(الأول): من حديث حذيفة بن اليمان أخرجه ابن عبدالبر (٢/ ١٠٩) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١١٦) وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٤) وهو إن كان موقوفاً فله حكم المرفوع كما هو مقرر في مصطلح الحديث.
(والثاني): من حديث أبي العالية عند ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٥).
وبذلك يكون الحديث حسناً إن شاء الله.
وقد حسنهُ الألباني في غاية المرام رقم (٦) وابن تيمية في «الإيمان» ص٦٤.

أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقاً أسهل وألزَمَ بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرض عن ذلك وقال: ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

(٦٥) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزعم كل فريق أنه منهم وترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. والمعنى أن اليهودية والنصرانية حدثتا بنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وكان إبراهيم قبل موسى بألف سنة وعيسى بألفين فكيف يكون عليهما؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدّعون المحال.

(٦٦) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ها حرف تنبيه نُبِّهوا بها على حالهم التي غَفلوا عنها، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، وحاججتم جملة أخرى مبينة للأولى، أي أنتم هؤلاء الحمقى، وبيان حماقتكم أنكم جادلتم فيما لكم به علم مما وجدتموه في التوراة والإنجيل عناداً، أو تدّعون وروده فيه فلم تجادلون فيما لا علم لكم به ولا ذِكر له في كتابكم من دين إبراهيم. وقيل هؤلاء بمعنى الذين وحاججتم صلته. وقيل ها أنتم أصله أأنتم على الاستفهام للتعجب من حماقتهم فقُلبت الهمزة هاء. وقرأ نافع وأبو عمرو ها انْتُم حيث وقع بالمد من غير همز، وورش أقل مداً، وقنبل بالهمز من غير ألف بعد الهاء، والباقون بالمد والهمز، والبزي بقصر المد على أصله. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما حاججتم فيه. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان. ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة. ﴿مُّسْلِمًا﴾ منقاداً لله وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأنهم مشركون لإشراكهم به عزيراً والمسيحَ وردّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

(٦٨) ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه، من الوَلْي وهو القرب. ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من أمته. ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة. وقرىء والنبي بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه، وبالجر عطفاً على إبراهيم. ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى لإيمانهم.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۖ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ نزلت في اليهود لما دَعوْا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية. ولو بمعنى أنْ. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وبَالُه إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم، أو ما يضلون إلا أمثالهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وِزره واختصاص ضرره بهم.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد ﷺ. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أنها آيات الله، أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعْتَه في الكتابين، أو تعلمون بالمعجزات أنه حق.

(٧١) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالتحريف وإبراز الباطل في صورته، أو بالتقصير في التمييز بينهما. وقرىء تَلَبَّسون بالتشديد وتلْبَسون بفتح الباء أي تلبسون الحق مع الباطل كقوله عليه السلام: «كلابس ثوبَيْ زور»[1] ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نبوة محمد عليه السلام ونعته. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عالمين بما تكتمونه.

(٧٢) ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي أظْهِروا الإيمان بالقرآن أول النهار. ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ واكفروا به آخره لعلهم يَشُكُّون في دينهم ظناً بأنكم رجعتم لخللٍ ظهر لكم، والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف[2] ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصَلّوا إليها أول النهار ثم صلّوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيَرْجِعون. وقيل اثنا عشر من أحبار خيبر تقاوَلُوا بأن يدخلوا في الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نَظَرْنا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنعت الذي ورد في التوراة لعل أصحابه يشكّون فيه.

(٧٣) ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ولا تُقِرّوا عن تصديق قلب إلا لأهل دينكم، أو لا تُظهِروا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٦٨١ رقم ١٢٦/ ٢١٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
وأخرج البخاري (٩/ ٣١٧ رقم ٥٢١٩) وأبو داود (٥/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠ رقم ٤٩٩٧) وأحمد في المسند (٦/ ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق مثله.

(٢) كعب بن الأشرف: هو كعب بن الأشرف الطائي، من نبهان: شاعر جاهلي، كانت أمه من بني النضر، فدان باليهودية، أدرك الإسلام ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، والتشبيب بنسائهم. أمر النبي ﷺ بقتله، فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.
[الأعلام للزركلي (٥/ ٢٢٥)].

إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان على دينكم فإن رجوعهم أرجى وأهمّ. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ هو يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبّته عليه. ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ متعلق بمحذوف أي دَبَّرْتُمْ ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد، والمعنى أن الحسد حملكم على ذلك، أو بلا تؤمنوا أي ولا تُظهِروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياعكم ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام. وقوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراض يدل على أن كيدهم لا يجدي بطائل، أو خبرُ إنّ على أنّ هدى الله بدل من الهدى. وقراءة ابن كثير أن يؤتى على الاستفهام للتقريع[1] تؤيد الوجه الأول أي إلا أن يؤتى أحد دَبَّرتم، وقرىء إنْ على أنها نافية فيكونُ من كلام الطائفة أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على أن يؤتى على الوجهين الأولين، وعلى الثالث معناه: حتى يحاجوكم عند ربكم فيُدْحِضوا حجتكم عند ربكم، والواو ضمير أحد لأنه في معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ رد وإبطال لما زعموه بالحجة الواضحة.

(٧٥) ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كعبدالله بن سلام استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقيةٍ ذهباً فأداه إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشي آخر ديناراً فجحده. وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة، والخائنون في القليل اليهود إذ الغالب عليهم الخيانة. وقرأ حمزة وأبو بكر وأبو عمرو يؤدّهْ إليك ولا يؤدّهْ إليك بإسكان الهاء، وقالون باختلاس كسرة الهاء وكذا روي عن حفص، والباقون بإشباع الكسرة. ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إلا مدة دوامك قائماً على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة البينة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله لا يؤده. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ بسبب قولهم. ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب ـ ولم يكونوا على ديننا ـ عتاب وذم. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة. وقيل عامل اليهودُ رجالاً من قريش فلما أسلموا تقاضوْهم فقالوا سقَط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك في كتابهم. وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر . . . . . .

(١) أي قراءته «أأن يؤتى...».

والفاجر»[١].

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

(٧٦) ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه أي بلى عليهم فيهم سبيل. ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استئناف مقرِّر للجملة التي سدت بلى مسدَّها، والضمير المجرور لمَنْ أو لله، وعموم المتقين ناب عن الراجع من الجزاء إلى مَنْ وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي.

(٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون. ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات. ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يَسُرُّهم أو بشيء أصلاً وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة، أو لا ينتفعون بكلمات الله وآياته، والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم لقوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإن من سَخِط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه. قيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد ﷺ وحُكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة[٢]. وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به[٣]. وقيل: نزلت في ترافع كان بين الأشعث بن قيس[٤] ويهودي في بئر أو أرض وتوجه الحلف على .....

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٣١٨) من طرق عن يعقوب القمي، عن جعفر، عن سعيد بن جبير به مرسلاً بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٣٢١) عن عكرمة، وفي إسناده ضعف. وليس فيه ذكر تبديل نعت النبي ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/٣١٦ رقم ٢٠٨٨) و(٥/٢١٦ رقم ٢٦٧٥) و(٨/٢١٣ رقم ٤٥٥١) من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

● وقال الحافظ في الفتح (٨/٢١٣) جمعاً بين حديث عبدالله بن أبي أوفى وحديث ابن مسعود: لا منافاة بينهما، ويحمل على أن النزول كان بالسببين جميعاً، ولفظ الآية أعم من ذلك.

(٤) الأشعث بن قيس بن معْدي كَرب بن معاوية بن جَبَلة بن عديِّ بن ربيعةَ بنِ معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن ثَور بن مُرْتِع بن كندة.
له صحبة، ورواية.
وأصيبت عينُه يوم اليرموك. وكان أكبرَ أمراء عليٍّ يومَ صفِّين. [الإصابة (١/٧٩) وطبقات ابن سعد (٦/٢٢)].

اليهودي[١].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ يعني المحرفين ككعب ومالك وحيي بن أخطب. ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف، أو يعطفونها بشبه الكتاب. وقرىء يلُون على قلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الضمير للمحرف المدلول عليه بقوله يلوون. وقرىء ليحسبوه بالياء والضمير أيضاً للمسلمين. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لقوله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وتشنيع عليهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً، أي ليس هو نازلاً من عنده. وهذا لا يقتضي أن لا يكون فعلُ العبد فعلَ الله تعالى[٢]. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه.

(٧٩) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تكذيب ورد على عبدة عيسى عليه السلام. وقيل: إن أبا رافع القرظي والسيد النجراني قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله أن نعبد غير الله وأن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني فنزلت[٣]. وقيل: قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٤٥ رقم ٢٥١٥، ٢٥١٦) و(٥/ ٢٧٩ رقم ٢٦٦٧) و(٥/ ٢٨٦ رقم ٢٦٧٦) و(٨/ ٢١٢ ـ ٢١٣ رقم ٤٥٥٠) و(١١/ ٥٤٤ رقم ٦٦٥٩، ٦٦٦٠) و(١١/ ٥٥٨ رقم ٦٦٧٦، ٦٦٧٧) و(١٣/ ١٧٧ رقم ٧١٨٣، ٧١٨٤).
ومسلم (١/ ١٢٢ ـ ١٢٣ رقم ٢٢٠/ ١٣٨).
وأبو داود (٣/ ٥٦٥ رقم ٣٢٤٣) والترمذي (٣/ ٥٦٩ رقم ١٢٦٩).
والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (١/ ٧٧) ـ كلهم من حديث ابن مسعود.

(٢) قوله «وما هو من عند الله» إظهار للاسم الجليل، وكذا قوله «وما هو من الكتاب» إظهار في موقع الإضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول (س٢/ ٥٢).

(٣) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٣٢٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٨٤) من طريق ابن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال حدثنا سعيد بن جبير، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: «اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله عز وجل فيهم «يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بَعْده» إلى قوله «والله وليُّ المؤمنين» [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨]، فقال =

نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أَكْرِموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله[١] ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ ولكن يقول كونوا ربانيين، والربانيّ منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللَّحياني والرقْباني، وهو الكامل في العلم والعمل. ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له، فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب تَعْلَمُون بمعنى عالمين. وقرىء تُدَرِّسُون من التدريس وتُدْرِسون من أدرس بمعنى دَرَس كأكرم وكرم، ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير وبما كنتم تدرسونه على الناس[٢].

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

(٨٠) ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ نصبه ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب عطفاً على ثم يقول، وتكون لا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله ما كان أي ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، أو غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أرباباً بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة، ورفعه الباقون على الاستئناف ويحتمل الحال، وقرأ أبو عمرو على أصله برواية الدوري باختلاس الضم. ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ إنكار،

أبو رافع القرظي حين اجتمع عنده النصارى والأحبار فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام أتُريدُ منَّا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني، يقال له الرُّبَّيسُ: وذلك تُريد يا محمد وإليه تدعو؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «معاذَ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره، وما بذلك بعثني ولا أمرني، فأنزل الله ـ عز وجل ـ في ذلك من قولهما: «ما كان لبشر أن يؤتيهُ اللهُ الكتابَ والحُكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا.

(١) أورده الحافظ في «الكافي الشافِ» رقم (٢٢١): وقال: لم أجد له إسناداً.
ونقله الواحدي في الأسباب ـ ص٩٦ ـ عن الحسن البصري «أن رجلاً، فذكره».
قلت: ومرسل الحسن البصري لا يحتج به.
وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن مرسلاً ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٥٠) ـ.

(٢) قوله تعالى «ما كان لبشر» إشعار بعلة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة إليهم.
وقوله «بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون»:
جعل خبر كان مضارعاً لإفادة الاستمرار التجددي.
وتكرير بما كنتم للإيذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية.
وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها، أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثاني لمن دونهم (س٢/ ٥٣).

والضمير فيه للبشر وقيل لله. ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذِنون لأن يسجدوا له.

(٨١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قيل إنه على ظاهره، وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأمم به أولى. وقيل معناه أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممِهم واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم. وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الفاعل، والمعنى وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثّقه الأنبياء على أممهم. وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو إسرائيل، أو سماهم نبيين تهكماً لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب والنبيون كانوا مِنا. واللام في لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف، وما تحتملُ الشرطية، ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية. وقرأ حمزة لِمَا بالكسر على أنّ ما مصدرية أي لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب ثم مجيءِ رسولٍ مصدق له أخَذَ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه، أو موصولة والمعنى أخذه للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له، وقرىء لَمَّا بمعنى حين آتيتكم أو لِمَنْ أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقالاً، وقرأ نافع آتيناكم بالنون والألف جميعاً. ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي عهدي، سمي به لأنه يُوْصَرُ أي يُشَدّ. وقرىء بالضم[1] وهو إما لغة فيه كعُبْر وعِبْر أو جمع إصار وهو ما يشد به. ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، وقيل الخطاب فيه للملائكة. ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وأنا أيضاً على إقراركم وتشاهُدِكُم شاهدٌ، وهو توكيد وتحذير عظيم.

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٨٢) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد الميثاق والتوكيدِ بالإقرار والشهادةِ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة.

(٨٣) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ عَطْفٌ على الجملة المتقدمة، والهمزة متوسطة بينهما للإنكار، أو محذوف تقديره أتتولون فغير دين الله تبغون. وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار. والفعْلُ بلفظ الغيبة عند أبي عمرو وعاصم في رواية حفص ويعقوب، وبالتاء عند الباقين على تقدير وقل له. ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجىء إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت، أو مختارين ـ كالملائكة والمؤمنين ـ ومسخَّرين كالكفرة فإنهم لا يقدرون أن يمتنعوا عما قُضِي عليهم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وقرىء بالياء على أن الضمير لمن[2].

---

(١) أي بضم الهمزة (أُصْري).

(٢) وقرىء بتاء الخطاب «وإليه تُرجعون».

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾

(٨٤) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان والقرآن، كما هو منزل عليهم بتوسط تبليغه إليهم، وأيضاً المنسوب إلى واحد من الجمع قد ينسب إليهم، أو بأن يتكلم عن نفسه على طريقة الملوك إجلالاً له. والنزول كما يُعدّى بإلى لأنه ينتهي إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق، وإنما قُدِّم المنزَّلُ عليه السلام على المنزل على سائر الرسل لأنه المعرَّف له والعيار عليه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالتصديق والتكذيب. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون أو مخلصون في عبادته[١].

(٨٥) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله. ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الواقعين في الخسران، والمعنى أن المُعْرِض عن الإسلام والطالبَ لغيره فاقد للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فُطِر الناسُ عليها. واستُدِل به على أن الإيمان هُو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل، والجواب إنه ينفي قبول كل دين يغايره لا قبول كل ما يغايره، ولعل الدين أيضاً للأعمال[٢].

(٨٦) ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ استبعاد لأن يهديهم الله فإن الحائد عن الحق بعد ما وَضَح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد. وقيل نفيٌ وإنكار له وذلك يقتضي أن لا تُقبل توبة المرتد[٣]، وشهِدوا عطفٌ على ما في إيمانهم من معنى الفعل ونظيره فأصّدّق وأكُن، أو حال بإضمار قد مِنْ كفروا وهو على الوجهين دليلٌ على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظرِ وَوَضْعِ الكفرِ موضعَ الإيمان، فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه؟!

---

(١) «الأسباط» جمع سبط وهو الحافد، والمراد بهم حفَدَة يعقوب عليه السلام.
وخص موسى وعيسى من بين النبيين لأن الكلام مع اليهود والنصارى.
وذكر عدم التفريق بين أحد منهم ولم يتعرض لنفي التفريق بين الكتب لأنه ذلك مستلزم له (س٢/ ٥٥).

(٢) الإسلام هنا بمعنى الدين الذي جاء به محمد ﷺ، لا الإسلام الذي هو مرتبة من مراتب الشريعة.

(٣) والقول الأول أولى، فإن توبة المرتد تُقبل. ويدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى: «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا..» ـ آل عمران «٨٩» ـ.

أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

(٨٧) ﴿أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه على نفي جواز لعن غيرهم، ولعل الفرق أنهم مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مؤيسون عن الرحمة رأساً بخلاف غيرهم، والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فإن الكافر أيضاً يلعن مُنكِر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه.

(٨٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو العقوبة أو النار، وإن لم يجز ذكرهما لدلالة الكلام عليهما. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد. ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا، ويجوز أن لا يقدّر له مفعول، بمعنى ودخلوا في الصلاح. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يقبل توبته. ﴿رَّحِيمٌ﴾ يتفضل عليه. قيل: إنها نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على رِدّته فأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجُلاّس بالآية فرجع إلى المدينة فتاب[1].

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ كاليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد الإيمان بموسى والتوراة ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، أو كفروا بمحمد بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق، أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفراً بقولهم نتربص بمحمد ريب المنون أو نرجع إليه وننافقُه بإظهاره. ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأنهم لا يتوبون، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا على الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة، أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وزيادة كفرهم، ولذلك لم تدخل الفاء فيه. ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

(٩١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ لمّا كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية أَدْخَلَ الفاء ههنا للإشعار به. وملءُ الشيء ما يملؤه. وذهباً نصب على

---

(١) أخرجه ابن حبان (رقم ١٧٢٨ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٢٤٢) وابن جرير الطبري (٣/ ٣٤٠) والنسائي (٧/ ١٠٧ رقم ٤٠٦٨).
كلهم من طريق يزيد بن زريع عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
وأخرجه أحمد (١/ ٢٤٧) من طريق علي بن عاصم عن داود به مختصراً، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده.

التمييز. وقرىء بالرفع على البدل من ملء أو الخبر لمحذوف. ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦ﴾ محمول على المعنى كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تقرب به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة، أو المراد ولو افتدى بمثله قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ﴾[1] والمثل يحذف ويراد كثيراً لأن المثلين في حكم شيء واحد ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مبالغة في التحذير وإقناطٌ لأن من لا يقبل منه الفداء ربما يعفى عنه تكرماً ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ في دفع العذاب. ومن مزيدة للاستغراق[2].

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾

(٩٢) ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ أي لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا برّ الله الذي هو الرحمة والرضى والجنة. ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من المال، أو ما يعمه وغيره كبذل الجاه في معاونة الناس، والبَدَن في طاعة الله والمهجة في سبيله. روي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إلي بيرحاء فضعها حيث أراك الله، فقال: بخ بخ ذاك مال رابح أو رائح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين[3]. وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، فقال: زيد إنما أردت أن أتصدق بها، فقال عليه السلام: «إن الله قد قبلها منك»[4]. وذلك يدل على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل، وأن الآية تعم الإنفاق الواجب والمستحب. وقرىء بعض ما تحبون وهو يدل على أن مِنْ للتبعيض ويحتمل التبيين. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾ أي من أي شيء محبوب أو غيره ومن لبيان ما. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بحسبه.

(٩٣) ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي المطعومات والمراد أكْلُها. ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ حلالاً لهم، وهو مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث قال تعالى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾[5] ﴿إِلَّا

---

(١) المائدة: «٣٦».

(٢) «ناصرين» صيغة الجمع لمراعاة الضمير، أي ليس لواحد منهم ناصر واحد (س٢/ ٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٣٢٥ رقم ١٤٦١) و(٤/ ٤٩٣ رقم ٢٣١٨) و(٥/ ٣٩٦ رقم ٢٧٦٩) و(٨/ ٢٢٣ رقم ٤٥٥٤) و(١٠/ ٧٤ رقم ٥٦١١) ومسلم (٢/ ٦٩٣ رقم ٤٢/ ٩٩٨) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٥ رقم ٢) من حديث عن أنس بن مالك.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣٤٨) عن عمرو بن دينار مرسلاً. ورجاله ثقات وكذلك أخرجه عن أيوب معضلاً وانظر «الكافي الشافي» رقم (٢٢٤) لابن حجر.

(٥) الممتحنة: «١٠».

مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ يعقوب. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ كلحوم الإبل وألبانها. وقيل كان به عِرْق النَّسَا فنذر إن شفي لم يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه[١]. وقيل: فعل ذلك للتداوي بإشارة الأطباء. واحتج به من جوز للنبي أن يجتهد، وللمانع أن يقول ذلك بإذن من الله فيه فهو كتحريمه ابتداء. ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديداً، وذلك رد على اليهود في دعوى البراءة مما نعى عليهم في قوله تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾[٢] وقوله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾[٣] الآيتين، بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومَنْ بعده حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، وفي منع النسخ والطعن في دعوى الرسول عليه السلام موافقةُ إبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل وألبانها. ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أمر بمحاجتهم بكتابهم وتبكيتهم بما فيه من أنه قد حرم عليهم بسبب ظلمهم ما لم يكن محرماً. روي: أنه عليه السلام لما قاله لهم بُهِتوا ولم يَجْسُروا أن يخرجوا التوراة، وفيه دليل على نبوته.

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

(٩٤) ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ابتدعه على الله بزعمه أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن قبلهم. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين لا ينصفون من أنفسهم ويكابرون الحق بعدما وضح لهم[٤].

(٩٥) ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ تعريض بكذبهم، أي ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، أو مثل ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التي اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة لتسوية الأغراض الدنيوية وألزمتكم تحريم طيبات

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٢) من طريق الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً: أن إسرائيل أخذه عرق النساء فطار ببيت فجعل إن شفاه الله أن لا يأكل لحماً فيه عروق قال فحرمته اليهود فنزلت: «كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» إن هذا كان قبل التوراة.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
● وأخرجه أحمد (١/ ٢٧٨) من طريق عبدالحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب عن ابن عباس مرفوعاً مثله.
وعبدالحميد بن بهرام: صدوق. وشهر بن حوشب ليس بالقوي.

(٢) النساء: «١٦٠».

(٣) الأنعام: «١٤٦».

(٤) «فأولئك» ما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الضلال (س٢/ ٥٩).

أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه[١] ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعريض بشرك اليهود.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

(٩٦) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي وضع للعبادة وجُعل متعبداً لهم، والواضع هو الله تعالى. ويدل عليه أنه قرىء على البناء للفاعل[٢]. ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ للبيت الذي ببكة[٣]، وهي لغة في مكة كالنبيط والنميط وأمرٌ راتبٌ وراتم ولازب ولازم، وقيل هي موضع المسجد. ومكة البلد من بَكَّة إذا زحمه، أو من بكه إذا دقه فإنها تبك أعناق الجبابرة روي أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال: المسجد الحرام ثم بيت المقدس. وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة[٤]. وقيل أول من بناه إبراهيم ثم هُدِم، فبناه قوم من جَرْهم، ثم العمالقة، ثم قريش. وقيل هو أول بيت بناه آدم فانطمس في الطوفان، ثم بناه إبراهيم. وقيل: كان في موضعه قبل آدم بيت يقال له الضَّراح يطوف به الملائكة، فلما أهبط آدم أمر بأن يحجه ويطوف حوله ورفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات وهو لا يلائم ظاهر الآية. وقيل المراد إنه أول بيت بالشرف لا بالزمان. ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله، حال من المستكنّ في الظرف ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال:

(٩٧) ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، وأن ضواري السباع تخالط الصيود في الحرم ولا تتعرض لها، وإن كل جبار قصده بسوء قهره الله كأصحاب الفيل. والجملة مفسرة للهدى، أو حال أخرى. ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مبتدأ محذوف خبره أي منها مقام إبراهيم، أو بدل من آيات بدل البعض من الكل. وقيل عطف بيان على أن المراد بالآيات أَثَرُ القدم في الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين وتخصيصُها بهذه الإلانة من بين الصخار وإبقاؤُه دون سائر آثار الأنبياء وحفظُه مع كثرة أعدائه ألوف سنة، ويؤيده أنه قرىء آيةٌ بينة على التوحيد. وسبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة فغاصت فيه قدماه. ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ

---

(١) «فاتبِعوا» الفاء للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه (س٢/ ٥٩).

(٢) أي «وَضَعَ للناس».

(٣) قوله تعالى: «للذي ببكة» خبر إنّ، وأخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين: الإضافة والوصف بالجملة بعدها أي للبيت الذي ببكة (س٢/ ٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٤٠٧ رقم ٣٣٦٦) و(٦/ ٤٥٨ رقم ٣٤٢٥) ومسلم (١/ ٣٧٠ رقم ١/ ٥٢٠) كلاهما من طرق عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر.

﴿ءَامِنًا﴾ جملة ابتدائية، أو شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام لأنه في معنى أَمِنَ مَنْ دخله أي ومنها أَمْنُ من دخله، أو فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأَمْنُ من دخله. اقتَصَر بذكرهما من الآيات الكثيرة وطوى ذِكْر غيرهما كقوله عليه السلام «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة»[١] لأن فيهما غُنْيَةً عن غيرهما في الدارين بقاءَ الأَثَرِ مدى الدهْر والأَمْنَ من العذاب يوم القيامة. قال عليه السلام «من مات في أحد الحرمين، بعث يوم القيامة آمناً»[٢]. وعند أبي حنيفة من لزمه القتل بِرِدَّة أو قصاص أو غيرهما والتجأ إلى الحرم لم يُتعرض له ولكن أُلْجِىء إلى الخروج. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ قصده للزيارة على الوجه المخصوص. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص حِجُّ بالكسر وهو لغة نجد[٣]. ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص له، وقد فسر رسول الله ﷺ الاستطاعة بالزاد والراحلة[٤] وهو يؤيد قول الشافعي رضي الله تعالى عنه إنها بالمال، ولذلك أَوْجَبَ الاستنابة على الزمن إذا وَجَدَ أُجْرة من ينوب عنه. وقال مالك

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٦١) وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) من حديث أنس بن مالك. وإسناده حسن.

(٢) وهو حديث ضعيف.

● أخرجه البيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٩٠ رقم ٤١٥٨) من طريق ابن أبي قديك عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس به وزاد «ومن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة».

وفيه سليمان بن يزيد الكعبي الخزاعي منكر الحديث ليس بقوي، قاله أبو حاتم في الجرح (٣/ ١٤٩).

● وأخرجه الطيالسي في المسند (ص١٢ ـ ١٣) والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٨٨ رقم ٤١٥٣) وفي «السنن الكبرى» (٥/ ٢٤٥) من طريق سوار بن ميمون أبو الجراح العبدي حدثني رجل من آل عمر عن عمر به. وفيه رجل من آل عمر: مجهول.

● وأخرجه الدارقطني في السنن (٢/ ٢٧٨ رقم ١٩٣) من رواية هارون بن أبي قَزعة عن رجل من آل حاطب، عن حاطب به وفيه هارون بن أبي قزعة: ضعيف. ورجل من آل حاطب مجهول.

● وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٩٦ رقم ٤١٨٠) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٠ رقم ٦١٠٤) من حديث عبدالغفور بن سعيد الأنصاري عن أبي هاشم الرماني عن زاذان، عن سلمان عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي وجاء يوم القيامة من الآمنين».

قال البيهقي: عبدالغفور هذا ضعيف. وروي بإسناد آخر أحسن من هذا. ثم ذكر طريق عبدالله بن المؤمل (٣/ ٤٩٧ رقم ٤١٨١).

وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢١٨) من طريق عبدالله بن المؤمل أيضاً.

وتعقبه السيوطي في اللآلىء (٢/ ١٢٩) فقال: أفرط المؤلف في إيراد هذين الحديثين في الموضوعات. ثم قال: والذي أستخير الله فيه وأحكم لمتن الحديث بالحسن لكثرة شواهده ثم ذكر الطرق المذكورة، والتي لا تصل بالحديث إلى درجة الحسن لغيره فهو حديث ضعيف بجميع طرقه.

وانظر تنزيه الشريعة لابن عراق (٢/ ١٧٣) والكافي الشافِ لابن حجر رقم (٢٣١).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وعاصم برواية أبي بكر (حَجُّ البيت) بفتح الحاء (المبسوط) (ص١٤٦).

(٤) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٩٦٧ رقم ٢٨٩٧) وإسناده ضعيف لأن فيه «سويد بن سعيد» قال فيه الحافظ في التقريب: (١/ ٣٤٠) صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه، وأفحش فيه ابن معين القول.

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

رحمه الله تعالى إنها بالبدن فيجب على من قَدِر على المشي والكسب في الطريق. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى إنها بمجموع الأمرين[١]. والضمير في إليه للبيت أو الحج، وكل ما أتى إلى الشيء فهو سبيله. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وَضَعَ كَفَرَ موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، ولذلك قال عليه السلام «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»[٢]. وقد أُكِّدَ أمرُ الحج في هذه الآية من وجوه الدلالة على وجوبه بصيغة الخبر، وإبرازِه في الصورة الاسمية، وإيرادِه على وجهٍ يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أولاً ثم تخصيصِه ثانياً فإنه كإيضاح بعد إبهام وتثنية وتكرير للمراد، وتسميةِ ترك الحج كفراً من حيث إنه فِعْلُ الكفرة، وذكرِ الاستغناء فإنه في هذا الموضع مما يدل على المقت والخذلان. وقولُه ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدل عليه لما فيه من مبالغة التعميم والدلالة على الاستغناء عنه بالبرهان والإشعار بعِظَمِ السُّخْط، لأنه تكليف شاق جامع بين كسر النفس وإتعاب البدن وصرف المال والتجرد عن الشهوات والإقبال على الله. روي أنه لما نزل صَدْرُ الآية جَمَعَ رسول الله ﷺ أرباب الملل فخطبهم وقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحُجُّوا». فآمنت به ملة واحدة وكفرت به خمسُ ملل، فنزل ومَنْ كَفَرَ[٣].

---

(١) ما ذهب إليه أبو حنيفة من تفسير الاستطاعة بمجموع الأمرين أي الاستطاعة البدنية والمالية هو الأولى.
وما وقع من بعض الأحاديث في بيان الاستطاعة بأنها الزاد والراحلة فإنه بيان لبعض شروط الاستطاعة، وتؤخذ بقية الشروط من أدلة أخرى. ولم يتعرض لصحة البدن لظهور الأمر. وعليه فتفسر الاستطاعة بعمومها.

(٢) أخرجه الترمذي (٣/ ١٧٦ رقم ٨١٢) من حديث علي.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال.
وهلال بن عبدالله مجهول، والحارث يُضعَّفُ في الحديث.
وقال ابن حجر في التقريب (٢/ ٣٢٤): عن هلال بن عبدالله هذا بأنه متروك.
وأخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٥٨٠) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٣٤٨) في ترجمة هلال، ونقلاً عن البخاري أنه منكر الحديث.
وقال ابن عدي: ليس الحديث بمحفوظ.
وله شاهد من حديث أبي أمامة:
أخرجه الدارمي (٢/ ٢٨) والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٣٠ رقم ٣٩٧٩) وفي السنن الكبرى (٤/ ٣٣٤) عنه مرفوعاً بلفظ «من لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً».
وفيه: شريك القاضي: صدوق يخطىء كثيراً، تغير حفظه منذ ولي القضاء. [التقريب (١/ ٣٥١)].
وليث بن أبي سليم: صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك. [التقريب (٢/ ١٣٨)].
وعبدالرحمن بن سابط الجمحي المكي: ثقة كثير الإرسال. [التقريب (١/ ٤٨٠)].
والخلاصة أن الحديث ضعيف. انظر «الكافي الشافِ» رقم (٢٣٦)، والموضوعات لابن الجوزي (٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢٠) من طريق جويبر عن الضحاك وهو معضل ـ لأن الضحاك بينه وبين النبي ﷺ واسطتان ـ وجويبر متروك الحديث ساقط. وانظر «الكافي الشافِ» رقم (٢٣٨).

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بآياته السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدّعيه من وجوب الحج وغيره. وتخصيصُ أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، لأن معرفتهم بالآيات أقوى وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما. ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ والحال أنه شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها لا ينفعكم التحريف والاستسرار[١].

(٩٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ كرر الخطاب والاستفهام مبالغةً في التقريع ونفيِ العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مُستَقْبَح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب[٢]. وسبيلُ الله في دينه الحقُّ المأمور بسلوكه وهو الإسلام. قيل كانوا يَفتنون المؤمنين ويُحَرِّشون بينهم حتى أتوْا الأوس والخزرج فذكّروهم ما بينهم في الجاهلية من التعادي والتحارب ليعودوا لمثله ويحتالون لصدهم عنه. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ حال من الواو أي باغين طالبين لها اعوجاجاً بأن تُلبِسوا على الناس وتوهموا أن فيه عوجاً عن الحق بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله ﷺ ونحوهما، أو بأن تحرِّشوا بين المؤمنين لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم. ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ إنها سبيل الله والصدُّ عنها ضلال وإضلال، أو أنتم عُدول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في القضايا. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم. ولما كان المُنكَرُ في الآية الأولى كُفْرُهم وهم يجهرون به خَتَمَها بقوله ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ولما كان في هذه الآية صدُّهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يُخْفونه ويحتالون فيه قال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[٣] نزلت في نفر من الأوس والخزرج كانوا جلوساً يتحدثون، فمر بهم شاس بن قيس اليهودي فغاظه تألُّفهم واجتماعهم فأَمَرَ شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكِّرَهم يوم بُعاث ويُنْشِدَهم بعض ما قيل فيه، وكان الظَّفَر في ذلك اليوم للأوس، ففعل، فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاحَ السلاحَ، واجتمع مع القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابُه وقال «أتدعون الجاهلية وأنا بين أَظْهُرِكم

---

(١) قوله تعالى: «والله شهيد..» إظهار الجلالة في مع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب. وصيغة المبالغة في شهيد للتشديد في الوعيد (س٢/ ٦٣).

(٢) ولذلك لم يعطفه على سابقه.

(٣) تلوين الخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين تحذيراً لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم. إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعاً لهم عن ذلك.
وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم.. (س٢/ ٦٤).

بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألَّفَ بين قلوبكم» فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع رسول الله ﷺ[1]. وإنما خاطبهم الله بنفسه بعدما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ إنكار وتعجيبٌ لكفرهم في حال اجتمع لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر[2]. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه أو يلتجىء إليه في مجامع أموره. ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقد اهتدى لا مَحالة[3].

(١٠٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حق تقواه وما يجب منها، وهو استفراغُ الوُسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كقوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[4] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: هو أن يُطيع فلا يَعصي، ويَشكر فلا يَكفر، ويَذكُر فلا يَنسى، وقيل هو: أن تنزه الطاعةَ عن الالتفات إليها وعن توقع المجازاة عليها، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب. وأصل تقاة وُقْية، فقلبت واوها المضمومةُ تاء كما في تُؤَدَة وتخْمة والياءُ ألِفاً[5]. ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، فإن النهي عن المُقَيَّد بحالٍ أو غيرِها قد يَتوجّه بالذات نحو الفعلِ تارةً والقيدِ أخرى وقد يَتوجه نحو المجموع دونهما، وكذلك النفي.

(١٠٣) ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه لقوله عليه السلام: «القرآن حبل الله المتين»[6]. استعار له الحبل من حيث إن التمسك به سبب للنجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٧٨) ـ وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ ج٤/ ٢٣) عن زيد بن أسلم وفي سنده ضعف.

(٢) عدم إسناد التلاوة إلى رسول الله ﷺ للإيذان باستقلال كل منهما في الباب (س٢/ ٦٥).

(٣) وصف الصراط بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبغونها عوجاً (س٢/ ٦٥).

(٤) التغابن: «١٦».

(٥) تكرير الخطاب بيا أيها الذين آمنوا تشريف إثر تشريف لنِدائهم بوصف الإيمان (س٢/ ٦٥).

(٦) أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٢ رقم ٢٩٠٦) من حديث علي مطولاً وفيه قصة.
وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول. وفي الحارث مقال.
قلت: قوله وإسناده مجهول: لجهالة أبي المختار الطائي، وابن أخي الحارث الأعور [التقريب: (٢/ ٤٧٠، ٥٣٤)].
=

سبب للسلامة من التردي والوثوقِ به والاعتماد عليه الاعتصام ترشيحاً للمجاز. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين عليه ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أي ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب، أو لا تتفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف وزوال الغِلّ. ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ في الجاهلية متقاتلين. ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام. ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله. وقيل كان الأوس والخزرج أخوين فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بينهم برسوله ﷺ. ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مشفين على الوقوع في نار جهنم لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم في النار. ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام. والضمير للحفرة، أو للنار، أو للشَّفا، وتأنيثه لتأنيث ما أُضيف إليه أو لأنه بمعنى الشَّفة فإن شفا البئر وشفتها طرفُها كالجانب والجانبة، وأصله شَفَوٌ فقلبت الواو ألفاً في المذكر وحذفت في المؤنث. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى وازديادكم فيه.

= وأخرجه الدارمي (٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥) والبزار في مسنده (٣/ ٧١ رقم ٨٣٦) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٤٨٢).

كلهم من طرق عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث عن الحارث به.

وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى إلا عن علي، ولا نعلم رواه عن علي إلا الحارث.

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

وقال الحافظ في «الكافي الشافِ» (رقم ٢٤٥): «وله شاهد عن معاذ بن جبل، أخرجه الطبراني من رواية عمرو بن واقد، عن يونس بن ميسرة، وعن ابن إدريس بلفظ «ذكر رسول الله ﷺ الفتن فشدّدها. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما المخرج منها؟ قال: كتاب الله ـ فذكر الحديث بطوله ـ».

قلت: فيه عمرو بن واقد الدمشقي مولى قريش متروك [التقريب: (٢/ ١٨)].

وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٥) من حديث ابن مسعود مرفوعاً أيضاً بلفظ: «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.

اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول (آلم) حرف ولكن ألف ولام وميم».

قال الحاكم: «هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر» وقال الذهبي: «صالح ثقة خرج له مسلم. لكن إبراهيم بن مسلم ضعيف».

قلت: هنا متابعان لإبراهيم في رفعه، لكن ليس فيه قوله: القرآن حبل الله....

(الأول): عطاء بن السائب عن أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعاً، عند الخطيب في تاريخه (١/ ٢٨٥).

(الثاني): عاصم بن أبي النجود عن أبي الأحوص عنه، عند الحاكم (١/ ٥٦٦) كلاهما بلفظ: اقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول (آلم) حرف ولكن (ألف) عشر و(لام) عشر و(ميم) عشر».

وحسن المحدث الألباني هذا القدر لمتابعة أحدهما للآخر.

انظر الصحيحة رقم (٦٦٠).

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

(١٠٤) ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ﴾ مِنْ للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يَصْلُحُ له كل أحد إذ للمتصدي له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها. خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً ولكن يسقط بفعل بعضهم، وهكذا كل ما هو فرض كفاية. أو للتبيين بمعنى وكونوا أمة يَدْعون وقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1]. والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، وعطفُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطفُ الخاص على العام للإيذان بفضله[2]. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المخصوصون بكمال الفلاح. روي أنه عليه السلام سئل من خير الناس فقال «آمَرُهُم بالمعروف وأَنْهاهُم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلُهم للرحم»[3]. والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يُؤمَر به، والنهي عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. والأظهر أن العاصي يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركُه وإنكارُه فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر.

(١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ كاليهود والنصارى اختلفوا في التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة على ما عرفت. ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه. والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع لقوله عليه السلام «اختلاف أمتي رحمة»[4]. ولقوله عليه الصلاة والسلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد»[5].

---

(١) آل عمران: «١١٠».

(٢) حذف المفعول من الأفعال الثلاثة: يدعون ويأمرون وينهوْن إما للإيذان بظهوره أي يدعون الناس ويأمرونهم وينهونهم، أو للقصد إلى إيجاد نفس الفعل كما في قولك فلان يعطي ويمنع (س٢/٦٨).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/٤٣٢) والطبراني في الكبير (٢٤/٢٥٧ رقم ٦٥٧) كلاهما من رواية سماك عن عبدالله بن عميرة، عن زوج درة، عن درة به.
وأورده الهيثمي في «المجمع» وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات».

(٤) لا أصل له. بل باطل سنداً ومعنى. وقد نقل العلامة المناوي في فيض القدير (١/٢١٢) عن السبكي أنه قال: «وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع» هـ.
وانظر تذكرة الموضوعات للفتني ص٩٠، والمقاصد الحسنة للسخاوي ص٦٩ وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/٧٦ رقم ٥٧) وغيرها.

(٥) أخرجه البخاري (١٣/٣١٨ رقم ٧٣٥٢) ومسلم (٣/١٣٤٢ رقم ١٧١٦) وأبو داود (٤/٧ رقم ٣٥٧٤) وابن ماجة (٢/٧٧٦ رقم ٢٣١٤).
من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر». =

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد للذين تفرقوا وتهديد على التشبه بهم.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ نصب بما في لهم من معنى الفعل، أو بإضمار اذكر. وبياضُ الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه[١]. وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ على إرادة القول أي فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، وهم المرتدون أو أهل الكتاب كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه، أو جميعُ الكفار كفروا بعدما أقروا به حين أشهدهم على أنفسهم أو تمكنوا من الإيمان بالنظر في الدلائل والآيات[٢]. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أمر إهانة. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو جزاء لكفركم[٣].

(١٠٧) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني الجنة والثواب المخلد، عَبّر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، وكان حقُّ الترتيب أن يُقدَّمَ ذكرهم لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حليةَ المؤمنين وثوابَهم. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أخرجه مخرج الاستئناف للتأكيد كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال هم فيها خالدون.

(١٠٨) ﴿تِلْكَ آيَٰتُ اللَّهِ﴾ الواردة في وعده ووعيده ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها[٤]. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ يستحيل الظلم منه لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق كما قال[٥].

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازي كلاً بما وعد له

= وأخرج الترمذي (٣/ ٦١٥ رقم ١٣٢٦) والنسائي (٨/ ٢٢٣ رقم ٥٣٨١) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ، فله أجرٌ واحد».
قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقد صححه الألباني في الإرواء (٨/ ٢٢٣ رقم ٢٥٩٨).

(١) والأولى حمل بياض الوجه وسواده على الظاهر، إذ لا يوجد ما يمنعه.

(٢) قدم قوله «وأما الذين اسودت وجوههم» لأن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم (س٢/ ٦٩).

(٣) جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل «بما كنتم تكفرون» للدلالة على استمرار كفرهم، أو على مضيه في الدنيا (س٢/ ٦٩).

(٤) والالتفات في «نتلوها» لإبراز كمال العناية بالتلاوة (س٢/ ٧٠).

(٥) قوله «وما الله يريد ظلماً للعالمين» تذييلٌ مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وآكده، فإن تنكيرَ الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارع وتعليقَ الحكم بآحاد الجمع المعرف والالتفاتَ إلى الاسم الجليل للإشعارِ بعلة الحكم بيانٌ لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه (س٢/ ٧٠). =

وأوعد[١].

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

(١١٠) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ دل على خيريتهم فيما مضى ولم يدل على انقطاع طَرَأَ كقوله تعالى ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ وقيل كنتم في علم الله أو في اللوح المحفوظ أو فيما بين الأمم المتقدمين. ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أظهرت لهم. ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ استئناف بُيِّن به كونهم خير أمة، أو خبر ثان لكنتم. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، لأن الإيمان به إنما يحق ويُعتدّ به إذا حصل الإيمان بكل ما أُمِرَ أن يؤمن به. وإنما أخره وحقه أن يُقدَّم لأنه قصَدَ بذكْره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيماناً بالله وتصديقاً به وإظهاراً لدينه. واستُدِل بهذه الآية على إن الإجماع حجة لأنها تقتضي كونَهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، إذ اللام فيهما للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك. ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ﴾ إيماناً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه. ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر، وهذه الجملة والتي بعدها واردتان على سبيل الاستطراد.

(١١١) ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ ضرراً يسيراً كطَعْنٍ وتهديد. ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ ينهزموا ولا يضروكم بقتل وأسر. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم، نفى إضرارَهم سوى ما يكون بقول وقرَّرَ ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدُّبُرةُ عليهم، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان. وقرىء لا يُنْصَرُوا عطفاً على يولّوا على أن ثم للتراخي في الرتبة فيكون عدم النصر مقيداً بقتالهم. وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع إذ كان ذلك حال قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ هدر النفس والمال والأهل، أو ذل التمسك بالباطل والجزية. ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ استثناء من أعم عام الأحوال، أي ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا معتصمين أو ملتبسين بذمة الله أو كتابه الذي آتاهم وذمة المسلمين أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ رجعوا به مستوجبين له ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

---

(١) إيراد كلمة «ما» إما لتغليب غير العقلاء على العقلاء أو لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهاراً لحقارتهم في مقام بيان عظمته تعالى (س٢/ ٧٠).

﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، واليهود في غالب الأمر فقراء ومساكين. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبَوْء بالغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء. والتقييدُ بغير حق مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً[1]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الكفر والقتل. ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر والاستمرارُ عليها يؤدي إلى الكفر. وقيل معناه أن ضرب الذلة في الدنيا واستيجاب الغضب في الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث إنهم مخاطبون بالفروع أيضاً.

﴿لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

(١١٣) ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ في المساوي، والضمير لأهل الكتاب. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ استئناف لبيان نفي الاستواء[2]، والقائمة المستقيمة العادلة من أقمت العود فقام وهم الذين أسلموا منهم. ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يتلون القرآن في تهجدهم. عبر عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح. وقيل المراد صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روي أنه عليه الصلاة والسلام آخرها ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيرُكم»[3].

(١١٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

---

(١) إسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به، كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم (س٢/ ٧٢).

(٢) وضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين، والإيذان بأن تلك الأمة ممن أوتي نصيباً وافراً من الكتاب (س٢/ ٧٣).

(٣) وهو حديث حسن.
أخرجه أحمد (١/ ٣٩٦) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٧/ ٢٥) ـ وابن حبان (رقم: ٢٧٤ ـ موارد)، والبزار في كشف الأستار (١/ ١٩٠ ـ ١٩١) من حديث ابن مسعود.
وأورده الهيثمي في المجمع (١/ ٣١٢) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الكبير.
● وله شاهد من حديث عائشة، أخرجه البخاري (٢/ ٤٧ رقم ٥٦٦) و(٢/ ٤٩ رقم ٥٦٩) و(٢/ ٣٤٩ رقم ٨٦٢) و(٢/ ٣٤٧ رقم ٨٦٤).
ومسلم (١/ ٤٤١ رقم ٦٣٨/٢١٨) بلفظ «ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم وذلك قبل أن يفشو الإسلام في الناس».
● وشاهد آخر من حديث ابن عمر، أخرجه البخاري (٢/ ٥٠ رقم ٥٧٠) ومسلم (١/ ٤٤٢ رقم ٦٣٩/٢٢٠) وأبو داود (١/ ١٣٧ رقم ١٩٩) نحوه.

صفات أخر لأمة، وَصَفَهم بخصائصَ ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين في الليل مشركون بالله ملحدون في صفاته واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته مداهنون في الاحتساب متباطئون عن الخيرات [١].

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناءَه.

وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

(١١٥) ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾ فلن يَضيع ولا ينقص ثوابُه البتة. سمّي ذلك كفراناً كما سمي توفية الثواب شكراً، وتعديته إلى مفعولين لتضمنه معنى الحرمان. وقرأ حفص وحمزة والكسائي وما يفعلوا من خير فلن يكفروه بالياء والباقون بالتاء. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى [٢].

(١١٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ من العذاب، أو من الغَناء فيكون مصدراً. ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ﴾ ملازموها. ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(١١٧) ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرةُ قربةً أو مفاخرة وسمعة، أو المنافقون رياء أو خوفاً. ﴿ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد، والشائع إطلاقه للريح الباردة كالصرصر، فهو في الأصل مصدر نُعِتَ بِهِ أو نَعْتٌ وُصِف به البرد للمبالغة كقولك برد بارد. ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ﴾ عقوبة لهم لأن الإهلاك عن سخط أشد، والمراد تشبيه ما أنفقُوا في ضياعه بحرْثِ كفار ضربته صِرّ فاستأصلته ولم يبقَ لهم فيه منفعة ما في الدنيا والآخرة، وهو من التشبيه المركّب ولذلك لم يبالِ بإيلاء كلمة التشبيه للريح دون الحرث، ويجوز أن يقدرَ كمَثَل مَهْلِك ريح وهو الحرث. ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ما ظَلَمَ المنفقين بضَياع نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم لما لم ينفقوها بحيث يعتدّ بها، أو ما ظُلِمَ أصحابُ الحرث بإهلاكه ولكنهم ظَلَموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به . . . . . .

---

(١) قوله «يسارعون في الخيرات» فقال في الخيرات ولم يقل إلى الخيرات كما وقع في قوله تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» ـ آل عمران ـ للإيذان بأنهم مستقرون في أصل الخير متقلبون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل، لا أنهم خارجون عنها منتهون إليها.
«وأولئك من الصالحين» آثر اسم الإشارة على الضمير للإشعار بعلة الحكم والمدح (س٢/ ٧٤).

(٢) قوله «فلن يُكفَرُوه» إيثار صيغة البناء للمفعول للجري على سنن الكبرياء (س٢/ ٧٤).

العقوبة[١] . وقرىء ولكنّ أي ولكنّ أنفسَهم يظلمونها، ولا يجوز أن يُقدَّر ضميرُ الشأن لأنه لا يحذف إلا في ضرورة الشعر كقوله:

ومَـا كُنْـتُ مِمَّـنْ يَـدْخُـلُ العِشْـقُ قَلْبَـهُ ولَكِـنَّ مَـنْ يُبْصِـرْ جُفُـونَـكِ يَعْشَـقِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۖ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

(١١٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً ﴾ وليجة، وهو الذي يُعَرِّفُه الرجل أَسراره ثقة به، شُبه ببطانة الثوب كما شُبِّه بالشِّعار قال عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شِعار والناس دثار»[٢] . ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ من دون المسلمين، وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف هو صفةُ بِطانة أي بطانة كائنة من دونكم. ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد، والأَلْوُ التقصير وأصله أن يُعدى بالحرف وعدي إلى مفعولين كقولهم: لا آلوك نصحاً على تضمين معنى المنع أو النقص. ﴿ وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ﴾ تمنوْا عنتكم، وهو شدة الضرر والمشقة وما مصدرية. ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي في كلامهم لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفَرْط بغضهم. ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ مما بدا لأن بُدُوَّه ليس عن رُوِيّة واختيار. ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين. ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما بُيِّن لكم. والجمل الأربع جاءت مستأنفات على التعليل، ويجوز أن تكون الثلاث الأول صفات لِبطانة.

(١١٩) ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة الكفار وتحبونهم ولا يحبونكم، بيان لخطئهم في موالاتهم وهو خبر ثان أو خبر لأولاء، والجملة خبر لأنتم كقولك: أنت زيد تحنّه، أو صلته، أو حال والعامل فيها معنى الإشارة، ويجوز أن يُنصبَ أولاء بفعل مضمر يفسره ما بعده وتكون الجملة خبراً. ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ بجنس الكتاب كله، وهو حال مِنْ لا يحبونكم والمعنى: إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضاً فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ نفاقاً وتغريراً ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفي

---

(١) قوله «ولكن أنفسهم يظلمون» قال أبو السعود: (وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص، إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول... وصيغة المضارع للتجدد والاستمرار) (س٢/ ٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٧ رقم ٤٣٣٠) ومسلم (٢/ ٧٣٨ رقم ١٣٩/ ١٠٦١) وأحمد (٤/ ٤٢) من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم في أثناء حديث طويل.

● وأخرجه أحمد عن أبي هريرة (٢/ ٤١٩) وعن أبي قتادة (٥/ ٣٠٧) بلفظ: «الناس دثاري والأنصار شعاري».

سبيلاً. ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله حتى يهلكوا به. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيعلم ما في صدورهم من البغضاء والحنق، وهو يحتمل أن يكون من المقول أي وقل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تُخفونه من عض الأنامل غيظاً، وأن يكون خارجاً عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

(١٢٠) ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حدٍّ حَسَدوا ما نالهم من خير ومنفعة. وشمِتوا بما أصابهم من ضر وشدة، والمسّ مستعار للإصابة[١] ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم، أو على مشاق التكاليف. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ موالاتهم، أو ما حرم الله جل جلاله عليكم. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ بفضل الله عز وجل وحفظِه الموعودِ للصابرين والمتقين ولأن المجِدَّ في الأمر المتدرِّبَ بالاتقاء والصبر يكون قليلَ الانفعال جرياً على الخصم، وضَمَّة الراء للاتباع كضَمَّةِ مُدّ. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب لا يَضِرْكُم من ضارَه يضيرُه. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما. ﴿مُحِيطٌ﴾ أي محيط عِلْمُه فيجازيكم مما أنتم أهله[٢]. وقرىء بالياء أي: بما يعملون في عداوتكم عليم فيعاقبهم عليه.

(١٢١) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أي واذكر إذ غدوت[٣]. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من حجرة عائشة رضي الله عنها. ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تُنزِّلُهم، أو تسوي وتهيىء لهم ويؤيده القراءة باللام[٤]. ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواقف وأماكن له، وقد يستعمل المَقْعَد والمقام بمعنى المكان على الاتساع كقوله تعالى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾[٥] وقوله تعالى ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[٦]. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم[٧]. روي أن المشركين نزلوا بِأُحُدٍ يوم الأربعاء ـ ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ـ فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه، وقد دعا عبدالله بن أبيّ بن سلول ولم يَدْعُه قبلُ. فقال هو وأكثر الأنصار:

---

(١) أو للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة (س٢/ ٧٧).

(٢) وهذا المعنى الذي ذكره على قراءة من قرأ «بما تعملون».

(٣) أي حين غدوت. وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها (س٢/ ٧٧).

(٤) أي «تبوىء للمؤمنين».

(٥) القمر: «٥٥».

(٦) النمل: «٣٩».

(٧) وعبر عن خروجه عليه السلام بالغدو مع أن خروجه كان بعد صلاة الجمعة ـ والغدو هو الخروج غدوة ـ لأن المقصود بتذكير الوقت هو تذكير مخالفتهم لأمر النبي عليه السلام (س٢/ ٧٨).

أَقِمْ يا رسول الله بالمدينة ولا تَخْرُج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا؟ فَدَعْهم فإن أقاموا أقاموا بِشَرِّ مَحْبَس، وإن دخلوا قاتلهم الرجالُ ورماهم النساءُ والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار بعضهم إلى الخروج فقال عليه الصلاة والسلام: «رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي فأوَّلتُها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثَلْماً فأوّلتُه هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتها المدينة. فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعُوهم». فقال رجال فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا إلى أعدائنا، وبالَغُوا حتى دخل ولبِسَ لأمَتَه. فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغَتِهم وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت. فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعَها حتى يقاتل». فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بِشِعْبِ أُحُد يوم السبت، ونزل في عُدْوَة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد وسوّى صفهم، وأمَّر عبدالله بن جبير على الرماة وقال: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا»[1].

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

(١٢٢) ﴿إِذْ هَمَّت﴾ متعلق بقوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أو بدل من إذ غدوت. ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس وكانا جناحَيْ العسكر. ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أن تجبُنا وتضعفا. روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج في زَهاء ألف رجل ووَعَد لهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخذل ابن أبيّ في ثلاثمائة رجل وقال: علام نَقْتُلُ أنفسَنا وأولادَنا، فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري[2] وقال: أُنشِدُكم اللهَ والإسلام في نبيكم وأنفسكم. فقال: ابن أبيّ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهَمَّ الحيان باتباعه فعصمهم اللهُ فمضوْا مع رسول الله ﷺ: والظاهر أنها ما كانت عزيمة لقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي عاصمُهما من اتباع تلك الخَطْرة، ويجوز أن يراد والله ناصرُهما فما لهما يفشلان ولا يتوكلان على الله! ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره لينصرهم كما نصرهم ببدر[3].

(١٢٣) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل. وبَدْرٌ ماءٌ بين مكة والمدينة كان

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٧٠ ـ ٧١) من طريق ابن إسحاق.
وأخرجه الطبري أيضاً (٣/ج٤/ ٧٣) من رواية أسباط عن السدي.
وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥/ ٣٦٣ ـ ٣٦٥) عن معمر عن الزهري عن عروة.

(٢) عمرو بن حزم الأنصاري: هو عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري. يكنى أبا الضحاك، شهد الخندق وما بعدها، واستعمله النبي ﷺ على نجران. قال أبو نعيم مات في خلافة عمر وقيل غير ذلك ـ الإصابة (٢/ ٥٣٢) ـ وقال ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (٢/ ٥١٧): . . . لم يشهد بدراً فيما يقولون وأول مشاهده الخندق. قلت: والصواب أن الذي تبع المنافقين: عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري كما سيأتي.

(٣) إظهار الاسم الجليل «وعلى الله» للتبرك والتعليل فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته (س٢/ ٧٩).

لرجل يُسمى بدراً فسمي به. ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ حال من الضمير، وإنما قال أذلة ولم يقل ذَلائِلُ تنبيهاً على قِلّتهم مع ذلتهم لضَعْف الحال وقلة المراكب والسلاح. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات[1]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصره، أو لعلكم يُنْعِم الله عليكم فتشكرون، فَوَضَع الشكر موضع الإنعام لأنه سببه.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

(١٢٤) ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصَرَكم. وقيل بدل ثانٍ من إذ غدوت على أنّ قوله لهم يوم أحد وكان مع اشتراط الصبر والتقوى عن المخالفة، فلما لم يصبروا عن الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ لم تنزل الملائكة[2] ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ إنكارٌ أنْ لا يكفيَهم ذلك وإنما جيء بلَنْ إشعاراً بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضَعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم. قيل أمدهم الله يوم بدر أولاً بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف. وقرأ ابن عامر مُنَزَّلين بالتشديد للتكثير أو للتدريج.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد لن، أي بلى يكفيكم. ثم وَعَدَ لهم الزيادة على الصبر والتقوى حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم﴾ أي المشركون. ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ من ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدرٌ من فارت القِدْرُ إذ غلت، فاستعير للسرعة ثم أطلق للحال التي لا رَيْث فيها ولا تراخي، والمعنى إن يأتوكم في الحال. ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حال إتيانهم بلا تراخ ولا تأخير. ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ مُعَلَّمين من التسويم الذي هو إظهارُ سِيمَا الشيء لقوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «تسوَّمُوا فإن الملائكة قد تسوَّمَت»[3]، أو مُرْسَلين من التسويم بمعنى الأسامة[4].

---

(١) اقتصر على الأمر بالتقوى مع كونه مشفوعاً بالصبر فيما سبق وما لحق للإشعار بأصالته وكون الصبر من مباديه اللازمة له، ولذلك قدم عليه في الذكر.
وفي ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم (س٢/ ٧٩).

(٢) وتخصيصه عليه السلام لتشريفه والإيذان بأن وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام وصيغة المضارع «تقول» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها (س٢/ ٨٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٨٢) عن يعقوب عن ابن عليه عن ابن عوف عن عمير بن إسحاق قال: «إن أول ما كان الصوف ليومئذٍ، يعني يوم بدر، قال رسول الله ﷺ. فذكره.
وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٢٦١).
والخلاصة أنه مرسل ضعيف.
● تسوموا: أي اعملوا لها علامة يعرف بها بعضكم بعضاً.
[النهاية: ٢/ ٤٣٩].

(٤) وهذا المعنى على قراءة من قرأ «مسوَّمين» بفتح الواو.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر الواو.

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة. ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر[١]. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ ولتسكن إليه من الخوف. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من العِدَّة والعُدَدِ، وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم إلى مَدَدٍ وإنما أمدهم ووعد لهم به إشارة لهم وربطاً على قلوبهم، من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر وحَثّاً على أن لا يُبالوا بمن تأخر عنهم. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغالَب في أقضيته. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يَنصُر ويَخْذُل بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة.

(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ متعلق بنصركم، أو وما النصر إن كان اللام فيه للعهد، والمعنى ليُنْقِص منهم بقتلِ بعضٍ وأَسْر آخرين، وهو ما كان يوم بدر من قتْل سبعين وأسْر سبعين من صناديدهم. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يخزيهم، والكبت شدة الغيظ، أو وَهَنٌ يقع في القلب، وأو للتنويع دون الترديد ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ فينهزموا منقطعي الآمال.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اعتراض[٢]. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطف على قوله أو يكبتَهم، والمعنى أن الله مالكُ أمرِهم فإما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوبَ عليهم إن أسلموا أو يعذبَهم إن أصروا وليس لك من أمرهم شيء وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم. ويحتمل أن يكون معطوفاً على الأمر أو شيءٌ بإضمار أنْ، أي ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبةُ عليهم أو تعذيبُهم. وأَنْ تكون أوْ بمعنى إلاّ أنْ، أي ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فَتُسَرَّ به أو يعذبَهم فتتشفّى منهم. روي أن عتبة بن أبي وقاص شجَّه يوم أُحُد وكَسَر رُباعيّته، فجعل يمسحُ الدم عن وجهه ويقول: «كيف يفلحُ قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم»؟ فنزلت[٣]. وقيل هَمَّ أن يدعوَ عليهم فنهاه الله لعلمه بأن فيهم من يؤمن.

---

(١) وهو تلوين للخطاب لتشريف المؤمنين وللإيذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة وأن رسول الله ﷺ غنيّ عنه بمالَه من التأييد الروحاني (س٢/ ٨١).

(٢) وتخصيص النفي به عليه السلام للدلالة على الانتفاء من غيره بطريق أوْلى (س٢/ ٨٢).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٨٨) عن معمر عن قتادة ومن طريق معمر أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٤٥) عن محمد بن حُميد العبدي عن معمر به ولفظهما: «كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم».
● والحديث أخرجه البخاري (٦/ ٩٣ رقم ٢٩٠٣) و(٧/ ٣٧٢ رقم ٤٠٧٥) و(١٠/ ١٧٣ رقم ٥٧٢٢) ومسلم (٣/ ١٤١٦ رقم ١٠١/ ١٧٩٠) كلاهما من رواية أبي حازم عن سهل بن سعد وليس فيه ذكر من أصابه أو شجه. =

﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم.

= ● وقال الحافظ بن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٥٥): «وسيأتي ـ رقم ٢٦٤ ـ أن الذي شجه عبدالله بن قمئة.

وقال الواقدي: المثبت عندنا أن الذي رمى وجه النبي ﷺ عبدالله بن قمئة. والذي رمى شفته وأصاب رباعيته، عتبة بن أبي وقاص. وفي السيرة لابن هشام ـ (٣/ ١١٥) تعليقاً من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذٍ فكسر رباعيته اليمنى السفلى. وجرح شفته السفلى، وأن عبدالله بن شهاب شجه في وجهه، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر، فأخذ عليّ بيده ورفعه طلحة حتى استوى قائماً، ومصّ مالك بن سنان أبو أبي سعد الدم عن وجه النبي ﷺ ثم ازدروه. فقال النبي ﷺ: «من مسّ دمه دمي لم تصبه النار».

● وأخرج الطبراني في الكبير (٨/ ١٥٤ رقم ٧٥٩٦) من حديث أبي أمامة، أن عبدالله بن قمئة رمي رسول الله ﷺ فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال خذها وأنا ابن قمئة، فقال له رسول الله ﷺ: مالك أقماك الله، فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة.

وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٧) وقال: فيه: حفص بن عمر العدني وهو ضعيف.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١٣٦) عن الزهري وغيره أن الذي أصاب النبي ﷺ عتبة، وأما عبدالله بن قمئة فأصاب مصعب بن عمير فقتله وظن أنه قتل محمداً ﷺ، وصاح أن محمداً قد قتل، فحصل ما حصل بهذه الإشاعة.

● وأخرج الطبري في تاريخه (٢/ ٥٧٧) عن السدي قال: أتى ابن قمئة الحارثي فرمى رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه وشجه في رأسه فأثقله، وتفرق عنه أصحابه... الحديث.

ويمكن الجمع بينهما أن الاثنين اشتركا في مجموع الفعل فنقل كل راوٍ ما رأى.

● وأما سبب النزول:

● فقد أخرج مسلم (٣/ ١٤١٧ رقم ١٠٤/ ١٧٩١) من حديث أنس أنها نزلت بسبب قوله ﷺ في غزوة أحد: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته».

وأخرج البخاري (٧/ ٣٦٥ رقم ٤٠٦٩) و(٨/ ٢٢٥ رقم ٤٥٥٩) من حديث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً وفلاناً، فأنزل الله «ليس لك من الأمر شيء».

وأورد البخاري تسميتهم في صحيحه (٧/ ٣٦٥ رقم ٤٠٧٠) عن سالم بن عبدالله مرسلاً، ووصله أحمد في مسنده (٢/ ٩٣).

● وأخرج البخاري (٨/ ٢٢٦ رقم ٤٥٦٠) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر «اللهم العن فلاناً وفلاناً ـ لأحياء من العرب ـ حتى أنزل الله «ليس لك من الأمر شيء».

وفي رواية مسلم (١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧ رقم ٢٩٤/ ٦٧٥): «اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية» ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل «ليس لك من الأمر شيء».

وقال الحافظ في فتح الباري (٧/ ٣٦٥) توفيقاً بين هذه الأحاديث في سبب نزول هذه الآية: «يحتمل أن تكون نزلت في الأمرين جميعاً، فإنهما كانا في قصة واحدة».

والمقصود بالأمرين قصة شج النبي ﷺ ودعاءه على فلان وفلان.

وانظر الفتح (٧/ ٣٦٦) و(٨/ ٢٢٧) فقد أجاد وأفاد...

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً فله الأمر كله لا لك. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ صريح في نفي وجوب التعذيب، والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافي له[1]. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعباده فلا تبادر إلى الدعاء عليهم.

(١٣٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ﴾ لا تزيدوا زيادات مكررة. ولعل التخصيص بحسب الواقع، إذ كان الرجل منهم يُرْبي إلى أجل ثم يزيد فيه زيادة أخرى حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون[2]. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب مُضَعَّفَة. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما نهيتم عنه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين الفلاح.

(١٣١) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم، وفيه تنبيه على أن النار بالذات مُعَدّة للكافرين وبالعَرَض للعصاة.

(١٣٢) ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أتبع الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة، ولعل وعسى في أمثال ذلك دليلُ عزة التوصل إلى ما جُعل خبراً له.

(١٣٣) ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟﴾ بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة كالإسلام والتوبة والإخلاص. وقرأ نافع وابن عامر سارعوا بلا واو. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي عرضُها كعرضهما، وذكر العَرْض للمبالغة في وصفها بالسَّعة على طريقة التمثيل لأنه دون الطول، وعن ابن عباس كسبع سموات وسبع أرضين لو وُصل بعضها ببعض[3]، ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة وأنها خارجة عن هذا العالم.

(١٣٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، أو مدح منصوب أو مرفوع. ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أو الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، أي لا يَخْلُون في حالٍ ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير. ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الممسكين عليه الكافِّين عن إمضائه

---

(١) قوله «يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» آثر كلمة مِنْ في الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء.. وتقديم المغفرة على التعذيب للإيذان بسبق رحمته تعالى غضبه (س٢/ ٨٤).

(٢) المراد بأكل الربا أخذه ولكن عُبر عنه بالأكل لأنه معظم ما يقصد بالأخذ، ولشيوعه في المأكولات.. (س٢/ ٨٤).

(٣) قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية (س٢/ ٨٥).

مع القدرة، مِنْ كظمت القُربة إذا ملأتها وشددت رأسها[١]. وعن النبي ﷺ «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»[٢]. ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته، وعن النبي عليه الصلاة والسلام «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت»[٣] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس ويدخل تحته هؤلاء، والعهد فتكون الإشارة إليهم.

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١٣٥) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ فِعلة بالغة في القبح كالزنى. ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أذنبوا أي

---

(١) قوله «والكاظمين» عدل إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار، أما الإنفاق فحيث كان أمراً متجدداً عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد (س٢/ ٨٥).

(٢) أخرج أبو داود (٥/ ١٣٧ رقم ٤٧٧٧) والترمذي (٤/ ٣٧٢ رقم ٢٠٢١) وابن ماجة (٢/ ١٤٠٠ رقم ٤١٨٦) عن سهل بن معاذ عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفِذَه دعاهُ الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيِّرهُ الله من الحور العين ما يشاء».
قال أبو داود: اسم أبي مرحوم عبدالرحمٰن بن ميمون.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
وقال المنذري (٧/ ١٦٤) وسهل بن معاذ بن أنس الجهني: ضعيف.
والذي روى عنه هذا الحديث: أبو مرحوم عبدالرحيم بن ميمون الليثي، مولاهم المصري، ولا يحتج بحديثه».
وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٥١٨/ ٢٢٢٩) وصحيح ابن ماجة وغيرهما.
● وأخرج أبو داود (٥/ ١٣٨ رقم ٤٧٧٨) عن رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: نحوه، قال: «ملأه الله أمناً وإيماناً».
قال المنذري (٧/ ١٦٤): فيه رواية مجهول.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٨٣٤/ ٩٦٨) وضعيف أبي داود.
● وأخرج العقيلي في الضعفاء (٣/ ١٠٣) والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٢٣) والطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاده ملأه الله أمناً وإيماناً».
قال العقيلي: وقد رُوِي من غير هذا الطريق بأسانيد صالحة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٥٧): وعبدالجليل مجهول.
● وأخرج أحمد في المسند (١/ ٣٢٧) من حديث ابن عباس بلفظ: «.... وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبدالله إلا ملأ الله جوفه إيماناً».
وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٤١٤) وقال: «انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتنه حسن» هـ.
والخلاصة أن حديث أبي هريرة حسن لغيره والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٣١٦) ـ.

ذنب كان. وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، ولعل الفاحشة ما يتعدّى وظلم النفس ما ليس كذلك. ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم. ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالندم والتوبة[1]. ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي معترض بين المعطوفين، والمراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين لقوله ﷺ «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[2]. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من يصروا أي ولم يصروا على قبيح فعلهم عالمين به.

أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

(١٣٦) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ خبر للذين إنْ ابتدأت به، وجملة مستأنفة مبينة لما قبلها إن عطفتَه على المتقين أو على الذين ينفقون. ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم إن لا يدخلَها المصِرُّون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرُهم. وتنكير جنات على الأول يدل على أن ما لهم أدْوَن مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة، وكفاك فارقاً بين القبيلين أنه فَصَّل آيتهم بأن بيَّن أنهم محسنون ،مستوجبون لمحبة الله، وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع وتخطوا إلى التخصص بمكارمه. وفصَّل آية هؤلاء بقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ لأن المتدارِك لتقصيره كالعامِل لتحصيل بعض ما فوّت على نفسه، وكم بين المحسن والمتدارِك والمحبوب والأجير، ولعل تبديل لفظ الجزاء بالأجْر لهذه النكتة، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك يعني المغفَرة والجنات.

---

(١) قدم الاستغفار على عدم الإصرار مع أن الواقع خلافه لبيان العناية بشأن الاستغفار (س٢/ ٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ١٧٧ رقم ١٥١٤) والترمذي (٥/ ٥٥٨ رقم ٣٥٥٩) والطبري في «جامع البيان» (٣/ ج٤/ ٩٨) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٨٨) والبزار في مسنده (رقم: ٩٣) وأبو يعلى في مسنده (١/ ١٢٤، ١٢٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث أبي نُصيرة، وليس إسناده بالقوي.
وقال البزار: رأيت في هذا الإسناد رجلين مجهولين، فتركت ذكر هذا الحديث.
قلت: الرجلان المجهولان هما: أبو رجاء مولى أبي بكر الصديق [التقريب: ٢/ ٤٢١] وأبو نصيرة مسلم بن عبيد [تهذيب التهذيب: ١٢/ ٢٨١].
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٦١) «له شاهد أخرجه الطبراني في الدعاء ـ (٣/ ١٦٠٨ رقم ١٧٩٧) ـ من حديث ابن عباس» اهـ. وقال محقق كتاب الدعاء الدكتور محمد سعيد البخاري: «وفي إسناده: أبو شيبة، وهو سعيد بن عبدالرحمن الأسدي، وهو مقبول. وبقية رجاله ثقات» هـ.
وحكم المحدث الألباني على حديث أبي بكر بالضعف في ضعيف أبي داود، وضعيف الترمذي وضعيف الجامع (٥/ ٨٢ رقم ٥٠٠٦).

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

(١٣٧) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وقائع سنها الله في الأمم المكذبة كقوله تعالى ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾[1] وقيل أمم قال:

ما عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِكُمُو ولاَ رَأَوْا مِثْلَهُ فِي سَالِفِ السُّنَنِ

﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم.

(١٣٨) ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى قوله قد خلت، أو مفهوم قوله فانظروا أي أنه مع كونه بياناً للمكذبين فهو زيادة بصيرة وموعظة للمتقين، أو إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين، وقوله قد خلت جملة معترضة للحث على الإيمان والتوبة وقيل إلى القرآن.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد، والمعنى لا تَضْعُفوا عن الجهاد بما أصابكم ولا تحزنوا على من قتل منكم. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم شأناً، فإنكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم في الجنة وإنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم في النار، أو لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم، أو وأنتم الأعلون في العاقبة فيكون بشارةً لهم بالنصر والغلبة. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهي أي لا تهنوا إن صح إيمانكم، فإنه يقتضي قوة القلب بالوثوق على الله أو بالأعلون.

(١٤٠) ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم بضم القاف، والباقون بالفتح وهما لغتان كالضَّعف والضُّعف. وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم أَلَمُها، والمعنى إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثلَه، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون. وقيل كِلا المَسَّيْن كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نصرفها بينهم تدليل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقوله:

فَيَوْماً عَلَيْنَا وَيَوْماً لَنَا ويَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

والمداولة كالمعاودة يقال داولت الشيء بينهم فتداولوه، والأيامُ تحتمل الوصف والخبر وتداولها يحتمل الخبر والحال والمراد بها: أوقات النصر والغلبة[2]. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطف على علة

---

(١) الأحزاب: «٦١ ـ ٦٢».

(٢) «نداولها» عبر بصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأنها سنة مسلوكة في جميع الأمم (س٢/٨٩).

محذوفة أي نداولها ليكون كيْت وكيْت وليعلم الله إيذاناً بأن العلة فيه غير واحدة وأن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يُعْلَم، أو الفعلُ المعلَّل به محذوف تقديره وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حَرْفٍ فَعَلْنا ذلك، والقصدُ في أمثاله ونقائضه ليس إلى إثباتُ علمه تعالى ونفيُه بل إلى إثبات المعلوم ونفيه على طريق البرهان. وقيل معناه ليَعْلَمَهم علماً يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشيء موجوداً. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة يريدُ شهداءَ أُحُد، أو يتخذ منكم شهوداً معدلين بما صودف منهم من الثبات والصبر على الشدائد. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين وهو اعتراض، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا يَنْصُر الكافرين على الحقيقة وإنما يُغَلِّبُهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب إن كانت الدُّولة عليهم[1]. ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً.

(١٤٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم ومعناه الإنكار. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ ولما تجاهدوا، وفيه دليل على أن الجهاد فرض كفاية. والفرق بين لمَّا ولَمْ إن فيه توقع الفعل فيما يستقبل. وقرىء يَعْلَمَ بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون[2] ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع. وقرىء بالرفع على أن الواو للحال كأنه قال: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون[3].

(١٤٣) ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي الحرب فإنها من أسباب الموت، أو الموت بالشهادة. والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحّوا يوم أحد على الخروج. ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو

---

(١) قوله «وليمحص الله» كرر اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض.
وأظهر الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص (س٢/ ٩١).

(٢) وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم، لما بينهما من اللزوم المبني على لزوم تحقق الأول لتحقق الثاني ضرورة استحالة تحقق شيء بدون علمه تعالى به. وإيثارها على التصريح للمبالغة في تحقيق المعنى المراد فإنها إثبات لعدم جهادهم بالبرهان، وللإيذان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال إنما هو علم الله تعالى (س٢/ ٩١).

(٣) قوله «ويعلم الصابرين» آثر اسم الفاعل على الموصول، أي قال الصابرين ولم يقل الذين صبروا للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة على الفواصل (س٢/ ٩١).

توبيخ لهم على أنهم تمنوْا الحرب وتسببوا لها ثم جَبُنوا وانهزموا عنها، أو على تمني الشهادة فإن في تمنيها تمني غلبة الكفار[١].

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۖ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

(١٤٤) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فسيخلُوا كما خلوْا بالموت أو القتل. ﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إنكاراً لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوّه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به. وقيل الفاء للسببية والهمزة لإنكار أن يجعلوا خُلُوَّ الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد وفاته[٢]. روي أنه لما رمى عبدُالله بن قمئة الحارثي رسولَ الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، فذبّ عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحبَ الراية حتى قتله ابنُ قميئة وهو يرى أنه قتل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: قد قتلت محمداً وصرخ صارخٌ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو إليَّ عبادَ الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموْه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون. وقال بعضهم: ليت ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قُتل ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم إن كان قُتِل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتِلُوا على ما قاتل عليه، ثم قال اللهم إني أعتذر إليك مما يقولون وأبرأ إليك منه وشد بسيفه فقاتل حتى قتل. فنزلت[٣] ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتداده بل يضرُّ نفسه. ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنسٍ وأضرابه.

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بمشيئة الله تعالى أو بإذنه لمَلَكِ الموت عليه

---

(١) وفي قوله «فقد رأيتموه» إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة في مشاهدتهم (س٢/ ٩٢).

(٢) قدم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذي ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت في شرف الوقوع فزجر الناس عن الانقلاب عنده وحملهم على التثبت هناك أهمّ ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام هو الخلو بالموت دون القتل (س٢/ ٩٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١١١) عن السدي قال: لما برز رسول الله ﷺ يوم أحد إليهم، يعني إلى المشركين. . . . قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. .» وسنده منقطع.

الصلاة والسلام في قبض روحه، والمعنى أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] بالإحجام عن القتال والإقدام عليه، وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل. ﴿كِتَابًا﴾ مصدر مؤكِّد إذ المعنى كُتِبَ الموت كتاباً. ﴿مُؤَجَّلًا﴾ صفة له أي مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم وأخذوا ينهبون، فلما رأى الرماة ذلك أقبلوا على النهب وخَلُّوا مكانهم فانتهز المشركون وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي من ثوابها. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

(١٤٦) ﴿وَكَأَيِّن﴾ أصله أيْ دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى كَمْ والنونُ تنوينٌ أُثبت في الخط على غير قياس. وقرأ ابن كثير وكائِن ككاعِن، ووجهه أنه قُلِبَ قَلْبَ الكلمة الواحدة كقولهم وعملي في لعمري فصار كأين ثم حذفت الياء الثانية للتخفيف ثم أبدلت الياء الأخرى ألفاً كما أبدلت من طائي ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ بيان له. ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم. وقيل جماعات والرِّبِّيُّ منسوب إلى الرِّبَّة وهي الجماعة للمبالغة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب قُتِل، وإسناده إلى ربيون أو ضمير النبي، ومعه ربيون حال منه، ويؤيد الأول أنه قرئ بالتشديد وقرئ رَبِّيون بالفتح على الأصل وبالضم وهو من تغييرات النسب كالكسر. ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فما فتروا ولم ينكسر جِدُّهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن العدو أو في الدين. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا للعدو، وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يَسْكُن لصاحبه ليفعل به ما يريده، والألف من إشباع الفتحة أو اسْتَكْوَن من الكَوْن لأنه يطلب من نفسه أن يكون لمن يخضع له، وهذا تعريف بما أصابهم عند الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فينصرهم ويعظم قدرهم[2].

(١٤٧) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول، وهو إضافةُ الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها وإضافةً لما أصابهم إلى سوء أعمالها والاستغفار عنها، ثم طَلَبُ التثبيت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة، فيكون أقرب إلى

---

(١) الأعراف: «٣٤».

(٢) أظهر لفظة «الصابرين» في موضع الإضمار للثناء عليهم بالصبر وللإشعار بعلة الحكم (س٢/ ٩٦).

الإجابة، وإنما جعل قولهم خيراً لأنّ أنْ قالوا أعْرَفُ لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث.

فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

(١٤٨) ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأتاهم الله بسبب الاستغفار واللجأ إلى الله النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر في الدنيا والجنة والنعيم في الآخرة، وخُصَّ ثوابُها بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتد به عند الله[1].

(١٤٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ﴾ أي إلى الكفر. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبياً لما قُتِل. وقيل إن تستكينوا لأبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل عامّ في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فإنه يستجر إلى موافقتهم[2].

(١٥٠) ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم. وقرىء بالنصب على تقدير بل أطيعوا اللهَ مولاكم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ فاستَغْنُوا به عن ولاية غيره ونصره.

(١٥١) ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ يريد ما قُذِف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، ونادى أبو سفيان يا محمد موعدُنا موسمُ بدرٍ القابِلُ إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: «إن شاء الله». وقيل لما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم. وقرأ ابن عامر والكسائي ويعقوب بالضم على الأصل في كل القرآن[3] ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم به. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي آلهة ليس على إشراكها حجة ولم ينزل عليهم به سلطاناً وهو كقوله:

ولاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلاطة لحِدّة اللسان. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي مثواهم، فوُضِعَ الظاهرُ موضع المضمر للتغليظ

---

(١) قوله «والله يحب المحسنين» أظهر وصف الإحسان موضع ضمير المعهودين للإشعار بأن ما حكي عنهم من الأقوال والأفعال من باب الإحسان (س٢/ ٩٧).

(٢) صدر الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيزه.
ووصفهم بالإيمان لتذكير حالهم وتثبتهم عليها بإظهار مباينتها لحال أعدائهم (س٢/ ٩٧).

(٣) أي بضم العين (الرُّعُب).

والتعليل [١].

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۖ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي وَعْدُه إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماةُ يرشُقونهم بالنبل والباقون يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ تقتلونهم، من حَسَّه إذا أبطل حِسّه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعُف رأيكم، أو مِلْتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف العقل. ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ يعني اختلاف الرماة حين انهزم المشركون فقال بعضهم فما موقفنا ها هنا، وقال آخرون لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانَه أميرُهم في نفر دون العشرة ونفر الباقون للنهب وهو المعني بقوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو، وجواب إذا محذوف وهو امتحنكم، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم التاركون المركز للغنيمة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الثابتون محافظةً على أمر الرسول عليه السلام. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ ثم كفكم عنهم حتى حالت الحالُ فغلبوكم. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ على المصائب ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تفضلاً ولِمَا علم من ندمكم على المخالفة. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتفضل عليهم بالعفو، أو في الأحوال كلها سواء أديل لهم أو عليهم إذ الابتلاءُ أيضاً رحمة.

(١٥٣) ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلقٌ بصَرَفَكُم أو ليبتليكم أو بمقدر كاذكروا. والإصعاد الذهاب والإبعاد في الأرض يقال: أَصْعَدْنا من مكة إلى المدينة. ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ كان يقول إليَّ عبادَ الله إليَّ عباد الله أنا رسول الله من يَكُرُّ فله الجنة [٢]. ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ في ساقتكم أو جماعتكم الأخرى ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ عطفٌ على صرفكم، والمعنى فجازاكم الله عن فشلكم وعصيانكم غماً متصلاً بغم، من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول ﷺ، أو فجازاكم غماً بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ

(١) أي أظهر لفظ الظالمين للإشعار بظلمهم في ذلك.

(٢) إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإيذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته سبحانه إشباعاً في توبيخ المنهزمين (س٢/ ١٠٠).

بعصيانكم له. ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ لتتمرنوا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على نفع فائت ولا ضر لاحق. وقيل لا مزيدة والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجرح والهزيمة عقوبة لكم. وقيل الضمير في فأثابكم للرسول ﷺ أي فآساكم في الاغتمام فاغتم بما نَزَل عليكم كما اغتممتم بما نزل عليه ولم يُثَرِّبْكم على عصيانكم تسلية لكم كيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر ولا على ما أصابكم من الهزيمة ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم وبما قصدتم بها.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

(١٥٤) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أنزل الله عليكم الأمْنَ حتى أخَذَكُم النعاسُ، وعن أبي طلحة غَشِيَنَا النعاسُ في المصافّ حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه. والأَمَنَةُ الأمْنُ نُصِبَ على المفعول ونُعاساً بدلٌ منها، أو هو المفعولِ وأَمَنَةً حالٌ منه متقدِّمةٌ أو مفعول له أو حال من المخاطبين بمعنى ذوي أَمَنَةٍ، أو على أنه جمع آمِنٍ كبارّ وبَرَرَة. وقرىء أَمْنَة بسكون الميم كأنها المرة من الأمن[1]. ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ أي النعاسُ. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء رداً على الأَمَنَة. والطائفةُ المؤمنون حقاً. ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ هم المنافقون. ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمهم إلا همُّ أنفسهم وطلبُ خلاصها. ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ صفة أخرى لطائفة أو حال أو استئناف على وجه البيان لما قبله، وغيرَ الحق نُصِبَ على المصدر أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يحق أن يظن به، وظنَّ الجاهلية بدله وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي لرسول الله ﷺ وهو بدلٌ من يظنون. ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ هل لنا مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط. وقيل: أخبر ابن أبيّ بقتل بني الخزرج فقال ذلك، والمعنى إنا منعنا تدبير أنفسنا وتصريفها باختيارنا، فلم يبقَ لنا من الأمر شيء أو هل يزول عنا هذا القهر فيكون لنا من الأمر شيء ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون، أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو اعتراض. وقرأ أبو عمرو ويعقوب كلُّه بالرفع على الابتداء. ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ حال من الضمير يقولون أي يقولون مُظْهِرين أنهم مسترشدون طالبون النصر مبطنين الإنكار والتكذيب. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي في أنفسهم وإذا خلا

---

(١) وتقديم الظرفين «عليكم» و«من بعد الغم» على المفعول «أمنة» للاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر (س٢/ ١٠١).

بعضهم إلى بعض، وهو بدل من يُخفون أو استئناف على وجه البيان له. ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كما وعد محمد أو زعم أن الأمر كله لله ولأوليائه، أو لو كان لنا اختيار وتدبير ولم نبرح كما كان رأي ابن أبيّ وغيره. ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لما غلبنا، أو لما قتل من قتل منا في هذه المعركة. ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينجُ منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقّب لحكمه. ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق وهو علةُ فعل محذوف أي وفعل ذلك ليبتلي، أو عطفٌ على محذوف أي لبرز لِنَفَاذِ القضاء أو لمصالحَ جمة وللابتلاء، أو على قوله لكيلا تحزنوا. ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وليكشفه ويميزه أو يُخَلِّصه من الوساوس. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفيائها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء وإنما فَعَل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

(١٥٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ يعني إن الذين انهزموا يوم أحد إنما كان السببُ في انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه واقترفوا ذنوباً لمخالفة النبي ﷺ بترك المركز والحرصِ على الغنيمة أو الحياة، فمُنِعُوا التأييد وقوة القلب. وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بسبب ذنوب تقدمت لهم فإن المعاصي يجرّ بعضها بعضاً كالطاعة. وقيل استزلهم بذكر ذنوب سلَفَت منهم فكرهوا القتال قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة. ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتوبتهم واعتذارهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة الذنب كي يتوب.

(١٥٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني المنافقين. ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لأجلهم وفيهم، ومعنى أُخُوَّتِهم اتفاقُهم في النسب أو المذهب ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها، وكان حقُّه إذْ لقوله قالوا لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ جمع غازٍ كعافٍ وعُفًّى[1]. ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ مفعول قالوا وهو يدل على أن إخوانهم لم يكونوا مخاطَبين

---

(١) وإفراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب في الأرض لأنه المقصود بيانه في المقام، وذكر الضرب في الأرض توطئة له، وتقديمه لكثرة وقوعه.
وقال «أوكانوا غزاً» ولم يقل أو غزوا للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة، أو بانقضاء ذلك أي كانوا غزاة فيما مضى (س٢/ ١٠٣).

به. ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بقالوا على أن اللام لامُ العاقبة مثلُها في «ليكون لهم عدواً وحَزَناً»[1]، أوْ لا تكونوا أيْ لا تكونوا مِثْلَهم في النطق بذلك القول والاعتقاد ليجعلَه حسرةً في قلوبهم خاصة، فذلك إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد، وقيل إلى ما دل عليه النهي أي لا تكونوا مثلَهم ليجعل الله انتفاءَ كونِكم مِثْلَهم حسرة في قلوبهم، فإن مخالفتهم ومضادتهم مما يغمهم. ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ رداً لقولهم أي هو المؤثر في الحياة والممات لا الإقامةُ والسفرُ فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على أنه وعيد للذين كفروا[2].

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٧) ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ أي متم في سبيله وقرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر الميم من مات يَمات. ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ جواب القسم وهو سادّ مسد الجزاء والمعنى: إن السفر والغزوَ ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل وإن وقع ذلك في سبيل الله فما تنالون من المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وقرأ حفص بالياء[3].

(١٥٨) ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم. ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ لإلىٰ معبودكم الذي توجهتم إليه وبذلتم مُهَجكم لوجهه لا إلى غيره لا محالة تحشرون، فيوفي جزاءكم ويعظم ثوابكم. وقرأ نافع وحمزة والكسائي مِتُّم بالكسر.

(١٥٩) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي فبرحمة، وما مزيدة للتأكيدِ والتنبيهِ والدلالةِ على أن لِينَه لهم ما كان إلا برحمة من الله وهو ربطه على جأشه وتوفيقُه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه. ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ سيىء الخُلُق جافياً ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك. ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يختص بك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما لله ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي في أمر الحرب

---

(١) القصص: «٨».

(٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد.
وتعرض لعنوان البصر دون السمع لأن قوله «بما تعملون» أو «بما يعملون» عام يشمل القول والاعتقاد وما ينتج عنه من عمل (س٢/ ١٠٤).

(٣) اقتصر على بيان خيرية القتل والموت في سبيله تعالى دون التعرض للإخبار بحصولهما لهم للإيذان بعدم الحاجة إليه بناء على استحالة التخييب منه تعالى بعد أن أطمعهم فيه.
وقدم القتل في سبيله على الموت للترغيب فيه (س٢/ ١٠٤).
وقرأ الباقون بالتاء «تجمعون» (المبسوط ص١٤٨).

إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يُشاوَرَ فيه استظهاراً برأيهم وتطييباً لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أصلح لك، فإنه لا يعلمه سواه. وقرىء فإذا عَزَمْتُ على التكلم، أي فإذا عزمتُ لك على شيء وعينته لك فتوكل على الله ولا تشاور فيه أحداً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

(١٦٠) ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر. ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خذلانه، أو من بعد الله بمعنى إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم، وهذا تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر لهم سواه وآمنوا به[1].

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ وما صح لنبي أن يخون في الغنائم فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال غل شيئاً من المغنم يَغُلّ غُلولاً وأغلّ إغلالاً إذا أخذه في خُفية، والمراد منه: إما براءة الرسول عليه السلام عما اتهم به إذ روي أن قطيفة حمراء فُقِدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله ﷺ أخذها، أو ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم. وإما المبالغةُ في النهي للرسول ﷺ على ما روي أنه بعث طلائع، فغنم رسول الله ﷺ فقسم على من معه ولم يقسم للطلائع فنزلت[2]. فيكون تسمية حرمان بعض المستحقين غُلولاً تغليظاً ومبالغة ثانية. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب أن يُغَلَّ على البناء للمفعول والمعنى: وما صح له أن يُوجَد غالاً أو أن ينسب إلى الغلول. ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يأت بالذي غلّه يحمله على عنقه كما جاء في الحديث أو بما احتمل من وَبَاله وإثمه. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً، وكان اللائق بما قبله أن يقال ثم يوفى ما كسبت لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله فالغالّ مع عظم جرمه بذلك أولى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزاد في عقاب عاصيهم.

---

(١) تقديم الجارّ والمجرور «وعلى الله» لإفادة قصره عليه تعالى، والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به (س٢/ ١٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١٥٦) والواحدي في أسباب النزول ص١٢٧ عن الضحاك مرسلاً. والضحاك لم يسمع من صغار الصحابة فحديثه معضل.

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

(١٦٢) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالطاعة. ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ رجع. ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بسبب المعاصي. ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الفرق بينه وبين المرجع أنّ المصير يجب أنْ يخالِف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع.

(١٦٣) ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ شُبِّهوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت في الثواب والعقاب، أو هم ذوو درجات. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالِمٌ بأعمالهم ودرجاتهم صادرة عنهم فيجازيَهم على حسبها[1].

(١٦٤) ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنعم على من آمن مع الرسول ﷺ من قومه. وتخصيصُهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها. وقرىء لِمَنْ مَنِّ اللهِ على أنه خبر مبتدأ محذوف مثل مَنُّه أو بَعْثُه. ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من نَسَبِهم، أو من جنسهم عربياً مثْلَهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به. وقرىء من أَنْفَسِهم أي من أشرفهم لأنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم. ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي القرآن بعدما كانوا جُهّالاً لم يسمعوا الوحي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من دنس الطباع وسوء الاعتقاد والأعمال[2]. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والسنة. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، والمعنى وإنّ الشأن كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر.

(١٦٥) ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ الهمزة للتقريع والتقرير، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أُحُد أو على محذوف مِثْل أفعلتم كذا وقلتم، ولمّا ظرفُه المضاف إلى

---

(١) فسر البيضاوي أن الله بصير أي عالم، وهو يدل على أن كون الله تعالى بصيراً هو نفس كونه عالماً.
وقد تبع في هذا التفسير الزمخشريَّ فنقله عنه (الكشاف ١/ ٢٢٧).
ومذهب الجمهور من أهل السنة بل والمعتزلة أن صفتي السمع والبصر زائدتان على العلم، وإن كان العلم مسبَّباً عن البصر إلا أنه يخالفه. فلو علمنا بشيء علماً تاماً ثم أبصرناه لوجدنا فرقاً بين الحالتين مما يدل على مخالفة العلم للبصر.
(انظر حاشية الكازروني على البيضاوي ٢/ ٥١ وانظر روح المعاني ٤/ ١١٢).

(٢) وسّط التزكية بين قوله «يتلو... ويعلمهم» للإيذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة مستقلة بنفسها. لأنه لو روعي نفس الترتيب الموجود بقوله تعالى: «.. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» ـ البقرة «١٢٩» ـ لتبادر للفهم أن الكل نعمة واحدة (س٢/ ١٠٨).

ما أصابتكم أي أقَلْتُم حين أصابتكم مصيبة وهي قتل سبعين منكم يومَ أُحُد والحال إنكم نلتم ضعفها يوم بدر مِنْ قَتْل سبعين وأسر سبعين من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي مما اقترفَتْه أنفسُكم من مخالفة الأمر بترك المركز فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطاوعة، أو اختيارِ الخروج من المدينة. وعن علي رضي الله تعالى عنه باختياركم الفداء يوم بدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النصر ومَنْعِه وعلى أن يصيبَ بكم ويصيبَ منكم.

وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

(١٦٦) ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين يريد يوم أحد. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو كائن بقضائه أو تخليته الكفار، سماها إذناً لأنها من لوازمه. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١٦٧) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ وليتميز المؤمنون والمنافقون فيظْهَر إيمانُ هؤلاء وكفر هؤلاء[1]. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على نافقوا داخلٌ في الصلة أو كلام مبتدأ. ﴿تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ تقسيم للأمر عليهم وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال. وقيل معناه قاتلوا الكفرة أو ادفعوهم بتكثيركم سواد المجاهدين، فإن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاءٌ بالأنفس إلى التهلُكة، أو لو نُحْسِن قتالاً لاتبعناكم فيه، وإنما قالوه دَغَلاً واستهزاء. ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ لانخِذالِهم وكلامِهم هذا، فإنهما أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم. وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرةً منهم لأهل الإيمان، إذ كان انخذالهم ومقالهم تقوية للمشركين وتخذيلاً للمؤمنين. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يُظهرون خلاف ما يضمرون، لا تواطىء قلوبُهم ألسنتهم بالإيمان. وإضافة القول إلى الأفواه تأكيدٌ وتصوير. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق. وما يخلوا به بعضهم إلى بعض فإنه يعلمه مفصلاً بعلمٍ واجب وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات.

(١٦٨) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ رُفِع بدلاً من واو يكتمون، أو نصب على الذم أو الوصف للذين نافقوا، أو جُرَّ بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم كقوله:

---

(١) قوله «وليعلم الذين نافقوا» أعاد الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قرن المنافقين باختلاف حال العلم بحسب التعلق بالفريقين، فإنه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه بالسابق وبالمنافقين على وجه جديد. وهو السرّ في إيراد الأولين بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الاستمرار والآخرين بموصول دال على الحدوث (س٢/ ١٠٩).

علَى حَالةٍ لَوْ أَنَّ فِي القَوْمِ حَاتِماً علَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالمَاءِ حَاتِمُ

﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي لأجلهم، يريد مَنْ قُتل يوم أحد من أقاربهم أو من جنسهم. ﴿وَقَعَدُوا﴾ حال مقدرة بقد أي قالوا قاعدين عن القتال. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود بالمدينة. ﴿مَا قُتِلُوا﴾ كما لم نُقْتل. قرأ هشام ما قُتِّلوا بتشديد التاء. ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين أنكم تقدرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه، فإنه أحرى بكم، والمعنى أن القعود غيرُ مغن عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة كما أن القتال يكون سبباً للهلاك والقعودُ سبباً للنجاة قد يكون الأمر بالعكس.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

(١٦٩) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ نزلت في شهداء أُحُد. وقيل في شهداء بدر والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرىء بالياء على إسناده إلى ضمير الرسول، أو مَنْ يحسب أو إلى الذين قتلوا. والمفعول الأول محذوف لأنه في الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة. وقرأ ابن عامر قُتِّلوا بالتشديد لكثرة المقتولين. ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أي بل هم أحياء. وقرىء بالنصب على معنى بل أَحْسَبُهُم أحياءَ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذوو زلفى منه[1]. ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الجنة وهو تأكيد لكونهم أحياء.

(١٧٠) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله تعالى والتمتع بنعيم الجنة. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يُسَرُّون بالبشارة. ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ أي بإخوانهم المؤمنين الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم. ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي الذين من خلفهم زماناً أو رتبة. ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل من الذين والمعنى: أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحالَ مَنْ تركوا من خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدرها خوفُ وقوعِ محذور وحزنُ فوات محبوب. والآية تدل على أن الإنسان غيرُ الهيكل المحسوس بل هو جوهرٌ مدركٌ بذاته لا يفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه، ويؤيد ذلك قوله تعالى في آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾[2] الآية، وما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال «أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش»[3]. ومن أنكر ذلك ولم يرَ الروح إلا ريحاً وعَرَضاً قال هم أحياءٌ يوم القيامة، وإنما وصفوا به في الحال لتحققه ودنُوّه أو أحياء بالذكر أو بالإيمان. وفيها حث على الجهاد وترغيب في

---

(١) والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد تكرمة لهم (س٢/ ١١٢).

(٢) غافر: «٤٦».

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٦٦ رقم ١٢٥) من حديث كعب، وكذلك أخرجه أحمد (٦/ ٣٨٦).

الشهادة وبعث على ازدياد الطاعة وإحماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أنعم عليه وبشرى للمؤمنين بالفلاح.

﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(١٧١) ﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ كرره للتأكيد وليعلق به ما هو بيان لقوله ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾، ويجوز أن يكون الأول بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم. ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ثواباً لأعمالهم. ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[1] وتنكيرهما للتعظيم. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من جملة المستبشر به عطف على فضل. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه استئناف معترِض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعرٌ بأن من لا إيمان له أعماله محبَطة وأجوره مضيَّعة.

(١٧٢) ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح، أو مبتدأ خبره: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ بجملته، ومِنْ البيان، والمقصود من ذكر الوصفين المدح والتعليل لا التقييد، لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون. روي أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الرَّوْحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فنَدَب أصحابَه للخروج في طلبه وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج عليه الصلاة والسلام مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد ـ وهي ثمانية أميال من المدينة ـ وكان بأصحابه القَرْح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا. فنزلت[2].

(١٧٣) ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ يعني الركبُ الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي، وأطلق عليه الناسَ لأنه من جنسهم كما يقال فلان يركب الخيل وماله إلا فرس واحد لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه. ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه روي: أنه نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسمُ بدرٍ القابِل إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله تعالى، فلما كان القابِلُ خرج في أهل مكة حتى نزل بمرّ الظهران فأنزل الله

---

(١) يونس: «٢٦».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١٧٦ ـ ١٧٧) عن عكرمة والسدي وغيرهما.
وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣١٤) عن ابن إسحاق عن شيوخه وهو حديث مرسل بجميع طرقه.
● وقد أخرج البخاري (٧/ ٣٧٣ رقم ٤٠٧٧) ومسلم (٤/ ١٨٨٠ رقم ٥١/ ٥٢/ ٢٤١٨) عن عائشة رضي الله عنها «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهمُ القرحُ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم» قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبوك منهم: الزبيرُ، وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحدٍ وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في إثرهم؟ فانتدبَ منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير».

الرعب في قلبه وبَدَا له أن يرجع، فمر به ركبٌ من عبد قيس يريدون المدينة للميرة فَشُرَط لهم حمل بعير من زبيب إن ثَبَّطوا المسلمين. وقيل: لقي نُعَيْمَ بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشراً من الإبل، فخرج نُعَيْمُ فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم أَتَوْكم في دياركم فلم يَفْلِت منكم أحد إلا شريد أَفتروْن أن تخرُجوا وقد جمعوا لكم فَفَتَرُوا، فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد» فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون حسبنا الله[1]. ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الضمير المستكنّ للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله أن أريد به نُعَيْم وحدَه، والبارز للمقول لهم، والمعنى: إنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت به يقينهم بالله وازداد إيمانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده، وهو دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ويعضده قول ابن عمر رضي الله عنهما قلنا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يُدْخِلَ صاحبَهُ الجنة ويَنْقُصُ حتى يُدْخِل صاحبَه النارَ»[2] وهذا ظاهر إن جَعَلَ الطاعةَ من جملة الإيمان وكذا إن لم تُجْعَل فإن اليقين يزداد بالأُلف وكثرة التأمل وتناصر الحُجج[3]. ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ مُحْسِبنا وكافينا، من أَحْسَبَهُ إذا كفاه، ويدلّ على أنه بمعنى المُحْسِب أنه لا يستفيد بالإضافة تعريفاً في قولك هذا رجل حسبك. ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكول إليه هو فيه.

فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

(١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ فرجعوا من بدر. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه ﴿وَفَضْلٍ﴾ وربح في التجارة فإنهم لما أتوْا بدراً وافَوْا بها سوقاً فاتّجَرُوا وربحوا. ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٢/ ٥٩ ـ ٦٠) بدون إسناد. كما ليس فيه أنه صلى الله عليه وسلم خرج في سبعين راكباً، بل فيه (هم ألف وخمسمائة وكانت الخيل عشرة أفراس) كما ليس فيه (هم يقولون: حسبنا الله) وهذا في قصة غزوة بدر الصغرى. قد تقدم أن ابن جرير رجح نزول الآية في غزوة حمراء الأسد.

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية علي بن عبدالعزيز، عن حبيب بن عيسى بن فروخ عن إسماعيل بن عبدالرحمن عن مالك عن نافع عنه. كما في «الكافي الشافي» رقم: (٢٨٥).

(٣) قضية زيادة الإيمان ونقصانه من المسائل الخلافية الشهيرة، ولكل فريق أدلته.
وقد نصت نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة على زيادة الإيمان ونقصانه.
إلا أن من أنكر الزيادة والنقصان أوّل النصوص على أن المراد هو زيادة ثمرته وآثاره والواقع أن الخلاف لفظي، فمن أنكر الزيادة والنقصان كان حديثه عن أصل الإيمان الذي يُخرج من الكفر ويُدخِل في الإسلام وقالوا لو قلنا بالزيادة والنقصان وأبقيناه في إطار الإيمان فيكون قد نقص عن الحد المطلوب وهو الذي إذا نقص أدخل في الكفر، وبالتالي فأصل الإيمان وأساسه لا يزيد ولا ينقص.
إلا أن كلمة الإيمان عامة فتشمل التصديق القلبي وما ينتج عنه من قول وعمل، وقد يطلق على القول والعمل إيمانٌ باعتبارهما مسبَّبَيْن عنه.. وإذا زاد عمل المؤمن الصالحُ فهو دليل على زيادة إيمانه وتصديقه وقوة يقينه، لأن لكل عمل أساسه من القلب.
وعليه فالأولى ترك النصوص على ظاهرها.
وذهب الرازي إلى أن المراد بزيادة إيمانهم هو ما حصل في قلوبهم من تأكيد العزم على محاربة الكفار (التفسير الكبير ٩/ ١٠٠).

من جراحة وكيدِ عدوّ. ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجَراءتهم وخروجهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلبِ في الدين وإظهارِ الجراءة على العدو وبالحفظ عن كل ما يسوءهم وإصابةِ النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل، وفيه تحسير للمتخلِّف وتخطئةُ رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به.

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

(١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يريد به المثبِّطَ نُعَيْماً أو أبا سفيان. والشيطانُ خبرُ ذلكم وما بعده بيان لشيطنته، أو صفته وما بعده خبر، ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أي إنما ذلكم قول الشيطان يعني إبليس عليه اللعنة. ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ القاعدين عن الخروج مع الرسول، أو يخوفكم أولياؤه الذين هم أبو سفيان وأصحابُه. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس الثاني على الأول وإلى الأولياء على الثاني. ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري فجاهدوا مع رسولي. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله تعالى على خوف الناس.

(١٧٦) ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعاً حرصاً عليه، وهم المنافقون من المتخلفين، أو قوم ارْتدوا عن الإسلام. والمعنى لا يحزنك خَوْفَ أن يضروك ويعينوا عليك لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي لن يضروا أولياء الله شيئاً بمسارعتهم في الكفر، وإنما يضرون بها أنفسهم. وشيئاً يحتمل المفعول والمصدر. وقرأ نافع يُحْزِنْك بضم الياء وكسر الزاي حيث وقع ما خلا قوله في الأنبياء ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[1] فإنه فتح الياء وضم الزاي فيه، والباقون كذلك في الكلّ. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ نصيباً من الثواب في الآخرة، وهو يدل على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر، وفي ذكر الإرادة إشعارٌ بأن كفرهم بلغ الغايةَ حتى أراد أرحمُ الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته، وأن مسارعتهم في الكفر لأنه تعالى لم يرد أن يكون لهم حظ في الآخرة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع الحرمان عن الثواب[2].

---

(١) الأنبياء: «١٠٣».

(٢) قوله «يسارعون في الكفر» عدّى الفعل بكلمة «في» التي تفيد الدخول والإحاطة للإشعار باستقرارهم في الكفر ودوام ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، وهو كقوله تعالى: «يسارعون في الخيرات» ـ المؤمنون: «٦١» ـ فإنه مؤذن بملابستهم للخيرات وتقلبهم في فنونها.
وهو بخلاف قوله تعالى «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم..» ـ آل عمران: «١٣٣» ـ حيث عدى الفعل «سارعوا» بكلمة «إلى» لأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها (س٢/ ١١٥).
وقولُه تعالى: «لن يضروا الله» علق نفي الضرر به تعالى لتشريفهم وللإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه (س٢/ ١١٦).
وقولُه تعالى «ولهم عذاب عظيم» وصف العذاب بالعظم ليتناسب مع حقارة ما أقدموا عليه وسارعوا فيه =

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

(١٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين، أو ارتد من العرب.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ خطاب للرسول عليه السلام، أو لكل من يَحْسَب. والذين مفعول، وأنما نملي لهم بدلٌ منه. وإنما اقتصر على مفعول واحد لأن التعويل على البدل وهو ينوب عن المفعولين كقوله تعالى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾[1]، أو المفعولُ الثاني على تقديرِ مضاف مثل: ولا تحسبن الذين كفروا أصحابَ أنَّ الإملاء خيرٌ لأنفسهم، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم، وما مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت متصلة في الإمام فاتُّبع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم والكسائي ويعقوب بالياء على أنّ الذين فاعلٌ، وإنّ مع ما في حيِّزه مفعول، وفَتحَ سينَهُ في جميع القرآن ابنُ عامر وحمزةُ وعاصم. والإملاء الإمهالُ وإطالةُ العمر، وقيل تخليتُهم وشأنَهم، مِنْ أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ استئناف بما هو العلة للحكم قبلها، وما كافّة، واللامُ لام الإرادة، وعند المعتزلة لام العاقبة. وقرىء إنّما بالفتح هنا وبكسر الأولى، ولا يحسبن بالياء على معنى ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم لازدياد الإثم بل للتوبة والدخول في الإيمان، وإنما نملي لهم خيرٌ اعتراضٌ، معناه أن إملاءنا خير لهم إن انتبهوا وتداركوا فيه ما فرط منهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على هذا يجوز أن يكون حالاً من الواو أي ليزدادوا إثماً مُعَدّاً لهم عذاب مهين.

(١٧٩) ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره، والمعنى لا يترككم مختلطين لا يعرفُ مخلِصكم من منافقكم حتَّى يميز المنافق من المخلص بالوحي إلى نبيه بأحوالكم، أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يذعن لها إلا الخُلَّص المخلصون منكم، كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله، ليختبر النبيُّ به بواطنكم ويستدل به على عقائدكم. وقرأ حمزة والكسائي حتى يُمَيِّز هنا وفي الأنفال بضم الياء وفتح الميم وكسر الياء وتشديدها، والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وما كان الله ليؤتيَ أحَدَكم علمَ الغيب فيطَّلع على ما في القلوب من كفر وإيمان، ولكن الله يجتبي لرسالته من يشاء فيوحيَ إليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها. ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

= (س٢/ ١١٦).

(١) الفرقان: «٤٤».

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ بصفة الإخلاص، أو بأن تَعْلَموه وحدَه مطَّلعاً على الغيب وتَعْلَموهم عباداً مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يقولون إلا ما أوحي إليهم. روي أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت[١]، وعن السدي أنه عليه السلام قال «عرضت عليَّ أمتي وأُعْلِمتُ من يؤمن بي ومن يكفر». فقال المنافقون إنه يزعم أنه يعرف من يؤمن به ومن يكفر ونحن معه ولا يعرفُنا فنزلت[٢]. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾ حق الإيمان. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النفاق. ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ﴾ القراءات فيه على ما سبق. ومن قرأ بالتاء قَدَّر مضافاً ليتطابق مفعولاه أي ولا تحسبن بُخْل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذا من قرأ بالياء إن جعل الفاعل ضمير الرسول ﷺ، أو مَنْ يحسب وإن جعله الموصول كان المفعول الأول محذوفاً لدلالة يبخلون عليه أي ولا يحسبن البخلاء بخلَهم هو خيراً لهم. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي البخل. ﴿شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم[٣]. ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ بيان لذلك، والمعنى سيُلزَمون وَبَال ما بخِلوا به إلزام الطوق، وعنه عليه الصلاة والسلام «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعله الله شجاعاً في عنقه يوم القيامة»[٤]. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ وله ما فيهما مما يتوارث، فما لهؤلاء يبخلون عليه بمالِهِ ولا ينفقونه في سبيله، أو أنه يرث منهم ما يُمْسِكونه ولا ينفقونه في سبيله بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المنع والإعطاء. ﴿خَبِيرٌ﴾ فمجازيهم[٥]. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/١٨٨) عن السدي.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص١٣٦) وهو من رواية السدي وبدون سند فهو مرسل، وقال المناوي في الفتح السماوي ص٤٢٤: لم أقف عليه. لم أجده.

(٣) نص على كونه شراً رغم أنه مفهوم من نفي خيريته للمبالغة في ذلك (س٢/ ١٢٠).

(٤) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٣/ ٢٦٨ رقم ١٤٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاهُ الله مالاً فلم يُؤَدِّ زكاتهُ مُثِّل له يوم القيامة شُجاعاً أقرعَ له زَبيبتان يُطوَّقُه يومَ القيامةِ ثمَّ يأخذُ بلِهْزِمَتيهِ ـ يعني شِدْقيهِ ـ ثمَّ يقول: أنا مالك، أنا كنزُكَ. ثم تَلا «ولا يحسبنَّ الذين يبخلونَ» [آل عمران: ١٨٠].

وأخرجه النسائي (٥/ ٣٩ رقم ٢٤٨٢) وأحمد في المسند (٢/ ٢٧٩، ٣٥٥).

● زَبِيبتَان: الزبيبتان: هما الزَّبَدَتان في الشِّدْقين. يقال: تكلم فلان حتى زبَّب شدقاه، أي خرج الزَّبد عليهما، ومنها الحية ذو الزبيبتين. وقيل: هما النكتَتَان السَّوداوَان فوق عينيه.

● بلهزمتيهِ: اللِّهزِمتان: عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين. ويقال: هما مضيفتان عَلَّيتان تحتهما.

(٥) قوله «فمجازيهم، هذا المعنى على قراءة من قرأ «يعملون» بالياء، وقرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (المبسوط ص١٥٠).
=

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾

(١٨١) ﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قالته اليهود لما سمعوا ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1]. وروي أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى يهود بني قينُقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص بن عازوراء: إن الله فقير حتى سأل القرض، فلَطَمه أبو بكر رضي الله عنه على وجهه وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله ﷺ وجحد ما قاله. فنزلت[2]. والمعنى أنه لم يَخْفَ عليه وأنه أعدّ لهم العقاب عليه[3]. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي سنكتبه في صحائف الكتبة، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول، ولذلك نَظَمَه مع قتل الأنبياء، وفيه تنبيه على أنه ليس أولَ جريمة ارتكبوها وأنّ من اجترأ على قتل الأنبياء لم يُستَبْعدْ منه أمثالُ هذا القول. وقرأ حمزة سيُكْتَب بالياءِ وضمِّها وفتح التاء وقَتلُهم بالرفع ويَقُولُ بالياء. ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي وننتقم منهم بأنْ نقولَ لهم ذوقوا العذابَ المُحْرِق، وفيه مبالغات في الوعيد. والذوقُ إدراك الطعوم، وعلى الاتساعُ يُستَعْمَل لإدراك سائر المحسوسات والحالات، وذِكْرُه ههنا لأن العذاب مُرَتّبٌ على قولهم الناشىءِ عن البخل والتهالك على المال، وغالبُ حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم، ومعظمُ بخله به للخوف من فُقدانه، ولذلك كَثُرَ ذِكْرُ الأكل مع المال.

(١٨٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من قتل الأنبياء وقولهم هذا وسائر معاصيهم. عبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطف على ما قدمت وسببيته للعذاب من حيث إن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء[4].

(١٨٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك وحيي وفنحاص ووهب بن يهوذا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا. ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ بأن لا نؤمن

---

(١) البقرة: «٢٤٥».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١٩٤) عن ابن عباس وفي سنده: محمد بن أبي محمد مجهول.

(٣) والذي قال واحد كما يدل سبب النزول ولكنه اعتبره جمعاً لرضا الباقين به(س٢/ ١٢١).

(٤) عبر عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها (س٢/ ١٢١).

لرسول حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل وهو أن يقرب بقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار سماوية فتأكله، أي تحيله إلى طبعها بالإحراق. وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات شرع في ذلك. ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تكذيب وإلزام بأن رسلاً جاؤوهم قبله كزكريا ويحيى بمعجزاتٍ أخر موجبة للتصديق وبما اقترحوه فقتلوهم، فلو كان الموجب للتصديق هو الإتيان به وكان توقفهم وامتناعهم عن الإيمان لأجله فما لهم لم يؤمنوا بمن جاء به في معجزات أخر واجترؤوا على قتله.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

(١٨٤) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ تسلية للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود، والزبر جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرت الشيء إذا حبسته، والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة القرآن. وقيل الزبر المواعظ والزواجر، من زبرته إذا زجرته. وقرأ ابن عامر وبالزبر، وهشام وبالكتاب بإعادة الجار للدلالة على أنها مغايرة للبينات بالذات.

(١٨٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وعد ووعيد للمصدق والمكذب. وقرىء ذائقةٌ الموتَ بالنصب مع التنوين وعدمه كقوله: وَلاَ ذَاكِرُ الله إلا قَلِيلاً ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم خيراً كان أو شراً تاماً وافياً. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم قيامكم من القبور، ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»[1]. ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ بَعُدَ عنها، والزحزحة في الأصل تكرير الزحّ وهو الجذب بعجلة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠ رقم ٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
قلت: في سنده عطية العوفي وهو ضعيف. انظر التقريب (٢/ ٢٤).
والحديث ضعيف. انظر ضعيف الترمذي (رقم: ٤٣٧/ ٢٥٩١).
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٩١): «... وهو ضعيف.
ورواه الطبراني في الأوسط في ترجمة مسعود بن محمد الرملي بإسناده إلى أبي هريرة. وقال: لم يروه عن الأوزاعي إلاَّ أيوب بن سويد. تفرد به ولده محمد ـ بن أيوب ـ عنه. قلت وهو ضعيف» اهـ.
قلت: محمد بن أيوب بن سويد الرملي. قال عنه ابن حبان: يروى عن أبيه عن الأوزاعي الأشياء الموضوعة لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه. وكان أبو زرعة يقول: هذا الشيخ أدخل في كتب أبيه أشياء موضوعة بخط طَرِيّ، وكان يُحَدِّث بها، وضعفه الدارقطني أيضاً. =

﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوز الظفر بالبُغية. وعن النبي ﷺ «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»(١). ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي لذاتها وزخارفها. ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ شبهها بالمتاع الذي يُدَلَّسُ به على المُسْتَام ويُغَرَّ حتى يشتريَه، وهذا لِمَنْ آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ. والغرور مصدر أو جمع غار.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

(١٨٦) ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أي والله لتختبرن. ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بتكليف الإنفاق وما يصيبها من الآفات. ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالجهاد والقتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب. ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ من هجاء الرسول ﷺ والطعن في الدين وإغراء الكفرة على المسلمين، أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال ويستعدوا للقائها حتى لا يرهقهم نزولها. ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على ذلك(٢). ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ مخالفة أمر الله. ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني الصبر والتقوى. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها، أو مما عزم الله عليه أي أَمَرَ به وبالغ فيه. والعزم في الأصل ثبات الرأي على الشيء نحو إمضائه.

(١٨٧) ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ أي اذكُر وقت أخذه(٣). ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به العلماء. ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ حكاية لمخاطبتهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش بالياء لأنهم غيب، واللام جواب القسم الذي ناب عنه قوله ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ﴾ والضمير للكتاب. ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي الميثاق. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فلم يراعوه ولم يتلفتوا إليه. والنَّبْذُ وراء الظهر مَثَلٌ في ترك الاعتداد وعدم الالتفات، ونقيضه جَعْلُه نصب عينيه وإلقاؤه بين عينيه. ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ﴾. وأخذوا بَدَله. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من حطام الدنيا .....

= انظر «المجروحين» (٢/ ٢٩٩) والضعفاء للدارقطني رقم (٤٩٣).

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٧٣ رقم ٤٦/ ١٨٤٤) والنسائي (٧/ ١٥٢ رقم ٤١٩١) وابن ماجة (٢/ ١٣٠٦ رقم ٣٩٥٦). من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص في حديث طويل.

(٢) والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقد عبر عنهم بذلك للإشعار بمدار الشقاق والإيذان بأن بعض ما يسمعونه منهم مستند في زعمهم إلى الكتاب (س٢/ ١٢٣).

(٣) توجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه ـ مع أنه المقصود ـ للمبالغة في إيجاب ذكره (س٢/ ١٢٤).

وأعراضها[١]. ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ يختارون لأنفسهم، وعن النبي ﷺ «من كتم علماً عن أهله أُلجِم بلِجَام من نار»[٢]. وعن علي رضي الله تعالى عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا[٣].

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

(١٨٨) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ومن ضَمَّ الباءَ جعل الخطاب له وللمؤمنين[٤]، والمفعول الأول الذين يفرحون

---

(١) وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة ما يدل على فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الحقير على الشريف وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلي وسيلة والوسيلة مقصداً.
فقد عبر بالاشتراء وهو مؤذن بالرغبة في المأخوذ والإعراض عن المعطى، وعبر عن المشترى بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة، وجَعْل الكتاب ـ الذي حقه التنافس فيه ـ مصحوباً بالباء الداخلة على الآلات والوسائل (س٢/ ١٢٥).

(٢) وهو حديث حسن.
● أخرجه أبو داود (٤/ ٦٧ ـ ٦٨ رقم ٣٦٥٨) وأحمد في المسند (٢/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣) من طريق حماد، عن علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عنْ عِلْمٍ فكتمهُ أَلجَمَهُ الله بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامة».
● وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٩ ـ ٣٠ رقم ٢٦٤٩) وابن ماجة (١/ ٩٦ رقم ٢٦١) وأبو يعلى في المسند (١١/ ٢٦٨ رقم ٦٣٨٣/٥٤٣) وأحمد (٢/ ٤٩٥) والطيالسي (١/ ٣٧ رقم ٨٩ ـ منحة المعبود) من طريق عِمَارَة بن زَاذان، عن علي بن الحكم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عن عِلْمٍ ثم كتمَهُ أُلجِمَ يومَ القيامة بلجام من نارٍ».
قال الترمذي: حديث أبي هريرة: حديث حسنٌ وهو كما قال. وقد حسنه الألباني في صحيح ابن ماجة.
قلت: ويشهد له حديث عبدالله بن عمرو، عند الخطيب البغدادي في «التاريخ» (٥/ ٣٩) وصححه الحاكم (١/ ١٠٢) إذ قال: «هذا إسناد صحيح من حديث المصريين، على شرط الشيخين وليس له علة وفي الباب عن جماعة من الصحابة غير أبي هريرة رضي الله عنهم» ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان (١/ ١٥٤ رقم ٩٦).
كما يشهد له حديث جابر عند الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ١٩٨) و(٩/ ٩٢) و(١٢/ ٣٦٩).
وانظر العلل المتناهية لابن الجوزي (١/ ٩٦ ـ ١٠٧) باب إثم من سئل عن علم فكتمهُ.
تنبيه: قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٩٤): «ليس في شيء من طرقه (عن أهله)».

(٣) رواه الثعلبي من طريق الحارث بن أبي أسامة، أخبرنا عبدالوهاب الحقافي، حدثنا الحسن بن عمارة، حدثني الحكم بن عيينه، عن يحيى بن الجزار: سمعت علياً يقول: فذكره. والحسن متروك ـ (الجرح والتعديل (٣/ ٢٨)) ـ كما قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (رقم ٢٩٥).
وقال الحافظ أيضاً: ورُوِّيناه في جزء الذراع، قال: كتب الحارث بن أسامة فذكره، وذكره ابن عبدالبر في العلم.
قال ويروي عن عليّ، وذكره صاحب الفردوس عن عليّ. فكأنه وقف عليه مرفوعاً.
قلت: الذراع: هو أبو بكر أحمد بن نصر بن عبدالله بن الفتح الذراع، له جزء في الحديث رواه الحافظ بإسناده.

(٤) أي قرأ «فلا تَحْسَبُنَّهم».

والثاني بمفازة، وقوله فلا تحسبنهم تأكيد والمعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق بمفازة: بمنجاة من العذاب أي فائزين بالنجاة منه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياءِ وفتح الباءِ في الأول وضمِّها في الثاني، على أن الذين فاعلٌ ومفعولاً يحسبن محذوفان يدل عليهما مفعولاَ مؤكِّدِه، فكأنه قيل: ولا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا فلا يحسبن أنفسَهم بمفازة، أو المفعول الأول محذوف وقوله فلا تحسبنهم تأكيد للفعل وفاعله ومفعوله الأول. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم وتدليسهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها وأروْه أنهم قد صدقوه وفرحوا بما فعلوا. فنزلت[1]. وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدوا به[2]. وقيل: نزلت في المنافقين فإنهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة[3].

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقابهم. وقيل هو ردّ لقولهم إن الله فقير.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لدلائلُ واضحة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم كما سبق في سورة البقرة، ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغيُّر، وهذه متعرِضةٌ لجملة أنواعه فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغير الليل والنهار، أو جزئه كتغير العناصر بتبدل صورها أو الخارج عنه كتغير الأفلاك بتبدل

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٢٣٣ رقم ٤٥٦٨) ومسلم (٤/ ٢١٤٣ رقم ٨/ ٢٧٧٨) عن ابن أبي مُليكه أنَّ علقمةَ بن وقاص أخبرَهُ: أنَّ مروانَ قال لبوّابه: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس فقل: لئن كان كلُّ امرىء فرحَ بما أوتى وأحبَّ أن يُحْمَد بما لم يعملَ معذَّباً لنعذَّبن أجمعون. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذِه؟ إنما دعا النبيُّ ﷺ يهودَ فسألهم عن شيء. . . .» فذكراه بطوله.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٢٣٣ رقم ٤٥٦٧) ومسلم (٤/ ٢١٤٢ رقم ٧/ ٢٧٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري. أن رجالاً من المنافقين، في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزوِ تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدِهم خلافَ رسول الله ﷺ فإذا قَدِمَ النبي ﷺ اعتذروا إليه. وأحبُّوا أن يُحمدوا بما لم يفعَلوا. فنزلت: «لا تحسبَنَّ الذين يفرحون بما أتوْا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبَنَّهُمْ بمفازة من العذاب» [آل عمران: ١٨٨].
قلت: يحتمل أن تكون الآية نزلت فيهما جميعاً، وإلاَّ فحديث أبي سعيد أرجح، لان حديث ابن عباس مما انتقد على الشيخين. انظر «الإلزامات والتتبع» للإمام أبي الحسن، علي بن عمر الدارقطني (ص٤٩٦ ـ ٤٩٩ رقم ١٧٧) تحقيق وتخريج الشيخ مقبل بن هادي الوادعي. وفتح الباري (٨/ ٢٣٤).

(٣) لم أقف عليه.

أوضاعها[١]. وعن النبي ﷺ «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

(١٩١) ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه عليه الصلاة والسلام «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»[٣]. وقيل معناه يُصَلّون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين[٤]. «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب تومىء إيماء»[٥]. فهو حجة للشافعي رضي الله عنه في أن المريض يصلي مضطجعاً على جنبه الأيمن مستقبلاً بمقاديم بدنه. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات كما قال عليه الصلاة والسلام «لا عبادة . . . . . .

---

(١) وتقديم الليل على النهار إما لأنه الأصل فإن غرر الشهور تظهر في الليالي، وإما لتقدمه في الخلقية كما في قوله تعالى: «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار» ـ يس «٣٧» ـ أي نزيله منه فيخلفه (س٢/ ١٢٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٨ ـ ٩ رقم ٦١٩) من طريق عثمان بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن زكريا، عن إبراهيم ابن سويد النَّخَعي، حدثنا عبدالملك بن أبي سليمان، عن عطاء، قال: دخلتُ أنا وعُبَيْدُ بن عُمير على عائشة، فقالت لعُبيد بن عُمير: قد آن لكَ أن تزورَنا، فقال: أقولُ يا أُمَّهُ كما قال الأولُ: زُر غِبّاً تَزْدَدْ حبّاً. قال: قالت: دعُونا من رطانَتِكم هذِهِ. قال ابن عُمير: أخبرينا بأعجب شيءٍ رأيتِهِ من رسول الله ﷺ، قال: فسكتَت، ثم قالت: لما كان ليلةٌ من الليالي، قال: «يا عائشة ذريني أتعبَّد الليلة لربي» فذكر الحديث.
وقال الشيخ شعيب في تخريجه (٢/ ٣٨٧): «إسناده قوى على شرط مسلم، وأخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص١٨٦ عن الفريابي، عن عثمان بن أبي شيبة، بهذا الإسناد.
وله طرق أخرى عن عطاء عند أبي الشيخ ص١٩٠ و١٩١ وفيه أبو جناب الكلبي يحيى بن أبي حية، ضعفوه لكثرة تدليسه، لكن صرح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه» هـ.
وأورده السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٠٩) وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التفكر، وابن المنذر، وابن مردويه، والأصبهاني في الترغيب، وابن عساكر.
وانظر «الكافي الشافِ» لابن حجر (رقم: ٢٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٣٠٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٧ رقم ٣٢٦) قال ابن حجر في الكافي الشافِ (ص٣٦ رقم ٣٠١): وفي إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

(٤) عمران بن الحصين هو: عمران بن حصين بن عبيد بن خلف، القدوة الإمام، صاحب رسول الله ﷺ، أبو نجيد الخزاعي، أسلم هو وأبوه وأبو هريرة في وقت واحد سنة سبع، وله عدة أحاديث.
توفي سنة اثنتين وخمسين.
[الاستيعاب (٩/ ١٩) وشذرات الذهب (١/ ٦٢)].

(٥) أخرجه البخاري (٢/ ٥٨٧ رقم ١١١٧) وأبو داود (١/ ٥٨٥ رقم ٩٥٢) والترمذي (٢/ ٢٠٨ رقم ٣٧٢) وابن ماجة (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٥٥).

كالتفكر»[١]. لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق، وعنه عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً: اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له»[٢]. وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على إرادة القول أي يتفكرون قائلين ذلك، وهذا إشارة إلى المتفكَّر فيه أي الخلق على أنه أريد به المخلوق من السموات والأرض، أو إليهما لأنهما في معنى المخلوق، والمعنى ما خلقتَه عبثاً ضائعاً من غير حكمة بل خلقتَه لحكم عظيمة من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلاً يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض. ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للإخلال بالنظر فيه والقيام بما يقتضيه. وفائدة الفاء هي الدلالة على أن علمَهم بما لأجله خُلِقَت السموات والأرض حَمَلَهم على الاستعاذة.

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ غايةَ الإخزاء، وهو نظيرُ قولهم: من أدرك مَرْعى الضِّمَان فقد أدرك[٣]، والمرادُ به تهويل المستعاذِ منه تنبيهاً على شدة خوفهم وطلبهم الوقاية منه، وفيه إشعار بأن العذاب الروحاني أفظع. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أراد بهم المُدْخَلِين، ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن ظلمهم سببٌ لإدخالهم النار وانقطاعِ النصرة عنهم في الخلاص منها، ولا يلزم من نفي النصرة نفيُ الشفاعة لأن النصر دفعٌ بقهر[٤].

(١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ أوقع الفعل على المُسْمِع وحذف المسموع لدلالة وصْفِه عليه، وفيه مبالغة ليست في إيقاعه على نفس المسموع. وفي تنكير المنادي وإطلاقِه ثم تقييده تعظيمٌ لشأنه، والمرادُ به الرسول عليه الصلاة والسلام[٥] وقيل القرآن، والنداء والدعاء ونحوهما يعدى

---

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/٣٠٧) من حديث علي رضي الله عنه وفيه أبو رجاء محمد بن عبدالله الحبطي، قال عنه ابن حبان: «يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات».

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشافِ (ص٣٦ رقم ٣٠٣): رواه الثعلبي من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة، وفي إسناده من لا يعرف.

(٣) أي فقد أدرك غاية المرعى أو المرعى الكامل...

(٤) صدر الآية بالنداء للمبالغة في التضرع والجؤار. وأكدها بإنّ لإظهار كمال التعيين بمضمونها والإيذان لشدة الخوف. وأظهر النار في موضع الإضمار لتهويل أمرها. وذكر الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين غاية فظاعته (س٢/ ١٣١).

(٥) آثر لفظ المنادي على الداعي للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الداني والقاصي لما فيه من =

بإلى واللام لتضمنها معنى الانتهاء والاختصاص. ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ أي بأن آمنوا فامْتَثَلْنا. ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرَنا فإنها ذاتُ تبعة. ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ صغائرنا فإنها مستقبَحة، ولكن مُكَفِّرة عن مجتنب الكبائر. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين في زمرتهم، وفيه تنبيه على أنهم محبون لقاء الله، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. والأبرار جمع بَرٍّ أو بارّ كأرباب وأصحاب.

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي ما وعدتَنا على تصديقِ رسلك من الثواب. لمّا أظهر امتثاله لما أُمِرَ به سأل ما وُعِدَ عليه لا خوفاً من إخلاف الوعد بل مخافة أن لا يكون من الموعودين لسوء عاقبة أو قصور في الامتثال أو تعبداً واستكانة. ويجوز أن يعلق على بمحذوف تقديره: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً عليهم. وقيل معناه على ألسنة رسلك. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بأن تعصمَنا عما يقتضيه. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الميعاد البعث بعد الموت. وتكرير ربَّنا للمبالغة في الابتهال والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها. وفي الآثار: من حزبه أمر فقال خمس مرات ربنا أَنْجَاه الله مما يخاف[1].

(١٩٥) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى طلبتهم، وهو أخص من أَجَاب ويُعدى بنفسه وباللام[2]. ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أي بأني لا أضيع. وقرىء بالكسر على إرادة القول[3]. ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان عامل. ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ لأن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، أو لأنهما من أصل واحد، أو لفرط الاتصال والاتحاد، أو للاجتماع والاتفاق في الدين. وهي جملة معترِضة بيّن بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال. روي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء. فنزلت[4]. ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ إلخ، تفصيل لأعمال العمال وما أعد

= الإيذان برفع الصوت (س٢/ ١٣٢).

(١) هو من قول جعفر الصادق (روح المعاني ٤/ ١٦٧).

(٢) وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الاستجابة (س٢/ ١٣٣).

(٣) والالتفات هنا إلى التكلم والخطاب لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب (س٢/ ١٣٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٣) والطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢١٥) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٩٤ رقم ٦٥٢) وفي سنده رجل من بني سلمة، وقد بينه الحاكم (٢/ ٣٠٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجه ووافقه الذهبي.

قلت: قال الحافظ في «التقريب (١/ ٣١٧ رقم ٣٧١): «سلمة بن عبدالله بن عمر بن أبي سلمة بن عبدالأسد =

لهم من الثواب على سبيل المدح والتعظيم، والمعنى فالذين هاجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين. ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ بسبب إيمانهم بالله ومن أجله ﴿وَقَاتَلُوا﴾ الكفار. ﴿وَقُتِلُوا﴾ في الجهاد. وقرأ حمزة والكسائي بالعكس لأن الواو لا توجب ترتيباً والثاني أفضل أو لأن المراد لمّا قُتِل منهم قوم قاتل الباقون ولم يضعُفوا. وشدد ابن كثير وابن عامر قُتِّلوا للتكثير. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لأمحونها. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي أثيبُهم بذلك إثابةً من عند الله تفضلاً منه، فهو مصدر مؤكد. ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ على الطاعات قادر عليه.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

(١٩٦) ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمتُه، أو تثبيته على ما كان عليه كقوله ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1] أو لكل أحد، والنهي في المعنى للمخاطب وإنما جعل للتقلب تنزيلاً للسبب منزلة المسبب للمبالغة، والمعنى لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى من تَبَسُّطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم. روي أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء ولينِ عيشٍ فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد. فنزلت[2].

(١٩٧) ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك التقلب متاع قليل لقصر مدته في جنب ما أعد الله للمؤمنين. قال عليه الصلاة والسلام «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدُكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[3]. ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي ما مهدوا لأنفسهم.

= المخزومي، وربما نسب إلى جد أبيه، وإلى جده، أخرج له الترمذي حديثاً فلم يسمه، قال: عن رجل من ولد أم سلمة، وسماه الحاكم. مقبول، من الثالثة، لم يذكره المزي» هـ.

قلت: ليس كما قال الحاكم فإن سلمة هذا لم يخرج له سوى الترمذي ولم يوثقه غير ابن حبان. وأما يعقوب بن حميد قال عنه الحافظ في التقريب (٢/ ٣٧٥): «صدوق ربما وهم» ومع ذلك فقد توبع.

● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٢) وأحمد (٦/ ٣٢٢) والحاكم (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

وابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٤٦، ٤٧) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨٠ رقم ٦٠٩) كلهم من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: «ولا تتمنَّوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» وعند الطبراني زيادة في آخره «ثم أنزلت» (إني لا أُضِيعُ عملَ عاملٍ) الآية.

والخلاصة أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

(١) القلم: «٨».

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٣٩) بدون إسناد.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٣ رقم ٥٥/ ٢٨٥٨) والترمذي (٤/ ٥٦١ رقم ٢٣٢٢) وابن ماجة (٢/ ١٣٧٦ رقم ٤١٠٨) وأحمد (٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) من حديث ابن شداد.

(١٩٨) ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ النُّزُل والنُّزول ما يعد للنازل من طعام وشراب وصلة قال أبو الشعر الضبي[١]:

وكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ بِالْجَيشِ ضَافَنَا جعَلْنَا القَنَا وَالمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزلا

وانتصابه على الحال من جنات والعامل فيها الظرف. وقيل إنه مصدر مؤكد والتقدير أنزلوها نزلاً[٢]. ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لكثرته ودوامه. ﴿ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

(١٩٩) ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ نزلت في عبدالله بن سلاّم وأصحابه[٣]. وقيل في أربعين من نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا[٤]. وقيل في أصحمة النَّجاشي لما نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ فخرج فصلى عليه فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلي على عِلْجٍ نصراني لم يره قط[٥]. وإنما دخلت اللام على الاسم للفصل بينه وبين إنّ بالظرف.

---

(١) أبو الشعر الضبي هو: يونس بن حبيب أبو عبدالرحمن الضَّبِّيُّ وقيل الليثيُّ بالولاء، إمامُ نُحاةِ البصرة في عصره، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات، كانت حَلْقَتُهُ مجمعَ فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب. . . . وكان يونسُ عالماً بالشعر نافذ البصر في تمييز جيِّدِهِ من رديئهِ، عارفاً بطبقات شعراء العرب حافظاً لأشعارهم يُرْجَعُ إليه في ذلك كلِّهِ. وكان مولده سنة ثمانين، ومات سنة اثنتين وثمانين ومائةٍ.
[معجم الأدباء (٢٠/ ٦٤ ـ ٦٧ رقم ٣٩)].

(٢) إيراد التقوى في حيز الصلة للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى.
وكذا إيراد البر في قوله «للأبرار» (س٢/ ١٣٥).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢١٩) عن ابن جريج.

(٤) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٤/ ١٧٣) عن عطاء بدون سند.

(٥) ● أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢١٨) وابن عدي في التكامل (٣/ ١١٧١) من طريق أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن جابر بن عبدالله مرفوعاً، دون قوله: «ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي» وزاد فيه: «وكبر أربعاً».
وفيه أبو بكر الهذلي، قيل اسمه (سلمى بن عبدالله) قال الحافظ في التقريب (٢/ ٤٠١) أخباري متروك الحديث.
● وأخرج الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٣/ ٣٨ ـ ٣٩) ـ عن أبي سعيد الخدري، قال لما قدم على النبي ﷺ وفاه النجاشي قال اخرجوا فصلوا على أخ لكم لم تروه قط فخرجنا وتقدم النبي ﷺ وصففنا خلفه فصلى وصلينا فلما انصرفنا قال المنافقون انظروا إلى هذا خرج فصلى على علج نصراني لم يره قط فأنزل الله «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم». إلى آخر الآية.
قال الهيثمي: وفيه عبدالرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف.
● وأخرج الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٣٦ رقم ٣٦١) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٩) عن وحشي بن حرب قال: لما مات النجاشي قال رسول الله ﷺ لأصحابه إن أخاكم النجاشي قد مات قوموا فصلوا عليه فقال رجل =

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين. ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن وجمعه باعتبار المعنى ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعله المحرِّفون من أحبارهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ما خص بهم من الأجر ووعده في قوله تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لعلمه بالأعمال وما يستوجبه من الجزاء واستغنائه عن التأمل والاحتياط، والمراد أن الأجر الموعود سريع الوصول فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

(٢٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد. ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ وغالبوا أعداء الله بالصبر على شدائد الحرب وأعدى عدوكم في الصبر على مخالفة الهوى، وتخصيصُه بعد الأمر بالصبر مطلقاً لشدته. ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للغزو، وأنفسكم على الطاعة كما قال عليه الصلاة والسلام «من الرباط انتظار الصلاة بعدالصلاة»[2]. وعنه عليه الصلاة والسلام «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه، لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة»[3]. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فاتقوه بالتبري عما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح، أو واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المرتبة التي هي الصبر على مضض الطاعات ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات، المعبَّر

= يا رسول الله كيف نصلي عليه وقد مات في كفره فقال «ألا تسمعون إلى قول الله: «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم» إلى آخر الآية.
قال الهيثمي: وفيه سليمان بن أبي داود الحراني وهو ضعيف.
● وأما صلاة النبي ﷺ على النجاشي فقد ثبت. أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١١٦ رقم ١٢٤٥) وأطرافه في: (١٣١٨)، (٧، ١٣)، (٨، ١٣)، (١٣٣٣)، (٣٨٨٠)، (٣٨٨١). ومسلم (٢/ ٦٥٦ ـ ٦٥٧ رقم ٦٢، ٦٣/ ٩٥١) من حديث أبي هريرة.

(١) القصص: «٥٤».

(٢) أخرج مسلم (١/ ٢١٩ رقم ٤١/ ٢٥١) والترمذي (١/ ٧٢ رقم ٥١).
عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدُلُّكم على ما يمحو اللهُ به الخطايا ويرفعُ به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغُ الوُضوءِ على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط».
● ولم أجده بلفظ الكتاب.

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٢٠ رقم ١٦٣/ ١٩١٣) عن سلمان، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهر وقيامِهِ. وإن ماتَ، جرى عليه عملُهُ الذي كان يعملُهُ، وأُجْرِيَ عليه رزقُهُ، وأمِنَ الفتّان».
وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٤٠، ٤٤١) وابن شيبة في المصنف (٥/ ٣٢٧) (٥/ ٣٣٧) بألفاظ متقاربة.

عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً على جسر جهنم»[١]. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تجب الشمس»[٢]. والله أعلم.

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع:
أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) من طريق أبي الخليل بَزِيع بن حسَّان، ومَخْلَد بن عبدالواحد، كلاهما عن علي بن زيد بن جدعان، عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب مرفوعاً: «من قرأ سورة كذا وكذا، فله كذا وكذا، فذكر سورة سورة».
وقال: «وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك، وفي إسناد الطريق الأول (بَزِيع) قال الدارقطني: وهو متروك، وفي الطريق الثاني (مَخْلَد) بن عبدالواحد قال ابن حبان: منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقاة، وقد اتفق (بَزِيع) و(مَخْلَد) على رواية هذا الحديث عن علي بن زيد، وقد قال أحمد ويحيى: علي بن زيد ليس بشيء. وبعد هذا فنفى الحديث يدل على أنه مصنوع فإنه قد استنفذ السور وذكر في كل واحدة ما يناسبها من الثواب بكلام ركيك في نهاية البزودة لا يناسب كلام رسول الله ﷺ» هـ.
قلت: انظر ترجمة أبي الخليل بزيع بن حسان في «الجرح» (٢/ ٤٢١) والمجروحين ـ (١/ ١٩٨ ـ ١٩٩) ـ والميزان (١/ ٣٠٦).
وترجمة مخلد بن عبدالواحد في «الجرح» (٨/ ٣٤٨) والمجروحين (٣/ ٤٣) والميزان (٤/ ٨٣).
● قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» ص٣١٧: «ولا خلاف بين الحفاظ بأن حديث أبي بن كعب هذا موضوع. وقد اغتر به جماعة من المفسرين فذكروه في تفاسيرهم: كالثعلبي، والواحدي، والزمخشري ولا جرم فليسوا من أهل هذا الشأن» هـ.
● وقال ابن قيم الجوزية في «المنار المنيف» (ص١١٣ رقم ٢٢٠): ومنها ـ أي من الأحاديث التي لم تثبت ـ «ذِكْرُ فضائل السور وثواب من قرأ سورة كذا فله أَجْرُ كذا» من أول القرآن لآخره، كما ذكر ذلك الثعلبي والواحديُّ في أول كُلِّ سورة، والزمخشري في آخرها. قال عبدالله بن المبارك: أظنُّ الزنادقة وضعوها.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٨ رقم ١١٠٠٢) وأورده الهيثمي في المجمع (٢/ ١٦٨) وابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣١١) من حديث ابن عباس.
قال الهيثمي: وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف جداً.
وقال ابن حجر: إسناده ضعيف.
وحكم عليه المحدث الألباني بالوضع في «الضعيفة» رقم (٤١٥).

سُورَةُ النِّسَاءِ

ترتيبها ٤ آياتها ١٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب يعم بني آدم. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم[١]. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ عطف على خلقكم أي خلقكم من شخص واحد وخلق منه أمكم حواء من ضِلع من أضلاعه، أو محذوف تقديره من نفس واحدة خلقها وخلق منها زوجها، وهو تقرير لخَلْقهم من نفس واحدة. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ بيان لكيفية تولدهم منهما، والمعنى ونَشَر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة، واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها، إذ الحكمة تقتضي أن يكنّ أكثر، وذَكَر كثيراً حملاً على الجمع، وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليها، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها. وقرىء وخالقٌ وباثٌّ على حذف مبتدأ تقديره وهو خالق وباث. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي يسأل بعضكم بعضاً تقول أسألك بالله، وأصله تتساءلون فأُدغمت التاء الثانية في السين[٢]. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بطرحها. ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالنصب عَطْفٌ على محلِ الجار والمجرور كقولك: مررت بزيد وعمراً، أو على الله أي اتقوا الله واتقوا الأرحام فَصِلُوها ولا تقطعوها. وقرأ حمزة بالجرّ عطفاً

---

(١) قوله «اتقوا ربكم» تعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب (س٢/ ١٣٧).

(٢) وهذا على قراءة من قرأ بتشديد السين «تسَّاءلون» وهي قراءة الجمهور.

على الضمير المجرور وهو ضعيف لأنه كبعض الكلمة[١]. وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ محذوفُ الخبر تقديره والأرحامُ كذلك، أي مما يُتقى أو يُتساءل به. وقد نبه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحامَ باسمه الكريم على أنّ صلتها بمكانٍ منه. وعنه عليه الصلاة والسلام «الرحم معلقة بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»[٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظاً مطلعاً.

(٢) ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي إذا بلغوا، واليتامى جمع يتيم وهو الذي مات أبوه، من اليتم وهو الانفراد. ومنه الدرّة اليتيمة، إما على أنه لما جرى مجرى الأسماء كفارس وصاحب جُمع على يتائم، ثم قُلِب فقيل يتامى أو على أنه جمع على يَتْمَى كأسرى لأنه من باب الآفات. ثم جمع يَتْمى على يتامى كأسرى وأسارى، والاشتقاق يقتضي وقوعه على الصغار والكبار، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ. وورووه في الآية إما للبُلّغ على الأصل أو الاتساع لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يُدْفعَ إليهم أموالهم أولَ بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد، ولذلك أمر بابتلائهم صغاراً. أو لغير البُلّغ والحُكْم مقيّد فكأنه قال: وآتوهم إذا بلغوا. ويؤيد الأول ما روي: أن رجلاً من غَطَفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال منه فمنعه فنزلت[٣]. فلما سمعها العمّ قال: أطعنا الله ورسوله نعوذ بالله من الحوب الكبير. ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم، أو الأمر الخبيث وهو اختزال أموالهم بالأمر الطيب الذي هو حفظها. وقيل ولا تأخذوا الرفيع من أموالهم وتعطوا الخسيس مكانها، وهذا تبديل وليس بتبدل. ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ولا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم، أي لا تنفقوهما معاً ولا تسوّوا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام وهو فيما زاد على قدر أجره لقوله تعالى ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٤] ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للأكل. ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذنباً عظيماً. وقرىء حَوْباً وهو مصدر حاب حَوْباً وحَاباً كقال قَوْلاً وقالاً[٥].

---

(١) ما ذكره البيضاوي من ضعف قراءة حمزة «والأرحامِ» بالجرّ قول غير مقبول منه.
وقد نقله عن الزمخشري في الكشاف ١/ ٢٤١ وهو مذهب البصريين.
أما حمزة فهو من القراء السبعة المشهورين الذين تلقت الأمة قراءتهم بالقبول. ثم إن هذه القراءة قد قرأ بها غير السبعة كابن مسعود وابن عباس والنخعي والحسن البصري وغيرهم.
وأما ما ذكر من أنه غير موافق للعربية فغير صحيح، بل الصحيح جوازه فقد رجح ابن مالك جوازه واستشهد له بالنثر والنظم. (شرح ابن عقيل ٢/ ٢٤٠) وانظر رد أبي حيان في البحر المحيط ٣/ ١٥٩ على الزمخشري وابن عطية في رد قراءة حمزة.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٤١٧ رقم ٥٩٨٩) عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «الرَّحمُ شِجْنة، فمن وصلها وصلتُه، ومن قطعَها قطعتُه».
ـ وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٨١ رقم ١٧/ ٢٥٥٥) عنها بلفظ الكتاب.

(٣) ذكره الثعلبي عن مقاتل والكلبي وسنده إليهما مذكور في أول الكتاب ـ كما في «الكافي الشافِ» لابن حجر رقم (٣١٥) ـ. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٤٢) من قول مقاتل والكلبي.
قلت: مقاتل والكلبي هما كذابان.

(٤) النساء: «٦».

(٥) في الآية قدم أمر اليتامى للاعتناء بأمرهم ولملابستهم للأرحام، إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلما تفوض الوصاية إلى الأجانب. =

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾

(٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أي إن خفتم أن لا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن، إذ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها ضناً بها، فربما يجتمع عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن. أو إن خفتم أن لا تعدلوا في حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضاً أن لا تعدلوا بين النساء فانكحوا مقداراً يمكّنكم الوفاءَ بحقه، لأن المتحرِّج من الذنب ينبغي أن يتحرج من الذنوب كلها على ما روي: أنه تعالى لما عَظَّم أمر اليتامى تحرَّجوا من وَلايتهم وما كانوا يتحرجون من تكثير النساء وإضاعتهن فنزلت[1]. وقيل: كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنى، فقيل لهم إن خفتم أن لا تعدلوا في أمر اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حل لكم. وإنما عبر عنهن بما ذهاباً إلى الصفة أو إجراءً لهنّ مجرى غير العقلاء لنقصان عقلهن، ونظيره ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[2]. وقرىء تَقْسطوا بفتح التاء على أنّ لا مزيدة أي إن خفتم أن تجوروا. ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ معدولة عن أعداد مكررة وهي: ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. وهي غير منصرفة للعدل والصفة فإنها بُنِيَت صفاتٍ وإن كانت أصولُها لم تُبْن لها. وقيل لتكرير العدل فإنها معدولة باعتبار الصفة والتكرير منصوبةً على الحال من فاعل طاب، ومعناها: الإذن لكل ناكح يريد الجمع أن ينكح ما شاء من العدد المذكور متفقين فيه ومختلفين كقولك: اقتسموا هذه البدرة درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، ولو أُفْرِدت كان المعنى تجويز الجمع بين هذه الأعداد دون التوزيع، ولو ذكرت بأَوْ لذهب تجويز الاختلاف في العدد. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد أيضاً. ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فاختاروا أو فانكحوا واحدة وذروا الجمع. وقرىء بالرفع على أنه فاعل محذوف أو خبره تقديره فتكفيكم واحدة، أو فالمقنع واحدة. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سوى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السراري لخفة مؤَنهن وعدم وجوب القَسْم بينهن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التقليل منهن أو اختيار الواحدة أو التسرّي. ﴿أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أقرب من أن لا تميلوا، يقال عال الميزان إذا مال وعال الحاكم إذا جار، وعَوْلُ الفريضة الميْلُ عن حدّ السهام المسمَّاة. وفُسِّر بأن لا تكثُر عيالُكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم إذا مانهم، فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤن على الكناية، ويؤيده قراءة أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عيالُه، ولعل المراد بالعيال الأزواج وإن أريد الأولاد فلأن التسري

= والمراد بإيتاء أموالهم أن يقطع المخاطبون أطماعهم الفارغة عنها. وعبر عنه بالإيتاء مجازاً للإيذان بأنه ينبغي أن يكون مرادهم بذلك إيصالها إليهم لا مجرد ترك التعرض لها (س٢/ ١٣٩).

(١) أخرجه ابن جرير (٤/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤) عن سعيد بن جبير والسدي وقتادة وابن عباس، وفي سنده عن ابن عباس أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف.

(٢) النساء: «٣».

مظنة قلة الولد بالإضافة إلى التزوج لجواز العزل فيه كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع.

(٤) ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مهورهن. وقرىء بفتح الصاد وسكون الدال على التخفيف، وبضم الصاد وسكون الدال، جمع صَدُقة كغرفة، وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدَقة كظُلُمة في ظُلْمة. ﴿نِحْلَةً﴾ أي عطية يقال نَحَله كذا نِحْلة ونُحْلاً إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض، ومن فسرها بالفريضة ونحوها نظر إلى مفهوم الآية لا إلى موضوع اللفظ، ونَصْبُها على المصدر لأنها في معنى الإيتاء أو الحال من الواو، أو الصدقات أي آتوهن صدقاتهن ناحلين أو منحولة. وقيل المعنى نِحْلة من الله وتفضلاً منه عليهن فتكون حالاً من الصدقات. وقيل ديانة من قولهم انتحل فلان كذا إذا دان به على أنه مفعول له، أو حال من الصدقات أي ديناً من الله تعالى شَرَعَه، والخطاب للأزواج، وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور مُوَلَّياتهم. ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ للصداق حملاً على المعنى، أو جرى مجرى اسم الإشارة كقول رؤبة:

كأَنَّهُ في الجلْدِ تَوْلِيعُ البُهَق

إذ سئل فقال: أردت كأنّ ذاك، وقيل للإيتاء، ونفساً تمييز لبيان الجنس ولذلك وحِّد، والمعنى فإن وَهَبْن لكم شيئاً من الصداق عن طيب نفس، لكن جَعَلَ العمدة طيبَ النفس للمبالغة وعدّاه بعن لتضمن معنى التجافي والتجاوز، وقال: «منه» بَعْثاً لهنّ على تقليل الموهوب ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً بلا تبعة. والهنيء والمريء صفتان من هنَأ الطعام ومرَأ إذا ساغ من غير غَصَص، أقيمتا مقام مصدريهما أو وصف بهما المصدر أو جُعلتا حالاً من الضمير. وقيل: الهنيء ما يلذه الإنسان، والمريء ما تحمد عاقبته. روي: أن ناساً كانوا يتأثمون أن يَقْبَل أحدهم من زوجته شيئاً مما ساق إليها. فنزلت[1].

﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾

(٥) ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ نهي للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رَشَد لهم أموالَهم فيضيِّعوها، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم، وهو الملائم للآيات المتقدمة والمتأخرة. وقيل نهي لكل أحد أن يعمد إلى ما خوّله الله تعالى من المال فيعطي امرأته وأولاده، ثم ينظر إلى أيديهم. وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقولهم واستهجاناً لجعلهم قُوّاماً على أنفسهم وهو أوفق لقوله[2]: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ أي تقومون بها وتنتعشون، وعلى الأول يؤول بأنها التي من

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢٤٣) عن المعتمر عن أبيه، به.

(٢) أضاف الأموال إلى الأولياء لا لكونها تحت ولايتهم ـ كما ذكر البيضاوي ـ بل تنزيلاً لاختصاصها بأصحابها مَنْزِلَةَ اختصاصها بالأولياء، فكأن أموالهم عين أموالهم كما في قوله تعالى: «ولا تقتلوا أنفسكم» ـ النساء «٢٩» ـ أي لا يقتل بعضكم بعضاً، حيث عبر عن بني نوعهم بأنفسهم مبالغة في زجرهم. (س٢/ ١٤٤).
إلا أنه تعالى أضاف الأموال إلى اليتامى في قوله «وآتوا اليتامى أموالهم» ـ النساء «٢» ـ ولم يضفه للأولياء مع أن =

جنس ما جعل الله لكم قياماً سمي ما به القيام قياماً للمبالغة. وقرأ نافع وابن عامر قِيَماً بمعناه كعِوَذٍ بمعنى عِيَاذ. وقرىء قِوَاماً وهو ما يقام به. ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عدة جميلة تطيب بها نفوسهم. والمعروف ما عرفه الشرع أو العقل بالحُسْن، والمنكر ما أنكره أحدُهما لقبحه.

وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

(٦) ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ اختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين والتهدي إلى ضبط المال وحسن التصرف، بأن يَكِل إليه مقدمات العقد. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى بأن يُدفَع إليه ما يتصرف فيه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ حتى إذا بلغوا حد البلوغ بأن يحتلم، أو يستكمل خمس عشرة سنة عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة كُتِب مالَه وما عليه وأقيمت عليه الحدود»[1]. وثماني عشرة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وبلوغُ النكاح كنايةٌ عن البلوغ، لأنه يصلح للنكاح عنده. ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ فإن أبصرتم منهم رشداً. وقرىء أحستم بمعنى أَحْسَسْتُم. ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ، ونَظْمُ الآيةِ أَنّ إنْ الشرطية جواب إذا المتضمنة معنى الشرط، والجملةُ غاية الابتلاء فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقِهم دَفْعَ أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشْد منهم، وهو دليل على أنه لا يُدفعُ إليهم ما لم يُؤنَس منهم الرشدُ. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا زادت على سن البلوغ سبعُ سنين وهي مدة معتبرة في تغير الأحوال، إذ الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة، دُفِعَ إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ مسرفين ومبادرين كِبَرَهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كِبَرَهم. ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ من أكلها. ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بقدر حاجته وأجرة سعيه، ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولي له حق في مال الصبي، وعنه عليه الصلاة والسلام «أن رجلاً قال له إن في حجري يتيماً أفآكل من ماله؟ قال: كُلْ بالمعروف غير متأثِّل مالاً ولا واقٍ مالَك بماله»[2] وإيراد

= الأموال في الصورتين لهم، وذلك للإيذان بترتب الحكم على الوصف فيهما، فإن تسميتهم يتامى هناك يناسب قطع الطمع فيفيد المبالغة في ردّ الأموال إليهم فاقتضى أن يقال «أموالهم»، أما الوصف هنا فهو السفاهة فناسب أن لا يختصوا بشيء من المالكية لئلا يتورطوا في الأموال، فلذلك لم يضف أموالهم إليهم بل أضافها للأولياء (روح المعاني ٤/ ٢٠١).

(١) أخرجه البيهقي في الخلافيات من حديث أنس، وقال: إسناده ضعيف (الفتح السماوي ص٤٥٩).

(٢) وهو حديث حسن.

أخرجه الثعلبي من طريق معاوية بن هشام. حدثنا الثوري عن ابن أبي نجيح عن الحسن العرني عن ابن عباس.

هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهي للأولياء أن يأخذوا وينفقوا على أنفسهم أموالَ اليتامى. ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها فإنه أنفى للتُّهمة وابْعَدُ من الخصومة، ووجوبُ الضمان وظاهرُه يدل على أن القَيِّم لا يَصْدُق في دعواه إلا بالبينة وهو المختار عندنا وهو مذهب مالك خلافاً لأبي حنيفة. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً فلا تخالفوا ما أُمِرتم به ولا تتجاوزوا ما حدَّ لكم.

(٧) ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ يريد بهم المتوارثين بالقرابة. ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل مما ترك بإعادة العامل. ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾[١] أو حال إذ المعنى: ثبت لهم مفروضاً نصيبُ، أو على الاختصاص بمعنى أعني نصيباً مقطوعاً واجباً لهم، وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقُّه. روي أن أوس بن الصامت الأنصاري خلف زوجتَه أم كُحّة وثلاثَ بنات، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة، أو قتادة وعرفجة ميراثَه عنهن على سُنّة الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون: إنما يرثُ من يحارب ويذبّ عن الحَوْزة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيخ فشكت إليه فقال: ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله. فنزلت فبعث إليهما: لا تُفرقا من مال أوسٍ شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين. فنزلت ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾[٢] فأعطى أمَّ كحة الثمن والبناتِ الثلثين والباقي ابني العم[٣]. وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب[٤].

= ورواه عبدالرزاق ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٤٣٧) ـ وابن المبارك في البر والصلة ـ رقم ٢٠٩ ـ والطبري ـ (٣/ ج٤/ ٢٦٠) ـ عن سفيان بن عينة، عن ابن دينار، عن الحسن العرني فذكره مرسلاً. ووقع عند الطبري «الحسن البصري» والصواب «الحسن العرني» وقد كان يرسل عن ابن عباس.

وروى أحمد ـ (٢/ ٢٨٦، ٢١٥) ـ وأبو داود ـ (٣/ ٢٩٢ رقم ٢٨٧٢) ـ والنسائي ـ (٦/ ٢٥٦ رقم ٣٦٦٨) ـ وابن ماجة ـ (٢/ ٩٠٧ رقم ٢٧١٨) ـ وغيرهم من رواية عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: «جاء رجل النبي ﷺ . . . . . » الحديث.

وروى ابن حبان ـ (ص٥٠١ رقم ٢٠٤٨ ـ موارد) ـ من رواية صالح بن رستم، عن عمرو بن دينار عن جابر، قال: قال رجل لرسول الله ﷺ . . . . . الحديث.

وأخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٩٠) في ترجمة صالح بن رستم وهو أبو عامر الخزان وضعفه عن ابن معين. وقال: لم أجد له حديثاً منكراً.

ورواه أبو نعيم في الحلية ـ (٣/ ٣٥١) ـ في ترجمة عمرو بن دينار.

وقال: تفرد به الخزان وهو ثقات البصريين.

«الكافي الشافِ» (رقم: ٣٢٣).

(١) النساء: «١١».

(٢) النساء: «١١».

(٣) وهو حديث ضعيف.

أخرجه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب الفرائض ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٤٣٨) ـ، وابن حجر في الإصابة (١/ ٨٠).

والحديث ضعيف بهذا الإسناد لأن الحافظ صرح بأنه من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، والكلبي متروك.

وانظر كلام ابن حجر في الإصابة (١/ ٨٠) و(٤/ ٤٨٧) «والكافي الشافِ» رقم: ٣٢٦ فإنه مفيد في ذكر الاختلاف في ذلك الصحابي ووفاته وورثته، والاختلاف في سبب نزول هذه الآية.

(٤) قوله «وللنساء نصيب» أورد حكم النساء على الاستقلال ولم يقل للرجال وللنساء لبيان أصالتهن باستحقاق =

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ فأعطوهم شيئاً من المقسوم تطييباً لقلوبهم وتصدقاً عليهم. وهو أمر نُدِب للبُلَّغ من الورثة، وقيل أمر وجوب، ثم اختُلف في نسخه. والضمير لما تَرَك أو ما دل عليه القسمة ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنّوا عليهم.

(٩) ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أمرٌ للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يُفْعَل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم، أو للحاضرين المريضَ عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شَفَقَتَهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضرَّ بهم بصرف المال عنهم، أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم، أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزه، جُعِلَ صلة للذين على معنى وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ذرية ضعافاً خافوا عليهم الضياع. وفي ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه وبَعْثٌ على الترحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاده وتهديد للمخالف بحال أولاده. ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أَمَرَهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعدما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى إذ لا ينفع الأول دون الثاني، ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب، أو للمريض ما يَصُدُّه عن الإسراف في الوصية وتضييع الورثة ويذكّره التوبة وكلمة الشهادة، أو لحاضري القسمة عذراً جميلاً ووعداً حسناً، أو أن يقولوا في الوصية ما لا يؤدي إلى مجاوزة الثلث وتضييع الورثة.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ ظالمين، أو على وجه الظلم. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. ﴿نَارًا﴾ ما يجرّ إلى النار ويؤول إليها. وعن أبي بردة[1] رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «يبعث الله قوماً من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً». فقيل: من هم؟ فقال: «ألم تر أن الله يقول: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً»[2]

= الميراث والإشارة لتفاوت نصيب كل من الفريقين ولإبطال حكم الجاهلية (س٢/ ١٤٦).

(١) أبو بردة هو: أبو بردة بن نِيَار، بكسر النون بعدها تحتانية خفيفة، البَلَوي، حليف الأنصار، صحابي، اسمه هانيء، وقيل الحارث بن عمرو وقيل مالك بن هبيرة، مات سنة إحدى وأربعين، وقيل بعدها. [التقريب (٢/ ٣٩٤ رقم ٨)].

(٢) أخرجه ابن حبان (ص٦٣٩ رقم ٢٥٨٠ ـ موارد) وابن أبي شيبة في المسند، وأبو يعلى، والطبراني، =

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سيدخلون ناراً وأيَّ نار!. وقرأ ابن عامر وابن عياش عن عاصم بضم الياء مخففاً، وقرىء به مشدداً[1]، يقال صَلَى النار قاسى حرها وصليته شويتُه وأصليته وصَلَّيته ألقيته فيها، والسعير فعيل بمعنى مفعول من سَعَرت النار إذا ألهبتها.

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

(١١) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يأمركم ويعهدُ إليكم. ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ في شأن ميراثهم، وهو إجمالٌ، تفصيلُهُ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ أي يعدّ كل ذكر بأنثيين حيث اجتمع الصنفان فيضعف نصيبُه. وتخصيصُ الذَّكَر بالتنصيص على حظه لأن القصد إلى بيان فضله، والتنبيهُ على أن التضعيف كافٍ للتفضيل فلا يُحْرَمنّ بالكلية وقد اشتركا في الجهة، والمعنى للذكر منهم فحذف للعلم به. ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً﴾ أي إن كان الأولاد نساءً خلصاً ليس معهن ذكر، فَأَنَّث الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات. ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ خبر ثان، أو صفة للنساء أي نساء زائدات على اثنتين. ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى منكم، ويدل عليه المعنى. ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي وإن كانت المولودة واحدة. وقرأ نافع بالرفع على كان التامّة. واختلف في الثنتين فقال ابن عباس رضي الله عنهما حكمُهما حكم الواحدة، لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما، وقال الباقون حكمهما حكم ما فوقهما، لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان. ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد ردّ ذلك بقوله ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها فبالحريّ أن تستحقه مع أخت مثلها. وأن البنتين أَمَسُّ رحماً من الأختين وقد فُرض لهما الثلثين بقوله تعالى ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾[2]. ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ ولأبوي الميت. ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ بدل منه بتكرير العامل، وفائدته التنصيصُ على استحقاق كل واحد منهما السدس والتفصيلُ بعد الإجمال تأكيداً. ﴿السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ﴾ أي للميت. ﴿وَلَدٌ﴾ ذكر أو أنثى، غيرَ أن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة وما بقي من ذوي الفروض أيضاً بالعُصوبة. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ فَحَسْب. ﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ مما ترك. وإنما لم يذكر حصّة الأب لأنه لما فرض أن

= وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٤٤٣) ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢) وعزاه لأبي يعلى والطبراني وقال: فيه زياد بن المنذر وهو كذاب.
انظر ترجمته في (المجروحين) (١/ ٣٠٦) والجرح والتعديل (٣/ ٥٤٥).
والتاريخ الكبير للبخاري (٣/ ٣٧١) والتقريب (١/ ٢٧٠).

(١) أي (سَيُصْلَوْنَ) وقراءة تشديد اللام أي (سَيُصلُّون).

(٢) النساء: «١١».

الوارث أبواه فقط وعين نصيب الأم عُلِم أن الباقي للأب، وكأنه قال: فلهما ما ترك أثلاثاً، وعلى هذا ينبغي أن يكون لها حيث كان معهما أحد الزوجين ثلث ما بقي من فرضه كما قاله الجمهور، لا ثلث المال كما قاله ابن عباس، فإنه يفضي إلى تفضيل الأنثى على الذكر المساوي لها في الجهة والقُرب وهو خلاف وضع الشرع. ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ بإطلاقه يدل على أن الإخوة يَرُدُّونها من الثلث إلى السدس وإن كانوا لا يرثون مع الأب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم يأخذون السدس الذي حجَبُوا عنه الأم، والجمهور على أن المراد بالإخوة عدد ممن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كان من الإخوة أو الأخوات، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا يحجب الأم من الثلث ما دون الثلاثة ولا الأخوات الخلّص أخذا بالظاهر. وقرأ حمزة والكسائي فلإمِّه بكسر الهمزة اتباعاً للكسرة التي قبلها. ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها أي هذه الأنصباء للورثة من بعد ما كان من وصية أو دين. وإنما قال بأوْ التي للإباحة دون الواو للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومنفردين، وقدم الوصية على الدّين وهي متأخِّرة في الحكم لأنها مشبَّهة بالميراث شاقة على الورثة مندوب إليها الجميع والدين إنما يكون على الندور. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بفتح الصاد[1]. ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ أي لا تعلمون من أنفعُ لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم، فتحروا فيهم ما أوصاكم الله به، ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه. روي أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخَر في الجنة سألَ أن يُرفعَ إليه فيرفع بشفاعته. أو من مورثيكم منهم، أو مَنْ أوصى منهم فعرّضكم للثواب بإمضاء وصيته، أو مَنْ لم يوص فوفَّر عليكم ماله، فهو اعتراض مؤكد لأمر القسمة أو تنفيذ الوصية. ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ مصدر مؤكد، أو مصدر يوصيكم الله لأنه في معنى يأمركم ويفرض عليكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والرتب. ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما قضى وقدر.

﴿ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾

(١٢) ﴿ ﴿ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ﴾ أي ولد وارث من بطنها، أو من صلب بنيها أو بني بنيها، وإن سفُل ذكراً كان أو أنثى منكم أو من غيركم. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن

(١) أي «يوصَى» بالبناء للمفعول.

﴿كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ فرضَ للرجل بحق الزواج ضِعْفَ ما للمرأة كما في النَّسب، وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا في الجهة والقرب، ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتِق والمعتِقة، وتستوي الواحدة والعدد منهم في الربع والثمن. ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ﴾ أي الميت. ﴿يُورَثُ﴾ أي يورث مِنْهُ مِنْ وَرِثَ صفةُ رجلٍ. ﴿كَلَٰلَةً﴾ خبر كان، أو يورث خبره وكلالة حالٌ من الضمير فيه، وهو من لم يُخَلِّف ولداً ولا والداً، أو مفعول له والمراد بها قرابة ليست من جهة الوالد والولد، ويجوز أن يكون الرجلُ الوارث ويُورَثُ من أَوْرَثَ، وكلالة من ليس له بوالد ولا ولد. وقرىء يورِث على البناء للفاعل فالرجل الميِّت، وكلالة تحتمل المعاني الثلاثة، وعلى الأول خبر أو حال وعلى الثاني مفعول له وعلى الثالث مفعول به، وهي في الأصل مصدر بمعنى الكَلاَل قال الأعشى:

فَآلَيْتُ لاَ أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلاَلَةٍ ولاَ مِنْ حَفًا حَتَى أُلاَقِي مُحَمَّداً

فاستعيرت لقرابة ليست بالبعضية، لأنها كالة بالإضافة إليها، ثم وصف بها المورِّث والوارث بمعنى ذي كلالة كقولك فلان من قرابتي. ﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ عطف على رجل. ﴿وَلَهُۥ﴾ أي وللرجل، واكتفي بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه. ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي من الأم، ويدل عليه قراءة أبيّ[1] وسعد بن مالك وله أخ أو أخت من الأم، وأنه ذكر في آخر السورة أن للأختين الثلثين وللأخوة الكل، وهو لا يليق بأولاد الأم وأن ما قدر ههنا فَرْضُ الأم فيناسب أن يكون لأولادها. ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ سوى بين الذكر والأنثى في القسمة لأنّ الإدلاء بمحض الأنوثة، ومفهوم الآية أنهم لا يرثون ذلك مع الأم والجدة كما لا يرثون مع البنت وبنت الابن فخص فيه بالإجماع. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي غير مضارّ لورثته بالزيادة على الثلث، أو قصد المضارة بالوصية دون القربة والإقرار بدينٍ لا يلزمُه، وهو حال من فاعل يوصى المذكور في هذه القراءة والمدلول عليه بقوله يوصى على البناء للمفعول في قراءة ابن كثير وابن عامر وابن عياش عن عاصم. ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد أو منصوب بغير مضار على المفعول به، ويؤيده أنه قرىء غير مضارٍّ وصيةٍ بالإضافة أي لا يضار وصية من الله، وهو الثلث فما دونه بالزيادة، أو وصية منه بالأولاد بالإسراف في الوصية والإقرار الكاذب. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمضار وغيره. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبته.

---

(١) أبيّ: هو أبيّ بن كعب، أبو المنذر، أو أبو الطفيل، شهد العقبة وبدراً، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة، واختلف في وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر أنه مات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان أبيّ بن كعب سيد القراء، وأحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وأعلم الصحابة بكتاب الله تعالى.
[أسد الغابة (١/ ٤٩ ـ ٥١)].

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١٤) ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ توحيد الضمير في يدخله وجَمْعُ خالدين للّفظ والمعنى[1]. وقرأ نافع وابن عامر نُدْخِلْه بالنون. وخالدين حال مقدرة كقولك: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، وكذلك خالداً وليستا صفتين لجنات ناراً وإلا لوجب إبرازُ الضمير لأنهما جَرَيَا على غير من هُما لَهُ.

(١٥) ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ أي يفعلنَها، يقال: أتى الفاحشة وجاءها وغَشِيَها ورهقها إذا فعلها، والفاحشة الزنى لزيادة قبحها وشناعتها. ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ فاطلبوا ممن قَذَفهنّ أربعةً من رجال المؤمنين تشهد عليهن. ﴿فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجناً عليهن. ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ يستوفي أرواحهن الموتُ، أو يتوفاهن ملائكةُ الموت. قيل: كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام فنُسخ بالحدّ، ويحتمل أن يكون المراد به التوصيةُ بإمساكهنّ بعد أن يُجْلدن كيلا يجري عليهن ما جرى بسبب الخروج والتعرض للرجال، لم يُذْكَرَ الحدُّ استغناءً بقوله تعالى ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾[2] ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ كتعيين الحدّ المخلص عن الحبس، أو النكاح المغني عن السفاح.

(١٦) ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾ يعني الزانية والزاني. وقرأ ابن كثير واللذانِّ بتشديد النون وتمكين مد الألف، والباقون بالتخفيف من غير تمكين. ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتقريع، وقيل بالتعيير والجَلْد. ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ علةُ الأمر بالإعراض وترك المذمة. قيل هذه الآية سابقة على الأُولى نزولاً وكان عقوبة الزنا الأذى ثم الحبس ثم الجلد. وقيل الأُولى في السَّحَاقات، وهذه في اللوّاطين، والزانية والزاني في الزناة.

---

(١) وذلك أن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس فقال: «خالدين» أما الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة، فقال «خالداً» (س٢/ ١٥٤).

(٢) النور: «٢».

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي إن قبول التوبة كالمحتوم على الله بمقتضى وعده مِنْ تاب عليه إذا قَبِل توبته. ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ متلبسين بها سفهاً فإن ارتكاب الذنب سفهٌ وتجاهل، ولذلك قيل من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، أي قبل حضور الموت لقوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾[1] وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر»[2] وسماه قريباً لأن أمد الحياة قريب لقوله تعالى ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[3]. أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبّه فيطبعَ عليها فيتعذر عليهم الرجوع، ومِنْ للتبعيض أي يتوبون في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به وكَتَب على نفسه بقوله ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ والحكيم لا يعاقب التائب.

(١٨) ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ سوّى بين من سوف يتوب إلى حضور الموت من الفسقة والكفار وبين من مات على الكفر في نفي التوبة للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة، وكأنه قال وتوبة هؤلاء وعدمُ توبة هؤلاء سواء. وقيل المراد بالذين يعملون السوء عُصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات

---

(١) النساء: «١٨».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٣٠١ ـ ٣٠٢) من حديث أبي أيوب واسمه «بشير بن كعب» وهو تابعي. فالحديث مرسل.

● وأخرج الترمذي (٥/ ٥٤٧ رقم ٣٥٣٧) وابن ماجة (٢/ ١٤٢٠ رقم ٤٢٥٣) والحاكم (٤/ ٢٥٧) وأحمد (٢/ ١٣٢، ١٥٣) كلهم من طريق عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن ابن عمر، وإلا عند ابن ماجة عن (عبدالله بن عمرو بن العاص) وقال المزي: هذا وهم ـ تحفة الأشراف (٥/ ٣٢٨) ـ.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٣٤٨ رقم ١٥٢٣): «هذا إسناد ضعيف لتدليس الوليد ومكحول الدمشقي...» هـ.

وللحديث شاهدين:

(الأول): أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٣٠١) عن الحسن مرسلاً.

(والثاني): أخرجه أحمد (٥/ ١٧٤) والحاكم (٤/ ٢٥٧) من حديث أبي ذر مرفوعاً.

قلت: فبهذين الشاهدين يرتقي حديث ابن عمر إلى درجة الحسن والله أعلم.

(٣) النساء: «٧٧».

المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم، وبالذين يموتون الكفار. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تأكيد لعدم قبول توبتهم وبيانٌ أن العذاب أعده لهم لا يعجزه عذابهم متى شاء، والاعتداد التهيئة من العتاد وهو العدة، وقيل أصله أعددنا فأبدلت الدال الأولى تاء[1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ كان الرجل إذا مات وله عصبة ألقى ثوبه على امرأته وقال: أنا أحق بها ثم إن شاء تزوجها بصَداقها الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عَضَلها لتفتدي بما ورثت من زوجها، فنهوا عن ذلك. وقيل: لا يحل لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث فتتزوجوهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه. وقرأ حمزة والكسائي كُرْهاً بالضم في مواضعه وهما لغتان، وقيل بالضمّ المشقة وبالفتح ما يُكره عليه. ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ عطف على أن ترثوا، ولا لتأكيد النفي أي ولا تمنعوهن من التزويج، وأصل العَضْل التضييق يقال عَضَلَت الدجاجةُ ببيضها. وقيل الخطاب مع الأزواج كانوا يحبسون النساء من غير حاجة ورغبة حتى يرثوا منهن أو يختلعن بمهورهن. وقيل تم الكلام بقوله كَرْهاً ثم خاطب الأزواج ونهاهم عن العضل[2]. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف، والاستثناء من أعمّ عامّ الظرف أو المفعول له تقديره ولا تعضلوهن للافتداء إلا وقت أن يأتين بفاحشة، أو ولا تعضلوهن لعلة إلا أن يأتين بفاحشة. وقرأ ابن كثير وأبو بكر مُبَيِّنة هنا وفي الأحزاب والطلاق بفتح الياء والباقون بكسرها فيهن. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإنصاف في الفعل والإجمال في القول. ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي فلا تفارقوهن لكراهة النفس فإنها قد تكره ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً، وقد تحب ما هو بخلافه. وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير، وعسى في الأصل علة الجزاء فأقيم مقامَه. والمعنى فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

(٢٠) ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ تطليق امرأة وتزوُّج أخرى. ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أي إحدى الزوجات، جَمَع الضمير لأنه أراد بالزوج الجنس. ﴿قِنطَارًا﴾ مالاً كثيراً. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ

---

(١) الإشارة بأولئك لبيان بعد منزلتهم في السوء. وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بكون العذاب معداً لهم. وتنكيرُ العذاب ووصفُه للتفخيم الذاتي والوصفي (س٢/ ١٥٧).

(٢) وعبر عنه بالإذهاب لا بالأخذ للمبالغة في تقبيحه ببيان تضمنه لأمرين كل منهما محظور وهما الأخذ والإذهاب منهن لأنه عبارة عن الذهاب مستَصحباً به (س٢/ ١٥٨).

شَيْـًٔا﴾ أي من قنطار. ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ استفهام إنكارٍ وتوبيخ، أي أتأخذونه باهتين وآثمين، ويحتمل النصب على العلة كما في قولك: قعدت عن الحرب جبناً، لأن الأخذ بسبب بهتانهم واقترافهم المآثم. قيل لكان الرجل منهم إذا أراد امرأة جديدة بَهَت التي تحته بفاحشة حتى يُلْجِئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليَضْرِفه إلى تزوج الجديدة، فنُهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذي يَبْهَتُ المكذوب عليه، وقد يستعمل في الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

(٢١) ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إنكار لاسترداد المهر، والحالُ أنه وصل إليها بالملامسة ودخل بها وتقرر المهر. ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو حق الصحبة والممازحة، أو ما أوثق الله عليهم في شأنهن بقوله ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾[1] أو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[2].

(٢٢) ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ ولا تنكحوا التي نكحها آباؤكم، وإنما ذكر «ما» دون «مِنْ» لأنه أريد به الصفة، وقيل ما مصدرية على إرادة المفعول من المصدر. ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان ما نكح على الوجهين. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء من المعنى اللازم للنهي وكأنه قيل: وتستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف، أو مِنَ اللفظِ للمبالغة في التحريم والتعميم كقوله:

---

(١) البقرة: «٢٢٩».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٨٩ رقم ١٢١٨/١٤٧) في سياق حديث حجة النبي ﷺ، الطويل. من حديث جابر.

وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٣١١) مقتصراً على ما يتعلق بالنساء من حديث جابر أيضاً.

● وأخرجه البزار (٢/ ٣٤ ـ كشف الأستار) أثناء حديث خطبة منى.

وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٣١١) في سياق طويل.

من رواية موسى بن عبيدة الربذي ـ أحد الضعفاء ـ عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر، رفعه: «أيها الناس إن النساء عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٦٨) وقال: رواه البزار وفيه عبيدالله بن موسى وهو ضعيف.

ـ العوان: جمع عانية وهي الأسيرة. [النهاية مادة: عنا]

ـ كلمة الله: قيل: معناه قوله تعالى «بإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»، وقيل: المراد بكلمة التوحيد إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم.

وقيل قوله: قوله تعالى «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» وهذا الثالث هو الصحيح. [صحيح مسلم بشرح النووي (٨/ ١٨٣)].

ولاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيرَ أَنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

والمعنى ولا تنكِحوا حَلائلَ آبائكم إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تنكحوهن، وقيل الاستثناء منقطع ومعناه لكن ما قد سلف فإن لا مؤاخذة عليه لأنه مقرر. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ علة للنهي أي إن نكاحَهن كان فاحشة عند الله ما رخَّص فيه لأمةٍ من الأمم، ممقوتاً عند ذوي المروءات ولذلك سمي ولد الرجل من زوجة أبيه المَقْتِيّ ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ سبيلُ من يراه ويفعلُه.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

(٢٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن، لأنه معظم ما يُقصد منهن، ولأنه المتبادر إلى الفهم كتحريم الأكل من قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ ولأن ما قبله وما بعده في النكاح. وأمهاتُكم تعمُّ مَنْ ولدَتْكَ أو ولَدَتْ من وَلَدَكَ وإن عَلَتْ، وبناتُكم تتناول من وَلَدْتَهَا أو وَلَدْتَ مَنْ وَلَدَهَا وإن سفُلت، وأخواتُكم الأخوات من الأوجهِ الثلاثة، وكذلك الباقيات، والعمةُ كل أنثى وَلَدَهَا مَنْ وَلَدَ ذَكَراً وَلَدَكَ، والخالةُ كل أنثى وَلَدَهَا مَنْ وَلَدَ أنثى وَلَدَتْكَ قريباً أو بعيداً، وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القُربى والبُعدى. ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ نَزَّلَ اللهُ الرَّضاعة منزلةَ النسب حتى سمّى المرضِعَةَ أمّاً والمُرْضَعَةَ أختاً، وأمْرُها على قياس النسب باعتبار المُرْضِعَة ووالدِ الطفل الذي دَرَّ عليه اللبن، قال عليه الصلاة والسلام: «يَحْرُم من الرَّضاع ما يحرم من النسب»[1]. واستثناء أخت ابن الرجل وأمِّ أخيه من الرضاع من هذا الأصل ليس بصحيح فإن حُرْمتُهما من النسب بالمصاهرة دون النسب. ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ ذَكَر أولاً محرمات النسب، ثم محرمات الرضاعة لأن لها لُحْمةً كلُحمة النسب، ثم محرمات المصاهرة فإن تحريمهن عارض لمصلحة الزواج. والربائبُ جمع ربيبة، والربيبُ ولد المرأة من آخَر سمّي به لأنه يَرُبُّه كما يَرُبّ ولدَه في غالب الأمر، فعيل بمعنى مفعول، وإنما لحقه التاء لأنه صار اسماً، ومن نسائكم متعلق بربائبكم، واللاتي بصِلتِها صفةٌ لها مقيِّدة للفظ والحُكم بالإجماع قضية للنظم،

---

(١) أخرجه البخاري (٥/٢٥٣ رقم ٢٦٤٦) و (٦/٢١١رقم ٣١٠٥) و (٩/١٣٩ رقم ٥٠٩٩) ومسلم (٢/١٠٦٨ ـ ١٠٧٠ رقم ١، ٢، ٩/١٤٤٤) من حديث عائشة.
وأخرجه البخاري (٥/٢٥٣رقم ٢٦٤٥) ومسلم (٢/١٠٧١ ـ ١٠٧٢ رقم ١٢، ١٣/١٤٤٧) من حديث ابن عباس.

ولا يجوز تعليقُها بالأمهات أيضاً لأنّ مِنْ إذا علقتَها بالربائب كانت ابتدائيةً وإذا علقتها بالأمهات لم يُجْزَ ذلك بل وجَبَ أن يكون بياناً لنسائكم، والكلمةُ الواحدة لا تُحمَل على معنيين عند جمهور الأدباء اللهم إذا جعلتها للاتصال كقوله:

إذَا حَـاوَلْـتَ فِـي أَسَـدٍ فُجُـوراً فَـإِنِّـي لَسْـتُ مِنْـكَ وَلَسْـتَ مِنـي

على معنى أن أمهاتِ النساء وبناتهن متصلات بهن، لكنّ الرسول ﷺ فرق بينهما فقال في رجل تزوج امرأة وطلقها قبل أن يَدخل بها «إنه لا بأس أن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها»[1]، وإليه ذهب عامة العلماء، غير أنه روي عن علي رضي الله تعالى عنه تقييدُ التحريم فيهما. ولا يجوز أن يكون الموصول الثاني صفة للنساءَيْن لأن عاملهما مختلف ـ وفائدة قوله في حجوركم تقويةُ العلة وتكميلها ـ والمعنى أن الربائب إذا دخلتم بأمهاتهن وهن في احتضانكم أو بصدده تقوى الشُّبَهُ بينها وبين أولادكم وصارت أحقاء بأن تُجْروها مجراهم لا تقييد الحرمة، وإليه ذهب جمهور العلماء، وقد روي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه جعله شرطاً، والأمهات والربائب يتناولان القريبة والبعيدة. وقوله دخلتم بهن أي دخلتم معهن الستْر وهي كناية عن الجماع، ويؤثّرُ في حرمة المصاهرة ما ليس بزنا كالوطء بشبهة أو ملك يمين، وعند أبي حنيفة لمس المنكوحة ونحوه كالدخول. ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس. ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمْ﴾ زوجاتهم، سميت الزوجة حليلة لِحلِّها أو لحلولها مع الزوج. ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ احتراز عن المتبنين لا عن أبناء الولد ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ في موضع الرفع عطفاً على المحرمات، والظاهرُ أن الحرمة غير مقصورة على النكاح فإن المحرمات المعدودة كما هي محرمة في النكاح فهي محرمة في ملك اليمين، ولذلك قال عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما: حرَّمتْهما آيةٌ وأحلَّتهما آية[2]، يعنيان هذه الآية وقولَه ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، فرجّح علي كرم الله وجهه التحريمَ وعثمانُ رضي

---

(١) أخرجه أبو قرّة موسى بن طارق الزَّبِيْدي ـ ثقة يغرب (التقريب: ٢/ ٢٨٤) ـ في السنن، قال ذكر المثنى بن الصباح ـ ضعيف اختلط بآخره (التقريب: ٢/ ٢٢٨) ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. رفعه «أيما رجل نكح امرأة فدخل بها فلا يحل له نكاح ابنتها وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها. وأيما رجل نكح امرأة فدخل بها أو لم يدخل فلا يحل له نكاح أمها».

وأخرجه أبو يعلى والبيهقي ـ في السنن الكبرى (٧/ ١٦٠) ـ من طريق ابن المبارك عن المثنى به. والمثنى ضعيف.

لكن رواه الترمذي ـ في السنن (٣/ ٤٢٥ رقم ١١١٧) ـ والبيهقي ـ (٧/ ١٦٠) ـ أيضاً من طريق ابن لهيعة عن عمرو به. وقال: لا يصح، وإنما يرويه المثنى وابن لهيعة وهما ضعيفان.

ويشبه أن يكون ابن لهيعة أخذه عن المثنى لأن أبا حاتم قال ـ في المراسيل ص١١٤ ـ لم يسمع ابن لهيعة بن عمرو بن شعيب شيئاً.

فلهذا لم يرتق هذا الحديث إلى درجة الحسن.

[انظر «الكافي الشافي» (رقم: ٣٣٧)].

(٢) حديث عثمان أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٥٣٨ ج٣٤) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٦٩) والدارقطني في السنن (٣/ ٢٨١). أما حديث علي فرواه البزار (كشف الأستار ٢/ ١٦٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٦٩) =

الله عنه التحليلَ، وقولُ عليٍّ أظْهَرُ لأن آية التحليل مخصوصة في غير ذلك ولقوله عليه الصلاة والسلام «ما اجتمع الحلال والحرام إلا غلب الحرام»[١]. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء من لازِمِ المعنى، أو منقطعٌ معناه لكن ما قد سلف مغفور لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

(٢٤) ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ذواتُ الأزواج، أحصنهن التزويج أو الأزواج. وقرأ الكسائي بكسر الصاد في جميع القرآن لأنهن أحْصَنّ فروجَهن. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سُبِين ولهن أزواج كفار فهو حلالٌ للسابين، والنكاحُ مرتفِع بالسبْي لقول أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أصبنا سبايا يوم أوطاس[٢] ولهن أزواج كفار، فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ﷺ، فنزلت لآ فاستحللناهنّ[٣]. وإياه عنى الفرزدقُ بقوله:

وذَاتِ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ

وقال أبو حنيفة: لو سُبِي الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تَحُلّ للسابي. وإطلاق الآية والحديث حجة عليه. ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ مصدر مؤكد، أي كَتَبَ الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً. وقرىء كُتُبُ الله بالجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم، وكَتَبَ اللهُ بلفظ الفعل. ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ﴾ عطف على الفعل المضمر الذي نَصَبَ كتاب الله[٤]. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم على البناء للمفعول عطفاً على حرمت. ﴿مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ما سوى المحرمات الثمان المذكورة. وخُصَّ عنه بالسنة ما في معنى المذكورات، كسائر محرمات الرضاع والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها. ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ مفعول له والمعنى أحِل لكم ما وراء ذلكم إرادة أن تبتغوا النساء بأموالكم بالصرف في مهورهن، أو أثمانَهن في حال كونكم محصِنين غير مسافحين، ويجوز أن لا يُقدَّر مفعول تبتغوا وكأنه قيل إرادة أن تصرفوا أموالكم محصنين غير مسافحين، أو بدل مما وراء ذلك بدل الاشتمال. واحتج به الحنفية على أن المهر لا بد وأن يكون مالاً، ولا حُجة فيه. والإحصانُ العفة فإنها تحصين

= وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (المجمع ٤/ ٢٦٩).

(١) قال الولي العراقي: لا أصل لهذا الحديث (الفتح السماوي ص٤٧٤) وكذا قال البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٦٩) وقد رواه عبدالرزاق في المصنف (٧/ ١٩٩ ج١٢٧٧٢) موقوفاً.

(٢) أوطاس هو واد في ديار هوازن جنوبي مكة بنحو ثلاث مراحل، وكان يوم أوطاس في شوال بعد فتح مكة بنحو شهر (المصباح المنير مادة وطس).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص١٠٩ ولباب النقول ص٢٢١.

(٤) وهذا على معنى من قرأ «وأَحَلّ» بالبناء للفاعل وقد قرىء بها (المبسوط ص١٥٦).

للنفس عن اللوم والعقاب، والسفاح الزنا من السَّفْح وهو صبُّ المني فإنه الغرض منه. ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ فمَنْ تمتعتم به من المنكوحات، أو فما استمعتم به منهن من جماع أو عُقِد عليهن. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن فإن المهر في مقابلة الاستمتاع. ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة، أو صفة مصدر محذوف أي إيتاءً مفروضاً، أو مصدرٌ مؤكِّد. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ فيما يزاد على المسمّى أو يحط عنه بالتراضي، أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فِراق. وقيل: نزلت الآية في المُتْعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول: «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة»[1]، وهي النكاح المؤقت بوقت معلوم سمي بها، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة أو تمتيعها بما تعطي. وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٢٥ رقم ٢١/ ١٤٠٦) من رواية الرَّبيع بن سَبْرة الجُهَني عن أبيه.
وزاد «فمن كان عِنْدَهُ منهنَّ شيءٌ فليُخَلِّ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهُنَّ شيئاً».
● وأما قوله: ثم أصبح: لم يُرِد به أنه قال ذلك صبيحة الليلة التي أباحه قبلها بيوم، بل أراد أنه قال ذلك صباحاً («الكافي الشافِ» رقم: ٣٤١).

(٢) أما رجوعه عن المتعة، فحديثه ضعيف.
أخرجه الترمذي (٣/ ٤٣٠ رقم ١١٢٢) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٨٩ رقم ١٠٧٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦) كلهم من طريق موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف.
● وأما قوله: «اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة» فلم أجده. قاله ابن حجر في «الكافي الشافِ» (رقم: ٣٤٤).
● وإليك بعض أدلة تحريم نكاح المتعة:
١ ـ روى سَبْرة الجُهَنِيُّ قال: «أذن لنا رسولُ الله ﷺ في المُتْعَةِ، فلم يخرج من مكة حتى حرَّمَها رسول الله ﷺ» وهو حديث صحيح.
أخرجه مسلم (٢/ ١٠٢٦، ١٠٢٧ رقم ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٨/ ١٤٠٦) وأحمد في المسند (٣/ ٤٠٤) والدارمي (٢/ ١٤٠) وأبو داود (٢/ ٥٥٨، ٥٥٩ رقم ٢٠٧٢، ٣٠٧٣) والنسائي (٦/ ١٢٦، ١٢٧) وابن ماجة (١/ ٦٣١ رقم ١٩٦٢) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٦٩٨ ورقم ٦٩٩) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٦٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠٢، ٢٠٣) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٠٥، ١٠٦) من طرق عنه.
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنَّ رسولَ الله ﷺ نهى عن المتعة يوم خيبر» أخرجه البخاري (٧/ ٤٨١ رقم ٤٢١٦) ومسلم (٢/ ١٠٢٧، ١٠٢٨ رقم ٢٩، ٣٢/ ١٤٠٧) والترمذي (٣/ ٤٢٩ رقم ١١٢١) والنسائي (٦/ ١٢٥، ١٢٦) وابن ماجة (١/ ٦٣٠ رقم ١٩٦١) ومالك في الموطأ (٢/ ٥٤٢ رقم ٤١) والطيالسي في المسند (ص١٨ رقم ١١١) وأحمد في المسند (١/ ٧٩) والدارمي (٢/ ١٤٠) وابن الجارود في المنتقى رقم (٦٩٧) والدارقطني في السنن (٣/ ٢٥٧ رقم ٥١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٧٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠١) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٨٠٢) من طرق عنه..
قال ابن الجوزي في «أخبار أهل الرسوخ» بتحقيقنا (رقم ١٥): الأحاديث متفقة على نسخ المتعة، إلاَّ أن الأوائل تدل على وقوع التحريم بمكة. وحديث علي يدل على أن ذلك كان بخيبر وهو متقدم...
«وقال المازري: واختلفت الرواية في صحيح مسلم في النهي عن المتعة ففيه أنه ﷺ نهى عنها يوم خيبر، وفيه أنه نهى عنها يوم فتح مكة فإن تعلق بهذا من أجاز نكاح المتعة وزعم أن الأحاديث تعارضت، وأن هذا الاختلاف=

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرع من الأحكام.

(٢٥) ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ غنًى واعتلاءً، وأصلُه الفضل والزيادة. ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ في موضع النصب بطولاً، أو بفعل مقدَّرٍ صفةً له أي ومن لم يستطع منكم أن يعتلي نكاح المحصنات أو من لم يستطع منكم غنًى يبلُغ به نكاحَ المحصنات يعني الحرائر لقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني الإماء المؤمنات. فظاهرُ الآية حجة للشافعي رضي الله تعالى عنه في تحريم نكاح الأمة على من مَلَكَ ما يجعلُه صدَاق حرة، ومَنْعُ نكاح الأمة الكتابية مطلقاً، وأوّلَ أبو حنيفة رحمه الله تعالى طَوْلَ المحصَنات بأن يملِكَ فراشهن، على أن النكاح هو الوطء وحَمَل قوله ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾[1] على الأفضل، كما حمل عليه في قوله ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ومِنْ أصحابِنا مَنْ حمله أيضاً على التقييد وجوّز نكاح الأمة لمن قدر على الحرة الكتابية دون المؤمنة حذراً عن مخالطة الكفار وموالاتهم، والمحذور في نكاح الأَمَة رقُّ الولد وما فيه من المهانة ونقصان حق الزوج. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فاكتفوا بظاهر الإيمان فإنه العالم بالسرائر وبتفاضل ما بينكم في الإيمان، فربّ أَمَةٍ تفضُل الحرة فيه، ومن حقكم أن تعتبروا فضل الإيمان لا فضل النسب، والمراد

= قادح فيها. قلنا: هذا الزعم خطأ وليس هذا تناقضاً لأنه يصح أن ينهى عنه في زمن ثم ينهى عنه في زمن آخر توكيداً أو ليشتهر النهي ويسمعه من لم يكن سمعه أولاً فسمع بعض الرواة النهي في زمن وسمعه آخرون في زمن آخر فنقل كلاً منهم ما سمعه وأضافه إلى زمان سماعه» اهـ أورده النووي في شرح مسلم (٩/ ١٧٩).

«وأما قول الله عز وجل في سورة النساء (الآية: ٢٤) ـ بعقب ما حرم من النساء ـ فقال: «وأُحِلَّ لكم ما وراءَ ذلِكُمْ أن تبتغُوا بأموالكم محصنينَ غير مسافحين ـ أي عاقدي النكاح الحلال غير زناة ـ فما استمتعتم به منهنَّ فآتوهُنَّ أجُورَهنَّ فريضةً». فإن الزجاج ذكر أنَّ هذه آية غلط فيها قوم غلطاً عظيماً لجهلهم باللغة، وذلك أنهم ذهبوا إلى قوله «فما استمتعتم به منهنَّ» من المتعة التي قد أجمع أهل العلم أنها حرام، وإنما معنى فما استمتعتم به منهنَّ، فما نكحتم منهن على الشريعة التي جرى في الآية أنه الإحصان أن تبتغوا بأموالكم محصنين أي عاقدين التزويج أي فيما استمتعتم به منهن على عقد التزويج الذي جرى ذكره فآتوهنَّ أجورهنَّ فريضة أي مهورهن، فإن استمتع بالدخول بها أتى المهر تاماً، وإن استمتع بعقد النكاح أتى نصف المهر.

قال الأزهري: المتاع في اللغة كل ما انتفع به فهو متاع، وقوله «ومتعوهُنَّ على الموسِع قَدَرُهُ» ـ [البقرة: ٢٣٦] ـ ليس بمعنى رودوهنَّ المُتَعَ، إنما معناه أعطوهن ما يَسْتمتِعْنَ، وكذلك قوله: «وللمطلقاتِ متاعٌ بالمعروف» ـ [البقرة: ٢٤١] ـ قال: ومن زعم أن قوله فما استمتعتم به منهن التي هي الشرط في التمتع الذي يفعله الرافضة، فقد أخطأ خطأ عظيماً لأن الآية واضحة بينة» اهـ ذكره ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ١٤ ـ ١٥).

(١) النساء: «٢٥».

تأنيسهم بنكاح الإماء ومنعهم عن الاستنكاف منه، ويؤيده: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أنتم وأرقاؤكم متناسبون نَسَبُكم من آدم ودينكم الإسلام. ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ يريد أربابهن، واعتبارُ إذنهم مطلقاً لا إشعارَ له على أنّ لهنّ أنْ يباشرْن العقد بأنفسهم حتى يحتج به الحنفية. ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي أدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن، فحُذِف ذلك لتقدم ذكره، أو إلى مواليهن فحُذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لأنه عِوَضُ حقِّه فيجب أن يؤدى إليه، وقال مالك رضي الله عنه: المهر للأمة، ذهاباً إلى الظاهر ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بغير مطل وإضرار ونقصان. ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ عفائف. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ غير مجاهرات بالسفاح. ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أخِلاّء في السرّ ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ بالتزويج. قرأ أبو بكر وحمزة بفتح الهمزة والصاد والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد. ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ زنى. ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ يعني الحرائر. ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ من الحدّ لقوله تعالى ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وهو يدل على أن حد العبد نصفُ حدِّ الحر، وأنه لا يُرجم لأن الرجم لا يتنصف. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الإماء. ﴿لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ لمن خاف الوقوع في الزنى، وهو في الأصل انكسار العَظْم بعد الجَبْر، مستعار لكل مشقة وضرر ولا ضررَ أعظمُ من مواقعة الإثم بأفحش القبائح. وقيل: المراد به الحد وهذا شرط آخر لنكاح الإماء. ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وصبركم عن نكاح الإماء متعففين خير لكم. قال عليه الصلاة والسلام «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاكه»[2]. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن لم يصبر. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بأن رَخَّص له.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

(٢٦) ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ما تعبدكم به من الحلال والحرام، أو ما خفي عنكم من مصالحكم ومحاسن أعمالكم، وليبين مفعول يريدُ، واللام زيدت لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة كما في قول قيس بن سعد[3].

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسِ أَنَّهُ ... سَرَاويلُ قَيْسٍ وَالوُفُودُ شُهُودُ

وقيل المفعول محذوف، وليبينَ مفعول له أي يريد الحق لأجله. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مناهج مَنْ تقدمكم من أهل الرشد لتسلكوا طرقهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم، أو يرشدكم إلى ما يمنعكم عن المعاصي ويحثكم على التوبة، أو إلى ما يكون كفارةً لسيئاتكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بها ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضعها.

---

(١) النور: «٢».

(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير رقم (٣٨١١) للديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، ورمز لضعفه.
وقال المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٣/ ٤١١): قال السخاوي وغيره وفيه متروك.
وحكم الألباني على الحديث بالوضع في «ضعيف الجامع الصغير» (٣/ ١١٠ رقم ٢٧٧٦).

(٣) هو قيس بن سعد بن عبادة، الأمير المجاهد أبو عبدالله سيد الخزرج وابن سيدهم أبي ثابت الأنصاري الخزرجي الساعدي صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه له عدة أحاديث.
وتوفي في آخر خلافة معاوية رضي الله عنه [أسد الغابة (٤/ ٤٢٤) الجرح والتعديل (٧/ ٩٩)].

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرره للتأكيد والمبالغة. ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يعني الفجرة فإن اتباع الشهوات الائتمار لها، وأما المتعاطي لما سوَّغه الشرع منها دون غيره فهو متبع له في الحقيقة لا لها. وقيل: المجوس. وقيل: اليهود فإنهم، يُحِلون الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت. ﴿أَن تَمِيلُوا۟﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات. ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ بالإضافة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندور غير مستحلّ لها[١].

(٢٨) ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ فلذلك شرع لكم الشِّرْعة الحنيفية السمحة السهلة، ورخص لكم في المضايق كإحلال نكاح الأَمَة. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأُمَّة مما طلعت عليه الشمس وغربت، هذه الثلاث و﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٤]، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٥]، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾[٦]. [٧]

(٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بما لم يبحه الشرعُ كالغصْب والربا والقمار. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ استثناء منقطع أي ولكن كونُ تجارةٍ عن تراض غيرُ منهي عنه، أو اقصدوا كونَ تجارة وعَنْ تراضٍ صفةٌ لتجارةٍ أي تجارة صادرة عن تراضي المتعاقدين، وتخصيصُ التجارة من الوجوه التي بها يَحِل تناول مال الغير لأنها أغلب وأرفق لذوي المروءات، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقاً. وقيل: المراد بالنهي المنعُ عن صرف المال فيما لا يرضاه الله، وبالتجارة صرفهُ فيما يرضاه. وقرأ الكوفيون تجارةً بالنصب على كان الناقصة وإضمار الاسم أي إلا أن تكون التجارةُ أو الجهة تجارةً. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بالبخع كما تفعله جَهَلة الهند أو بإلقاء النفس إلى التهلُكة، ويؤيده ما روي: أن عمرو بن العاص تأوَّلَه التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي

---

(١) غير الأسلوب بين الجملتين «والله يريد». . . «ويريد الذين» فالأولى اسمية للدلالة على استمرار الإرادة، والثانية فعلية للدلالة على حدوثها وللمباينة بين الإرادتين (س٢/ ١٦٩).

(٢) النساء: «٣١».

(٣) النساء: «٤٨».

(٤) النساء: «٤٠».

(٥) النساء: «١٢٣».

(٦) النساء: «١٤٧».

(٧) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٤٥) عن ابن عباس وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٦٨ رقم ٢٤٢٥) عن ابن مسعود وفيه «خمس آيات» وفي إسناده رجل لم يسم. =

ﷺ[١]، أو بارتكاب ما يؤدي إلى قتلها، أو باقتراف ما يُذلها ويُرْديها فإنه القتل الحقيقي للنفس. وقيل المراد بالأنفس مَنْ كان من أهل دينهم، فإن المؤمنين كنفس واحدة. جَمَعَ في التوصية بين حفظ النفس والمال الذي هو شقيقُها من حيث إنه سببُ قوامها استبقاء لهم ريثما تُستكمل النفوس وتستوفي فضائلُها رأفة بهم ورحمة[٢]، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أمر ما أمر ونهى عما نهى لفَرْط رحمته عليكم. وقيل: معناه إنه كان بكم يا أمة محمد رحيماً لِمَا أمر بني إسرائيل بقتل الأنفس ونهاكم عنه.

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

(٣٠) ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القتل، أو ما سبق من المحرمات. ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق وإتياناً بما لا يستحقه. وقيل أراد بالعدوان التعدي على الغير، وبالظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب. ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخلُه إياها. وقرىء بالتشديد من صَلَّى، وبفتح النون من صَلاَه يَصْليه ومنه شاة مصلية، ويُصْلِيه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث إنه سبب الصلي. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه.

(٣١) ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، وقرىء كبيرَ على إرادة الجنس. ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ نغفر لكم صغائركم ونمحها عنكم.

واختُلف في الكبائر، والأقربُ أن الكبير كلُّ ذنب رتب الشارع عليه حداً أو صرح بالوعيد فيه،

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (١/ ٢٣٨ رقم ٣٣٤) لفظه قال: احتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعتُ الله يقول «ولا تقتلوا أنفسكم» فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.
وعلقه البخاري في صحيحه (١/ ٤٥٤) باب (٧) فقال: يذكر عن عمرو بن العاص. . . .
وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (رقم: ٣٥١): «وهذا الحديث اختلف فيه على يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أنس عن عبدالرحمن فرواه عنه يحيى بن أيوب هكذا وخالف عمرو بن الحارث سنداً ومتناً، أما السند فزاد بين عبدالرحمن وعمرو أبا قيس مولى عمر، وأما المتن: فقال: بدل التيمم: فتوضأ وغسل مغابنه ـ أي بواطن الأفخاذ عند الحوالب «النهاية: ٣/ ٣٤١» ـ ووافق يحيى بن أيوب ـ الغافقي المصري أبو العباس: صدوق ربما وهم «التقريب: ٢/ ٣٤٣» ـ عليه ابنُ لهيعة عند إسحاق بن راهويه ـ وعند أحمد أيضاً في المسند (٤/ ٢٠٣) ـ وأخرجه بالسند الأول.
وأخرجه ابن حبان ـ في الإحسان (٢/ ٤٣٨) ـ بالسند الثاني، وأخرجه بالسندين الحاكم ـ (١/ ١٧٧) ـ والدارقطني ـ (١/ ١٧٨ رقم ١٢) و(١/ ١٧٩ رقم ١٣) هـ ـ .

(٢) وإيثار النهي عن قتل الأنفس على عدم التعرض لها لأنه أكثر وقوعاً (س٢/ ١٧٠).

وقيل ما عُلِم حرمتُه بقاطِعٍ، وعن النبي ﷺ «أنها سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والربا، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين»[١]. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الكبائر إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع[٢]. وقيل أراد به ههنا أنواعَ الشرك لقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٣] وقيل صِغَرُ الذنوب وكبرُها بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها، فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديثُ النفس وبينهما وسائط يصْدُق عليها الأمران، فمن عَنّ له أمران منها ودَعَتْ نفسُه إليها بحيث لا يتمالك فكفّها عن أكبرها كُفِّرَ عنه ما ارتكبَه لما استحق من الثواب على اجتناب الأكبر، ولعل هذا مما يتفاوت باعتبار الأشخاص والأحوال، ألا ترى أنه تعالى عاتب نبيه عليه الصلاة والسلام في كثير من خطواته التي لم تُعَدّ على غيره خطيئة فضلاً عن أن يؤاخذه عليها. ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ الجنة وما وعد من الثواب، أو إدخالاً مع كرامة. وقرأ نافع هنا وفي الحج بفتح الميم وهو أيضاً يَحْتمل المكان والمصدر.

وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال فلعل عدمه خير، والمقتضي للمنع كونُه ذريعةً إلى التحاسد والتعادي معربةً عن عدم الرضا بما قسم الله له، وأنه تشهٍّ لحصول الشيء له من غير طلب وهو مذموم، لأن تمني مالم يقدّر له معارضَةٌ لحكمة القدر وتمني ما قُدر له بكسْب بَطالَةٌ وتضييع حظ وتمني ما قدر له بغير كسب ضائع ومِحَال[٤]. ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾ بيان لذلك أي لكل من الرجال والنساء فضل ونصيب بسبب ما اكتسب ومن أجله، فاطلبوا الفضل من الله تعالى بالعمل لا بالحسد والتمني، كما قال عليه الصلاة والسلام «ليس الإيمان بالتمني»[٥]. وقيل المراد نصيبُ الميراث، وتفضيلُ الورثة بعضهم على بعض فيه، وجَعْلُ ما قُسم لكل منهم على حسب ما عُرِف من حاله الموجبة للزيادة والنقص كالمكتسب له.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٣٩٣ رقم ٢٧٦٦) و(١٢/ ١٨١ رقم ٦٨٥٧) ومسلم (١/ ٩٢ رقم ١٤٥/ ٨٩) وأبو داود (٣/ ٢٩٤ رقم ٢٨٧٤) والنسائي (٦/ ٢٥٧ رقم ٣٦٧١) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «اجتنبوا السبع الموبقات» إلا عندهم «السحر» بدل «عقوق الوالدين».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ ج٥/ ٤١) عنه.

(٣) النساء: «٤٨».

(٤) وإيثار الإبهام فيما فضل الله به بعضهم على بعض للتفادي عن المواجهة بما يشق عليهم (س٢/ ١٧١).

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢٩٠) عن أبي هريرة في ترجمة محمد بن عبدالرحمن بن مجبر.
وأخرج أحاديث أخرى وقال في آخرها: «وهذه الأحاديث عن مالك بأسانيدها بواطيل وله من البواطيل غير ما ذكر».
وذكره محمد الصفدي اليمني في «النوافح العطرة» (ص٢٨٧ رقم ٥٩٧) وعزاه لابن النجار من حديث أنس وضعفه.

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي لا تتمنوا ما للناس واسألوا الله مِثْلَه من خزائنه التي لا تنفد، وهو يدل على أن المنهي عنه هو الحسد، أوْ لا تتمنوْا واسألوا الله من فضله بما يقرِّبه ويسوقه إليكم. وقرأ ابن كثير والكسائي وَسَلُوا الله من فضله وَسَلْهم فَسَلْ الذين وَشِبْهَه إذا كان أَمْراً مُواجَهاً به وقبْلَ السين واوٌ أو فاء بغير همز، وحمزةُ في الوقف على أصله، والباقون بالهمز. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان فيفضل عن علم وتبيان. روي أن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو وإنما لنا نصف الميراث ليتنا كنا رجالاً. فنزلت[1].

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

(٣٣) ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ﴾ أي ولكلٍّ تَرِكة جعلنا ورّاثاً يلُونها ويحرزونها ومما تَرَكَ بيانٌ لكلٍّ مع الفصلِ بالعامل، أو لكلِّ ميت جعلنا وراثاً مما ترك على أن مِنْ صلة موالي لأنه في معنى الوراث، وفي ترك ضميرِ كلٍّ والوالدان والأقربون استئنافٌ مفسِّر للموالي، وفيه خروج الأولاد فإنّ الأقربون لا يتناولهم كما لا يتناول الوالدين، أو لكل قوم جعلناهم موالي حظٌّ مما ترك الوالدان والأقربون، على أنَّ جعلنا مواليَ صفةُ كلٍّ والراجعُ إليه محذوف على هذا فالجملةُ من مبتدأ وخبر. ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ موالي الموالاة، كان الحليفُ يُوَرَّث السدس من مال حليفه فنُسخَ بقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[2] وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقد على أن يتعاقلا ويتوارثا صحّ وَوُرِّث. أو الأزواج[3] على أن العقد عقد النكاح،

---

(١) أخرج الترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٢) والحاكم (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) وأحمد (٦/ ٣٢٢) وابن جرير (٤/ج٥/ ٤٦ ـ ٤٧) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨٠ رقم ٦٠٩) عنها أنها قالت: «يغزو الرِّجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصفُ الميراثِ. فأنزل الله «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضَكُمْ على بعض»....

قال الترمذي: هذا حديث مرسل.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد أم سلمة، ووافقه الذهبي على تصحيحه.

«وقد رد العلامة أحمد شاكر في تعليقه على الطبري قول الترمذي: «حديث مرسل» فقال إنه جزم بلا دليل، ومجاهد أدرك أم سلمة يقيناً وعاصرها، فإنه ولد سنة (٢١هـ) وأم سلمة ماتت بعد سنة (٦٠هـ) على اليقين، والمعاصرة من الراوي الثقة تحمل على الاتصال إلا أن يكون الراوي مدلساً، ولم يزعم أحد أن مجاهداً مدلس، إلا كلمة قالها القطب الحلبي في شرح البخاري، حكاها عنه الحافظ في التهذيب (١٠/ ٤٤) ثم عقب عليها بقوله: ولم أرَ من نسبه إلى التدليس، وقال الحافظ في الفتح أيضاً (٦/ ١٩٤) رداً على من زعم أن مجاهداً لم يسمع من عبدالله بن عمرو، لكن سماع مجاهد من عبدالله بن عمرو ثابت، وليس بمدلس فثبت عندنا اتصال الحديث وصحته والحمد لله» اهـ. ـ كما في حاشية جامع الأصول (٢/ ٨٧ ـ ٨٨) ـ.

● تنبيه: لم أجده بلفظ القاضي المذكور والله أعلم.

(٢) الأنفال: «٧٥».

(٣) قوله أو الأزواج عطف على قوله موالي الموالاة.

وهو مبتدأٌ ضُمِّن معنى الشرط وخَبَرُه: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أو منصوبٌ بمضمَر يفسره ما بعده كقولك: زيداً فاضربه، أو معطوفٌ على الوالدان، وقوله فآتوهم جملة مسبَّبَة عن الجملة المتقدمة مؤكدة لها، والضمير للموالي[1]. وقرأ الكوفيون عَقَدَتْ بمعنى عقدت عهودَهم إيمانُكم فحُذِف العهود وأقيم الضمير المضاف إليه مقامَه ثم حُذِف كما حذف في القراءة الأخرى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ تهديد على منعِ نصيبهم.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

(٣٤) ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية، وعُلِّل ذلك بأمرين وَهْبيّ وكَسْبي فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خُصُّوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامةِ الشعائر والشهادةِ في مجامع القضايا ووجوبِ الجهاد والجمعة ونحوها والتعصيبِ وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفِرَاق. ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ في نكاحهن كالمهر والنفقة. روي أن سعد بن الربيع[2] أحد نُقَباء الأنصار نشَزَت عليه امرأتُه حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطمها، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ فشكىٰ، فقال رسول الله ﷺ: لتقتص منه، فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير»[3]. ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات لله قائمات

---

(١) وهذا المعنى على قراءة من قرأ «والذين عاقدت أيمانكم» وقد قرأ بها غير الكوفيين وأثبتها في الأصل «عاقدت» وانظر المبسوط ص١٥٦.

(٢) سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي الحارثي البدريُّ النقيب الشهيد الذي آخى النبي ﷺ بينه وبين عبدالرحمن بن عوف، فعزم على أن يُعطى عبدالرحمن شطر ماله، ويطلِّقَ إحدى زوجتيه، ليتزوج بها، فامتنع عبدالرحمن من ذلك، ودعا له.
واستشهد في غزوة أحد وبه سبعون ضربة وهو الذي قال: رداً على رسول رسول الله ﷺ حينما سأله وهو في الرمق الأخير: «جزاك الله عني خير ما جُزي نبياً عن أمته، وأبلغ قومَك مني السلام، وقل لهم: إن سعداً يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم ومنكم عينٌ تطرِف». [انظر الإصابة (٤/ ١٤٤) والاستيعاب (٤/ ١٤٥)].

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٥٣): «كذا ذكره الثعلبي والواحدي ـ ص١٥١ ـ عن مقاتل به.
ولأبي داود في المراسيل ـ رقم: ٢٧٤ ـ وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٢٩٩) ـ والطبري في جامع البيان (٤/ج٥/ ٥٨) ـ عن الحسن أن رجلاً لطم وجه امرأته، فأتت النبي ﷺ فشكت إليه. فقال: القصاص. فنزلت «الرجال قوامون على النساء».
ولابن مردويه عن علي بإسناد واه ـ انظر هذا الإسناد في تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٣) ـ نحوه ولم يقل القصاص، =

بحقوق الأزواج. ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب أي يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال، وعنه عليه الصلاة والسلام: «خير النساء امرأة إن نَظَرْتَ إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها». وتلا الآية[1]. وقيل لأسرارهم. ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ بحفظ الله إياهن بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو بالذي حَفِظَه الله لهنّ عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن. وقرىء بما حَفِظَ اللهَ بالنصب على أنّ ما موصولةٌ فإنها لو كانت مصدريةً لم يكن لِحَفِظَ فاعلٌ، والمعنى بالأمر الذي حفظ حقَّ اللهِ وطاعتَه وهو التعفف والشفقة على الرجال. ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عِصيانهن وترفُّعهن عن مطاوعة الأزواج من النشْز. ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد فلا تُدْخِلوهن تحت اللُّحُف أو لا تباشروهن، فيكون كناية عن الجماع. وقيل المضاجع المبايت أي لا تبايتوهن ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ يعني

= وزاد «أردت أمراً وأراد الله غيره» ـ قلت: وأخرج هذه الزيادة الطبري (٤/ج٥/٥٨) والواحدي في أسباب النزول (ص١٥١ ـ ١٥٢) عن الحسن مرسلاً.

والخلاصة: أن الحديث مرسل، وإسناده إلى الحسن صحيح، ولكن مراسيل الحسن لا تقبل.

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٠٥ رقم ١٦٦٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨٣)، وأبو يعلى في المسند (٤/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩ رقم ٢٤٩٩/١٧٢٠) كلهم من طريق غيلان بن جامع عن عثمان أبي اليقظان عن جعفر بن إياس، عن مجاهد عن ابن عباس، إلا أبا داود فأخرجه من طريق غيلان عن جعفر بن إياس به، ورجال الإسناد كلهم ثقات وصحح الحاكم الحديث، وتعقبه الذهبي بقوله: عثمان لا أعرفه والخبر عجيب. بينما ضعف الألباني الحديث، كما في ضعيف الجامع (٣/ ٩٩). وهو الصواب.

● وأخرج النسائي (٦/ ٦٨ رقم ٣٢٣١) والحاكم (٢/ ١٦١، ١٦٢) وأحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٢، ٤٣٨) كلهم من طريق ابن عجلان عن سعيد عن أبي هريرة قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ النساء خيرٌ قال التي تسرُّهُ إذا نظرَ وتطيعُهُ إذا أمرَ ولا تخالفُهُ في نفسها ومالها بما يكرهُ».

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٣٩): «سنده صحيح» وتعقبهم الألباني في الصحيحة (٤/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤): «وكذا قالوا، وليس كذلك، بل هو حسن فقط كما ذكرنا، فإن ابن عجلان متكلم فيه خاصة في روايته عن سعيد عن أبي هريرة، وهو في نفسه صدوق كما في «التقريب» وكذا «الميزان» قال: «وكان من الرفعاء والأئمة أولى الصلاح والتقوى، ومن أهل الفتوى، له حلقة في مسجد رسول الله ﷺ» ثم إنه لم يروِ له مسلم إلا متابعة. قال الحاكم كما في «الميزان»: «أخرج له مسلم في كتابه ثلاثة عشر حديثاً كلها شواهد، وقد تكلم المتأخرون من أئمتنا في سوء حفظه».

قلت: فهو حسن الحديث إن شاء الله تعالى» هـ.

وتابع ابن عجلان أبو معشر السندي عند الطيالسي (ص٣٠٦ رقم ٢٣٢٥).

والطبري (٤/ج٥/ ٦٠) وأبو معشر اسمه: نجيح وهو ضعيف.

وللحديث شواهد (منها) ما أخرجه ابن ماجة (١/ ٥٩٦ رقم ١٨٥٧) من طريق علي بن يزيد الألهاني عن القاسم عن أبي أمامة، وعلي بن يزيد ضعيف جداً.

(ومنها) ما أخرجه الطبراني ـ كما في المجمع (٤/ ٢٧٣) من حديث عبدالله بن سلام ـ. وقال الهيثمي: وفيه زريك بن أبي زريك ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» قلت: زريك: وثقه ابن معين وابن الجنيد كما في الجرح (٣/ ٦٢٤). وانظر «الكافي الشافِ» رقم (٣٥٤) والصحيحة (٤/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥).

وخلاصة القول إن حديث أبي هريرة حسن والله أعلم.

ضرباً غيرَ مبرِّح ولا شائن، والأمور الثلاثة مُرَتَّبة ينبغي أن يُتَدَرَّج فيها. ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ بالتوبيخ والإيذاء، والمعنى فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأنْ لم يكن فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فاحذروه فإنه أقدر عليكم منكم على مَنْ تحت أيديكم، أو إنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم، أو إنه يتعالى ويتكبر أن يظلمَ أحداً أو يُنقص حقه[1].

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

(٣٥) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ خلافاً بين المرأة وزوجها. أَضْمَرَهما وإنْ لم يَجْرِ ذكرُهما لجرى ما يدلُّ عليهما، وإضافةُ الشقاق إلى الظرف إما لإجرائه مجرى المفعول به كقوله: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ أو الفاعل كقولهم نهارك صائم. ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ فابعثوا أيها الحكام ـ متى اشتبه عليكم حالهما لتبيين الأمر أو إصلاح ذات البين ـ رجلاً وسطاً يصلح للحكومة والإصلاح من أهله وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح، وهذا على وجه الاستحباب فلو نَصَبا من الأجانب جاز. وقيل الخطاب للأزواج والزوجات، واستُدِل به على جواز التحكيم، والأظهرُ أن النصب لإصلاح ذات البين أو لتبيين الأمر ولا يليان الجمع والتفريق إلا بإذن الزوجين، وقال مالك لهما أن يتخالعا إن وَجَدَا الصلاح فيه. ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ الضمير الأول للحَكَمَيْن والثاني للزوجين، أي إن قصدا الإصلاح أوقع الله بحسن سعيهما الموافقة بين الزوجين. وقيل كلاهما للحكمين أي إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما. وقيل للزوجين أي إن أرادا الإصلاح وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه[2]. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ بالظواهر والبواطن، فيعلم كيف يَرْفع الشقاق ويوقع الوفاق.

---

(١) قوله تعالى: «الرجال قوامون» أوردها بالجملة الاسمية والخبر بصيغة المبالغة للإيذان بعراقتهم في الاتصاف بما أسند إليهم.
وقوله «بعضهم على بعض» وَضَع البعض موضع الضميرين للإشعار بغاية ظهور الأمر وعدم الحاجة إلى التصريح بالمفضل والمفضل عليه.
وقوله «فإن أطعنكم» تعرض لطاعتهن ولم يتعرض لعدم طاعتهن للإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغي تحققه أو يتوقع منهن ذلك.. (س٢/ ١٧٤).

(٢) تعرض لإرادتهم للإصلاح ولم يتعرض لعدم إرادتهم لذلك لأنه هو الذي ينبغي أن يكون ويليق بشأنهما، وهو مرغب للحكمَيْن في السعي بالإصلاح (س٢/ ١٧٥).

(٣٦) ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ صنماً أو غيره أو شيئاً من الإشراك جلياً أو خفياً[١] ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ وأحسنوا بهما إحساناً. ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ وبصاحب القرابة. ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي الذي قرب جواره، وقيل الذي له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين. وقرىء بالنصب على الاختصاص تعظيماً لحقه. ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ البعيد، أو الذي لا قرابة له. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الجيران ثلاثة. فجار له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام. وجار له حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب»[٢]. ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ الرفيق في أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر، فإنه صَحِبَك وحصل بجنبك. وقيل المرأة. ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المسافر أو الضعيف. ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ العبيد والإماء. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا ﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم. ﴿ فَخُورًا ﴾ يتفاخر عليهم.

ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

(٣٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ بدل من قوله من كان، أو نصب على الذم، أو رفع عليه أي هم الذين، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون بما منحوا به ويأمرون الناس بالبخل به. وقرأ حمزة والكسائي ههنا وفي الحديد بالبَخَل بفتح الحرفين وهي لغة. ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الغنى والعلم فهم أحقاء بكل ملامة. ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ وضع الظاهر فيه موضع المضمر إشعاراً بأن مَنْ هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، وما كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء. والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار تنصيحاً: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر[٣]. وقيل في الذين كتموا صفة محمد ﷺ[٤].

---

(١) صدّر الآية بالأمر بعبادته والنهي عن الإشراك به حيث ابتدأ بما يتعلق بحقوقه تعالى، فهي آكد الحقوق. وقرنها بحقوق الوالدين تنبيهاً على عظم شأن حقوقهما (س٢/ ١٧٥).

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه البزار (٢/ ٣٨٠ رقم ١٨٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٠٧) من حديث جابر بن عبدالله.
قال البزار: لا نعلمه عن النبي ﷺ إلاَّ بهذا الإسناد.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٦٤) وقال: رواه البزار عن شيخه عبدالله بن محمد الحارثي وهو وضاع.
قلت: عبدالله هذا تابعه الحسين بن عيسى البسطامي عند أبي نعيم. وهو صدوق.
وقال أبو نعيم: غريب من حديث عطاء عن الحسن لم نكتبه إلا من حديث ابن أبي فديك. قلت: مدار الإسناد عند البزار وأبي نعيم على «عطاء الخراساني» وهو صدوق يهم كثيراً، ويرسل ويدلس [التقريب: ٢/ ٣٢]. وقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف الجامع (٣/ ٨٨).

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير ـ (٤/ج٥/ ٨٦) ـ وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٥٣٨) ـ وإسناده حسن.

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير ـ (٤/ج٥/ ٨٥) ـ وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ـ كما في الدر المنثور =

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على الذين يبخلون، أو الكافرين. وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسَّرَف الذي هو الإنفاق لا على من ينبغي من حيث إنهما طرفا إفراط وتفريط سواءٌ في القبح واستجلاب الذم، أو مبتدأ خبرُه محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ليتحروْا بالإنفاق مراضيه وثوابه وهم مشركو مكة. وقيل هم المنافقون. ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ تنبيه على أن الشيطان قَرَنَهم فحملهم على ذلك وزيّنه لهم كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[1]. والمراد إبليس وأعوانُه الداخلة والخارجة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن يُقرَن بهم الشيطان في النار.

(٣٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي وما الذي عليهم، أو أيُّ تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة، وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً فكيف إذا تضمن المنافع؟!. وإنما قَدَّم الإيمان ههنا وأخره في الآية الأخرى[2] لأن القصد بذكره إلى التخصيص ههنا، والتعليل ثَمَّ[3] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لا يُنقص من الأجر ولا يَزيد في العقاب أصغرَ شيء كالذرة، وهي النملة الصغيرة، ويقال لكل جزء من أجزاء الهَبَاء، والمِثْقالُ مفعال من الثِّقَل، وفي ذكره إيماء إلى أنه وإن صغُر قدْرُه عظُم جزاؤه. ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة، وأنت الضمير لتأنيث الخبر أو لإضافة المثقال إلى مؤنث، وحذف النون من غير قياس تشبيهاً بحروف العلة. وقرأ ابن كثير ونافع حسنةٌ بالرفع على كان التامة. ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ يضاعِفُ ثوابها. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يُضَعِّفْها وكلاهما بمعنى[4]. ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل زائداً على

= (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) ـ وإسناده صحيح.

وأخرج ابن جرير (٤/ج٥/ ٨٥) عن الحضرمي نحو ذلك بإسناد صحيح.

(١) الإسراء: «٢٧».

(٢) أي في الآية السابقة «والذين ينفقون».

(٣) قدم الإيمان هنا لأهميته ولعدم الاعتداد بالإنفاق بدونه. أما تقديم إنفاقهم رئاء الناس على عدم إيمانهم ـ مع كون المؤخر أقبح ـ فلرعاية المناسبة بين إنفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به (س٢/ ١٧٧).

(٤) قول البيضاوي (كلاهما بمعنى) أي أن من قرأ (يضاعفها ويُضعِّفها) بمعنى واحد. وقد ذهب إلى هذا أبو علي الفارسي وهو المختار عند أهل اللغة، كما ذكر الألوسي في روح المعاني ٥/ ٣٣.

لكن أبا حيان ذهب إلى أن كلام العرب يقتضي خلافه وقال: (لأن المضاعفة تقتضي زيادة المثل، فإذا شدّدت =

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

ما وعد في مقابلة العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عطاء جزيلاً، وإنما سماه أجراً لأنه تابع للأجر مزيد عليه.

(٤١) ﴿فَكَيْفَ﴾ أي فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾؟! يعني نبيُّهم يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم، والعاملُ في الظرف مضمونُ المبتدأ والخبرِ من هوْل الأمر وتعظيم الشأن. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد. ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ تشهد على صدق هؤلاء الشهداء لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك مجامعَ قواعدهم. وقيل هؤلاء إشارة إلى الكفرة المستفهَم عن حالهم. وقيل إلى المؤمنين كقوله تعالى ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

(٤٢) ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ بيان لحالهم حينئذ أيْ يود الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الأمر، أو الكفرةُ والعصاةُ في ذلك الوقت أَنْ يدفنوا فتسوى بهم الأرضُ كالموتى أو لم يُبْعَثوا أو لم يُخْلَقوا وكانوا هم والأرض سواء[2]. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ ولا يقدرون على كتمانه لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال أي يودون أن تسوى بهم الأرض وحالُهم أنهم لا يكتمون من الله حديثاً ولا يكذبونه بقولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[3] إذ روي أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهدُ عليهم جوارحُهم، فيشتد الأمرُ عليهم فيتمنوْن أن تسوى بهم الأرض. وقرأ نافع وابن عامر تَسَوَّى بهم على أن أصله تتسوى فأدغمت التاء في السين، وقرأ حمزة والكسائي تُسَوّى على حذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى.

(٤٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من نحو نوم أو خمر حتى تنتهوا وتعلموا ما تقولون في صلاتكم. روي أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه صنع مأدبة ودعا نفراً من الصحابة ـ حين كانت الخمر مباحة ـ فأكلوا وشربوا حتى .....

= اقتضت البنية التكثير فوق مرتين إلى أقصى ما يزيد من العدد (البحر المحيط ٣/ ٢٥١).

(١) البقرة: «١٤٣».

(٢) قوله «الذين كفروا» عبر عنهم بالموصول لذمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل.
وقوله «وعصوا الرسول» أورده بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه (س٢/ ١٧٨).

(٣) الأنعام: «٢٣».

ثَمِلُوا[١]، وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلي بهم فقرأ: أعبد ما تعبدون. فنزلت[٢]. وقيل أراد بالصلاة مواضعَها وهي المساجد وليس المراد منه نهي السكران عن قربان الصلاة، وإنما المراد النهي عن الإفراط في الشرب، والسَّكَرُ من السُّكْر وهو السدّ. وقرىء سَكَارى بالفتح، وسَكْرى على أنه جمعٌ كهَلْكى أو مفردٌ بمعنى وأنتم قوم سَكْرى أو جماعة سَكْرى وسُكْرَى كحُبْلى على أنها صفة للجماعة. ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على قوله وأنتم سُكارى إذ الجملة في موضع النصب على الحال. والجُنُب الذي أصابته الجنابة، يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأنه يجري مجرى المصدر. ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ متعلق بقوله ولا جنباً، استثناءٌ من أعمّ الأحوال أي لا تقربوا الصلاة جنباً في عامة الأحوال إلا في السفر وذلك إذا لم يجد الماء وتيمم، ويشهد له تعقيبُه بذكر التيمم، أو صفةٌ لقوله جنباً أي جنباً غير عابري سبيل، وفيه دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث[٣]. ومَنْ فسر الصلاة بمواضعها فسر عابري سبيل بالمجتازين فيها، وجوّزَ للجنب عبور المسجد، وبه قال الشافعي رضي الله عنه. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: لا يجوز له المرور في المسجد إلا إذا كان فيه الماء أو الطريق. ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ غاية النهي عن القربان حال الجنابة. وفي الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه، ويزكي نفسه عما يجب تطهيرها عنه. ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ مَرَضاً يخاف معه من استعمال الماء فإن الواجد كالفاقد، أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه. ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لا تجدونه فيه. ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين، وأصل الغائط المكان المطمئنّ من الأرض. ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أو ما مسَسْتم بَشَرَتهن ببَشَرَتكم، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن[٤]. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي المائدة لَمَسْتُم، واستعماله كناية عن الجماع أقلّ من الملامسة. ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ فلم تتمكنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود. ووجه هذا التقسيم أن المترخص بالتيمم إما محدث أو جنب، والحالة المقتضية له في غالب الأمر مرض أو سفر، والجنُب لما سبق ذكره اقتُصر على بيان حاله، والمُحْدِث لما لم يجرِ ذكره ذُكِر من أسبابه ما يحدث بالذات وما يحدث بالعَرَض واستُغني عن تفصيل أحواله بتفصيل حال الجنب وبيان العذر مجملاً، فكأنه قيل: وإن كنتم جنباً مرضى أو على سفر أو محدثين جئتم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾. أي

---

(١) ثمِلوا أي فتروا من الشرب.

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (٤/ ٨٠ رقم ٣٦٧١) والنسائي (٧/ ٤٠٧) ـ كما في تحفة الأشراف والترمذي (٥/ ٢٣٨ رقم ٣٠٢٦) والحاكم (٢/ ٣٠٧) و(٤/ ١٤٢) والطبري (٤/ ج٥/ ٩٤). من حديث علي بن أبي طالب.
وصححه الحاكم وأقره الذهبي. وصحح الألباني الحديث في صحيح أبي داود وغيره.

(٣) إلا أنه ضعيف والأحاديث الصحيحة تبين أن التيمم يرفع الحدث. انظر فتح القدير للشوكاني ١/ ٤٧٠.

(٤) قوله (وقيل أو جامعتموهن) ليدل على تضعيف رأي من قال: بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء إلا أن الأحاديث الصحيحة تفيد بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء كحديث وضع يد عائشة على قدميه عليه السلام وهو في الصلاة، ورواه مسلم والترمذي وحديث أنه عليه السلام قَبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ.
وانظر مجمل الأدلة في فقه السنة ١/ ٥٠.

فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. ولذلك قالت الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلد ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا لا بد من أن يعلق باليد شيء من التراب لقوله تعالى في المائدة ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[1] أي بعضه، وجَعْلُ مِنْ لابتداء الغاية تعسف إذ لا يفهم من نحو ذلك إلا التبعيض، واليد اسم للعضو إلى المنكب، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام تيمم ومسحَ يديه إلى مرفقيه والقياس على الوضوء دليلٌ على أن المراد ههنا وأيديكم إلى المرافق[2]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلذلك يسر الأمر عليكم ورخص لكم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾ من رؤية البصر أي ألم تنظر إليهم، أو القلب. وعدي بإلى لتضمن معنى الانتهاء. ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حظاً يسيراً من علم التوراة لأن المراد أحبار اليهود. ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ يختارونها على الهدى، أو يستبدلونها به بعد تمكنهم منه، أو حصوله لهم بإنكار نبوة محمد ﷺ. وقيل: يأخذون الرُّشى ويحرفون التوراة. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أيها المؤمنون. ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ سبيل الحق[3].

(٤٥) ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم. ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وما يريدون بكم فاحذروهم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمركم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ يعينكم فثِقوا عليه واكتفوا به عن غيره. والباء تزاد في فاعل كفىٰ لتوكيد الاتصال الإسنادي بالاتصال الإضافي.

(٤٦) ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً فإنه يحتملهم وغيرَهم، وما بينهما اعتراضٌ

---

(١) المائدة: «٦».

(٢) لكن الأحاديث الصحيحة صرحت بمسح الكفين فقط، كحديث عمار في الصحيحين:
أن النبي عليه السلام قال له: «إنما كان يكفيك هكذا». وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه.
أما حديث مسح اليدين إلى المرفقين فليس بصحيح، فقد رواه أبو داود (٣٣٠) عن ابن عمر بلفظ «ضرب بيديه على الحائط مسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه» وهو ضعيف كما في الفتح السماوي (ص٤٩٣).

(٣) وقد عبر عنهم بالموصول للتنبيه على ما في حيز الصلة على كمال شناعتهم.
وعبر عن فعلهم بالاشتراء ـ الذي هو استبدال السلعة بالثمن ـ لبيان كمال رغبتهم في الضلالة والإعراض عن الكتاب وما أوتوه.
وصيغة المضارع بقوله «يشترون» و«يريدون» للدلالة على استمرارهما وتجددهما (س٢/ ١٨٢).

أو بيان لأعدائكم أو صلةٌ لنصيراً. أي ينصركم من الذين هادوا ويحفظكم منهم، أو خبر محذوف صفته يحرفون. ﴿ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم أي يُميلُونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها. أو يُؤوِّلونه على ما يشتهون فيُميلونه عما أنزل الله فيه. وقرىء الكِلْمَ بكسر الكاف وسكون اللام جَمْعُ كِلْمَة تخفيف كلمة. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولَك. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرَك. ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي مدعوّاً عليك بلا سمعت لصمم أو موت، أو اسمع غيرَ مجاب إلى ما تدعو إليه، أو اسمع غير مسمَع كلاماً ترضاه، أو اسمع كلاماً غير مسمَع إياك لأن أذُنك تنبُو عنه فيكون مفعولاً به، أو اسمع غير مسمَع مكروهاً من قولهم أسمعه فلان إذا سبّه، وإنما قالوه نفاقاً. ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أنْظِرْنا نكلمْك أو نفهم كلامك. ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فَتْلاً بها وصرفاً للكلام إلى ما يشبه السب، حيث وضعوا راعِنا المشابِه لما يتسابّون به موضعَ انظرنا وغيرَ مسمَعٍ موضعَ لا أسمعت مكروهاً، أو فتلاً بها وضماً لما يظهرون من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرون من السب والتحقير نفاقاً. ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ استهزاء به وسخرية. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ ولو ثبت قولهم هذا مكان ما قالوه. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل، وإنما يجب حذف الفعل بعد لو في مثل ذلك لدلالة أنَّ ... وقوعه موقعه. ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الهدىٰ بسبب كفرهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يُعبأ به وهو الإيمان ببعض الآيات والرسل، ويحتمل أن يراد بالقِلّة العدم كقوله:

قليلُ التشكّي لِلْمُهِمّ يَصِيبُهُ أو إلا قليلاً منهم آمنوا أو سيؤمنون

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

(٤٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ من قبل أن نمحوَ تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها، يعني الإقفاء، أو ننكسُها إلى ورائها في الدنيا أو في الآخرة. وأصل الطمْس إزالة الأعْلام المائلة، وقد يطلق بمعنى الطلس في إزالة الصورة، ولمطلق القَلْب والتغيير، ولذلك قيل معناه من قبل أن نغير وجوهاً فنسلب وَجَاهتها وإقبالها ونكْسُوها الصَّغارَ والإدبار، أو نردها إلى حيث جاءت منه، وهي أذرعات الشام يعني إجلاء بني النضير، ويَقْرُب منه قول من قال إن المراد بالوجوه الرؤساء، أو مِنْ قبل أن نطمس وجوهاً بأن نَعْمي الأبصار عن الاعتبار ونَصمَّ الأسماع عن الإصغاء إلى الحق بالطبع ونردَّها عن الهداية إلى الضلالة. ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أو نخزيَهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نمسخَهم مسخاً مثل مسخهم، أو نلعنهم على لسانك كما لعناهم على لسان داود. والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريقة الالتفات، أو للوجوه إن أريد به الوجهاء، وعطفه على الطمس بالمعنى الأول يدل على أن المراد به ليس مسخ الصورة في الدنيا. ومن حمل الوعيد على تغيير الصورة في الدنيا قال إنه بَعْدُ مترقب أو كان وقوعه مشروطاً بعدم إيمانهم وقد آمن منهم طائفة. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه. ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً وكائناً فيقع لا محالة ما أُوعِدْتم به إن لم تؤمنوا.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ لأنه بتَّ الحكم على خلود عذابه وأن ذنبه لا ينمحي عنه أثره فلا يستعد للعفو بخلاف غيره. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ تفضلاً عليه وإحساناً. والمعتزلة عَلَّقوه بالفعلين على معنى إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء. وهو من لم يتب ويغفر ما دونه لمن يشاء وهو من تاب، وفيه تقييد بلا دليل إذ ليس عموم آيات الوعيد بالمحافظة أولى منه ونقض لمذهبهم فإن تعليق الأمر بالمشيئة ينافي وجوب التعذيب قبل التوبة والصفح بعدها، فالآية كما هي حجة عليهم فهي حجة على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه خالد في النار. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ارتكب ما يستحقر دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذلك الاختلاق.

(٤٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ﴾ يعني أهل الكتاب قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾[1] وقيل: ناس من اليهود جاؤوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: «لا» قالوا: والله ما نحن إلا كهيئتهم ما عَمِلنا بالنهار كُفِّر عنّا بالليل وما عملنا بالليل كُفِّر عنا بالنهار[2]. وفي معناهم من زكى نفسه وأثنى عليها. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتدّ بها دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسن وقبيح، وقد ذمهم وزكّىٰ المرتضين من عباده المؤمنين. وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ بالذم أو العقاب على تزكيتهم أنفسَهم بغير حق. ﴿فَتِيلًا﴾ أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شَقِّ النَّواة يُضربُ به المثَل في الحقارة.

(٥٠) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله وأزكياء عنده. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ بزعمهم هذا أو بالافتراء. ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ لا يخفى كونه مأثماً من بين آثامهم.

(٥١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ نزلت في يهود كانوا يقولون إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعوهم إليه محمد. وقيل في حُيَيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نَأْمن مكْركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم

---

(١) المائدة: «١٨».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٦٦): «ذكره الثعلبي عن الكلبي» وذكره الواحدي في أسباب النزول ص١٥٥، والبغوي في تفسيره (٢/ ٢٣٣) عن الكلبي بدون سند. والكلبي متهم.

ففعلوا[١]. والجبْتُ في الأصل اسمُ صنم فاستُعمل في كل ما عُبِد من دون الله، وقيل أصله الجبس وهو الذي لا خير فيه فقلبت سينه تاء. والطاغوت يطلق لكل باطل من معبود أو غيره. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأجلهم وفيهم. ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ إشارة إليهم. ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً[٢].

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

(٥٢) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يمنع العذاب منه بشفاعة أو غيرها.

(٥٣) ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة إنكارُ أن يكون لهم نصيب من الملك وجَحْدٌ لما زعمت اليهود من أن الملك سيَصير إليهم. ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً ما يوازي نقيراً، وهو النُّقْرة في ظهر النواة. وهذا هو الإغراق في بيان شحّهم فإنهم إن بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء أذلاء متفاقرين، ويجوز أن يكون المعنى إنكار أنهم أوتوا نصيباً من الملك على الكناية، وأنهم لا يؤتون الناس شيئاً. وإذا وقع بعد الواو والفاء «لا» لتشريك مفردٍ جاز فيه الإلغاءُ والإعمال، ولذلك قرىء فإذاً لا يؤتوا الناس على النصب.

(٥٤) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ بل أيحسدون رسول الله ﷺ وأصحابه، أو العرب، أو الناس جميعاً لأن

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٥١ رقم ١١٦٤٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٩٣) عن ابن عباس.
وليس عند أيهما قوله: «وأنتم أقرب إلى محمد...» إلى آخره، بل لفظهما: «أنتم أهل العلم القديم وأهل الكتاب فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: أنتم خير منه وأهدى سبيلاً» فأنزل الله: «ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» إلى آخر الآية.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥ ـ ٦) وقال: «رواه الطبراني وفيه «يونس بن سليمان الجَمَّال» ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.
قلت: عند البيهقي في الدلائل «محمد بن يونس الجمَّال» لعل هذا هو الصواب لأن المزي ذكره في «تهذيب الكمال» (١١/ ١٨٧) في تلاميذ ابن عيينة ولم يذكر من اسمه «يونس بن سليمان الجمال».
ومحمد بن يونس الجمَّال بغدادي ضعيف ـ كما في «التقريب» (٢/ ٢٢٢) ـ. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ١٣٤) عن عكرمة قوله: وهو أقرب لسياق القاضي، وعزاه السيوطي لعبدالرزاق أيضاً في الدر المنثور (٢/ ٥٦٣) وإسناده حسن.
وأخرج الطبري أيضاً في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ١٣٣) عن ابن عباس، ورجاله ثقات.
وأخرج الطبري كذلك (٤/ج٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥) عن عكرمة، وقتادة، وابن زيد بنحوه، وهي مراسيل صحيحة الإسناد.
وبهذا يتقوى حديث ابن عباس فيكون صحيحاً إن شاء الله.

(٢) قوله «من الذين آمنوا» هو من قبل الله لا من القائلين. وأوردهم بوصف الإيمان تعريفاً لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح (س٢/ ١٨٩).

من حسد على النبوة فكأنما حسد الناسَ كلهم كمالهم ورشدهم، وبَخَهم وأنكر عليهم الحسد كما ذمهم على البخل وهما شر الرذائل وكأن بينهما تلازماً وتجاذباً. ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني النبوة والكتاب والنصرة والإعزاز وجعل النبي الموعود منهم. ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم وأبناء عمه. ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوة. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ فلا يبعد أن يؤتيه الله مثل ما آتاهم[1].

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿فَمِنْهُم﴾ من اليهود. ﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بما ذكر من حديث آل إبراهيم. ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أعرض عنه ولم يؤمن به، وقيل معناه فمن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من كفر ولم يكن في ذلك توهين أمره فكذلك لا يوهِنْ كفرُ هؤلاء أمرَك. ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ناراً مسعورة يعذبون بها أي إن لم يُعَجِّلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ كالبيان والتقرير لذلك. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ بأن يعاد ذلك الجِلْد بعينه على صورة أخرى كقولك: بدلت الخاتم قِرطاً، أو بأن يُزالَ عنه أثر الإحراق ليعود إحساسه للعذاب كما قال: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي ليدوم لهم ذوْقه. وقيل يخلق لهم مكانه جلد آخر، والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية المدرِكة لا لآلة إدراكها فلا محذور. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ يعاقب على وفق حكمته[2].

(٥٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قدَّم ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لأن الكلام فيهم وذكْر المؤمنين بالعَرَض. ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ فَيْناناً لا جَوْب فيه[3] ودائماً لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة. والظليل صفة مشتقة من الظل لتأكيده كقولهم: شمسٌ شامِسٌ وليل أَلْيَل ويوم أيوم.

---

(١) تكرير الإيتاء لما يقتضيه مقام التفضيل مع الإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة (س٢/ ١٩٠).

(٢) عبر عن إدراك العذاب بالذوق لبيان إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث إنه لا يدخله نقصان لدوام الملابسة، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه، أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث إن القوة الذائقة أشد الحواس تأثراً.
ولعل السر في تبديل الجلود مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب لأن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك بالاحتراق (س٢/ ١٩٢).

(٣) لا جَوْب أي لا انقطاع فيه، من جاب الأرض إذا قطعها (المصباح المنير مادة جوب).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

(٥٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ خطاب يعم المكلفين والأماناتِ، وإن نزلت يوم الفتح في عثمان بن طلحة بن عبدالدار[١] لما أغلق باب الكعبة وأبىٰ أن يدفع المفتاح ليدخل فيها رسول الله وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فلوىٰ علي كرم الله وجهه يدَه وأخذه منه وفتح، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباسُ رضي الله عنه أن يعطيه المفتاحَ ويجمعَ له السقاية والسدانة، فنزلت[٢]، فأمره الله أن يرده إليه، فأمر علياً رضي الله عنه أن يرده ويعتذر إليه، وصار ذلك سبباً لإسلامه ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ أي وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمرُكم، أو يرضى بحكمكم، ولأن الحكم وظيفة الولاة قيل الخطاب لهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ﴾ أي نعم شيئاً يعظكم به، أو نعم الشيءُ الذي يعظكم به، فما منصوبةٌ موصوفة بيعَظِكم به أو مرفوعة موصولة به والمخصوص بالمدح محذوف وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكومات. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ بأقوالكم وأحكامكم وما تفعلون في الأمانات

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية. أمر الناس بطاعتهم بعدما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. وقيل علماءُ الشرع لقوله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[٣]. ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ﴾ أنتم وأولو الأمر منكم. ﴿فِى شَىْءٍ﴾ من أمور الدين، وهو يؤيد الوجه الأول إذ ليس للمقلِّد أن ينازع المجتهد في حكمه بخلاف المرؤوس إلا أن يقال الخطاب لأولي الأمر على طريقة الالتفات. ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فراجعوا فيه. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى كتابه. ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ بالسؤال عنه في زمانه، والمراجعة إلى سنته بعده. واستدل به منكرو القياس وقالوا: إنه تعالى أوجب رد المختلف إلى الكتاب والسنة دون القياس. وأُجيب بأن رد المختلف إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس، ويؤيد ذلك الأمر به بعد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة مُثْبَت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالردّ إليهما على وجه القياس. ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فإن الإيمان يوجب ذلك. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرد. ﴿خَيْرٌ﴾ لكم. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة أو أحسن تأويلاً من تأويلكم بلارد[٤].

---

(١) عثمان بنُ طلحةَ حاجب البيت الحرام وأحد المهاجرين، له رواية خمسة أحاديث. توفي سنة إحدى وأربعين». [أسد الغابة (٣/ ٥٧٨) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٢٠)].

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٥٧ ـ ١٥٨) وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٦٩): هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي (٢/ ٢٣٨) بغير إسناد». وعزاه في الدر المنثور (٢/ ٥٧٠) لابن مردويه من طريق الكلبي عن ابن عباس.

(٣) النساء: «٨٣».

(٤) قدم خيريته لهم على أحسنيته في نفسه لتعلق أنظارهم بما ينفعهم (س٢/ ١٩٤).

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

(٦٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن منافقاً خاصَم يهودياً، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي، فلم يرضَ المنافق بقضائه وقال: نتحاكم إلى عمر، فقال اليهودي لعمر: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرضَ بقضائه وخاصم إليك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للمنافق: أكذلك؟ فقال نعم، فقال: مكانَكما حتى أَخْرج إليكما، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله ورسوله. فنزلت[1]. وقال جبريل إن عمر قد فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق، والطاغوتُ على هذا كعب بن الأشرف وفي معناه مَنْ يحكم بالباطل ويؤثر لأجله، سمي بذلك لفرط طغيانه أو لتشبهه بالشيطان، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث إنه الحامل عليه، كما قال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾. وقرىء أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمعٌ كقوله تعالى: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾[2].

(٦١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ وقرىء تعالُوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل اعتباطاً ثم ضم اللام لواو الضمير. ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ هو مصدر أو اسم للمصدر الذي هو الصدّ، والفرق بينه وبين السدّ أنه غير محسوس والسد محسوس، ويصُدون في موضع الحال[3].

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٧١): «ذكره الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي عاصم عن ابن عباس في هذه الآية: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر وإسناده إلى الكلبي في خطبة كتابه.
وذكره الواحدي ـ في أسباب النزول ص١٦٢ ـ أيضاً، ولابن أبي حاتم، وابن مردويه من رواية وهب عن ابن لهيعة عن أبي الأسود: «اختصم رجلان إلى النبي ﷺ، فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه ردنا إلى عمر، فانطلقنا إليه، فضرب عنق الذي قال: ردنا إلى عمر، فجاء الآخر فأخبره، فقال: ما كنت أظن عمر يجترىء على قتل مؤمن. فأنزل الله تعالى: «فلا وربك لا يؤمنون» الآية. فأهدر دمه».
وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤) عن هذا الأثر بأنه أثر غريب وهو مرسل وابن لهيعة ضعيف.
قلت: هو من رواية أحد العبادلة (ابن وهب) عنه، ورواية العبادلة عنه مقبولة عند المحدثين. لكن بقي كونه مرسلاً ومخالفاً لما جاء في الصحيحين من حديث الزبير الذي سيأتي تخريجه في الآية (٦٥) من هذه السورة.

(٢) البقرة: «٢٥٧».

(٣) قوله «رأيت المنافقين» أظهر لفظ المنافقين في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به والإشعار بعلة الحكم (س٢/ ١٩٥).

(٦٢) ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم. ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ كقتل عمر المنافقَ أو النقمة من الله تعالى. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك. ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ حين يصابون للاعتذار، عطف على أصابتهم. وقيل على يصدون وما بينهما اعتراض. ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ حال. ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين، ولم نرد مخالفتك. وقيل جاء أصحاب القتيل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يُحْسِن إلى صاحبنا ويوفقَ بينه وبين خصمه.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

(٦٣) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم أو عن قبول معذرتهم. ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك وكفِّهم عما هم عليه. ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في معنى أنفسهم أو خالياً بهم فإن النصح في السر أنجع. ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم. أمَرَهم بالتجافي عن ذنوبهم والنصح لهم والمبالغة فيه بالترغيب والترهيب، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء عليهم السلام. وتعليقُ الظرف ببليغاً على معنى بليغاً في أنفسهم مؤثراً فيها ضعيفٌ لأن معمول الصفة لا يتقدم على الموصوف، والقول البليغ في الأصل هو الذي يطابق مدلوله المقصود به.

(٦٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بسبب إذنه في طاعته وأمره المبعوث إليهم بأن يطيعوه، وكأنه احتج بذلك على أن الذي لم يرضَ بحكمه وإن أظهر الإسلام كان كافراً مستوجبَ القتل، وتقريره أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرضَ بحكمه لم يقبل رسالته ومن كان كذلك كان كافراً مستوجب القتل. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت. ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من ذلك وهو خبر أنّ وإذ متعلق به. ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة والإخلاص. ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبتَ لهم شفيعاً، وإنما عدل عن الخطاب تفخيماً لشأنه وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن مَنْصِبه أن يشفع في كبائر الذنوب. ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة، وإن فسر وجد بصادف كان تواباً حالاً ورحيماً بدلاً منه أو حالاً من الضمير فيه.

(٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوربك، ولا مزيدةٌ لتأكيد القسم لا لِتُظاهِر لا في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنها تُزاد أيضاً في الإثبات كقوله تعالى ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[1]. ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾

(١) البلد: «١».

فيما اختلف بينهم واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ ضيقاً مما حكمت به، أو مِنْ حُكْمك أو شكّاً من أجله، فإن الشاك في ضيق من أمره. ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ تعرضوا بها للقتل في الجهاد، أو اقتلوها كما قتل بنو إسرائيل، وأَنْ مصدرية أو مفسِّرة لأن كتبنا في معنى أمرنا. ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ خروجهم حين استُتيبوا من عبادة العجل. وقرأ أبو عمرو ويعقوب أَنِ اقتلوا بكسر النون على أصل التحريك، أَوُ اخْرجوا بضم الواو للاتباع والتشبيه بواو الجمع في نحو قوله تعالى ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ﴾[1] وقرأ حمزة وعاصم بكسرهما على الأصل، والباقون بضمهما إجراءً لهما مجرى الهمزة المتصلة بالفعل. ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ إلا أناس قليل وهم المخلصون. لما بين أن إيمانهم لا يتم إلا بأن يسلموا حق التسليم نبه على قصور أكثرهم ووهْن إسلامهم، والضميرُ للمكتوب ودل عليه كتبنا، أو لأحد مصدري الفعلين وقرأ ابن عامر بالنصب على الاستثناء أو على إلا فعلاً قليلاً. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من متابعة الرسول ﷺ مطاوعته طوعاً ورغبة. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في عاجلهم وآجلهم. ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ في دينهم لأنه أشد لتحصيل العلم ونفي الشك أو تثبيتاً لثواب أعمالهم، ونصبه على التمييز. والآية أيضاً مما نزلت في شأن المنافق واليهودي. وقيل إنها والتي قبلها نزلتا في حاطب بن أبي بلتعة خاصم زبيراً في شِراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل، فقال عليه الصلاة والسلام: «اسق يا زبير ثم أرسِل الماء إلى جارك، فقال حاطب: لأن كان ابن عمتك. فقال عليه الصلاة والسلام اسق يا زبير ثم احبس الماء إلى الجُدُر واستوف حقك، ثم أرسِلْه إلى جارك»[2].

(٦٧) ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: وما يكون لهم بعد التثبيت فقال وإذا لو تثبتوا لآتيناهم لأن إذا جواب وجزاء.

(٦٨) ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يَصِلون بسلوكه جناب القدس ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبي ﷺ «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم . . . . . .

---

(١) البقرة: «٢٣٧».

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٣٤ رقم ٢٣٥٩، ٢٣٦٠) ومسلم (٤/ ١٨٢٩ ـ ١٨٣٠ رقم ١٢٩/ ٢٣٥٧) وأبو داود (٤/ ٥١ رقم ٣٦٣٧) والنسائي (٨/ ٢٣٨ رقم ٥٤٠٧) والترمذي (٣/ ٦٤٤ رقم ١٣٦٣) وابن ماجة (٢/ ٨٢٩ رقم ٢٤٨٠) كلهم من طريق عروة عن عبدالله بن الزبير، عن الزبير.

يعلم»[١].

(٦٩) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً. ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيان للذين، أو حالٌ منه أو من ضميره. قسمهم أربعةَ أقسام بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم، وهم: الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل، ثم الصدِّيقون الذين صَعِدت نفوسُهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها، ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله تعالى، ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته. ولك أن تقول المنعم عليهم هم العارفون بالله وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان، والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباً وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولاً فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً وهم الصديقون، والآخرون إما أن يكون عرفانُهم بالبراهين القاطعة وهم العلماء الراسخون في العلم الذين هم شهداء الله في أرضه، وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم وهم الصالحون. ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ في معنى التعجب، ورفيقاً نصب على التمييز أو الحال، ولم يُجْمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق، أو لأنه أريد وحَسُنَ كلُّ واحد منهم رفيقاً. روي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله فقال: ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتَقْت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرتُ الآخرة فخِفْتُ أن لا أراك هناك لأني عرفت أنك ترتفع مع النبيين وإن أُدخِلتُ الجنة كنتُ في منزل دون منزلك، وإن لم أُدْخَل فذلك حين لا أراك أبداً. فنزلت[٢].

---

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٥) وقال: ذكره أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

وقال الألباني في الضعيفة رقم (٤٢٢): موضوع؛ في الطريق إلى أحمد بن حنبل جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه منهم.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٧٤): «ذكره الثعلبي بغير سند، ونقله الواحدي في الأسباب ـ ص١٦٥ ـ عن الكلبي. لكن لم يقل في آخره «فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إلى آخره» حكى ذلك عن جماعة من الصحابة، قال سعيد بن جبير: حدثنا خلف بن خليفة عن عطاء بن السائب، عن الشعبي قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنت أحبَّ إليَّ من نفسي وولدي وأهلي ومالي، ولولا أني آتيتك فأراك لكنت: أي سأموت وبكى الأنصاري. فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت أنك ستموت مع النبيين عليهم الصلاة والسلام، ونحن إن دخلنا الجنة كنا دونك فأنزل الله على رسوله ﷺ «ومن يطع الله ـ الآية» فقال له: أبشر».

ومن طريقه أخرجه البيهقي في الشعب ـ (٢/ ١٣١ رقم ١٨٣٠) ـ ووصله الطبراني ـ في الكبير (١٢/ ٨٦ ـ ٨٧ =

ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

(٧٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ إشارةٌ إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المنعَم عليهم ومزيتهم. ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ صفته. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبرُه أو الفضلُ خبرُه ومِنَ الله حال والعامل فيه معنى الإشارة. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بجزاء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله.

(٧١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء، والحذر والحذر كالأثر والأثر. وقيل ما يحذر به كالحزم والسلاح. ﴿فَٱنفِرُوا۟﴾ فاخرجوا إلى الجهاد. ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة، جمع ثبة من ثَبَيْت على فلان تثْبية إذا ذكرت متفرق محاسنه ويُجمع أيضاً على ثِبين جبراً لما حذف من عجزه. ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين كوكبة واحدة، والآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوبُ المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات.

(٧٢) ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب لعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين. والمبطِّئون منافقوهم تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد من بطّأ بمعنى أبطأ وهو لازم، أو ثبّطوا غيرهم كما ثبط ابن أبيّ ناساً يوم أحد، من بطأ منقولاً من بطُؤ كثقل من ثقل. واللام الأولى للابتداء دخلت اسم إن للفصل بالخبر، والثانية جواب قسم محذوف، والقسم بجوابه صلةُ مَنْ والراجع إليه ما استكن في ليبطئن والتقدير: وإن منكم لمَنْ أقسم بالله ليبطئن. ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ كقتل وهزيمة. ﴿قَالَ﴾ أي المبطىء. ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً فيصيبني ما أصابهم.

(٧٣) ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كفتح وغنيمة. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أكده تنبيهاً على فرْط تحسره. وقرىء بضم اللام إعادةً للضمير إلى معنى من. ﴿كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراضٌ بين الفعل ومفعوله

= رقم ١٢٥٥٩) وقال الهيثمي في المجمع (٧/٧): فيه عطاء بن السائب وقد اختلط ـ وعنه ابن مردويه ـ كما في الدر المنثور (٢/٥٨٨) ـ ومن طريق خالد بن عبدالرحمن عن عطاء بن السائب عن الشعبي عن ابن عباس نحوه.
ورواه الطبري ـ (٤/ج٥/١٦٣) ـ من طريق يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير نحوه مرسلاً.
ورواه الطبراني في الصغير ـ (١/٢٦) ـ والواحدي ـ في الأسباب ص١٦٦ رقم٢ ـ موصولاً من طريق عبدالله بن عمران العابدي عن فضيل بن عياض عن منصور بن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله والله إنك لأحبّ إليَّ من نفسي ـ الحديث بنحوه ـ.
وأخرجه الواحدي ـ في الأسباب ص١٦٥ رقم١ ـ من طريق أخرى عن مسروق قال: قال: أصحاب محمد ﷺ فذكره مختصراً ـ وأخرجه الواحدي أيضاً ص١٦٦ رقم١ ـ من طريق روح عن قتادة كذلك مرسلاً.

وهو ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ للتنبيه على ضعف عقيدتهم وأن قولهم هذا قولُ مَنْ لا مواصلة بينكم وبينه وإنما يريد أن يكون معكم لمجرد المال، أو حال من الضمير في ليقولن أو داخل في المقول أي يقول المبطىء لمن يبطئه من المنافقين وضعفة المسلمين تضريباً وحسداً، كأن لم يكن بينكم وبين محمد ﷺ مودة حيث لم يستعن بكم فتفوزوا بما فاز يا ليتني كنت معهم. وقيل: إنه متصل بالجملة الأولى وهو ضعيف، إذ لا يفصل أبعاضُ الجملة بما لا يتعلق بها لفظاً ومعنًى. وكأنْ مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب تكن بالتاء لتأنيث لفظ المودة[1]، والمنادى في يا ليتني محذوف أي: يا قوم وقيل يا أُطْلِقُ للتنبيه على الاتساع، فأفوزَ نصب على جواب التمني وقرىء بالرفع على تقدير فأنا أفوز في ذلك الوقت، أو العطف على كنت.

﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ٧٤ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾

(٧٤) ﴿﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي الذين يبيعونها بها، والمعنى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة، أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطئون، والمعنى حثهم على ترك ما حكي عنهم. ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وعد له الأجر العظيم غَلَبَ أو غُلِبَ، ترغيباً في القتال وتكذيباً لقولهم ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدًا﴾ وإنما قال ﴿فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعزّ نفسه بالشهادة أو الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين[2].

(٧٥) ﴿﴿وَمَا لَكُمۡ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حال والعامل فيها ما في الظرف من معنى الفعل. ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ عطف على اسم الله تعالى أي وفي سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو، أو على سبيل بحذف المضاف أي وفي خلاص المستضعفين، ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله تعالى يعم أبواب الخير وتخليصُ ضعفة المسلمين من أيدي الكفار أعظمُها وأخصُّها. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين بقُوا بمكة لصد المشركين، أو ضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتحنين، وإنما ذكر الولدان مبالغة في الحث وتنبيهاً على

---

(١) وفي الأصل «كأن لم يكن بينكم...» بالياء.

(٢) قوله: «فليقاتل في سبيل الله...» قدم الظرف «في سبيل» على الفاعل للاهتمام به. وقوله: «فيقتل أو يغلب» قدم القتل للإيذان بتقدمه في استتباع الأجر (س٢/ ٢٠١).

تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان، وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استنزال الرحمة واستدفاع البلية. وقيل المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد. ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فاستجاب الله دعاءهم بأن يَسَّر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خيرَ وليٍّ وناصرٍ بفتح مكة على نبيه صلى الله عليه وسلم، فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعزّ أهلها، والقريةُ مكة والظالم صفتُها، وتذكيرُه لتذكير ما أُسند إليه فإن اسم الفاعل أو المفعول إذا جرى على غير من هُوَ لهُ كان كالفعل يذكّر ويؤنث على حسب ما عَمِلَ فيه[1].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

(٧٦) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيما يَصِلون به إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان. ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياءَ الشيطان ثم شجعهم بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين ضعيفٌ لا يؤبه به فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه.

(٧٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي عن القتال. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ واشتغلوا بما أمرتم به. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه، وإذا للمفاجأة جوابُ لمّا، وفريق مبتدأ، منهم صفتُه، ويخشون خبرُه، وكخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول، وقع موقع المصدر أو الحال من فاعل يخشون على معنى يخشون الناس مثل أهل خشية الله منه. ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ عطف عليه إن جعلته حالاً وإن جعلته مصدراً فلا، لأن أفْعَل التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الله تعالى أي: وكخشية الله تعالى أو كخشيةٍ أشد خشيةً منه على الفرض، اللهم إلا أن تجعل الخشية ذات خشية كقولهم: جَدّ جِدّه على معنى يخشون الناس خشية مثل خشية الله تعالى، أو خشية أشد خشية من خشية الله. ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ استزادة في مدة الكفّ عن

---

(١) قوله «وما لكم» فيه التفات للمبالغة في التحريض عليه وتأكيد وجوبه.
وقوله «واجعل لنا من لدنك ولياً» قدم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر.
وتقديم اللام على مِنْ للمسارعة إلى إبراز كون المسؤول نافعاً لهم مرغوباً فيه لديهم (س٢/ ٢٠٢).

القتال حذراً عن الموت، ويحتمل أنهم ما تفوهوا به ولكن قالوا في أنفسهم فحكى الله تعالى عنهم. ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ سريع التقضي ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه، أو من آجالكم المقدرة. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ولا يُظلمون لتقدم الغيبة[1].

أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(٧٨) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قرىء بالرفع على حذف الفاء كما في قوله:

من يَفْعَلِ الحسناتِ اللهُ يَشكُرُها

أو على أنه كلام مبتدأ، وأينما متصل بلا تُظلمون. ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ في قصور أو حصون مرتفعة، والبروج في الأصل بيوت على أطراف القصور، من تبرجت المرأةُ إذا ظهرت. وقرىء مَشْيِدَة بكسر الياء وصفاً لها بوصف فاعلها كقولهم: قصيدة شاعِرة، ومَشِيدَة من شاد القصر إذا رفعه. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ كما تقع الحسنة والسيئة على الطاعة والمعصية يقعان على النعمة والبلية، وهما المراد في الآية أي: وإن تصبهم نعمة كخَصْب نسبوها إلى الله سبحانه وتعالى، وإن تصبهم بلية كقحط ضافوها إليك وقالوا إن هي إلا بشؤمك كما قالت اليهود: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها. ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي يبسط ويقبض حسب إرادته. ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ يوعظون به وهو القرآن فإنهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا أن الكل من عند الله سبحانه وتعالى، أو حديثاً ما كبهائمَ لا أفهام لها، أو حادثاً من صروف الزمان فيفتكرون فيه فيعلمون أن القابض والباسط هو الله سبحانه وتعالى[2].

(٧٩) ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ يا إنسان. ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة. ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي تفضلاً منه، فإن كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافىء نعمة الوجود، فكيف يقتضي غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى». قيل ولا أنت؟ قال: «ولا أنا»[3]. ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ من

---

(١) قوله: «الذين قيل لهم» ورد بناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبي ﷺ للإيذان بكون ذلك بأمر الله تعالى. وقوله: «إذا فريق منهم يخشون الناس...» ولعل توجيه التعجيب إلى الكل مع صدور الخشية من بعضهم للإيذان بأنه ما كان ينبغي أن يصدر عن أحدهم ما ينافي حالتهم الأولى (س٢/ ٢٠٣).

(٢) قوله: «أينما تكونوا...» تلوين للخطاب بصرفه عن رسول الله ﷺ إلى المخاطبين اعتناء بإلزامهم إثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته عليه السلام (س٢/ ٢٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ١٢٧ رقم ٥٦٧٣) و(١١/ ٢٩٤ رقم ٦٤٦٣). ومسلم (٤/ ٢١٧٠ رقم ٧٦/ ٢٨١٦) من حديث أبي هريرة. =

بلية. ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي، وهو لا ينافي قوله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فإن الكل منه إيجاداً وإيصالاً غير أن الحسنة إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكةُ يشاكُها وحتى انقطاع شَسَعِ نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر»[1]. والآيتان كما ترى لا حجة فيهما لنا وللمعتزلة. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ حالٌ قصد بها التأكيدُ إن علق الجارّ بالفعل والتعميمُ إن علِّق بها أي رسولاً للناس جميعاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[2] ويجوز نصبه على المصدر كقوله: ولا خَارِجاً مِنْ فِيَّ زُور كَلاَمِ. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك بنصب المعجزات[3].

مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

(٨٠) ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام في الحقيقة مُبلِّغ، والآمر هو الله سبحانه وتعالى. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله». فقال: المنافقون لقد قارف الشرك وهو ينهى عنه، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً. فنزلت[4]. ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعته. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وهو حال من الكاف[5].

= وأخرج البخاري (١١/ ٢٩٤ رقم ٦٤٦٧) ومسلم (٤/ ٢١٧١ رقم ٧٨/ ٢٨١٨) من حديث عائشة نحوه.
وأخرج مسلم (٤/ ٢١٧١ رقم ٧٧/ ٢٨١٧) من حديث جابر نحوه أيضاً.

(١) هذان حديثان:
فإن حديث عائشة أخرجه البخاري (١٠/ ١٠٣ رقم ٥٦٤٠) ومسلم (٤/ ١٩٩٢ رقم: ٤٩/ ٢٥٧٢) عنها مرفوعاً بلفظ: «ما من مصيبة، تُصيبُ المسلم إلاَّ كفَّرَ اللهُ بها عنه، حتى الشوكةِ يُشَاكَهَا».
وأخرج البخاري (١٠/ ١٠٣ رقم ٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (٤/ ١٩٩٢ رقم ٥٢/ ٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «ما يُصيبُ المؤمِنَ من وصبٍ، ولا نصبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حزنٍ، حتى الهمِّ يُهَمُّهُ إلاَّ كُفِّرَ به من سيئاته».
وأخرج الترمذي (٥/ ٣٧٨ رقم ٣٢٥٢) من حديث أبي موسى مرفوعاً بلفظ: «لا يصيبُ عبداً نكبَةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفُو اللهُ عنه أكثر، قال: وقرأ «وما أصابكم من مصيبة... الآية». وفي سنده شيخ من بني مرة مجهول.

(٢) سبأ: «٢٨».

(٣) قوله: «ما أصابك» تلوينٌ للخطاب وتوجيهه لكل واحد من الناس والالتفات فيه لمزيد الاعتناء به والاهتمام برد مقالتهم الباطلة والإيذان بأن مضمونه مبني على حكمة دقيقة حقيقة بأن يتولى بيانها علام الغيوب (س٢/ ٢٠٦).

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٧٥): لم أجده.

(٥) قوله: «من يطع الرسول» عبر عنه بالرسول للإيذان بأن مناط كون طاعته عليه السلام طاعة له تعالى ليس =

(٨١) ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ إذا أمرتهم بأمر. ﴿ طَاعَةٌ ﴾ أي أَمْرُنا طاعة أو منّا طاعة، وأصلها النصب على المصدر ورفعها للدلالة على الثبات. ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ ﴾ خرجوا. ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ أي زوّرتْ خلاف ما قلتَ لها، أو ما قالت لك من القبول وضمان الطاعة، والتبييت إما من البيتوتة لأن الأمور تدبر بالليل، أو من بيْت الشعر، أو البيت المبني لأنه يُسوّيٰ ويدبر. وقرأ أبو عمرو وحمزة بَيَّتْ طائفة بالإدغام لقربهما في المخرج. ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ يثبته في صحائفهم للمجازاة، أو في جملة ما يوحىٰ إليك لتطلع على أسرارهم. ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قلل المبالاة بهم أو تجافَ عنهم. ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ في الأمور كلها سيما في شأنهم. ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

(٨٢) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه، وأصل التدبر النظر في أدبار الشيء. ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار. ﴿ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقةُ بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقةُ العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية. ولعل ذِكْره ههنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحُكْم بل لاختلاف الأحوال في الحِكَم والمصالح.

(٨٣) ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ ﴾ مما يوجب الأمن أو الخوف. ﴿ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ أفشوْه كما كان يفعله قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ، أو أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحي إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أذاعوا به لعدم حزمهم فكانت إذاعتهم مفسدة. والباء مزيدة أو لتضمن الإذاعة معنى التحدث. ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ ﴾ أي ولو ردوا ذلك الخبر. ﴿ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ إلى رأيه ورأي كبار أصحابه البصراء بالأمور، أو الأمراء. ﴿ لَعَلِمَهُ ﴾ لعلم ما أخبروا به على أي وجه يذكر. ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ يستخرجون تدابيره بتجاربهم وأنظارهم. وقيل كانوا يسمعون أراجيف المنافقين فيذيعونها فتعود وبالاً على المسلمين، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم حتى يسمعوه منهم وتعرفوا أنه هل يذاع لعلم ذلك من هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر أي: يستخرجون علمه من جهتهم، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء، يخرج من البئر أول ما يحفر. ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بإرسال الرسول وإنزال الكتاب.

= لخصوصية ذاته بل من حيثية رسالته (س٢/ ٢٠٦).

﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ والكفر والضلال. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا قليلاً منكم تفضل الله عليه بعقل راجح اهتدى به إلى الحق والصواب وعصمه عن متابعة الشيطان كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل، أو إلا اتباعاً قليلاً على الندور.

فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَنْ تثبطوا وتركوك وحدك. ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إلا فعل نفسك لا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم، فتقدم إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد فإن الله ناصرك لا الجنود. روي أنه عليه الصلاة والسلام دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، فكرهه بعضهم. فنزلت. فخرج عليه الصلاة والسلام وما معه إلا سبعون لم يَلْوِ على أحد. وقرىء لا تُكَلَّفْ بالجزم ولا نُكَلِّفْ بالنون على بناء الفاعل أي لا نُكلفك إلا فعل نفسك، لا أنّا لا نكلف أحداً إلا نفسك لقوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال إذ ما عليك في شأنهم إلا التحريض ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني قريشاً، وقد فعل بأن ألقى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا. ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش. ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تعذيباً منهم، وهو تقريع وتهديد لمن لم يتبعه.

(٨٥) ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ راعىٰ بها حق مسلم ودفع بها عنه ضراً أو جلب إليه نفعاً ابتغاء لوجه الله تعالى، ومنها الدعاء لمسلم قال عليه الصلاة والسلام: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له المَلَك ولك مثلُ ذلك»[1]. ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها. ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ يريد بها محرماً. ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب من وزرها مساوٍ لها في القدر. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً من أقات على الشيء إذا قدر قال:

وذِي ضُغْنٍ كَفَفْتُ الضُّغْنَ عَنْهُ ... وكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتا

أو شهيداً حافظاً، واشتقاقه من القُوت فإنه يقوي البدن ويحفظه.

---

(١) أخرج مسلم (٤/ ٢٠٩٤ رقم ٨٦/ ٢٧٣٢) عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ مُسلمٍ يَدْعُو لأخِيه بظهرِ الغيب إلا قال الملكُ، ولك، بمِثْلٍ».
وأخرج مسلم (٤/ ٢٠٩٤ رقم ٨٨/ ٢٧٣٣) والبخاري في الأدب المفرد رقم (٦٢٥) وأحمد في المسند (٥/ ١٩٥).
عن صفوان (وهو ابن عبدالله بنِ صفوان) وكانت تحته الدَّرداءُ. قال: قدمتُ الشام، فأتيتُ أبا الدرداء في منزله فلم أجده. ووجدتُ أم الدرداءِ فقالت: أتريد الحجُّ العامَ؟ فقلت: نعم. قالت: فادعُ الله لنا بخيرٍ. فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوةُ المرءِ المسلمِ لأخيه، بظهر الغيب مستجابةٌ، عِندَ رأسِهِ مَلَكٌ موكَّلٌ. كلما دَعَا لأخيه بخيرٍ، قال الملكُ المُوكَل به: آمين ولك بمثلٍ».

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۗ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ الجمهور على أنه في السلام، ويدل على وجوب الجواب إما بأحسنَ منه وهو أن يزيد عليه ورحمة الله فإن قاله المسلم زاد وبركاته وهي النهاية، وإما برد مثله لما روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليك». فقال الرجل: نقصتني، فأين ما قال الله تعالى، وتلا الآيةَ. فقال صلى الله عليه وسلم: «إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله»[1]. وذلك لاستجماعه أقسام المطالب السالِمَة عن المضار وحصول المنافع وثباتها، ومنه قيل: أوْ للترديد بين أن يحيِّي المسلمُ ببعض التحية وبين أن يحيي بتمامها، وهذا الوجوب على الكفاية، وحيث السلام مشروعٌ فلا يُرَدُّ في الخطبة وقراءة القرآن وفي الحمام وعند قضاء الحاجة ونحوها. والتحيةُ في الأصل مصدر حياك الله على الإخبار من الحياة، ثم استعمل للحكم والدعاء بذلك، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام. وقيل المراد بالتحية العطية وواجب الثواب أو الرد على المتهب، وهو قول قديم للشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسبكم على التحية وغيرها.

(٨٧) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر، أو الله مبتدأ والخبر: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي اللهُ، واللهُ لَيَحْشرنكم من قبوركم إلى يوم القيامة، أو مفضين إليه، أو في يوم القيامة، ولا إله إلا هو اعتراض. والقيام والقيامة كالطِّلاب والطِّلابة وهي قيام الناس من القبور أو للحساب. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو في الجمع فهو حال من اليوم، أو صفة للمصدر ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنكارُ أن يكون أجد أكثر صدقاً منه، فإنه لا يتطرق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله محال.

(٨٨) ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين. ﴿فِئَتَيْنِ﴾ أي فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم، وذلك أن ناساً منهم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو لاجتواء المدينة، فلما

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ج٥/ ١٩٠) وابن أبي حاتم وابن مردويه ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٦٠٥) ـ والطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٦ رقم ٦١١٤) من حديث سلمان وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٣) وقال: «رواه الطبراني وفيه هشام بن لاحق قواه النسائي وترك أحمد حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.
وقال السيوطي: سنده حسن.
وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ٣٥٨ رقم ١٢٠٠٧) من حديث ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٣) وقال: «رواه الطبراني في الكبير، والأوسط وفيه نافع بن هرمز وهو ضعيف جداً» هـ.
قلت: حديث سلمان يتقوى بحديث ابن عباس إلى درجة الحسن لغيره.

خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون في إسلامهم[١]. وقيل نزلت في المتخلفين يوم أحد[٢]، أو في قوم هاجروا ثم رجعوا معتلّين باجتواء المدينة والاشتياق إلى الوطن، أو قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة[٣]. وفئتين حال عامِلُها لكم كقولك: ما لك قائماً. وفي المنافقين حال من فئتين أي متفرقتين فيهم، أو من الضمير أي فما لكم تفترقون فيهم، ومعنى الافتراق مستفاد من فئتين. ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ ردهم إلى حكم الكفرة، أو نكّسهم بأن صيرهم للنار. وأصل الركس ردُّ الشيء مقلوباً. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أن تجعلوه من المهتدين. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى[٤].

وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

(٨٩) ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ تَمَنَّوْا أن تكفروا ككفرهم. ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ فتكونون معهم سواء في الضلال، وهو عطف على تكفرون ولو نُصِب على جواب التمني لجاز. ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا وتتحققوا إيمانهم بهجرة هي لله ورسوله لا لأغراض الدنيا، وسبيل الله ما أمر بسلوكه. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان الظاهر بالهجرة أو عن إظهار الإيمان. ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كسائر الكفرة. ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي جانبوهم رأساً ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة.

(٩٠) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم أي: إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ويفارقون محاربتكم. والقوم هم خزاعة. وقيل: هم الأسلميون فإنه عليه الصلاة والسلام وادَعَ وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن لجأ إليه فله من الجوار مثل مالَه. وقيل بنو بكر بن زيد مناة. ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٩٢) عن أبي سلمة. بلفظ مقارب.
قلت: ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وروايته هذه مخالفة للحديث الذي سيأتي بعد هذا الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٩٦ رقم ١٨٨٤) و(٧/ ٣٥٦ رقم ٤٠٥٠) و(٨/ ٢٥٦ رقم ٤٥٨٩). ومسلم (٤/ ٢١٤٠ رقم ٦/ ٢٧٧٦) من حديث زيد بن ثابت.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٤/ ج٥/ ١٩٣) بسند ضعيف.

(٤) قوله «أتريدون أن تهدوا من أضل الله» وضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر في حيز الصلة.
وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها كأن يقال: أتهدون..؟ للمبالغة في إنكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته فضلاً عن إمكان نفسه (س٢/ ٢١٣).

عطف على الصلة، أي أو الذين جاؤوكم كافّين عن قتالكم وقتال قومهم، استثني من المأمور بأخذهم وقتلهم مَنْ ترك المحاربين فلحق بالمعاهدين، أو أتى الرسول ﷺ وكف عن قتال الفريقين، أو على صفةِ قومٍ وكأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم كافين عن القتال لكم وعليكم. والأول أظهر لقوله، فإن اعتزلوكم». وقرىء بغير العاطف على أنه صفةٌ بعد صفة، أو بيانٌ ليَصِلون، أو استئناف. ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار قد، ويدل عليه أنه قرىء حَصِرةً صدورُهم وحَصِراتٍ صدُورُهم، أو بيان لجاءوكم، وقيل صفة محذوف أي جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم، وهم بنو مدلج جاؤوا رسول الله ﷺ غير مقاتلين. والحصر الضيق والانقباض. ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أي عن أن، أو لأن، أو كراهة أن يقاتلوكم. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن قوّى قلوبهم وبسط صدورهم وأزال الرعب عنهم. ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ ولم يكفوا عنكم. ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم. ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلام والانقياد. ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

(٩١) ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ هم أسد وغطفان، وقيل بنو عبدالدار أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا المسلمين فلما رجعوا كفروا. ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ دُعوا إلى الكفر وإلى قتال المسلمين. ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ عادوا إليها وقُلِبوا فيها أقبح قلب. ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ وينبذوا إليكم العهد. ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم. ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنتم منهم فإن مجرد الكف لا يوجب نفي التعرض. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم، أو تسلطاً ظاهراً حيث أَذِنَّا لكم في قتلهم.

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صح له وليس من شأنه. ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق. ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فإنه على عرضته. ونصبُه على الحال أو المفعول له أي: لا يقتلُه في شيء من الأحوال إلا حالَ الخطأ أو لا يقتلُه لعلة إلا للخطأ، أو على أنه صفةُ مصدر محذوف أي إلا قتلاً خطأ. وقيل: «ما كان» نفيٌ في معنى النهي. والاستثناء منقطع أي لكن إنْ قتله خطأ فجزاؤه ما يُذكر. والخطأ ما لا يضامّه القصد إلى الفعل أو الشخص، أو لا يقصد به زهوق الروح غالباً، أو لا يقصد به محظور كرمي مسلم في

صف الكفار مع الجهل بإسلامه، أو يكون فعلُ غير المكلَّف. وقرىء خَطَاءً بالمد وخَطا كعصا بتخفيف الهمزة. والآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الأم، لقي حارث بن زيد في طريق وكان قد أسلم ولم يشعر به عياشٌ فقتله[١]. ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعليه أوْ فواجبه تحرير رقبة والتحريرُ الإعتاق، والحر كالعتيق للكريم من الشيء ومنه حر الوجه لأكرم موضع منه، سمي به لأن الكَرَم في الأحرار واللؤم في العبيد. والرقبةُ عبر بها عن النَّسَمة كما عبر عنها بالرأس. ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ محكومٍ بإسلامها وإن كانت صغيرة. ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث، لقول ضحاك بن سفيان الكلابي[٢]: كَتَب إليَّ رسول الله ﷺ يأمرني أن أورِّث امرأة أشيم الضبابي من عَقْل زوجها. وهي على العاقِلَة، فإن لم تكن فعلىٰ بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله. ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، سمي العفو عنها صدقة حثاً عليه وتنبيهاً على فضله، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «كل معروف صدقة»[٣]. وهو متعلق بعَلَيْه، أو بمُسَلَّمة، أي تجب الدية عليه أو يسلِّمها إلى أهله إلا حالَ تصدقهم عليه، أو زمانُه فهو في محل النصب على الحال من القاتل أو الأهلِ أو الظرفِ. ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي فإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين، أو في تضاعيفهم ولم يُعْلم إيمانُه فعلىٰ قاتله الكفارة دون الدية لأهله إذ لا وراثة بينه وبينهم ولأنهم محارِبون. ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان من قوم كفرة معاهَدين أو أهل الذمة فحكْمُه حكمُ المسلمين في وجوب الكفارة والدية، ولعله فيما إذا كان المقتول معاهَداً أو كان له وارث مسلم. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة بأنْ لم يملكها ولا ما يُتَوصلُ به إليها. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعليه أو فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين. ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المفعول له أي شَرَع ذلك توبةً، مِنْ تاب الله عليه إذا قَبِلَ توبته، أو على المصدر أي وتاب الله عليكم توبة، أو الحال بحذف مضاف أي فعليه صيام شهرين ذا توبة. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صِفَتُها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بحاله. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما أمر في شأنه.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» ذكره الثعلبي بغير سند، والواحدي ـ ص١٦٩ ـ ١٧٠ ـ عن الكلبي.
ورواه الطبري ـ في جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٠٤) ـ من طريق أسباط عن السدي بتغيير يسير. ـ قلت: سنده ضعيف ـ ولم يسم الحارث. فقال: ومعه رجل من بني عامر. وقال ابن إسحاق في المغازي: حدثني نافع عن ابن عمر عن أبيه قال: «أبعدت أنا وعياش عن أبي ربيعة هشام بن العاص، لما أردنا الهجرة، فأصبحت أنا وعياش. وحبس عنا هشام وفتى. وخرج أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش بالمدينة فكلماه وقالا له: إنَّ أمك نذرت أن لا تمسّ رأسها بمشط، فذكر القصة بطولها» هـ.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٦٦ رقم ٩) والترمذي (٤/ ٢٧ رقم ١٤١٥) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب أن عمر كان يقول: الدية على العاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً حتى أخبرَهُ الضحاك بن سفيان الكِلابي أن رسول الله... فذكره.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح وهو كما قال.

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٤٧ رقم ٦٠٢٢) من حديث جابر.
وأخرجه مسلم (٢/ ٦٩٧ رقم ٥٢/ ١٠٠٥) من حديث حذيفة.

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

(٩٣) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لما فيه من التهديد العظيم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمداً[١]، ولعله أراد به التشديد إذ روي عنه خلافه، والجمهور على أنه مخصوص بمن لم يتب لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾[٢] ونحوه، وهو عندنا إما مخصوص بالمُستحِلِّ له كما ذكره عكرمة[٣] وغيره، ويؤيده أنه نزل في مقيس بن ضبابة[٤] وجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار ولم يَظْهَر قاتلُه، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يدفعوا إليه ديتَه، فدفعوا إليه، ثم حمل على مسلم فقتله ورجع إلى مكةمرتداً[٥]، أو المرادُ بالخلود المكث الطويل فإن الدلائل متظاهِرَة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سافرتم وذهبتم للغزو. ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ فاطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه. وقرأ حمزة والكسائي فتثبتوا في الموضعين هنا وفي الحجرات، من التثبت. ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ لمن حياكم بتحية الإسلام. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة السَّلَمَ بغير الألف أي الاستسلام والانقياد، وفُسر به السلام أيضاً. ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وإنما فعلتَ ذلك متعوِّذاً. وقرىء مُؤْمَناً بالفتح أي مبذولاً له الأمان. ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاذ، وهو حال من الضمير في تقولوا مُشْعِر بما هو الحامل لهم على العجلة وترك التثبت. ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ﴾ لكم. ﴿كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن قتل أمثاله لمالِه. ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي أول ما دخلتم في الإسلام تفوَّهتم بكلمتي الشهادة فحصُنت بها دماؤكم وأموالكم من غير أن يُعْلَمَ مواطأةُ قلوبكم ألسنتكم. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاشتهار بالإيمان والاستقامة في الدين. ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ وافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فَعَل اللهُ بكم، ولا تبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم دخلوا فيه اتقاء وخوفاً، فإن إبقاء ألْفِ كافر أهون عند الله من قتل امرىء مسلم. وتكريره تأكيدٌ لتعظيم الأمر وترتيبِ الحكم على ما ذُكر من حالهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ عالماً به

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٤٩٣ رقم ٤٧٦٤). ومسلم (٤/ ٢٣١٨ رقم ١٩/ ٣٠٢٣) من رواية سعيد بن جبير عنه.

(٢) طه: ٨٢.

(٣) عكرمة ص١/ ١٤٧ أبي السعود.

(٤) قيس بن ضبابة: استثناه رسول الله ﷺ يوم الفتح ممن أمّنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن جبير (روح المعاني ٥/ ١١٥).

وبالغرض منه فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه. روي أن سرية رسول الله ﷺ غزت أهل فِدَك فهربوا وبقي مرداس ثقةً بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقولٍ من الجبل وصعِد، فلما تلاحقوا به وكبَّروا كبّر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم، فقتله أسامة واستاق غنمه[١] وقيل نزلت في المقداد مر برجل في غنيمة فأراد قتله فقال: لا إله إلا الله. فقتله وقال: وَدّ لو فرّ بأهله وماله[٢]. وفيه دليل على صحة إيمان المكْرَه[٣] وأن المجتهد قد يخطىء وأن خطأه مغتفر.

لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

(٩٥) ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ عن الحرب. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضع الحال من القاعدين، أو من الضمير الذي فيه. ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ بالرفع صفة للقاعدون لأنه لم يُقْصد به قوم بأعيانهم، أو بدل منه. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالنصب على الحال أو الاستثناء، وقرىء بالجرّ على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه. وعن زيد بن ثابت أنها نزلت ولم يكن فيها غير أولي الضرر فقال ابن أم مكتوم: وكيف وأنا أعمى؟ فغَشِيَ رسولَ الله ﷺ في مجلسه الوحيُ، فوقعت فخِذُه على فخذي حتى خشيت أن ترضّها ثم سري عنه فقال: «اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[٤] أي لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة، وفائدتُه تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد في الجهاد رفعاً لرتبته وأَنَفة عن انحطاط منزلته. ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٨٩): أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قلت: سنده هالك.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٢٤) من رواية أسباط عن السدي بتغيير يسير.
وقد أخرج البخاري (٧/ ٥١٧ رقم ٤٢٦٩) و(١٢/ ١٩١ رقم ٦٨٧٢) ومسلم (١/ ٩٦ ـ ٩٧ رقم ١٥٨، ٩٦/ ١٥٩) كلاهما من طريق أبي طبيان عن أسامة بن زيد، قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: «لا إله إلا الله فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه» إلى آخر الحديث.

(٢) أخرجه البزار (كشف الأستار ٣/ ٤٥) وقال الهيثمي: إسناده جيد (المجمع ٧/ ٨ ـ ٩).

(٣) قوله (وفيه دليل على صحة إيمان المكره) ليس على إطلاقه فهو يعد بظاهره مسلماً وأمره إلى الله تعالى، إذ لا يعرف حقيقة الإيمان إلا الله تعالى.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٤٥ رقم ٢٨٣٢) و(٨/ ٢٥٩ رقم ٤٥٩٢) من رواية مروان بن الحكم عن زيد بن ثابت نحوه.
وأخرجه أبو داود (٣/ ٢٤ رقم ٢٥٠٧) والحاكم (٢/ ٨١ ـ ٨٢) من رواية خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت بنحوه أيضاً.
قلت: وقد أخرج البخاري (٦/ ٤٥ رقم ٢٨٣١) ومسلم (٣/ ١٥٠٨ رقم ١٤١/ ١٨٩٨) من حديث البراء بن عازب أيضاً نحوه. =

﴿وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ جملة موضّحة لما نُفي الاستواء فيه، والقاعدون على التقييد السابق، ودرجةً نُصِبَ بنزع الخافض أي بدرجة، أو على المصدر لأنه تضمن معنى التفضيل ووقع موقع المَرَّة منه، أو الحال بمعنى ذوي درجة. ﴿وَكُلًّا﴾ من القاعدين والمجاهدين. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب. ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نُصِب على المصدر لأن فَضل بمعنى أجر، أو المفعول الثاني له لتضمنه معنى الإعطاء كأنه قيل: وأعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً.

(٩٦) ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ كل واحد منها بدل من أجراً، ويجوز أن ينتصب درجات على المصدر كقولك: ضربته أسواطاً، وأجراً على الحال عنها تقدمت عليها لأنها نكرة، ومغفرة ورحمة على المصدر بإضمار فعليهما. كرّر تفضيل المجاهدين وبالغ فيه إجمالاً وتفصيلاً تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه وقيل: الأول ما خولهم في الدنيا من الغنيمة والظفر وجميل الذكر، والثاني ما جعل لهم في الآخرة. وقيل المراد بالدرجة الأولى ارتفاع منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى، وبالدرجات منازلهم في الجنة. وقيل القاعدون الأول هم الأضرّاء والقاعدون الثاني هم الذين أُذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم. وقيل المجاهدون الأولون من جاهد الكفار والآخرون من جاهد نفسه وعليه قوله عليه الصلاة والسلام «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1]. ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما عسىٰ أن يفرط منهم. ﴿رَّحِيمًا﴾ بما وعد لهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

(٩٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يحتمل الماضي والمضارع، وقرىء توفتْهم وتُوَفّاهم على مضارع وَفيْت بمعنى أن الله يوفي الملائكةَ أنفسَهم فيتوفونها أي يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة فإنها نزلت في أناس من مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة واجبة[2]. ﴿قَالُوا۟﴾ أي الملائكة توبيخاً لهم. ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اعتذروا مما وُبِّخوا به بضعفهم وعجزهم عن الهجرة، أو عن إظهار الدين وإعلاء كلمة الله. ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الملائكة تكذيباً لهم أو تبكيتاً ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٣/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤) في ترجمة واصل بن حمزة، وأخرجه البيهقي في الزهد (رقم ٣٧٤ ص١٩٨) بلفظ: أنه عليه السلام قال: «قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد هواه». وفي سنده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، وفيه غيره.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٠٥، ٢٧٢) بلفظ «إن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين فكثروا سواد المشركين فيأتي السهم برماية فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله عز وجل فيهم «إن الذين توفَّاهُم الملائكة» الآية.

قلت: وقد أخرج هذا الحديث البخاري (٨/ ٢٦٢ رقم ٤٥٩٦) و(١٣/ ٣٧ رقم ٧٠٨٥).

﴿فَنُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ إلى قطر آخر كما فعل المهاجرون إلى المدينة والحبشة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾ لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار. وهو خبر إنّ، والفاء فيه لتضمن الاسم معنى الشرط، وقالوا فيمَ كنتم حالٌ من الملائكة بإضمار قد، أو الخبر قالوا والعائد محذوف أي قالوا لهم، وهو جملة معطوفة على الجملة التي قبلها مستنتجة منها. ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ مصيرهم نار جهنم. وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام[1].

إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم في الموصول وضميرُه والإشارةُ إليه. وذِكْر الولد إن أريد به المماليك فظاهر، وإن أريد به الصبيان فللمبالغة في الأمر والإشعارِ بأنهم على صدد وجوب الهجرة، فإنهم إذا بَلغوا وقَدِروا على الهجرة فلا محيص لهم عنها وأن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنت. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ صفة للمستضعفين إذ لا توقيت فيه، أو حال منه أو من المستكن فيه. واستطاعة الحيلة وُجدانُ أسباب الهجرة وما تتوقف عليه، واهتداء السبيل معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

(٩٩) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ ذُكِر بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصد الفرصة ويعلق بها قلبه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

(١٠٠) ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ متحوّلاً من الرَّغام وهو التراب. وقيل طريق يُرَاغِم قومه بسلوكه أي يفارقُهم على رغم أنوفهم وهو أيضاً من الرَّغام[2]. ﴿وَسَعَةًۚ﴾ في الرزق وإظهار الدين. ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ وقرىء يُدْرِكُه بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ثم هو يدركه، وبالنصب على إضمار أَنْ كقوله:

سأَتْرُكُ مَنْزِلِي بِبَنِي تَمِيمٍ ... وأَلْحَقُ بِالحِجَازِ فَأَسْتَرِيحا

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الوقوع والوجوب متقاربان، والمعنى: ثبت أجره عند الله

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت من رواية عباد بن منصور الناجي عن الحسن مرسلاً ـ كما في الكافي الشافِ رقم (٣٩٢) ـ قلت: مراسيل الحسن لا تقبل.

(٢) قوله «يجد في الأرض مراغماً..» عبر عنه بذلك لما فيه من الإشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجرين الخير والنعمة إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجرهم (س٢/ ٢٢٤).

تعالى ثبوت الأمر الواجب. والآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة[١] حَمَلَه بنوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله فقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعُك على ما بايع عليه رسولُك صلى الله عليه وسلم فمات[٢].

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

(١٠١) ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بتنصيف ركَعاتها. ونفيُ الحرج فيه يدل على جوازه دون وجوبه، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام أتمّ في السفر[٣]، وأن عائشة رضي الله تعالى عنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله قَصَرْت وأتممت وصمت وأفطرت. فقال: «أحسنت يا عائشة»[٤]، وأوجبه أبو حنيفة لقول عمر رضي الله تعالى عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم[٥]، ولقول عائشة رضي الله

---

(١) جندب بن ضمرة هو: ولعله ضمرة بن جندب.
رجح ابن حجر أن اسمه جندع بن ضمرة (الإصابة ١/ ٢٥١ رقم ١٢٣٢) الإصابة القسم الأول من حرف الضاد ٢/ ٢١٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٧٢ رقم ١١٧٠٩) وأبو يعلى (٥/ ٨١ رقم ٣٥٢/ ٢٦٧٩).
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.
وأخرجه الطبري في جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٤٠) عن ابن عباس بإسناد صحيح نحوه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٤٥٢) والبزار (١/ ٣٢٩ رقم ٦٨٢) والدارقطني (٢/ ١٨٩ رقم ٤٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٤١) كلهم عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها.
ونقل البيهقي عن الدارقطني أن هذا إسناد صحيح. وقال: لهذا شاهد من حديث دلهم بن صالح، والمغيرة بن زياد، وطلحة بن عمرو وكلهم ضعيف.
وقال ابن قيم الجوزية في (زاد المعاد): (١/ ٤٦٥): «إن النبي ﷺ كان يقصُر دائماً، فركب بعض الرواة من الحدثين حديثاً، وقال: فكان رسول الله ﷺ يقصُر وتتم هي، فغلط بعضُ الرواة، فقال: كان يقصُرُ ويُتِمُّ، أي: «هو» هـ.

(٤) أخرجه النسائي (٣/ ١٢٢ رقم ١٤٥٦) والدارقطني (٢/ ١٨٨ رقم ٤٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٤٢).
قال البيهقي: الأول متصل وهو إسناد حسن وعبدالرحمن قد أدرك عائشة فدخل عليها وهو مراهق.
وحكم الدارقطني على الحديث بالاتصال. لكن شيخ الإسلام ابن تيمية حكم عليه بالانقطاع، بين عبدالرحمن بن أسود وعائشة. وضَعَّف الحديث بسبب هذا الانقطاع، وبدليل أن النبي ﷺ لم يعتمر في رمضان، كما هو مستفاض، ولم تكن عائشة تخالف النبي ﷺ، وهو يصلي بأصحابه مقصراً [مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٤٤ ـ ١٥٥)].
وحكم الألباني في الإرواء (٣/ ٨ ـ ٩) عليه بالنكارة.
وخلاصة القول أن حديث عائشة منكر والله أعلم.

(٥) أخرجه النسائي (٣/ ١١١ رقم ١٤٢٠) و(٣/ ١١٨ رقم ١٤٤٠) و(٣/ ١٨٣ رقم ١٥٦٦) وابن ماجة (١/ ٣٣٨ رقم ١٠٦٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٠) من طرق عنه.
وهو حديث صحيح. انظر الإرواء (٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

تعالى عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقِرت في السفر وزيدت في الحضر[١]. فظاهرهما يخالف الآية الكريمة، فإن صحّا فالأول مؤوّل بأنه كالتامّ في الصحة والإجزاء، والثاني لا ينفي جواز الزيادة فلا حاجة إلى تأويل الآية: بأنهم أَلِفُوا الأربع فكانوا مظنةً لأن يخطر ببالهم أن ركعتي السفر قَصْر ونقصان، فسمي الإتيان بهما قصراً على ظنهم، ونفي الجناح فيه لتطيب به نفوسُهم. وأقل سفر تُقصر فيه أربعة بُرُد عندنا وستة عند أبي حنيفة[٢]. قرىء تُقْصِرُوا من أقصر بمعنى قصر. ومِنَ الصلاة صفةُ محذوفٍ أي: شيئاً من الصلاة عند سيبويه ومفعولُ تَقْصُروا بزيادة من عند الأخفش. ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ شريطةٌ باعتبار الغالب في ذلك الوقت، ولذلك لم يُعْتبر مفهومها كما لم يُعتبر في قوله تعالى ﴿فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ وقد تظاهرت السنن على جوازه أيضاً في حال الأمن. وقرىء مِنَ الصلاة أنْ يفتنكم بغير إنْ خِفتم، بمعنى كراهةَ أن يفتنكم وهو القتال والتعرّض بما يُكْرَه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥٦٩ رقم ١٠٩٠) ومسلم (١/ ٤٧٨ رقم ٦٨٥) كلاهما من طريق ابن عيينه عن الزهري عن عروة عنها.
وفيه: قال الزهري: قلت لعروة: فما بال عائشة كانت تتم في السفر؟
قال: تأولت كما تأول عثمان.
وقال الحافظ: والمنقول أن سبب إتمام عثمان أنه كان يرى القصر مختصاً بمن كان شاخصاً سائراً، وأما من أقام في مكان في أثناء سفره، فله حكم المقيم فيتم والحجة فيه ما رواه أحمد (٤/ ٩٤) بإسناد حسن عن عباد بن عبدالله بن الزبير قال: لما قدم علينا معاوية حاجاً. صلى بنا الظهر ركعتين بمكة، ثم انصرف إلى دار الندوة، فدخل عليه مروان وعمرو بن عثمان، فقالا: لقد عبت أمر ابن عمك لأنه كان قد أتم الصلاة، قال: وكان عثمان حين أتم الصلاة إذا قدم مكة صلى بها الظهر والعصر والعشاء أربعاً أربعاً، ثم إذا خرج إلى منى وعرفة قصر الصلاة، فإذا فرغ من الحج وأقام بمنى، أتم الصلاة.

(٢) ما وقع الخلاف فيه في وجوب القصر وعدمه بين الأحناف والشافعية لكل فريق منهم دليله من صحيح السنة.
أما مسافة القصر وهي أربعة بُرُد عند الشافعية وستة عند أبي حنيفة. ـ والبريد مسافة اثني عشر ميلاً ـ فقد صح من السنة والآثار خلافه، وأصح حديث وأصرحه في الباب حديث أنس حيث قال: كان النبي ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو فراسخ يصلي ركعتين. ـ رواه مسلم ـ وغيره.
وقد قال عنه ابن حجر في فتح الباري: (وهو أصح حديث ورد في بيان ذلك وأصرحه).
ولا داعي لرد الحديث باضطرابه، وخاصة إذا أخذنا بالأكثر وهو ثلاثة فراسخ.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

(١٠٢) ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ تعلَّقَ بمفهومه من خَصَّ صلاة الخوف بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لفضل الجماعة، وعامةُ الفقهاء على أنه تعالى عَلَّم الرسول صلى الله عليه وسلم كيفيتها ليأتم به الأئمة بعده فإنهم نوّاب عنه فيكون حضورُهم كحضوره. ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين فلْتقُم إحداهما معك يصلون وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو. ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي المصلون حزماً. وقيل الضمير للطائفة الأخرى، وذِكْر الطائفة الأولى يدل عليهم[1]. ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ يعني المصلين. ﴿فَلْيَكُونُوا۟﴾ أي غير المصلين. ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ يحرسونكم يعني النبي صلى الله عليه وسلم ومن يصلي معه، فغلّب المخاطَب على الغائب. ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟﴾ لاشتغالهم بالحراسة. ﴿فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ ظاهرُه يدل على أن الإمام يصلي مرتين بكل طائفة مرة كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخل، وإن أريد به أَنْ يصلي بكلٍّ ركعةً إن كانت الصلاة ركعتين، فكيفيتُه: أن يصلي بالأولى ركعة وينتظر قائماً حتى يتموا صلاتهم منفردين ويذهبوا إلى وجه العدو، وتأتي الأخرى فيتم بهم الركعة الثانية. ثم ينتظر قاعداً حتى يتموا صلاتهم ويسلموا بهم كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: يصلي بالأولى ركعة ثم تذهب هذه وتقف بإزاء العدو وتأتي الأخرى فتصلي معه ركعة، ويتم صلاته ثم تعود إلى وجه العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة الثانية بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تعود وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها. ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جَعَل الحِذْر آلةً يَتحصّن بها المغازي فجمع بينه وبين الأسلحة في وجوب الأخذ، ونظيرُه قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[2] ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ تمنوْا أن ينالوا منكم غِرَّةً في صلاتكم فيشدون عليكم شدة واحدة، وهو بيان ما لأجله أُمِروا بأخذ الحذر والسلاح. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ رخصة لهم في وَضْعها إذا ثقل عليهم أخذها بسبب مطر أو مرض، وهذا مما يؤيد أن الأمر بالأخذ للوجوب دون الاستحباب. ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر كي لا يهجم عليهم العدو. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم لتقوى قلوبُهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة

---

(١) أي لا يضعوها ولا يلقوها، وإنما عبر عن ذلك بالأخذ للإيذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء (س٢/ ٢٢٧).

(٢) الحشر: «٩».

عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله سبحانه وتعالى.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

(١٠٣) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أديتم وفرغتم منها. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فداوموا على الذكر في جميع الأحوال، أو إذا أردتم أداء الصلاة واشتد الخوف فأدّوها كيفما أمكن، قياماً مسايفين ومقارعين، وقعوداً مُرامِين وعلى جنوبكم مُثْخَنين. ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعدِّلوا واحفظوا أركانها وشرائطها وائتوا بها تامة. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ فرضاً محدود الأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال. وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة وأنها واجبةُ الأداء حال المسايَفَة والاضطراب في المعركة، وتعليلٌ للأمر بالإيتاء بها كيفما أمكن. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلي المحارب حتى يطمئنّ.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ ولا تضعفوا. ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ في طلب الكفار بالقتال. ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ إلزام لهم وتقريع على التواني فيه، بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختص بهم، وهم يرجون من الله بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثروات ما لا يرجو عدوهم، فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها. وقرىء أن تكونوا بالفتح بمعنى ولا تَهِنوا لأنْ تكونوا تألمون، ويكون قوله فإنهم يألمون علة للنهي عن الوهْن لأجله. والآية نزلت في بدر الصغرى. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وضمائركم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر وينهى.

(١٠٥) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جِرابِ دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه وخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتُمِسَت الدرعُ عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها ومالَه بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتُهي إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال دفعها إليّ طعمة وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلِقُوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرىء اليهودي، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يفعل[١] ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ بما عرّفك الله وأوحى به إليك، وليس من الرؤية بمعنى العلم وإلا لاستدعى ثلاثة مفاعيل. ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ أي لأجلهم والذب عنهم ﴿خَصِيمًا﴾ للبُرَاء.

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ مما همت به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن يستغفر.

(١٠٧) ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يخونونها فإن وبال خيانتهم يعود عليها، أو جَعَل المعصيةَ خيانة لها كما جُعِلت ظلماً عليها، والضمير لطعمةَ وأمثاله أو له ولقومه فإنهم شاركوه في الإثم حيث شهدوا على براءته وخاصموا عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ مبالِغاً في الخيانة مصراً عليها. ﴿أَثِيمًا﴾ منهمكاً فيها. روي: أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بها ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله.

(١٠٨) ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يستترون منهم حياء وخوفاً. ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه وهو أحق بأن يستحيا ويخاف منه. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ لا يخفى عليه سرهم فلا طريق معه إلا ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه. ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبرون ويزورون. ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾. لا يفوت عنه شيء.

(١٠٩) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ وخبر[٢]. ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً أو صلة عند من يجعله موصولاً. ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ محامياً يحميهم من عذاب الله.

---

(١) ذكره الواحدي في الأسباب (ص١٨١) عن المفسرين.
وأخرجه الطبري (٤/ج٥/٢٦٧) من رواية سعيد عن قتادة، قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في شأن طُعمه بن أُبيرق فذكر القصة.
وأخرج الترمذي (٥/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ رقم ٣٠٣٦) والحاكم (٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨) والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٩ ـ ١٢ رقم ١٥) وفي إسناده لين بسبب عمر بن قتادة [التقريب: ٢/ ٦٢] وأما ابن إسحاق فقد صرح بالتحديث عند الحاكم ويشهد لها:
ما أخرجه الطبري (٤/ج٥/٢٦٨) عن قتادة وابن زيد مرسلاً بمعناه مختصراً وإسناده صحيح.
وظفر: بطن من الأنصار وبطن في بني سليم. ١.هـ ـ قاموس.

(٢) وفيه تلوين للخطاب وتوجيهه لهم بطريق الالتفات إيذاناً بأن تعديد جنايتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع (س٢/ ٢٣٠).

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

(١١٠) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ قبيحاً يسوء به غيره. ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بما يختص به ولا يتعداه. وقيل المراد بالسوء ما دون الشرك، وبالظلم الشرك. وقيل: الصغيرة والكبيرة. ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة. ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا﴾ لذنوبه. ﴿رَّحِيمًا﴾ متفضلاً عليه، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار.

(١١١) ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ﴾ فلا يتعداه وبالُه كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾[1]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته.

(١١٢) ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ صغيرة أو مالا عمد فيه. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد. ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ كما رمىٰ طعمة زيداً، ووَحّدَ الضمير لمكان أوْ[2] ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بسبب رمي البريء وتبرئة النفس الخاطئة، ولذلك سوى بينهما وإن كان مُقْتَرَف أحدهما دون مقترف الآخر[3].

(١١٣) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإعلام ما هُمْ عليه بالوحي، والضميرُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من بني ظفر. ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال، والجملة جواب لولا، وليس القصد فيه إلى نفي همِّهم بل إلى نفي تأثيره فيه. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ﴾ لأنه ما أَزَلَّك عن الحق وعاد وَبَالُه عليهم. ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى عصمك، وما خطر ببالك كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر لا ميلاً في الحكم، ومن شيء في موضع النصب على المصدر أي شيء من الضرر ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ﴾ من خفيات الأمور، أو من أمور الدين والأحكام. ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة.

(١١٤) ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ ۚ﴾ من متناجيهم كقوله تعالى ﴿وَإِذْ هُمْ

---

(١) الإسراء: «٧».

(٢) وتذكيره «به» لتغليب الإثم على الخطيئة، كأنه قيل ثم يرم بأحدهما (س٢/ ٢٣٠).

(٣) وقوله «احتمل بهتاناً» آثر الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الإيذان بانعكاس تقديره مع ما فيه من الإشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر.
واكتفى ببيان عظم البهتان بالتنكير التفخيمي، كأنه قيل: بهتاناً لا يقادر قدره (س٢/ ٢٣١).

نَجْوَىٰهُمْ﴾[١]. أو من تناجيهم فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ على حذف مضاف أي إلا نجوى من أمر، أو على الانقطاع بمعنىٰ ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير. والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل، وفُسِّر ههنا بالقرض وإغاثةِ الملهوف وصدقةِ التطوع وسائر ما فسر به. ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أو إصلاح ذات البين[٢]. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ بَنىٰ الكلام على الأمر ورَتَّب الجزاء على الفعل ليدل على أنه لما دخل الآمِر في زمرة الخيِّرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمدة والغرض هو الفعل واعتبارُ الأمر من حيث إنه وُصْلة إليه، وقيّد الفعل بأن يكون لطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى لأن الأعمال بالنيات وأن كل من فعل خيراً رياءً وسمعة لم يستحق به من الله أجراً. ووَصَفَ الأجر بالعِظَم تنبيهاً على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا. وقرأ حمزة وأبو عمرو يؤتيه بالياء.

وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

(١١٥) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ يخالفه، من الشَّق فإن كلا من المتخالفين في شق غير شق الآخر[٣]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات. ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل. ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، ونُخَلِّ بينه وبين ما اختاره. ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ وندخله فيها. وقرىء بفتح النون من صلاهُ. ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم. والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك إما لحرمة كل واحد منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد، وكذا الثالث لأن المشاقة محرمة ضمّ إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً كان اتباع سبيلهم واجباً، لأن ترك اتباع سبيلهم ممن عرف سبيلَهم اتباعُ غير سبيلهم، وقد استقصيت الكلام فيه في (مرصاد الأفهام إلى مبادىء الأحكام).

(١١٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ كرره للتأكيد، أو لقصة طعمة. وقيل جاء شيخ إلى رسول الله ﷺ وقال: إني شيخ منهك في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ

---

(١) الإسراء: «٤٧».

(٢) وآثر هذه الثلاثة «الصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس» لأنه رأس عمل الخير المتعدي للناس ولأنه يحتاج للإسرار في أكثر الأحيان.

(٣) التعرض لعنوان الرسالة لإظهار
كمال شناعتهم فيما اجترأوا عليه من المشاقة والمخالفة، وتعليل الحكم الآتي بذلك (س٢/ ٢٣٢).

عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه ولياً ولم أوقِع المعاصي جرأة وما توهمت طرفة عين أني أُعْجِز الله هرباً، وإني لنادم تائب، فما ترى حالي عند الله سبحانه وتعالى؟. فنزلت[1] ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة، وإنما ذكر في الآية الأولى فقد افترىٰ لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب ومنشأ شركهم كان نوع افتراء وهو دعوى التبني على الله سبحانه وتعالى.

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾

(١١٧) ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ يعني اللات والعزى ومناة ونحوها، كان لكل حي صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان وذلك إما لتأنيث أسمائها كما قال:

ومَـا ذَكَـرٌ فَـإِنْ يَسْمَـنْ فَـأُنْثَـى شَـدِيـد الأزمِ لَيْـسَ لَـهُ ضُـرُوسُ

فَإنه عَنىٰ القِراد وهو ما كان صغيراً سمي قراداً فإذا كَبُر سمي حَلَمَة، أو لأنها كانت جمادات والجمادات تؤنث من حيث إنها ضاهت الإناث لا نفعاً لها، ولعله سبحانه وتعالى ذكرها بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون ما يسمونه إناثاً لأنه ينفعل ولا يَفْعل، ومن حق المعبود أن يكون فاعلاً غيرَ منفعل ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفَرط حماقتهم. وقيل المراد الملائكة لقولهم: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى، وهو جمع أنثى كرباب ورُبىٰ. وقرىء أنثى على التوحيد، وأُنُثًا على أنه جمع أَنِيث كخُبُث وخبيث، ووُثُنًا بالتخفيف وَوُثُنًا بالتثقيل وهو جمع وَثَن كأسد وأُسُد وأُسْد وأَثَنًا وأُثُنًا بهما على قلب الواو لضمها همزة. ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ وإن يعبدون بعبادتها. ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها، فكأن طاعته في ذلك عبادة له. والمارد والمريد الذي لا يعلق بخير، وأصل التركيب للملابسة، ومنه صرح ممرّد وغلام أمرد وشجرة مرداء للتي تناثر ورقها.

(١١٨) ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ صفة ثانية للشيطان. ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ عطف عليه أي شيطاناً مَرِيداً جامعاً بين لعنة الله، وهذا القول الدال على فرط عداوته للناس.

وقد برهن سبحانه وتعالى أولاً على أن الشرك ضلال في الغاية على سبيل التعليل بأن ما يشركون به ينفعل ولا يفعل فعلاً اختيارياً، وذلك ينافي الألوهية غاية المنافاة، فإن الإله ينبغي أن يكون فاعلاً غير منفعل، ثم استدل عليه بأنه عبادةُ الشيطان وهي أفظع الضلال لثلاثة أوجه: الأول: أنه مَرِيد منهمك في الضلال لا يعلق بشيء من الخير والهدى، فتكون طاعته ضلالاً بعيداً عن الهدى. والثاني: أنه ملعون لضلاله فلا تَسْتَجْلِبُ مطاوعته سوى الضلال واللعن. والثالث: أنه في غاية العداوة والسعي

---

(١) ذكره الثعلبي من رواية الضحاك عن ابن عباس (الفتح السماوي ص٥٢٦) وقال ابن حجر: وهو منقطع (الكافي الشافِ ص٤٩ رقم ٤٠٣) وذلك أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

في إهلاكهم، وموالاةُ مَنْ هذا شأنه غاية الضلال فضلاً عن عبادته. والمفروض المقطوع أي نصيباً قُدِّر لي وفُرِض، مِنْ قولهم فرض له في العطاء.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

(١١٩) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق. ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأمانيَّ الباطلة كطول الحياة وأنْ لا بعث ولا عقاب. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يَشُقُّونها لتحريم ما أحل الله، وهي عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسوائب، وإشارة إلى تحريم ما أَحَلّ ونَقْصِ كل ما خُلِقَ كاملاً بالفعل أو القوة. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ عن وجهه وصورته أو صفته، ويندرجُ فيه ما قيل من فَقْء عين الحامي[1] وخِصاء العبيد والوشم والوشْر[2] واللواط والسَّحْق ونحو ذلك وعبادةِ الشمس والقمرِ وتغييرِ فطرة الله تعالى التي هي الإسلام واستعمال الجوارح والقُوى فيما لا يعود على النفس كمالاً ولا يوجِب لها من الله سبحانه وتعالى زُلفى، وعموم اللفظ يمنع الخِصاء مطلقاً لكن الفقهاءَ خَصُّوا في خصاء البهائم للحاجة. والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقاً أو أتاه فعلاً. ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على ما أَمَر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالىٰ إلى طاعته. ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ إذا ضيع رأس ماله وبدل مكانه من الجنة بمكان من النار.

(١٢٠) ﴿يَعِدُهُمْ﴾ ما لا ينجزه. ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة أو بلسان أوليائه.

(١٢١) ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدِلاً ومهرباً من حاص يحيص إذا عدل. وعنها حالٌ منه، وليس صلةً له لأنه اسم مكان، وإن جُعِلَ مصدراً فلا يَعْمل أيضاً فيما قبله.

(١٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾. أي وَعَدَه وعداً وحَقَّ ذلك حقاً، فالأول مؤكِّد لنفسه لأن مضمون الجملة الإسمية التي قبله

---

(١) الحامي هو الفحل الذي حمى ظهره عن أن يُرْكَب، وقيل فيه أنه إذا لُقح ولد ولده فيقولون حمى ظهره فيهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى، وقيل: الذي يولد من ظهره عشرة أبطن... (روح المعاني ٧/ ٤٣).

(٢) الوشم هو: غرز الإبرة في الجلد ثم يذر فوقها ما يجعلها تخضرّ. والوشر هو: أن تحدِّد المرأة أنيابها وترققها (المصباح المنير مادة وشم ووشر).

وَعْد، والثاني مؤكِّد لغيره. ويجوز أن يُنصب الموصول بفعل يفسره ما بعده، ووعْدُ الله بقوله سندخلهم، لأنه بمعنى نعِدُهم إدخالهم، وحقاً على أنه حال من المصدر. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ جملة مؤكدة بليغة. والمقصود من الآية معارضةُ المواعيد الشيطانية الكاذبة لقُرَنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، والمبالغةُ في توكيده ترغيباً للعباد في تحصيله.

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

(١٢٣) ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب يُنال بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما يُنال بالإيمان والعمل الصالح. وقيل: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. روي أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهلُ الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أوْلىٰ بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة. فنزلت[١]. وقيل[٢]: الخطاب مع المشركين ويدل عليه تقدُّم ذكرهم، أي: ليس الأمر بأماني المشركين، وهو قولهم: لا جنة ولا نار وقولُهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسنَ حالاً، ولا أماني أهل الكتاب وهو قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وقولُهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. ثم قرر ذلك وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ عاجلاً أو آجلاً، لما روي أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فمن ينجو مع هذا يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أما تحزنُ» أما تمرضُ، أما يصيبك ا للأواء؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: «هو ذاك»[٣]. ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا يجد لنفسه إذا جاوز

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٢٨٨) من طرق عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق مرسلاً، ورجاله ثقات.
وأخرج نحوه عن قتادة، بسند رجاله ثقات.

(٢) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٢٩٠) من طرق عن مجاهد قال في قوله «ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب» قال: قالت قريش: لن نُبعث ولن نُعذب. ورجال إحدى الطرق ثقات.
وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: جاء حُيي بن أخطب إلى المشركين فقالوا: يا حيي إنكم أصحاب كتب فنحن خير أم محمد وأصحابه؟ فقال: أنتم خير منه فذلك قوله: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» إلى قوله: «ومن يلعنِ اللهُ فلن تجدَ له نصيراً». ثم قال للمشركين «ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب»...

(٣) وهو حديث حسن بشواهده.
أخرجه أحمد (١/ ١١) وابن حبان (ص٤٢٩ رقم ١٧٣٤ و١٧٣٥) موارد. والحاكم (٣/ ٧٤ ـ ٧٥) وأبو يعلى (١/ ٩٧ رقم ٩٨) والطبري في جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٩٤).
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. قلت: ضعيف لانقطاعه، فإن أبا بكر بن أبي زهير لم يدرك أبا بكر الصديق (انظر المراسيل لابن أبي حاتم ص٢٥٨ رقم ٩٦٠).
وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٣ رقم ٢٥٧٤) والترمذي (٥/ ٢٤٧ رقم ٣٠٣٨) عن =

موالاة الله ونصرته من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

(١٢٤) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعضَها أو شيئاً منها فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها. ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ في موضع الحال من المستكن في يعمل، ومِنْ للبيان، أو من الصالحات أيْ كائنةً من ذكر أو أنثى، ومِنْ للابتداء. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حالٌ، شَرْط اقترانِ العمل بها في استدعاء الثواب المذكور وتنبيهاً على أنه لا اعتداد به دونه فيه. ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بنقص شيء من الثواب، وإذا لم يُنْقَص ثوابُ المطيع فبالحريّ أن لا يُزَاد عقاب العاصي، لأن المُجَازي أرحمُ الراحمين، ولذلك اقتصر على ذكره عقيب الثواب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر يدخلون الجنة هنا، وفي غافر ومريم بضم الياء وفتح الخاء، والباقون بفتح الياء وضم الخاء.

(١٢٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله لا يعرِف لها رباً سواه. وقيل بَذَل وجهه له في السجود. وفي هذا الاستفهام تنبيه على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ آت بالحسنات تارك للسيئات. ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الموافِقَة لدين الإسلام المتفق على صحتها ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن سائر الأديان. وهو حالٌ من المتبع أو من الملة أو إبراهيم. ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكْرَه ولم يُضْمر تفخيماً لشأنه وتنصيصاً على أنه الممدوح. والخُلَّة من الخِلال، فإنه وُدٌّ تخلل النفسَ وخالطها. وقيل من الخَلَل فإن كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر، أو من الخل وهو الطريق في الرمل فإنهما يترافقان في الطريقة، أو من الخَلَّة بمعنى الخَصْلة فإنهما يتوافقان في الخصال. والجملة استئناف جيء بها للترغيب في اتباع ملته صلى الله عليه وسلم والإيذانِ بأنه نهاية في الحسن وغايةُ كمال البشر. روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمةٍ أصابت الناس يمتار منه (١)، فقال

ابن عيينة عن ابن محيض عن محمد بن قيس بن مخرمة عنه قال: لما نزل «من يعمل سوءاً يجز به» شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «قاربوا وسددوا، وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها أو النكبة ينكبها».

ورجاله كلهم ثقات إلا ابن محيض وهو عبدالرحمن بن محيض قال الحافظ: مقبول [التقريب ٢/ ٥٩].

لكن قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. قاله نظراً لشواهده.

وله شاهد من حديث عائشة مرفوعاً أخرجه ابن حبان (رقم ١٧٣٦ ـ موارد) ورجاله ثقات وله شاهد من حديث عائشة موقوفاً عليها أخرجه الحاكم (٢/ ٣٠٨) ورجاله رجال الشيخين إلا أبا المهلب فهو من رجال مسلم فقط.

والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(١) يمتار منه: أي يطلب منه الميرة وهي الطعام.

خليله: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لفعلت، ولكن يريد للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس، فاجتاز غلمانُه ببطحاءَ ليِّنة فملؤوا منها الغرائر حياءً من الناس، فلما أخبَروا إبراهيم ساءه الخبر فغلبتْه عيناه فنام، وقامت سارةُ إلى غرارة منها فأخرجت حوارى واختبزت، فاستيقظ إبراهيم عليه السلام فاشتمّ رائحة الخبز فقال: من أين لكم هذا؟ فقالت: من خليلك المِصري، فقال: بل هو من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله خليلاً[1].

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خلقاً وملكاً يختار منهما من يشاء وما يشاء. وقيل هو متصل بذكْر العمال مقرِّر لوجوب طاعته على أهل السموات والأرض وكمال قدرته على مجازاتهم على الأعمال. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدرة فكان عالماً بأعمالهم فيجازيهم على خيرها وشرها.

(١٢٧) ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ﴾ في ميراثهن، إذ سبب نزوله أن عيينة بن حصن[2] أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أُخبِرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنا نورِّث مَنْ يشهد القتال ويجوز الغنيمة. فقال عليه الصلاة والسلام: «كذلك أُمِرت»[3] ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن. والإفتاء تبيين المبهَم. ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ عطف على اسم الله تعالى أو ضميره المستكنّ في يفتيكم، وساغ للفصل، فيكون الإفتاء مسنَداً إلى الله سبحانه وتعالى وإلى ما في القرآن من قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ ونحوه، والفِعْلُ الواحد يُنسب إلى فاعلين مختلفين باعتبارَيْن مختلفين، ونظيرُه أغْناني زيدٌ وعطاؤه، أو.....

(١) أخرجه ابن جرير (٥/ ١٩١) وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٥٣٠).
قال ابن كثير: (وفي صحة هذا ووقوعه نظر، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب، وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

(٢) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري من المؤلفة، شهد حنيناً والطائف وكان أحمق مطاعاً دخل على النبي ﷺ بغير إذن وأساء الأدب فصبر النبي ﷺ على جفوته وأعرابيته وقد ارتد وآمن بطليحة ثم أسر فمن عليه الصديق ثم لم يزل مظهراً للإسلام وكان بتبعه عشرة آلاف فتاة، كان من الجرارة واسمه حذيفة ولقبه عيينة لشتر عينه.
انظر (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي (١/ ٤٣٢ رقم ٤٦٧٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٠٨) وابن جرير (٥/ ٢٩٩) وغيرهما، وفي سنده مقال، إلا أن له طرقاً كثيرة مرفوعة ومرسلة (الفتح السماوي ص٥٣١).

استئناف[١] معترض لتعظيم المتلو عليهم على أن ما يُتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبرُه، والمراد به اللوح المحفوظ، ويجوزُ أن يُنصب على معنى ويبينُ لكم ما يُملَى عليكم، أو يُخْفَضَ على القَسَم كأنه قيل: وأُقْسِم بما يتلى عليكم في الكتاب، ولا يجوز عطفه على المجرور في فيهن لاختلالِه لفظاً ومعنىً ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ صلة يُتلى إنْ عُطِفَ الموصول على ما قبله، أي يُتلى عليكم في شأنهن، وإلا فبدلٌ مِنْ فيهن، أو صلةٌ أخرى ليفتيكم على معنى اللهُ يفتيكم فيهن بسبب يَتامى النساء كما تقول: كلمْتُك اليوم في زيد، وهذه الإضافة بمعنى مِنْ لأنها إضافة الشيء إلى جنسه. وقرىء ييامىٰ بياءين على أنه أيامىٰ فقُلبت همزته ياء. ﴿ٱلَّتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي فُرِضَ لهنّ من الميراث. ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ في أن تنكحوهن أو عَنْ أن تنكحوهن، فإن أولياء اليتامى كانوا يرغبون فيهن إن كنّ جميلات ويأكلون ما لَهن، وإلا كانوا يعضُلونهن طمعاً في ميراثهن، والواو تحتَمِل الحال والعطف. وليس فيه دليل على جواز تزويج اليتيمة، إذ لا يلزم من الرغبة في نكاحها جَرَيان العقد في صغرها. ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ عطف على يتامىٰ النساء والعرب ما كانوا يورثونهم كما لا يورثون النساء. ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أيضاً عطفٌ عليه أي ويفتيكم، أو ما يُتلى في أن تقوموا، هذا إذا جَعلتَ في يتامى صلةً لأحدهما، فإنْ جعلتَه بدلاً فالوجه نصبُهما عطفاً على موضع فيهن، ويجوز أن يُنصبَ وأن تقوموا بإضمار فعْلٍ أي: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للقُوّام بالنَّصَفة في شأنهم. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ وعد لمن آثر الخير في ذلك.

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

(١٢٨) ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا﴾ توقَّعتْ منه لما ظهر لها من المَخَايل. وامرأة فاعل فعل يفسره الظاهر. ﴿نُشُوزًا﴾ تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها. ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ بأن يُقِلَّ مجالستَها ومحادثتها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أن يتصالحا بأن تَحُطّ له بعضَ المهر، أو القَسَم، أو تهب له شيئاً تستميلُه به[٢]. وقرأ الكوفيون أن يُصْلحا من أصلح بين المتنازعين، وعلى هذا جاز أن ينتصب صُلحاً على المفعول به، وبينهما ظرف أو حال منه، أو على المصدر كما في القراءة الأولى، والمفعول بينهما أو هو محذوف. وقرىء يَصَّلحا من أصلح بمعنى اصطلح. ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفِرقة أو سوءِ العشرة أو من الخصومة، ولا يجوز أن يراد به التفضيل بل بيان أنه من الخيور كما أن الخصومة من الشرور، وهو اعتراض وكذا قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ ولذلك اغتُفر عدم مجانستهما، والأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتمهيد العذر في المماكسة. ومعنى إحضار

(١) قوله (أو استئناف) معطوف على قوله: (عطف على اسم الله تعالى)...

(٢) هذا المعنى على قراءة من قرأ «يَصّالحا» وقد كتبت في الأصل كذلك.

الأنفس الشحَّ جعلها حاضرة له مطبوعة عليه، فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها والتقصير في حقها ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي إذا كرهها أو أحب غيرها. ﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾ في العُشْرة. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والخصومة. ﴿خَبِيرًا﴾ عليماً به وبالغرض فيه فيجازيكم عليه، أقام كونه عالماً بأعمالهم مقام إثابته إياهم عليها الذي هو في الحقيقة جواب الشرط إقامةً للسبب مقام المسبّب[1].

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

(١٢٩) ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل البتة وهو متعذر، فلذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْسم بين نسائه فيعدل ويقول: «هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[2] ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي على تحري ذلك وبالغتم فيه. ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ بترك المستطاع والجور على المرغوب عنها، فإن ما لا يُدْرك كله لا يترك جله. ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذاتَ بعل ولا مطلقة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من كانت له

---

(١) قوله: «فلا جناح عليهما» تعرض لنفي الجناح عنهما ـ مع أنه ليس من جانبها الأخذ الذي هو المظنة للجناح ـ لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطي والآخذ (س٢/ ٢٣٩).
وفي قوله: «وإن تحسنوا وتتقوا..» خطاب للأزواج بطريق الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ولفظ التقوى، وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة مالا يخفى (س٢/ ٢٣٩).

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٤٤) وأبو داود (٢/ ٦٠١ رقم ٢١٣٤) والترمذي (٣/ ٤٤٦ رقم ١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٣ رقم ٣٩٤٣) وابن ماجة (١/ ٦٣٤ رقم ١٩٧١) وابن حبان (ص٣١٧ رقم ١٣٠٥ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٧) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وصححه الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط في جامع الأصول (١١/ ٥١٤) لكن المحققين من الأئمة قد أعلوه. فقال النسائي عقبه: «أرسله حماد بن زيد».
وقال الترمذي: «هكذا رواه غير واحدٍ عن حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبدالله بن يزيد، عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقسِمُ ورواه حماد بن زيد وغير واحدٍ عن أيوب، عن أبي قلابة، مرسلاً، أن النبي ﷺ كان يقسم.
وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة» هـ.
وأورده ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤٢٥) من طريق حماد بن سلمة ثم قال: «فسمعت أبا زرعة يقول: لا أعلم أحداً تابع حماداً على هذا» وأيده ابن أبي حاتم بقوله: «قلت: روى ابن عليّه عن أيوب عن أبي قلابة. قال: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه. الحديث مرسلاً».
وقال الألباني في الإرواء (٧/ ٨٢): «قلت: وصله ابن أبي شيبة. فقد اتفق حماد بن زيد وإسماعيل بن عليه على إرساله. وكل منهما احفظ وأضبط من حماد ابن سلمة، فروايتهما أرجح عند المخالفة، لا سيما إذا اجتمعا عليها. لكن الشطر الأول منه له طريق أخرى عن عائشة بلفظ «كان رسول الله ﷺ: لا يفضل بعضنا على بعض في القسم...» الحديث رقم (٢٠٢٠) وإن إسناده حسن» هـ.

امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»[1]. ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ فيم يستقبل من الزمان. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

(١٣٠) ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ وقرىء وإن يتفارقا أي وإن يفارق كل منهما صاحبه. ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ منهما عن الآخر ببدل أو سَلْوة. ﴿مِّن سَعَتِهِ﴾ غناه وقدرته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ مقتدراً متقناً في أفعاله وأحكامه.

(١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيه على كمال سعته وقدرته. ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ومَنْ قبلهم، والكتاب للجنس، ومِنْ متعلقة بوصينا أو بأوتوا، ومساق الآية لتأكيد الأمر بالإخلاص. ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطف على الذين. ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن اتقوا الله، ويجوز أن تكون أَنْ مفسِّرة لأن التوصية في معنى القول. ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ على إرادة القول أي: وقلنا لهم ولكم أن تكفروا فإن الله مالك الملك كله لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم، وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجته، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم. ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته حُمِد وإن لم يُحمد.

(١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكره ثالثاً للدلالة على كونه غنياً حميداً، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ راجع إلى قوله يغن الله كلاً من سعته، فإنَّه توكَّل بكفايتهما، وما بينهما تقرير لذلك.

(١٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يفنكم، ومفعول يشأ محذوف دل عليه الجواب. ﴿وَيَأْتِ

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٤٧، ٤٧١) وأبو داود (٢/ ٦٠٠ رقم ٢١٣٣) والنسائي (٧/ ٦٣) والترمذي (٣/ ٤٤٧ رقم ١١٤١) وابن ماجة (١/ ٦٣٣ رقم ١٩٦٩) والدارمي (٢/ ١٤٣) وابن حبان (ص٣١٧ رقم ١٣٠٧ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وكذا ابن دقيق العيد، واستغربه الترمذي مع تصحيحه. وقال عبدالحق: هو خبر ثابت، لكن عليه أن هماماً تفرد به، وأن هماماً رواه عن قتادة فقال: كان يقول ـ كما في تلخيص الجبير لابن حجر (٣/ ٢٠١ رقم ١٥٧٩) ـ. قلت: قوله عبدالحق لا يعتبر علة قادحة. وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٧/ ٨٠ ـ ٨١ رقم ٢٠١٧).

﴿بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ ويوجد قوماً آخرين أو خلقاً آخرين مكان الإنس. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ من الإعدام والإيجاد. ﴿قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة لا يعجزه مراد، وهذا أيضاً تقرير لغِناه وقدرته وتهديد لمن كفر به وخالف أمره. وقيل: هو خطاب لمن عادى رسول الله ﷺ من العرب، ومعناه معنى قوله تعالى ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[1] لما روي: أنه لما نزلت ضرب رسول الله ﷺ يده على ظهر سلمان وقال: «إنهم قوم هذا»[2].

مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

(١٣٤) ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يجاهد للغنيمة. ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ فما له يطلب أخَسَّهما فَلْيطلبهما كمن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، أو لِيطلب الأشرف منهما، فإن من جاهد خالصاً لله سبحانه وتعالى لم تخطئه الغنيمة وله في الآخرة ما هي في جَنْبه كلا شيء، أو فعند الله ثواب الدارين فيعطي كلاً ما يريده كقوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ﴾[3] الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ عالماً بالأغراض فيجازي كلاً بحسب قصده.

(١٣٥) ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته. ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ بالحق تقيمون شهاداتكم لوجه الله سبحانه وتعالى. وهو خبر ثان أو حال. ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تُقروا عليها، لأن الشهادة بيان للحق سواء كان عليه أو على غيره.

---

(١) التوبة: «٣٩».

(٢) ذكره الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٣١٩) تعليقاً فقال: حُدِّثتُ عن عبدالعزيز بن محمد ـ وهو الدراوردي ـ عن سهيل به.
وقد وصله الطبري في تفسير سورة محمد (١٣/ج٢٦/ ٦٦ ـ ٦٧) عند قوله تعالى: «وإن تتولَّوا يستبدل قوماً غيركم» [الآية: ٣٨]، لكنه من طريق العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه زيادة: «ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجاله من الفرس».
وقد أخرجه البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٨) من طريق عبدالعزيز الدراوردي أيضاً لكنه عنه عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة، في تفسير قوله تعالى: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» [الجمعة: ٣].
وحديث الدراوردي هذا أخرجه البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧) متابعة بعد حديث سليمان بن بلال، عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة بلفظ «لو كان الإيمان عند الثريا لنالَهُ رجال ـ أو رجلٌ ـ من هؤلاء».
وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٧٢ رقم ٢٣١) من طريق الدراوردي عن ثوربه أصولاً دون متابعة.
وقد استوعب أبو نعيم طرقه في أول تاريخ أصبهان.

(٣) الشورى: «٢٠».

﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ولو على والديكم وأقاربكم. ﴿ إِن يَكُنْ ﴾ أي المشهود عليه أو كل واحد منه ومن المشهود له. ﴿ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، أو لا تجوروا فيها ميلاً أو ترحُّماً. ﴿ فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ بالغني والفقير وبالنظر لهما فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما صلاحاً لما شَرَعها، وهو علة الجواب أقيمت مقامه، والضمير في بهما راجع لما دل عليه المذكور، وهو جنسا الغني والفقير لا إليه وإلاَّ لَوُحِّدَ، ويشهد عليه أنه قرىء فالله أولى بهم. ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ لأن تعدلوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا مِنْ العدل. ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا ﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل. قرأه نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو وعاصم والكسائي بإسكان اللام وبعدها واوان الأولى مضمومة والثانية ساكنة، وقرأ حمزة وابن عامر وإن تَلُوا بمعنى وإن وليتم إقامة الشهادة فأديتموها. ﴿ أَوْ تُعْرِضُوا ﴾ عن أدائها. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾

(١٣٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ خطاب للمسلمين، أو للمنافقين، أو لمؤمني أهل الكتاب إذ روي: أن ابن سلام وأصحابه قالوا يا رسول الله: إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه. فنزلت[1]. ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه، أو آمنوا به بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم، أو آمنوا إيماناً عاماً يعم الكتب والرسل، فإن الإيمان بالبعض كَلاَ إيمان. والكتابُ الأول القرآن والثاني الجنس. وقرأ نافع والكوفيون: الذي نَزَّل والذي أَنْزَلَ بفتح النون والهمزة والزاي، والباقون بضم النون والهمزة وكسر الزاي. ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك. ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه[2].

(١٣٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يعني اليهود آمنوا بموسىٰ عليه الصلاة والسلام. ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ حين عبدوا العجل. ﴿ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ﴾ بعد عوده إليهم. ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ بعيسىٰ عليه الصلاة والسلام. ﴿ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم، أو قوماً تكرر منهم الارتداد ثم أصروا على الكفر وازدادوا تمادياً في

---

١) أخرجه الثعلبي عن ابن عباس ـ كما في الدر المنثور (٢/٧١٦) ـ بسند هالك وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٨٦) عن الكلبي وهو هالك.

٢) قوله «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» فقد زاد الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لأن بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلاً.
وجمع الكتب والرسل لأن الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل.
وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لأنهم وسائط بين الله عز وجل وبين الرسل في إنزال الكتب (س٢/٢٤٣).

الغي. ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبَهم ضربت بالكفر وبصائرَهم عميت عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يُقْبل منهم ولم يغفر لهم. وخبر كان في أمثال ذلك محذوف تعلق به اللام مثل: لم يكن الله مريداً ليغفر لهم.

بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

(١٣٨) ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدل على أن الآية في المنافقين وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين. ووَضْعُ «بَشِّر» مكان أنذر تهكُّم بهم.

(١٣٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ في محل النصب أو الرفع على الذم، بمعنى أريد الذين أو هم الذين. ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أيتعززون بموالاتهم. ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يتعزز إلا من أعزه الله، وقد كتب العزة لأوليائه فقال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ولا يُؤْبَهُ بعزة غيرهم بالإضافة إليهم..

(١٤٠) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآن. وقرأ عاصم نَزَّل وقرأ الباقون نُزِّلَ على البناء للمفعول والقائم مقام فاعله. ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهي المخففة، والمعنى أنه إذا سمعتم[2]. ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ حالان من الآيات جيء بهما لتقييد النهي عن المجالسة في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ الذي هو جزاء الشرط بما إذا كان من يجالسه هازئاً معانداً غير مرجو، ويؤيده الغاية. وهذا تذكار لما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[3] الآية. والضميرُ في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله يُكفَر بها ويُستهزأ بها. ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ في الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو الكفر إن رضيتم بذلك، أو لأن الذين يُقاعِدون الخائضين في القرآن من الأحبار كانوا منافقين، ويدل عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يعني القاعدين والمقعود معهم[4]. وإذا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يُذْكَر بعدها الفعلُ. وإفراد مثْلَهم لأنه كالمصدر، أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع. وقرىء بالفتح على البناء لإضافته إلى مبني، كقوله تعالى ﴿مِثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[5].

---

(١) المنافقون: «٨».

(٢) إضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتشريفها وإبانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها (س٢/ ٢٤٥).

(٣) الأنعام: «٦٨».

(٤) قدم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين (س٢/ ٢٤٥).

(٥) الذاريات: «٢٣».

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم. وهو بدل من الذين يتخذون، أو صفة للمنافقين والكافرين، أو ذم مرفوع أو منصوب، أو مبتدأ خبرُه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مظاهرين لكم فأسْهِموا لنا ممّا غنمتم. ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الحرب فإنها سِجَال ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا للكفرة: ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبْقَينا عليكم. والاستحواذ: الاستيلاء، وكان القياس أن يقال استحاذ يستحيذ استحاذة فجاءت على الأصل. ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبُهم وتوانينا في مظاهرتهم فَأَشْرِكونا فيما أصبتم. وإنما سمي ظفر المسلمين فتحاً وظفر الكافرين نصيباً لخسة حظهم، فإنه مقصور على أمر دنيوي سريع الزوال. ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ حينئذ أو في الدنيا. والمراد بالسبيل الحجة، واحتج به أصحابنا على فساد شراء الكافر المسلم، والحنفيةُ على حصول البينونة بنفس الارتداد، وهو ضعيف لأنه لا ينفي أن يكون إذا عاد إلى الإيمان قبل مضي العدة.

(١٤٢) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ سبق الكلام فيه أول سورة البقرة. ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين كالمكره على الفعل. وقرىء كَسَالَىٰ بالفتح وهما جَمْعَا كسلان. ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ لِيَخَالُوهم مؤمنين. والمراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل كَنِعمَ وناعَمَ، أو للمقابلة فإن المرائي يُري مَنْ يرائيه عمله وهو يريه استحسانه. ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه وهو أقل أحواله، أو لأن ذكرهم باللسان قليل بالإضافة إلى الذكر بالقلب. وقيل: المراد بالذكر الصلاة. وقيل الذِّكْر فيها فإنهم لا يذكرون فيها غير التكبير والتسليم.

(١٤٣) ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ حال من واوِ يراؤون كقوله: ولا يذكرون أي يراؤونهم غير ذاكرين مذبذبين أو واوِ يذكرون، أو منصوب على الذم، والمعنى: مرددين بين الإيمان والكفر، مِنَ الذبذبة وهي جعل الشيء مضطرباً، وأصله الذي بمعنى الطرد. وقرىء بكسر الذال بمعنى يُذَبذِبُون قلوبَهم أو دينهم أو يتذبذبون كقولهم: صلصل بمعنى تصلصل، وقرىء بالدال غير المعجمة بمعنى أخذوا تارة في دبّة وتارة في دبّة وهي الطريقة[1]. ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أو لا صائرين إلى أحدِ الفريقين بالكلية. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ إلى الحق والصواب، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2].

---

(١) أي قرىء «مُذَبْذِبين» وقرىء «مذَبْدِبين».

(٢) النور: «٤٠».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

(١٤٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ فإنه صنيع المنافقين ودَيْدَنهم فلا تتشبهوا بهم. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة بينة فإن موالاتهم دليل على النفاق، أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه.

(١٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة إذ ضموا إلى الكفر استهزاءً بالإسلام وخداعاً للمسلمين، وأما قوله عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[1] ونحوه فمن باب التشبيه والتغليظ. وإنما سميت طبقاتُها السبع دَرَكَات لأنها متدارَكة متتابعة بعضها فوق بعض. وقرأ الكوفيون بسكون الراء[2] وهي لغة كالسَّطْر والسَّطَر، والتحريكُ أوْجَه لأنه يجمع على أدراك[3]. ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم منه.

(١٤٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن النفاق. ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به أو تمسكوا بدينه. ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يريدون بطاعتهم إلا وجهه سبحانه وتعالى. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ ومِن عدادهم في الدارين. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيساهمونهم فيه.

(١٤٧) ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ﴾ أيتشفّىٰ به غيظاً أو يدفع به ضرراً أو يستجلب به نفعاً وهو الغني المتعالي عن النفع والضر، وإنما يعاقِبُ المصرَّ بكفره لأن إصراره عليه كسوء مزاج يؤدي إلى مرض فإذا أزاله بالإيمان والشكر ونَقَّى نفسَه عنه تخلص من تبعته. وإنما قَدَّم الشكرَ لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتىٰ يعرف المنعم فيؤمن به. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ مثيباً يقبل اليسير ويعطي الجزيل. ﴿عَلِيمًا﴾ بحق شكركم وإيمانكم.

(١٤٨) ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾ إلا جَهْر من ظُلِم بالدعاء على الظالم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٧٨ ـ ٧٩ رقم ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠/ ٥٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) وقرأ الباقون بنصب الراء، أي «الدَّرَك».

(٣) وما ذكره البيضاوي من ترجيح القراءة بفتح الراء غير مسلَّم، فكلاهما صحيح سنداً ولغة أما سنداً فكلاهما من المتواتر، وأما لغة فقد قال أبو حيان: (ولا يلزم ما ذكره من التأنيث، لأن الجنس المميزَ مفرده بهاء التأنيث يؤنث في لغة الحجاز ويذكّر في لغة تميم ونجد. فعلى هذا يجوز تذكير الدرك وتأنيثه).

والتظلم منه. روي أن رجلاً ضافَ قوماً فلم يُطعِموه فاشتكاهم فعوتب عليه. فنزلت[١]. وقرىء مَنْ ظَلَمَ على البناء للفاعل، فيكون الاستثناء منقطعاً أي ولكن الظالم يفعل مالا يحبه الله. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لكلام المظلوم. ﴿عَلِيمًا﴾ بالظالم.

إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

(١٤٩) ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ طاعةً وبراً. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أو تفعلوه سراً. ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ لكم المؤاخذة عليه، وهو المقصودُ. وذِكْرُ إبداء الخير وإخفائه تشبيب له[٢]، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام فأنتم أوْلى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو بعدما رَخَّص له في الانتظار حملاً على مكارم الأخلاق.

(١٥٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله. ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة: إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلّغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال كما قال الله تعالى ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[٣].

(١٥١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر لا عبرة بإيمانهم هذا. ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره، أو صفة لمصدر الكافرين بمعنى: هم الذين كفروا كفراً حقاً أي يقيناً محققاً. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[٤].

(١٥٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أضدادهم ومقابلوهم. وإنما دَخَل «بَيْن» على «أحد» وهو يقتضي متعدداً لعمومه من حيث إنه وقع في سياق النفي. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ الموعودة لهم. وتصديرُه بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٢ـ٣) وعبدالرزاق في المصنف (١٤٨/ ٦٢٩) عن مجاهد مرسلاً، وروي من طريقين الأول فيه سنيد والثاني فيه المثنى بن الصباح وهما ضعيفان، وفيه علة إرسال مجاهد.

(٢) قوله: (تشبيب له) الضمير يعود على العفو. ومعنى ذلك: التمهيد والتوطئة له، ولعله من قولهم: شبّبَ الشاعر بفلانة إذا قال فيها الغزل وعَرَّض بحبها (انظر المصباح المنير مادة شبب).

(٣) يونس: «٣٢».

(٤) قوله «للكافرين» وضع المظهر موضع المضمر ذماً لهم وتذكيراً لوصفهم (س٢/ ٢٤٩).

وقرأ حفص عن عاصم وقالون عن يعقوب بالياء على تلوين الخطاب[١]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما فرط منهم. ﴿رَّحِيمًا﴾ عليهم بتضعيف حسناتهم.

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

(١٥٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ نزلت في أحبار اليهود قالوا: إن كنت صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جُمْلةً كما أتى به موسى عليه السلام[٢]، وقيل: كتاباً محرراً بخط سماوي على ألواح كما كانت التوراة، أو كتاباً نعاينه حين ينزل، أو كتاباً إلينا بأعياننا بأنك رسول الله. ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن استكبرتَ ما سألوه منك فقد سألوا موسى عليه السلام أكبر منه، وهذا السؤال وإن كان من آبائهم أُسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم، والمعنى أنّ عِرْقهم راسخ في ذلك وأن ما اقترحوه عليك ليس بأول جهالاتهم وخيالاتهم. ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً أي أرِناه نره جهرة، أو مجاهرين معاينين له. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ نار جاءت من قبل السماء فأهلكتهم. ﴿بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ بسبب ظلمهم، وهو تعنتهم وسؤالُهم ما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ هذه الجناية الثانية التي اقترفها أيضاً أوائلهم، والبينات: المعجزات، ولا يجوز حملها على التوراة إذ لم تأتهم بعد. ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ تسلطاً ظاهراً عليهم حين أمرهم بأن يَقتلوا أنفسهم توبة عن اتخاذهم.

(١٥٤) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليَقْبَلوه. ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ على لسان موسى والطور مطل عليهم. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ على لسان داود عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يراد على لسان موسى حين ظلل الجبل عليهم، فإنه شرع السبت ولكن كان الاعتداء فيه والمسخ به في زمن داود عليه الصلاة والسلام. وقرأ ورش عن نافع لا تَعَدُّوا على أن أصله لا تتعدوا فأدغمت التاء في الدال، وقرأ قالون بإخفاء حركة العين وتشديد الدال والنص عنه بالإسكان. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ على ذلك وهو قولهم سمعنا وأطعنا.

---

(١) وقرأ الباقون «نؤتيهم» بالنون.
وقد كتب الأصل كذلك، أي بالنون.

(٢) أخرجه ابن جرير (٦/٧) عن السدي وأخرج نحوه عن قتادة بسند صحيح ٦/٨).

(١٥٥) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي فخالَفوا ونَقَضوا ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم، وما مزيدة للتأكيد، والباء متعلقة بالفعل المحذوف، ويجوز أن تتعلق بحَرَّمنا عليهم طيبات فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطْفٌ عليه إلى قوله فبظلم لا بما دل عليه قوله ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ مِثْلَ لا يؤمنون لأنه رد لقولهم قلوبنا غلف فيكون مِنْ صلة وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل في جارّه. ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالقرآن، أو بما جاء في كتابهم. ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أوعية للعلوم، أو في أكنّة مما تدعونا إليه. ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فجَعَلها محجوبة عن العلم، أو خَذَلها ومنعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر في المواعظ. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبدالله بن سلام، أو إيماناً قليلاً إذ لا عبرة به لنقصانه.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾

(١٥٦) ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام، وهو معطوف على «بكفرهم» لأنه من أسباب الطبع، أو على قوله «فبما نقضهم» ويجوز أن يعطف مجموع هذا وما عطف عليه على مجموع ما قبله، ويكون تكرير ذكر الكفر إيذاناً بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ يعني نسبتها إلى الزنا.

(١٥٧) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي بزعمه ويحتمل أنهم قالوه استهزاء، ونظيره «أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون» وأن يكون استئنافاً من الله سبحانه وتعالى بمدحه، أو وضعا للذكْر الحسن مكان ذكرهم القبيح. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ روي أن رهطاً من اليهود سَبُوه وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه يرفعُه إلى السماء، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يُلقَى عليه شَبَهِي فيُقْتل ويُصْلب ويدخل الجنة؟ فقام رجل منهم فألقى الله عليه شَبَهَه فقُتِل وصُلِب. وقيل: كان رجلاً ينافقه فخرج ليدل عليه، فألقى الله عليه شَبَهَه فأُخِذ وصُلب وقتل. وقيل: دخل طيطانوس اليهودي بيتاً كان هو فيه فلم يجده، وألقى الله عليه شَبَهه فلما خرج ظُنَّ أنه عيسى فأخذ وصلب، وأمثال ذلك من الخوارق التي لا تستبعد في زمان النبوة، وإنما ذمهم الله سبحانه وتعالى بما دل عليه الكلام من جراءتهم على الله سبحانه وتعالى، وقصدهم قتل نبيه المؤيَّد بالمعجزات الباهرة، وتبجحهم به لا بقولهم هذا على حسب حسبانهم. وشُبِّه مُسْنَدٌ إلى الجارّ والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول، أو في الأمر على قول من قال: لم يُقْتل أحد ولكن أُرجِف بقتله فشاع بين الناس، أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على أن ثَمَّ قتيلاً. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام، فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود: إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً، وتردد آخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، وقال من سمع

منه أن الله سبحانه وتعالى يرفعني إلى السماء: أنه رفع إلى السماء، وقال قوم: صُلِبَ الناسوت وصَعَد اللاهوت. ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ لفي تردد، والشك كما يطلق على مالا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد، وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكده بقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ استثناء منقطع أي لكنهم يتبعون الظن، ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره فيتصل الاستثناء. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قتلاً يقيناً كما زعموه بقولهم إنا قتلنا المسيح، أو متيقنين. وقيل معناه ما علموه يقيناً كقول الشاعر:

كَذَاكَ تُخْبِرُ عَنْهَا العَالِمَاتُ بِهَا ... وَقَدْ قَتَلْتُ بِعِلْمِي ذِلْكُمُ يَقِينَاً[1]

من قولهم قتلت الشيء عِلْماً ونحرته علماً إذا أردت أن تبالغ في علمك.

بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾

(١٥٨) ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب على ما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لعيسى عليه الصلاة والسلام.

(١٥٩) ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، فقوله ليؤمنن به جملة قَسَمِية وقعت صفة لأحد ويعود إليه الضمير الثاني، والأول لعيسى عليه الصلاة والسلام. والمعنى ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت ولو حين أن تُزْهَق روحه ولا ينفعه إيمانه، ويؤيد ذلك أنه قرىء إلا لَيُؤْمِنُنّ به قبل موتهم بضم النون لأن أحداً في معنى الجمع، وهذا كالوعيد لهم والتحريض على معاجلة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ولم ينفعهم إيمانهم. وقيل الضميران لعيسى عليه أفضل الصلاة والسلام، والمعنى: أنه إذا نزل من السماء آمن به أهل الملل جميعاً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام، وتقع الأَمَنَةُ حتى ترتع الأُسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يُتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه[2]، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

(١٦٠) ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي فبأي ظلم منهم. ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يعني ما ذكره

---

(١) من البسيط واليقين محركة. اليقين فهو من باب طرب.

(٢) أخرجه ابن حبان (رقم ١٩٠١ و١٩٠٣ ـ موارد) وأبو داود (٤/ ٤٩٨ رقم ٤٣٢٤) وأحمد في المسند (٢/ ٤٠٦، ٤٣٧) والحاكم (٢/ ٥٩٥) والطبري (٤/ ج٦/ ٢٢). عن أبي هريرة.
قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح. قلت وهو حديث صحيح.

في قوله: «وعلى الذين هادوا حرمنا» ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ ناساً كثيراً، أو صدّاً كثيراً[1].

وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

(١٦١) ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا، وفيه دليل على دلالة النهي على التحريم. ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دون من تاب وآمن.

(١٦٢) ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منهم، أو من المهاجرين والأنصار. ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ خبر المبتدأ ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نصب على المدح إن جعل يؤمنون الخبر لأولئك، أو عطف على ما أنزل إليك، والمراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي: يؤمنون بالكتب والأنبياء. وقرىء بالرفع عطفاً على الراسخون، أو على الضمير في يؤمنون، أو على أنه مبتدأ والخبرُ أولئك سنؤتيهم. ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ رفعه لأحد الأوجه المذكورة. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على جمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح وقرأ حمزة سيؤتيهم بالياء.

(١٦٣) ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جواب لأهل الكتاب عن اقتراحهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن أمره في الوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم وعيسى آخرهم، والباقين أشرف الأنبياء ومشاهيرهم. ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وقرأ حمزة زُبُوراً بالضم وهو جمع زُبُر، بمعنى مزبور.

(١٦٤) ﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمر دل عليه أوحينا إليك كأرسلنا، أو فسّره: ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذه السورة أو اليوم. ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وهو

---

(١) قوله: «فبظلم من الذين هادوا» لعل ذكرهم بهذا العنوان للإيذان بكمال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعدما هادوا أي تابوا مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخع النفوس (س٢/ ٢٥٣).

منتهى مراتب الوحي خص به موسى من بينهم، وقد فضل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم.

رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾

(١٦٥) ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا، أو على الحال ويكون رسلاً موطِّئاً لما بعده كقولك مررت بزيد رجلاً صالحاً. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فيقولوا لولا أرسَلْت إلينا رسولاً فينبهنا ويعلمنا مالم نكن نعلم، وفيه تنبيه على أن بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الناس ضرورة لقصور الكل عن إدراك جزئيات المصالح والأكثر عن إدراك كلياتها. واللام متعلقة بأرسلنا أو بقوله مبشرين ومنذرين، وحجةً اسم كان وخبرُه للناس أو على الله والآخر حال، ولا يجوز تعلقه بحجة لأنه مصدر، وبعدَ ظرف لها أو صفة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب فيما يريد. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من أمر النبوة وخص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز.

(١٦٦) ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ استدراك عن مفهوم ما قبله فكأنه لما تعنتوا عليه بسؤال كتابٍ ينزل عليهم من السماء، واحتج عليهم بقوله إنا أوحينا إليك، قال: إنهم لا يشهدون ولكنْ اللهُ يشهد، أو أنهم أنكروه ولكن الله يُثْبتُه ويقرره. ﴿بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن المعجز الدال على نبوتك. روي أنه لما نزل «إنا أوحينا إليك» قالوا «ما نشهد لك» فنزلت[1]. ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أنزله متلبساً بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نَظْم يعجز عنه كل بليغ، أو بحالِ مَنْ يستعد للنبوة ويستأهل نزول الكتاب عليه، أو بعلمه الذي يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم، فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث حال من المفعول، والجملة كالتفسير لما قبلها ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أيضاً بنبوتك. وفيه تنبيه على أنهم يودون أن يعلموا صحة دعوىٰ النبوة على وجه يستغني عن النظر والتأمل، وهذا النوع من خواص الملك ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك سوى الفكر والنظر، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره.

(١٦٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقلاع عنه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٦/ ٣١) من طريقين عن ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. ومحمد بن أبي محمد مجهول.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

(١٦٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ محمداً عليه الصلاة والسلام بإنكار نبوته، أو الناسَ بصدهم عما فيه صلاحهم وخلاصهم، أو بأعم من ذلك. والآية تدل على أن الكفار مخاطبون بالفروع إذ المراد بهم الجامعون بين الكفر والظلم. ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

(١٦٩) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لِجَرْيِ حكمه السابق ووعده المحتوم على أن من مات على كفره فهو خالد في النار. وخالدين حال مقدرة. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه.

(١٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لمّا قرر أمر النبوة وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ووعيد من أنكرها خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد. ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي إيماناً خيراً لكم، أو ائتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم عليه. وقيل تقديره يكن الإيمان خيراً لكم، ومَنَعَه البصريون لأن كان لا يحذف مع اسمه إلا فيما لابد منه ولأنه يؤدي إلى الشرط وجوابه. ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني وإن تكفروا فهو غني عنكم لا يتضرر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم، ونبه على غناه بقوله ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو يعم ما اشتملتا عليه وما رُكِّبتا منه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر لهم[1].

(١٧١) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ الخطاب للفريقين، غلت اليهود في حط عيسى عليه الصلاة والسلام حتى رموه بأنه ولد من غير رشدة، والنصارى في رفعه حتى اتخذوه إلهاً. وقيل الخطاب للنصارى خاصة فإنه أوفق لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ يعني تنزيهه عن الصاحبة والولد. ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها[2]. ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وذو روح صَدَرَ منه لا بتوسُّط ما يجري مجرى الأصل والمادة له. وقيل سمي روحاً لأنه كان يحيي الأموات أو القلوب. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي الآلهة ثلاثة الله والمسيح

---

(١) قوله «جاءكم الرسول بالحق من ربكم» إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته.
والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين للإيذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كمالهم اللائق بهم ترغيباً لهم في الامتثال بما بعده (س٢/٢٥٨).

(٢) وقوله «كَلِمَتُه» أي مكون بكلمته وأمره الذي هو كنْ من غير واسطة أب ولا نطفة (س٢/٢٥٩).

ومريم، ويشهد عليه قوله تعالى ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1] أو الله ثلاثة إن صح أنهم يقولون الله ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس، ويريدون بالأب الذات وبالابن العلم وبروح القدس الحياة. ﴿انتَهُوا﴾ عن التثليث. ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ نصبه كما سبق. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي واحد بالذات لا تعدد فيه بوجه ما. ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي أسبِّحه تسبيحاً من أن يكون له ولد فإنه يكون لمن يعادلُه مثل ويتطرق إليه فناء. ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً لا يماثله شيء من ذلك فيتخذه ولداً. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد فإن الحاجة إليه ليكون وكيلاً لأبيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الأشياء كاف في ذلك مستغن عمن يخلقه أو يعينه.

لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

(١٧٢) ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾ لن يأنف، من نَكَفْتُ الدمع إذا نحَّيته بأصبعك كيلا يُرى أثره عليك. ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له، فإن عبوديته شرف يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره. روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لمَ تَعِيبُ صاحبنَا؟ قال رسول الله ﷺ: ومن صاحبُكم؟ قالوا: عيسى عليه الصلاة والسلام، قال عليه السلام: «وأي شيء أقول»؟ قالوا: تقول إنه عبدالله ورسوله، قال: «إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله» قالوا: بلى. فنزلت[2] ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله. واحتج به من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقال: مَساقُه لرد قول النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية، وذلك يقتضي أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدمُ استنكافهم كالدليل على عدم استنكافه. وجوابُه: أن الآية للرد على عَبَدة المسيح والملائكة فلا يتجه ذلك، وإن سُلِّم اختصاصُها بالنصارى فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير كقولك: أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس، وإنْ أراد به التكبير فغايته تفضيل المقربين من الملائكة وهم الكروبيون الذين هم حول العرش، أو مَنْ أعلى منهم رتبة من الملائكة على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاعَ فيه ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ومن يرتفع عنها، والاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه وإنما يستعمل من حيث الاستحقاق بخلاف التكبر فإنه قد يكون بالاستحقاق. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم[3].

---

(١) المائدة: «١١٦».

(٢) عزاه الواحدي في أسباب النزول للكلبي (ص١٩٠) والكلبي ضعيف، وهو بدون إسناد.

(٣) قوله «ومن يستنكف عن عبادته» جعل المستنكَفَ عنه ههنا عبادته تعالى لا ما سبق لتعليق الوعيد بوصف ظاهر الثبوت للكفرة (س٢/ ٢٦١). =

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۙ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

(١٧٣) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۙ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ تفصيل للمجازاة العامة المدلول عليها من فحوى الكلام، وكأنه قال: فسيحشرهم إليه جميعاً يوم يحشر العباد للمجازاة، أو لمجازاتهم فإن إثابة مُقَابِليهم والإحسان إليهم تعذيب لهم بالغم والحسرة[1].

(١٧٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ عنىٰ بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن، أي قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبقَ لكم عذر ولا علة، وقيل: البرهان الدين أو رسول الله ﷺ أو القرآن[2].

(١٧٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ في ثواب قَدَرُه بإزاء إيمانه وعَمَلِه رحمةً منه، لا قضاءً لحق واجب. ﴿وَفَضْلٍ﴾ إحسان زائد عليه. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ إلى الله سبحانه وتعالى، وقيل إلى الموعود. ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في الآخرة.

(١٧٦) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي في الكلالة، حُذِفت لدلالة الجواب عليه. روي أن جابر بن عبدالله كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كَلالَة فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت وهي آخر ما نزل من الأحكام[3].

= وكذلك فإن في اتخاذ عيسى معبوداً استنكاف عن عبادته تعالى.

(١) وقدم الذين آمنوا على الذين استنكفوا لبيان فضلهم. وأوردهم بعنوان الإيمان والعمل الصالح لا بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات (س٢/ ٢٦٢).

(٢) وقوله «برهان من ربكم» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه إليهم لتربيتهم وتكميلهم (س٢/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ١١٤ رقم ٥٦٥١) و(١٢/ ٣ رقم ٦٧٢٣) و(١٣/ ٢٩٠ رقم ٧٣٠٩). ومسلم (٣/ ١٢٣٤ رقم ١٦١٦/٥) وأبو داود (٣/ ٣٠٨ رقم ٢٨٨٦) والترمذي (٤/ ٤١٧ رقم ٢٠٩٧) و(٥/ ٢٣٤ رقم ٣٠١٥) والنسائي (١/ ٨٧ رقم ١٣٨) وابن ماجة (١/ ٤٦٢ رقم ١٤٣٦) مختصراً، و(٢/ ٩١١ رقم ٢٧٢٨).
كلهم من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر ـ به.
=

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ سبق تفسيرُها في أول السورة. ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ارتفع امرؤ بفعل يفسره الظاهر، وليس له ولد صفةٌ له أو حال من المستكنّ في هلك، والواو في «وله» يحتمل الحال والعطف. والمراد بالأخت الأخت من الأبوين أو الأب لأنه جُعِل أخوها عَصَبة وابن الأم لا يكون عَصَبة، والولدُ على ظاهره فإن الأخت وإن ورثت مع البنت عند عامة العلماء ـ غير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ لكنها لا ترث النصف. ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي والمرء يرث إن كان الأمر بالعكس. ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى إن أريد ببرَثها يرث جميع مالها، وإلا فالمراد به الذَّكَر إذ البنت لا تحجب الأخ، والآية كما لم تدلَّ على سقوط الإخوة بغير الولد لم تدل على عدم سقوطهم به، وقد دلت السنة على أنهم لا يرثون مع الأب وكذا مفهوم قوله ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ إن فسرت بالميت. ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الضمير لمن يرث بالأخوة، وتثنيته محمولة على المعنى، وفائدة الإخبار عنه باثنتين التنبيهُ على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغر والكبر وغيرهما. ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أصله وإن كانوا إخوة وأخوات فغُلِّب المذكر. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أي يبين الله لكم ضلالَكم الذي من شأنكم إذا

= وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (٣/ ٣٠٧) والطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٤١) وأبو يعلى (٤/ ١٥ رقم ٢٠١٨) وابن الجارود (رقم: ٩٥٨) والحميدي (رقم: ١٢٢٩) وابن خزيمة (رقم: ١٠٦).

كلهم من طريق ابن عيينة عن ابن المنكدر عن جابر ـ به.

وأخرجه عبد بن حميد (رقم ١٠٦٤ ـ منتخب) وأبو داود (٣/ ٣٠٨ رقم ٢٨٨٧).

والنسائي في الكبرى (تحفة رقم: ٢٩٧٧) والطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٤١) والطيالسي (رقم: ١٧٤٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٣١) والواحدي في أسباب النزول (ص١٨٧ ـ ١٨٨).

من طريق أبي الزبير عن جابر ـ به.

وأخرج البخاري (٨/ ٢٤٣ رقم ٤٥٧٧) ومسلم (٣/ ١٢٣٤ رقم ٦/ ١٦١٦) والنسائي (تحفة رقم: ٣٠٦٠) والطبري في جامع البيان (٣/ج٤/ ٢٧٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢١٢) والواحدي في أسباب النزول (ص١٤٤ ـ ١٤٥) من طريق ابن جريج عن ابن المنكدر عن جابر ـ به.

قلت: قد اختلفت الطرق والروايات في حديث جابر هذا وجاء في بعضها أن الآية التي نزلت في قصة فرضه هي آية «يوصيكم الله في أولادكم..» [النساء: ١١].

وفي بعض الروايات أن الآية هي «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة..» [النساء: ١٧٦].

وفي بعضها فنزلت آية الفرائض وفي البعض الآخر فنزلت آية المواريث. فقال الحافظ بالنسبة لرواية ابن جريج ـ في الفتح (٨/ ٢٤٣) ـ: «وقيل إنه وهم في ذلك وأن الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه الآية الأخيرة من النساء... لأن جابراً يومئذٍ لم يكن له والد ولا ولد، والكلالة من لا ولد له ولا والد..» ١.هـ.

ثم قال الحافظ في الفتح أيضاً (٨/ ٢٤٤): «ولم ينفرد ابن جريج بتعيين الآية المذكورة فقد ذكرها ابن عيينة أيضاً على الاختلاف عنه... فالحاصل أن المحفوظ عن ابن المنكدر أنه قال (آية المواريث أو آية الفرائض)، والظاهر أنها «يوصيكم الله» كما صرح به في رواية ابن جريج ومن تابعه، وأما من قال إنها «يستفتونك» فعمدته أن جابراً لم يكن له حينئذٍ وله، وإنما كان يورث كلالة، فكان المناسب لقصته نزول الآية الأخيرة، لكن ليس بلازم، لأن الكلالة مختلف في تفسيرها: فقيل هم اسم المال الموروث، وقيل اسم الميت، وقيل اسم الإرث، وقيل ما تقدم...» ١.هـ وانظر بقية كلام ابن حجر فإنه مفيد.

خُلِّيتُم وطباعَكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه، أو يبين لكم الحق والصواب كراهة أن تضلوا. وقيل لئلا تضلوا فحذف لا وهو قول الكوفيين. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، ووُرِّث ميراثاً وأُعطي من الأجر كمن اشترى محرراً، وبرىء من الشرك وكان في مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم»[1].

☆ ☆ ☆

(١) رواه الثعلبي والواحدي في تفسيرهما، وهو موضوع.
وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) أبواب تتعلق بالقرآن، باب فضائل القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ﴾ الوفاء هو القيام بمقتضى العهد، وكذلك الإيفاء. والعقد العهد الموثَّق قال الحطيئة:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْداً لِجَارِهِمُ شَدُّوا العِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الكَرَبَا

وأصله الجمع بين الشيئين بحيث يعسر الانفصال، ولعل المراد بالعقود ما يعم العقود التي عقدها الله سبحانه وتعالى على عباده وألزمها إياهم من التكاليف، وما يَعْقِدون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به، أو يحسن إن حملنا الأمر على المشترك بين الوجوب والندب. ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ تفصيل للعقود. والبهيمة كل حي لا يميز. وقيل كل ذات أربع، وإضافتها إلى الأنعام للبيان كقولك: ثوب خز، ومعناه البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية وألحق بها الظباء وبقر الوحش. وقيل هما المراد بالبهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام في الاجترار وعدم الأنياب، وإضافتها إلى الأنعام لملابسة الشبه[1]. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلا محرم ما يتلى عليكم كقوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[2] أو إلا ما يتلى عليكم تحريمه. ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير

---

(١) وقدم الجار والمجرور «لكم» على القائم الفاعل «بهيمةُ..» لإظهار العناية بالمقدم من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفسُ مترقبة إلى وروده (س٣/ ٢).

(٢) المائدة: «٣».

في لكم. وقيل من واو ﴿أَوْفُوا﴾ وقيل استثناء وفيه تعسف، والصيد يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ حال مما استكن في مُحِلي، والحرم جمع حرام وهو المحرم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من تحليل أو تحريم.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ يعني مناسك الحج، جمع شعيرة وهي اسم ما أُشْعِر أي جُعِل شعاراً، سمّى به أعمال الحج ومواقفه لأنها علامات الحج وأعلام النسك. وقيل دين الله لقوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾[1] أي دينه. وقيل فرائضه التي حدها لعباده. ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه أو بالنسيء. ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ ما أهدي إلى الكعبة، جمع هدية كجَدْي في جمع جدية السّرج. ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أي ذوات القلائد من الهدي، وعطفها على الهدي للاختصاص فإنها أشرف الهدي، أو القلائد أنفسها والنهي عن إحلالها مبالغة في النهي عن التعرض للهدي، ونظيرُه قوله تعالى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[2]. والقلائد جمع قلادة وهي ما قُلِّد به الهدي من نعل أو لَحَاء شجر أو غيرهما ليُعْلم به أنه هدي فلا يُتعرض له. ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قاصدين لزيارته. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أن يثيبهم ويرضى عنهم، والجملةُ في موضع الحال من المستكن في آمّين وليست صفة له، لأنه عامل، والمختار أن اسم الفاعل الموصوف لا يَعْمل، وفائدته استنكار تعرض مَنْ هذا شأنه والتنبيه على المانع له. وقيل معناه يبتغون من الله رزقاً بالتجارة ورضواناً بزعمهم، إذ روي أن الآية نزلت عام القضية في حُجّاج اليمامة لما همّ المسلمون أن يتعرضوا لهم بسبب أنه كان فيهم الحطيم بن شريح بن ضبيعة وكان قد استاق سَرْح المدينة[3]، وعلى هذا فالآية منسوخة. وقرىء تبتغون على خطاب المؤمنين ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أَذِن في الاصطياد بعد زوال الإحرام، ولا يلزم من إرادة الإباحة ههنا من الأمر دلالة الأمر الآتي بعد الحظر على الإباحة مطلقاً. وقرىء بكسر الفاء على إلقاء حركة الوصل عليها وهو ضعيف جداً[4] وقرىء أَحْلَلْتُم يقال حل المحرم وأحل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم أو لا يكسبنكم. ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ شدة بغضهم وعداوتهم، وهو مصدر أضيف إلى المفعول أو الفاعل. وقرأ ابن عامر وإسماعيل عن نافع وابن عياش عن عاصم بسكون النون، وهو أيضاً مصدر كليان أو نعت بمعنى: بغيض قوم، وفَعْلان في النعت أكثر كعطشان وسكران. ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لأن صدوكم عنه عام الحديبية. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة على أنه شرط معترِض أغنى عن جوابه لا يجرمنكم. ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ بالانتقام، وهو ثاني مفعولي يجرمنكم فإنه يعدّى إلى واحد وإلى اثنين ككسب. ومن قرأ يُجْرِمنكم بضم الياء جعله منقولاً من المتعدي إلى مفعولٍ بالهمزة إلى مفعولين. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

---

(١) الحج: «٣٢».

(٢) النور: «٣١».

(٣) أخرجه ابن جرير عن عكرمة وعن السدي (٦/٥٨، ٥٩) وطريق السدي حسن (تخريج الفتح السماوي ص٥٤٧) والحطيم جاء للنبي عليه السلام وأظهر له الإسلام فلما خرج مرّ بسرح المدينة فاستاق فطلبوه فعجزوا عنه.

(٤) قوله (ضعيف جداً) أي من جهة العربية لأن النقل إلى المتحرك مخالف للقياس. لكن أبا حيان بين أنه لم يُقرأ بكسرٍ محض، بل قرىء بالإمالة المحضة لتوهم وجود كسرة همزة الوصل، كما أمالوا الفاء في فإذا لوجود كسرة إذا (البحر المحيط ٣/٤٢١).

﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ على العفو والإغضاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى. ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ للتشفي والانتقام. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فانتقامه أشد.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

(٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ بيان ما يتلى عليكم، والميتة ما فارقه الروح من غير تذكية. ﴿وَٱلدَّمُ﴾ أي الدم المسفوح لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾[1] وكان أهل الجاهلية يصبّونه في الأمعاء ويشوونها. ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي رفع الصوت لغير الله به كقولهم: باسم اللات والعزّى عند ذبحه. ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي التي ماتت بالخنق. ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت، مِنْ وَقَذْتُه إذا ضربته. ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من علوّ أو في بئر فماتت. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح، والتاء فيها للنقل. ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ وما أكل منه السبع فمات، وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أَكَلَتْ مما اصطادته لم تحل. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع. والذكاة في الشرع لقطع الحلقوم والمريء بمحدَّد. ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ النصب واحدُ الأنصاب، وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويَعدُّون ذلك قربة. وقيل هي الأصنام، وعلى بمعنى اللام، أو على أصلها بتقدير وما ذبح مسمّىً على الأصنام. وقيل هو جمع والواحد نصاب. ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدها: أمرني ربي وعلى الآخر: نهاني ربي والثالث غُفْل، فإن خرج الآمِرُ مَضَوْا على ذلك وإن خرج الناهي تجنبوا عنه وإن خرج الغفل أجلوها ثانياً، فمعنى الاستقسام طلبُ معرفة ما قُسِم لهم دون ما لم يقسم لهم بالأزلام. وقيل: هو استقسام الجُزُور بالأقداح على الأنصباء المعلومة. وواحد الأزلام زَلَم كجَمَل وزُلَم كصُرَد. ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام، وكونه فسقاً لأنه دخول في علم الغيب وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه، وافتراء على الله سبحانه وتعالى إن أريد بربي الله، وجهالة وشِرْك إن أريد به الصنم أو الميسر المحرم أو إلى تناول ما حرم عليهم. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية: وقيل أراد يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر يوم الجمعة في عرفة حجة الوداع. ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ أي من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث وغيرها، أو مِنْ أن يغلبوكم عليه. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم. ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ وأخلصوا الخشية لي. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على

(١) الأنعام: «١٤٥».

أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد. ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالهداية والتوفيق، أو بإكمال الدين، أو بفتح مكة وهدم منار الجاهلية. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ اخترته لكم ديناً من بين الأديان وهو الدين عند الله لا غير. ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراض لما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي، والمعنى: فمن اضطُر إلى تناول شيء من هذه المحرمات. ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير مائل له ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة كقوله ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه بأكله.

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾

(٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ لما تضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة، وقد سبق الكلام في ماذا، وإنما قال لهم ولم يقل لنا على الحكاية، لأن يسألونك بلفظ الغيبة وكلا الوجهين سائغ في أمثاله، والمسؤول ما أُحِل لهم من المطاعم كأنهم لما تُلي عليهم ما حُرم عليهم سألوا عما أُحِل لهم. ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ مالم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه، ومن مفهومه حَرَّم مستخبثاتِ العرب، أو مالم يدل نص ولا قياس على حرمته. ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ عطف على الطيبات إنْ جُعِلت ما موصولةً على تقدير وصيْدِ ما علمتم، وجملة شرطية إن جُعلت شرطاً وجوابُها فكلوا. والجوارحُ كواسب الصيد على أهلها، من سباعِ ذوات الأربع والطير ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ معلِّمين إياه الصيد، والمكلِّبُ مُؤدِّبُ الجوارح ومُضْريها[1] بالصيد، مشتق من الكَلْب، لأن التأديب يكون أكثر فيه وآثر، أو لأن كل سبع يسمى كلباً لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك»[2]. وانتصابُه على الحال من علَّمْتم، وفائدتها المبالغة في التعليم. ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية، أو استئناف. ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله تعالى، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، أو مما علمكم الله أن تُعلِّموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه. ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو مالم تأكل منه، لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم «وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على

---

(١) مضْري الجوارح هو الذي اعتادها واجترأ عليها (المصباح المنير مادة ضري).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٣٩) من حديث أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه كان لهب بن أبي لهب يسب النبي عليه السلام، فقال: «اللهم سلط عليه كلبك» فخرج في قافلة يريد الشام فنزلوا منزلاً فقال: إني أخاف دعوة محمد فحطوا متاعه حوله وقعدوا يحرسونه، فجاء الأسد فانتزعه فذهب.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
قلت: فيه العباس بن الفضل الأنصاري، عن الأسود بن شيبان، وذكره المزي في تلاميذ الأسود (العباس بن الفضل الأزرق). أياً كان منهما فكلامهما متروك. انظر التقريب (١/٣٩٨ ـ ٣٩٩). فالحديث موضوع.

نفسه»[١]، وإليه ذهب أكثر الفقهاء، وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر، وقال آخرون: لا يشترط مطلقاً. ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الضمير لما علمتم والمعنى: سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن بمعنى سموا عليه إذا أدركتم ذكاته. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في محرماته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيؤاخذكم بما جلّ ودقّ.

ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

(٥) ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعم الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، واستثنىٰ علي رضي الله تعالى عنه نصارى بني تغلب وقال: ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر[٢]، ولا يُلحق بهم المجوس في ذلك وإن أُلحقوا بهم في التقرير على الجزية لقوله عليه الصلاة والسلام: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم»[٣] ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلا عليكم أن تُطْعِموهم وتبيعوه منهم، ولو حَرُم عليهم لم يجزَ ذلك. ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي الحرائر، أو العفائف. وتخصيصُهن بَعْثٌ على ما هو الأولى. ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وإن كن حربيات، وقال ابن عباس لا تَحِل الحربيات. ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على ما هو الأولى. وقيل

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٦٠٩ رقم ٥٤٨٣) و(٩/ ٦١٢ رقم ٥٤٨٦ ورقم ٥٤٨٧) ومسلم (٣/ ١٥٢٩ رقم ٢، ٣/ ١٩٢٩) من حديث عدي بن حاتم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦/ ٧٢ رقم ١٠٠٣٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٨٤) عن علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٧٨ رقم ٤٢) والشافعي في ترتيب المسند (٢/ ١٣٠ رقم ٤٣٠) وعبدالرزاق في المصنف (٦/ ٦٨ رقم ١٠٠٢٥) و(١٠/ ٣٢٥ رقم ١٩٢٥٣) عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكرَ المجوسَ فقال: ما أدري كيف أصنعُ في أمرهم، فقال عبدالرحمن بن عوفٍ: أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سنوا بهم سُنَّةَ أهلِ الكتاب». وإسناده منقطع. وأخرج عبدالرزاق في المنصف (٦/ ٦٨ رقم ١٠٠٢٤) من طريق ابن جريج قال: أخبرني عمرو بن دينار عن بجالة التميمي، أن عمر بن الخطاب لم يرد أن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر». وإسناده متصل صحيح.

المراد بإيتائها التزامها ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعِفّاء بالنكاح. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنا. ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ مسرين به. والخِدْن الصديق، يقع على الذكر والأنثى. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يريد بالإيمان شرائع الإسلام وبالكفر إنكاره والامتناع عنه.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم القيام كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1] عبّر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة. أو إذا قصدتم الصلاة لأن التوجه إلى الشيء والقيام إليه قصد له. وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً، والإجماع على خلافه لما روي أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: «عمداً فعلته»[2] فقيل مُطلقٌ أُريد به التقييد، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين. وقيل الأمر فيه للندب. وقيل كان ذلك أول الأمر ثم نُسخ، وهو ضعيف لقوله عليه الصلاة والسلام: «المائدة من آخر القرآن نزولاً فأَحِلُّوا حلالها وحرموا حرامها»[3] ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أمِرُّوا الماء عليها. ولا حاجة إلى الدلك خلافاً لمالك. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين في المغسول، ولذلك قيل: «إلى» بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[4] أو متعلقة بمحذوف تقديره: وأيديكم مضافةً إلى المرافق، ولو كان كذلك لم يبقَ لمعنى التحديد ولا لذكره مزيد فائدة، لأن مطلق اليد يشتمل عليها. وقيل: إلى تفيد الغاية مطلقاً، وأما دخولها في الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وإنما يعلم من خارج ولم يكن في الآية، وكانت الأيدي متناولة لها فحكم بدخولها احتياطاً. وقيل إلى من حيث إنها تفيد الغاية تقتضي خروجها وإلا لم تكن غاية لقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[6] لكنْ لمّا لم تتميز الغاية ههنا عن ذي الغاية وجب إدخالها احتياطاً. ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء مزيدة. وقيل للتبعيض، فإنه الفارق بين قولك مسحت المنديل وبالمنديل، ووجهه أن يقال إنها تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق فكأنه قيل: وألصِقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب بخلاف ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم فإنه كقوله: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾. واختلف العلماء في قدر الواجب، فأوجب الشافعي رضي الله عنه تعالى أقل ما يقع عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه مَسَحَ ربع الرأس لأنه عليه الصلاة والسلام مسح

---

(١) النحل: «٩٨».

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٢٣٢ رقم ٨٦/ ٢٧٧) وأبو داود (١/ ١٢٠ رقم ١٧٢) والترمذي (١/ ٨٩ رقم ٦١) والنسائي (١/ ٨٦ رقم ١٣٣) وابن ماجة (١/ ١٧٠ رقم ٥١٠) من حديث بريدة.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١١) من طريق جبير بن نفير، قال: «دخلت على عائشة. فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت سورة المائدة... الحديث.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) هود: «٥٢».

(٥) البقرة: «٢٨٠».

(٦) البقرة: «١٨٧».

على ناصيته[١] وهو قريب من الربع، ومالك رضي الله تعالى عنه مسح كله أخذاً بالاحتياط. ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ نصبه نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب عطفاً على وجوهكم، ويؤيده: السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد إذ المسح لم يُحَدّ. وجره الباقون على الجِوار، ونظيرُه كثيرٌ في القرآن والشعر كقوله تعالى: ﴿عذاب يوم أليم﴾ ﴿وحورٍ عين﴾ بالجر في قراءة حمزة والكسائي، وقولهم: حُجْر ضَب خرب. وللنحاة باب في ذلك، وفائدته التنبيه على أنه ينبغي أن يَقْتَصِد في صب الماء عليها ويغسِل غسلاً يقرب من المسح. وفي الفصل بينه وبين أخويه إيماء على وجوب الترتيب. وقرىء بالرفع على وأرجُلُكم مغسولةٌ. ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ فاغتسلوا. ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ سبق تفسيره، ولعل تكريرَه ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد الأمر بالطهارة للصلاة أو الأمر بالتيمم تضييقاً عليكم. ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ لينظفكم، أو ليطهركم عن الذنوب فإن الوضوء تكفير للذنوب، أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء، فمفعول يريد في الموضعين محذوف. واللام للعلة، وقيل مزيدة، والمعنى: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج حتى لا يرخص لكم في التيمم، ولكن يريد أن يطهركم وهو ضعيف لأن أَنْ لا تقدَّرُ بعد المزيدة. ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ليتم بشرعه ما هو مطهرة لأبدانكم ومكفرة لذنوبكم نعمتَه عليكم في الدين، أو ليتمّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته. والآية مشتملة على سبعة أمور كلها مثنىٰ: طهارتان أصل وبدل، والأصل اثنان مستوعِب وغير مستوعب، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود، وأن آلتهما مائع وجامد، وموجبهما حدث أصغر وأكبر، وأن المبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر، وأن الموعود عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة.

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

(٧) ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره. ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، أو ميثاق ليلةِ العقبة أو بيعةِ الرضوان[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ رقم ٨١، ٨٢، ٨٣/ ٢٧٤) من حديث المغيرة بن شعبة في قصة فيها: «ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه». وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٨٠ رقم ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨) من حديثه أيضا: «أن النبي ﷺ توضأ ومسح على ناصيته».
والناصية: مقدم الرأس.

(٢) وفائدة التقييد بقوله «إذ قلتم سمعنا وأطعنا» تأكيد وجوب مراعاته بتذكر قبولهم والتزامهم بالمحافظة عليه (س٣/ ١١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في إنساء نعمته ونقض ميثاقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بخفياتها فيجازيكم عليها فضلاً عن جليات أعمالكم[1].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ عدّاه بعلىٰ لتضمنه معنى الحمل، والمعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعتدوا عليهم بارتكاب مالا يحل، كمُثْلَة وقَذْف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفِّياً مما في قلوبكم. ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، صرح لهم بالأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجوْر وبين أنه مقتضى الهوىٰ، وإذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به. وتكرير هذا الحكم إما لاختلاف السبب كما قيل إن الأولى نزلت في المشركين وهذه في اليهود، أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء ثائرة الغيظ.

(٩) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ إنما حذف ثاني مفعولي وَعَد استغناء بقوله لهم مغفرة فإنه استئناف يبينه. وقيل الجملة في موضع المفعول فإن الوعد ضرب من القول وكأنه قال: وعدهم هذا القول.

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هذا من عادته تعالى، أن يتبع حال أحد الفريقين حال الآخر وفاء بحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطيب لقلوبهم.

(١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ روي أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعَسْفان قاموا إلى الظهر معاً، فلما صلوا ندموا ألا كانوا أكَبُّوا عليهم، وهمّوا أن يُوقِعُوا بهم إذا قاموا إلى العصر، فرد الله عليهم كيدهم بأن أنزل عليهم صلاة الخوف[2]. والآية إشارة إلى ذلك،

---

(١) وإظهار الاسم الجليل بقوله «إن الله» وهو موقع إضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة (س٣/ ١٢).

(٢) قال ابن حجر في (الكافي الشافِ) رقم (٤٤٦):
أخرجه «الطبري من رواية النضر بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس بتغيير فيه، ولفظه قال: «خرج رسول الله ﷺ في غزاة. فلقي المشركين بعسقلان. فلما صلى الظهر فرأوه يركع ويسجد قال بعضهم لبعض: كان فرصة لكم لو أغرتم عليهم ما علوا بكم قال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى». والباقي نحوه..

وقيل إشارة إلى ما روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى قريظة ومعه الخلفاء الأربعة يستقرضهم لدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمري يحسبُهما مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك، فأجلسوه وهموا بقتله، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحًى عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده فنزل جبريل فأخبره فخرج[١]. وقيل: نزل رسول الله ﷺ منزلاً وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه، فجاء أعرابي فسلّ سيفه وقال: مَنْ يمنعك مني؟ فقال: الله! فأسقطه جبريل من يده، فأخذه الرسول ﷺ وقال: «مَنْ يمنعك مني»؟ فقال: لا أحد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فنزلت[٢] ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والإهلاك، يقال بسط إليه يده إذا بطش به وبسط إليه لسانه إذا شتمه. ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ منعها أن تمد إليكم ورد مضرتها عنكم. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي لإيصال الخير ودفع الشر[٣].

= وأصله في مسلم (١/ ٥٧٥ رقم ٣٠٨/ ٨٤٠) من رواية أبي الزبير عن جابر «غزونا مع النبي ﷺ قوماً من جهينة فقاتلونا قتالاً شديداً فلما صلينا الظهر قال المشركون: لو ملنا عليهم لاقتطعناهم فقالوا: إنهم سيأتيهم صلاة هي أحبّ إليهم من الأولى فأخبر جبريل النبي ﷺ، وذكر ذلك لنا رسول الله ﷺ فلما حضرت العصر صفَّنا صفين.. الحديث».

وللترمذي (٥/ ٢٤٣ رقم ٣٠٣٥) والنسائي (٣/ ١٧٤ رقم ١٥٤٤) من طريق عبدالله بن شقيق عن أبي هريرة نحوه.

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٨٠) وأبو نعيم في الدلائل (٢/ ٦٢٩) من طريق محمد بن عمرو بن خالد الحراني عن أبيه عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير، قال: خرج رسول الله ﷺ فذكر نحوه..

كما أخرج البيهقي في الدلائل أيضاً (٣/ ٣٥٤) من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان مرسلاً أيضاً.

وعند أبي نعيم في الدلائل (٢/ ٦٢٨) من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ومن طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس. وعند الجميع (أتى بني النضير) دون (بني قريظة) وهو الصواب.

وكذا أخرج الطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ١٤٤) من طريق ابن إسحاق عن عمر بن عاصم وعبدالله بن أبي بكر بن حزم.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٩٦ رقم ٢٩١٠) و(٦/ ٩٧ رقم ٢٩١٣)، (٧/ ٤٢٦ رقم ٤١٣٤ ورقم ٤١٣٥ ورقم ٤١٣٦) ومسلم (٤/ ١٧٨٦ ـ ١٧٨٧ رقم ١٣، ١٤/ ٨٤٣) من طرق عن جابر.

(٣) قوله «أن يبسطوا إليكم أيديهم» قدم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلىٰ بيان رجوع ضرر البسط وغائلته إليهم حملاً لهم من أول الأمر على الاعتداد بنعمة دفعه.

وقوله «فكف أيديهم عنكم» أظهر أيديهم في موقع الإضمار لزيادة التقرير. (س٣/ ١٣).

وقوله «وعلىٰ الله فليتوكل المؤمنون» آثر صيغة أمر الغائب وأسندها للمؤمنين لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهاني، وللإيذان بأن ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان داع إلى ما أمروا به من التوكل والتقوىٰ وازع عن الإخلال بهما (س٣/ ١٤).

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ ﴾ شاهداً من كل سبط ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به. روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر، أمرهم الله سبحانه وتعالى بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا مَنْ فيها فإني ناصركم، وأُمِر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ من كل سِبْط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أُمِروا به، فأَخَذ عليهم الميثاق واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار ونهاهم أن يحدِّثوا قومهم، فرأوْا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً فهابوا ورجعوا وحدثوا قومَهم، ونكث الميثاق إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا ويوشع بن نون من سبط أفراييم بن يوسف. ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ ﴾ بالنصرة ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم، وأصله الذب، ومنه التعزيز. ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالإنفاق في سبيل الخير، وقرضاً يحتمل المصدر والمفعول. ﴿ لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ جواب للقسم المدلول عليه باللام في لئن سادّ مسد جواب الشرط. ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ بعد ذلك الشرط المؤكَّد المعلق به الوعد العظيم. ﴿ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ضلالاً لا شبهة فيه ولا عذر معه بخلاف من كفر قبل ذلك، إذ قد يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة.

(١٣) ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ طردناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية. ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ لا تنفعل عن الآيات والنذر. وقرأ حمزة والكسائي قَسِيَّة، وهي إما مبالغة قاسية أو بمعنى رديئة من قولهم درهم قَسِي إذا كان مغشوشاً، وهو أيضاً من القسوة فإن المغشوش فيه يبس وصلابة، وقرىء قَسِيَّةَ بإتباع القاف للسين. ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ استئناف لبيان قسوة قلوبهم، فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله سبحانه وتعالى والافتراء عليه، ويجوز أن يكون حالاً من مفعول لعناهم لا من القلوب إذ لا ضمير له فيه[1]. ﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا ﴾

(١) قوله «يحرفون» بصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار.

وتركوا نصيباً وافياً. ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ من التوراة، أو من اتباع محمد ﷺ، والمعنى أنهم حرفوا التوراة وتركوا حظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه، وقيل معناه أنهم حرفوها فَزَلَّت بشؤمه أشياءُ منها عن حفظهم، لما روي أن ابن مسعود قال: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية[1]. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ خيانة منهم أو فرقة خائنة أو خائن، والتاء للمبالغة، والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم، وقيل استثناء من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزية. وقيل: مطلقٌ نُسِخ بآية السيف. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلاً عن العفو عن غيره.

(١٤) ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم، وقيل تقديره ومن الذين قالوا إنا نصارى قوم أخذنا، وإنما قال: «قالوا إنا نصارى» ليدل على أنهم سَمُّوا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله سبحانه وتعالى. ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا﴾ فألزمنا، من غَرِي بالشيء إذا لصق به. ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بين فرق النصارى، وهم نسطورية[2] ويعقوبية[3] .....

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشافِ رقم (٤٤٩).
«أخرجه ابن المبارك في الزهد ـ(ص٢٢٩ رقم ٨٥١)ـ، قال أخبرنا عبدالرحمن المسعودي عن القاسم عن عبدالله بن مسعود قال: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم تعلمه بالخطيئة يعملها» وهذا منقطع.
ـ قلت: القاسم بن عبدالرحمن ثقة، يروي عن أبيه وجده مرسلاً ـ وكذا أخرجه الدارمي ـ (١/ ١٠٥) ـ والطبراني في الكبير (٩/ ٢١٢ رقم ٨٩٣٠) ـ.
قلت: وكذا وكيع في الزهد رقم (٢٦٩) في إحدى طريقيه، وأبو خيثمة في العلم رقم (١٣٢) والخطيب في اقتضاء العلم العمل (رقم: ٩٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣١) وابن عبدالبر في بيان العلم (١/ ٢٣٩) كلهم من طريق المسعودي عن القاسم عن عبد الله بن مسعود.
وأخرجه وكيع في الزهد (٢٦٩) في إحدى طريقيه) والبيهقي في المدخل (رقم: ٤٨٧) عن المسعودي عن الحسن بن سعد عن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه.
قلت: سماع وكيع من المسعودي قبل الاختلاط. وقد سمع عبدالرحمن بن عبدالله من أبيه انظر الجرح والتعديل (٥/ ٢٤٨) فإسناده صحيح.

(٢) النَّسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة. قال: إن الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو. واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة. وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم.
انظر «الملل والنحل» للشهرستاني (ص٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٣) اليعقوبية: أصحاب يعقوب. قالوا بالأقانيم الثلاثة كما ذكرنا، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح. وهو الظاهر بجسده، بل هو هو. وعنهم أخبرنا القرآن الكريم [لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم (المائدة الآية ٧٢)].

وملكانية[١]، أو بينهم وبين اليهود. ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ بالجزاء والعقاب[٢].

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

(١٥) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني اليهود والنصارى، ووَحَّد الكتاب لأنه للجنس. ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كنعت محمد ﷺ وآيةِ الرجم في التوراة وبشارةِ عيسى عليه الصلاة والسلام بأحمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل. ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يُخبر به إذا لم يَضْطر إليه أمرٌ ديني، أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه. ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ يعني القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح الإعجاز، وقيل يريد بالنور محمد ﷺ[٣].

(١٦) ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ وَحَّد الضمير لأن المراد بهما واحد، أو لأنهما كواحد في الحكم. ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ من اتبع رضاه بالإيمان منهم. ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله. ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من أنواع الكفر إلى الإسلام. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بإرادته

انظر (الملل والنحل) للشهرستاني (ص٢٢٦ ـ ٢٢٩).

(١) الملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. ومعظم الروم ملكانية. قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته. ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا، بل المسيح مع ما تدرع به ابن، فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.
انظر (الملل والنحل) للشهرستاني (ص٢٢٣ ـ ٢٢٥).

(٢) وعبر عن العمل بالصنع للإيذان برسوخهم في ذلك. وعبر عن المجازاة بالتنبئة للتنبيه على أنهم لا يعلمون حقيقة ما يعملونه من الأعمال السيئة واستتباعها للعذاب (س٣/ ١٧).

(٣) قوله «يا أهل الكتاب» أوردهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب، وللمبالغة في التشنيع فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون.
وقوله «رسولنا» الإضافة فيه للتشريف والإيذان بوجوب اتباعه (س٣/ ١٨).

أو توفيقه. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق هو أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتعالى ومؤدٍّ إليه لا محالة.

(١٧) ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم. وقيل: لم يصرح به أحدٌ منهم، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا لا إله إلا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح، فَنَسَبَ إليهم لازمَ قولهم توضيحاً لجهلهم وتفضيحاً لمعتقدهم. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنع من قدرته وإرادته شيئاً. ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ﴾ عيسى. ﴿ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ احتج بذلك على فساد عقولهم، وتقريرُه: أن المسيح مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إزاحة لما عرض لهم من الشبهة في أمره، والمعنىٰ أنه سبحانه وتعالى قادر على الإطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض ومن أصلٍ كخَلْقِ ما بينهما، فيُنْشِىء من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ومن أصلٍ يُجَانسه إما مِنْ ذَكَرٍ وحدَه كما خَلَق حواء أو من أنثى وحدها كعيسى أو منهما كسائر الناس[1].

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أشياعُ ابنيه عُزَيراً والمسيح، كما قيل لأشياع ابن الزبير الحَبيبون أو المقربون عنده قُرْبَ الأولاد من والدهم، وقد سبق لنحو ذلك مزيد بيان في سورة آل عمران. ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي فإن صح ما زعمتم فَلِمَ يعذبُكم بذنوبكم فإنَّ مَنْ كان بهذا المنصب لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات. ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ ممن خلقه الله تعالى. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وهم من آمن به وبرسله. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وهم من كفر، والمعنى أنه يعاملُكم معاملةَ سائر الناس لا مزية لكم عنده. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كلها سواء في كونها خلقاً وملكاً له. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(١٩) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أي الدينَ وحُذِفَ لظهوره، أو ما كتمْتُم وحُذِفَ لتقدم ذِكْره، ويجوز أن لا يُقدَّرَ مفعول على معنى يبذل لكم البيان، والجملةُ في موضع الحال أي جاءكم

---

(١) وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى (س٣/ ١٩).

رسولنا مبيناً لكم. ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ متعلق بجاءكم أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي، أو «يبين» حالٌ من الضمير فيه. ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ كراهة أن تقولوا ذلك وتعتذروا به. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا بـ ﴿مَا جَآءَنَا﴾ فقد جاءكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَيُقْدِر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام إذْ كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألفُ نبي، وعلى الإرسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كان بينهما ستمائة أو خمسمائة وتسع وستون سنة وأربعةُ أنبياء: ثلاثةٌ من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي[1]، وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكونون إليه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ فأرشدكم وشرفكم بهم، ولم يَبْعث في أمة ما بَعَث في بني إسرائيل من الأنبياء. ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي وجعل منكم أو فيكم، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثُرَ الأنبياء بعد فرعون حتى قتلوا يحيى وهمّوا بقتل عيسى، وقيل: لما كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله وجعلهم مالكين لأنفسهم وأمورِهم سمّاهم ملوكاً. ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من فَلْق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها مما آتاهم الله، وقيل: المراد بالعالَمين عالمي زمانهم.

(٢١) ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ أرضَ بيت المقدس، سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومسكن المؤمنين. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وقيل الشام. ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قَسَمَها لكم، أو كتب في اللوح أنها تكون مسكناً لكم، ولكن إن آمنتم وأطعتم لقوله لهم بعدما عصَوْا: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾[2]. ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ﴾ ولا تَرْجِعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، قيل لما سمعوا حالهم من النقباء بَكَوا وقالوا: ليتنا مِتْنا بمصر، تعالَوْا نجعلُ علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر. أو لا ترتدّوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق على الله

---

(١) خالد بن سنان العبسي تردد فيه البعض، وبعضهم لم يثبته، وبعضهم قال: إنه كان قبل عيسى عليه السلام. إلا أنه مثبت في التاريخ، وله قصة في كتب الآثار مفصلة.
وصحح بعضهم إثبات نبوته وأنه كان قبل عيسى ـ عليهما السلام ـ (انظر روح المعاني ٦/ ١٠٥).

(٢) المائدة: «٢٦».

سبحانه وتعالى. ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ ثوابَ الدارين. ويجوز في فتنقلبوا الجزم على العطف، والنصب على الجواب.

(٢٢) ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ متغلبين لا تتأتىٰ مقاومتُهم، والجبّار فعّال من جَبَرَه على الأمر بمعنىٰ أجبره وهو الذي يُجْبِر الناس على ما يريده. ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ إذ لاَ طَاقَة لَنَا بهم.

(٢٣) ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب ويوشع. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله سبحانه وتعالى ويتقونه. وقيل كان رجلان من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فعلىٰ هذا الواو لبني إسرائيل، والراجع إلى الموصول محذوف أي من الذين يخافهم بنو إسرائيل، ويشهد له أنه قرىء الذين يُخَافُون بالضم أي المَخُوفين، وعلى المعنىٰ الأول يكون هذا من الإخافة أي من الذين يُخَوِّفُون من الله عز وجل بالتذكير أو يخوفهم الوعيد. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان والتثبيت وهو صفة ثانية لرجلان، أو اعتراض. ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ بابَ قريتهم أي باغِتُوهم وضاغطوهم في المضيق وامنعوهم من الأصحار. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ﴾ لتعسر الكرّ عليهم في المضايق من عظم أجسامهم ولأنهم أجسام لا قلوب فيها، ويجوز أن يكون عِلْمُهما بذلك من إخبار موسىٰ عليه الصلاة والسلام وقولِهِ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1]. أو مما عَلِما من عادة الله سبحانه وتعالىٰ في نصرة رسله، وما عَهِدا من صنعه لموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مؤمنين به ومصدقين بوعده.

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾

(٢٤) ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ نفوْا دخولهم على التأكيد والتأبيد. ﴿مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ بدل البعض. ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وقيل تقديره اذهب أنت وربك يعينك.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ قاله شكوىٰ بثّه وحزنه إلى الله سبحانه وتعالىٰ لمّا خالفه قومُه وأيس منهم ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام، والرجلان المذكوران وإن كانا يوافقانه لم يَثِق عليهما لِمَا كابد من تلون قومه، ويجوز أن يراد بأخي من يواخيني في الدين فيدخلان فيه. ويحتمل نصبُه عطفاً علىٰ نفسي أو على اسم إن، ورفعُه عطفاً على الضمير في لا أملك أو على محل إن واسمها، وجرُّه عند الكوفيين عطفاً على الضمير في نفسي. ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه، أو بالتبعيد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم.

---

(١) المائدة: «٢١».

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٦) ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ فإن الأرض المقدسة. ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها بسبب عصيانهم. ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ عامِلُ الظرف إما مُحرَّمَة فيكون التحريم موقتاً غير مؤبد فلا يخالِفُ ظاهرَ قوله: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]، ويؤيد ذلك ما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام سار بعده بمن بقي من بني إسرائيل ففتح أريحاء وأقام بها ما شاء الله ثم قبض، وقيل: إنه قُبِض في التيه ولمّا احتَضَر أخبرهم بأن يوشع بعده نبي وأن الله سبحانه وتعالى أَمَرَه بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع وقتل الجبابرةَ وصار الشامُ كلُّه لبني إسرائيل، وإما يتيهون[2] أي يسيرون فيها متحيرين لا يرون طريقاً فيكون التحريم مطلقاً، وقد قيل: لم يَدْخُل الأرض المقدسة أحد ممن قال إنا لن ندخلَها بل هلكوا في التيه وإنما قاتل الجبابرةَ أولادُهم. روي: أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ يسيرون من الصباح إلى المساء فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يُظلهم من الشمس وعمودٌ من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى وماؤُهم من الحجر الذي يحملونه، والأكثرُ علىٰ أن موسى وهارون كانا معهم في التيه إلا أنه كان ذلك رَوْحاً لهما وزيادة في درجتهما، وعقوبة لهم، وأنهما ماتا فيه مات هارون، وموسى بعده بسنة. ثم دخل يوشع أريحاء بعد ثلاثة أشهر، ومات النُّقباء فيه بغتة غير كالب ويوشع. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ خاطب به موسىٰ عليه الصلاة والسلام لما ندم علىٰ الدعاء عليهم وبين أنهم أحقاء بذلك لفسقهم.

(٢٧) ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ قابيل وهابيل، أوحىٰ الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن يزوج كلُّ واحد منهما توأمةَ الآخر، فسخِط منه قابيلُ لأن توأمته كانت أجمل، فقال لهما آدم: قَرِّبا قُرباناً فمِنْ أيُّكما قُبِلَ تزوجها، فَقُبِلَ قربان هابيل بأن نزلت نارٌ فأكلته، فازداد قابيل سخطاً وفعل ما فعل. وقيل لم يُرِدْ بهما ابني آدم لصلبه وأنهما رجلان من بني إسرائيل، ولذلك قال: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3]. ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفةُ مصدرٍ محذوف أي تلاوة ملتبسة بالحق، أو حالٌ من الضمير في اتْلُ، أو من «نبأ» أي ملتبساً بالصدق موافقاً لما في كُتُب الأولين ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ ظرفٌ لنبأ، أو حال منه، أو بدل على حذف مضاف أي واتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت، والقربان اسم ما يُتَقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من ذبيحة أو غيرها، كما أن الحُلْوَان اسمُ ما يُحَلّىٰ به أي يعطىٰ، وهو في الأصل مصدر ولذلك لم يُثَنَّ، وقيل: تقديرُه إذ قرب كل واحد منهما قرباناً. قيل كان قابيل صاحب زرع وقَرَّب أرداً قمح عنده، وهابيلُ صاحب ضرع وقرب جملاً سميناً. ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ لأنه سخط

---

(١) المائدة: «٢١».

(٢) قوله (وإما يتيهون) عطف على قوله: (عامل الظرف إما محرمة... وإما يتيهون..).

(٣) المائدة: «٣٢».

حكم الله سبحانه وتعالىٰ ولم يُخْلص النية في قربانه وقصد إلى أخس ما عنده. ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ توعده بالقتل لفَرْط الحسد له على تقبل قربانه ولذلك. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في جوابه أي إنما أُتيت من قِبَلِ نفسك بترك التقوىٰ لا مِنْ قبلي فَلِمَ تقتلُني؟ وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يُرىٰ حرمانه من تقصيره ويَجْتهدَ في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقٍ.

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: كان هابيل أقوى منه ولكن تحرج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله سبحانه وتعالىٰ لأن الدفع لم يُبَح بعدُ، أو تحرياً لما هو الأفضل قال عليه الصلاة والسلام: «كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل»[(١)]. وإنما قال: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾ في جواب ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ للتبري عن هذا الفعل الشنيع رأساً والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه، ولذلك أكد النفي بالباء[(٢)].

(٢٩) ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليل ثان للامتناع عن المعارضة والمقاومة، والمعنى إنما أَستسلم لك إرادة أن تَحْمِلَ إثمي لو بسطتُ إليك يدي وإثمَك ببسطك يدك إليّ، ونحوُه: «المستبّان ما قالا فعلىٰ البادىء ما لم يَعْتدِ المظلوم»[(٣)]. وقيل معنى بإثمي بإثم قتلي، وبإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك، وكلاهما في موضع الحال أي ترجع ملتبساً بالإثمين حاملاً لهما، ولعله لم يُرِد معصية أخيه وشقاوتَه بل قَصْده بهذا الكلام إلى أن ذلك إنْ كان لا محالة واقفاً فأريدُ أن يكون لك لا لي، فالمراد بالذات أن لا يكون له لا أن يكون لأخيه، ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته وإرادةُ عقاب العاصي جائزة.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فسهلته له ووسعته، مِنْ طاع له المرتَعُ إذا اتسع. وقرىء

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١١٠) عن خباب وفي سنده رجل مجهول.
وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٩٢) عن خالد بن عرفطة. وفي إسناده: علي بن زيد بن جدعان: وهو ضعيف.
ومن طريق علي بن زيد أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٢٥ رقم ٤٠٩٩).
والحاكم في المستدرك (٤/ ٥١٧ وقال: تفرد به علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي ولم يحتجبا بعلي، وسكت عنه الذهبي.

(٢) قوله: «لئن بسطت إليّ» صدره باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور علىٰ المفعول الصريح إيذاناً من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه (س ٣/ ٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٠ رقم ٦٨/ ٢٥٨٧) والبخاري في الأدب المفرد رقم (٤٢٣) وأبو داود (٥/ ٢٠٣ رقم ٤٨٩٤) والترمذي (٤/ ٣٥٢ رقم ١٩٨١) وغيرهم، كلهم من حديث أبي هريرة.

فطاوعت على أنه فَاعَلَ بمعنىٰ فَعَلَ، أو على أنّ قَتْل أخيه كأنه دعاها إلى الإقدام عليه فطاوعته، وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد مالَه. ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا، إذ بقي مدة عمره مطروداً محزوناً. قيل قتل هابيل وهو ابن عشرين سنة عند عَقَبة حراء. وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ روي أنه لما قتله تحير في أمره ولم يَدْرِ ما يصنع به إذ كان أولَ ميت من بني آدم، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقَتَل أحدهما الآخر، فحَفَر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة، والضمير في ليُرِيَ لله سبحانه وتعالىٰ، أو للغراب، وكيف حالٌ من الضمير في يواري، والجملة ثاني مفعولي يرى، والمراد بسوأة أخيه جسده الميت فإنه مما يستقبح أن يُرىٰ. ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ كلمة جزع وتحسر، والألِفُ فيها بدل من ياء المتكلم. والمعنى يا ويلتي احْضُري فهذا أوانُك، والويل والويلة الهَلَكَة. ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ لا أهتدي إلى مثل ما اهْتَدىٰ إليه، وقوله: فأواري عطف على أكون وليس جواب الاستفهام إذ ليس المعنىٰ ههنا لو عجَزت لَوَاريْت. وقرىء بالسكون على فأنا أواري، أو على تسكين المنصوب تخفيفاً. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على قتله لِمَا كابد فيه من التحير في أمره وحمْله على رقبته سنة أو أكثر على ما قيل، وتلمذِه للغراب واسوداد لونه وتبري أبويه منه. إذ روي أنه لما قتله اسود جسده، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلتَه ولذلك اسود جسدك، وتبرأ منه ومكث بعد ذلك مائة سنة لا يضحك، وعُدِمَ الظَّفْر بما فعله من أجله.

(٣٢) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بسببه قضينا عليهم، وأَجْل في الأصل مصدر أَجَلَ شَرًّا إذا جناه استُعمل في تعليل الجنايات كقولهم: من جَرَاك فعلته، أي من أن جررته أي جنيته، ثم اتسع فيه فاستُعمل في كل تعليل، ومِنْ ابتدائية متعلقة بكتبنا أي ابتداء الكَتْب ونشؤه من أجل ذلك. ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أو بغير فساد فيها كالشرك أو قطع الطريق. ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ من حيث إنه هتك حرمة الدماء وسن القتل وجرأ الناس عليه، أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها. ﴿وَلَقَدْ

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد كي يتحاموْا عنها وكثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها. والإسراف التباعد عن حد الاعتدال في الأمر[1].

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

(٣٣) ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جَعَل محاربتهم محاربتهما تعظيماً. وأصل الحرب السلب والمراد به ههنا قطع الطريق، وقيل المكابرة باللصوصية وإن كانت في مِصْر. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي مفسدين، ويجوز نصبه على العلة أو المصدر لأن سعيهم كان فساداً فكأنه قيل: ويفسدون في الأرض فساداً. ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾ أي قِصَاصاً من غير صلب إن أفردوا القتل. ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ أي يصلبوا مع القتل إن قَتَلوا وأخذوا المال، وللفقهاء خلاف في أنه يقتل ويصلب أو يصلب حياً ويترك أو يطعن حتى يموت. ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ تقطع أيديهم اليمنىٰ وأرجلهم اليسرى إن أخذوا المال ولم يَقْتلوا. ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ينفوْا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضع إن اقتصروا على الإخافة، وفسر أبو حنيفة النفي بالحبس، وأو في الآية على هذا للتفصيل، وقيل: إنه للتخيير والإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق. ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ذل وفضيحة. ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم.

(٣٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله سبحانه وتعالى، ويدل عليه قوله تعالى ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أما القتل قصاصاً فإلىٰ الأولياء يسقط بالتوبة وجوبُه لا جوازُه، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة يدل على أنها بعد القدرة لا تُسقط الحد وإن أسقطت العذاب، وأن الآية في قُطاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

---

(١) قوله: «ولقد جاءتهم رسلنا» صدر الآية بحرف التحقيق لكمال العناية بتحقق مضمونها.
وقال «جاءتهم» ولم يقل أرسلنا إليهم.. للتصريح بوصول الرسالة إليهم، فإنه أدل علىٰ تناهيهم في العتو والمكابرة.
وقوله «بعد ذلك» وضع اسم الإشارة موضع الضمير للإيذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة. وما فيه من معنىٰ البعد للإيماء إلى علوّ درجته وبعد منزلته في عظم الشأن.
و«ثم» للتراخي في الرتبة والاستبعاد (س ٣/ ٣٠).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾

(٣٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفىٰ منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، مِنْ وَسَل إلى كذا إذا تقرب إليه وفي الحديث «الوسيلة منزلة في الجنة»[1]. ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى والفوز بكرامته.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من صنوف الأموال. ﴿جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ واللام متعلقة بمحذوف تستدعيه لو، إذ التقدير لو ثبت أن لهم ما في الأرض، وتوحيد الضمير في به والمذكورُ شيئان: إما لإجرائه مجرىٰ اسم الإشارة في نحو قوله تعالى: ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾[2]، أو لأن الواو في «ومثله» بمعنى مع. ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ﴾ جواب لو، ولَوْ بما في حيزه خبرُ إن، والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تصريح بالمقصود منه، وكذلك قوله:

(٣٧) ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ وقرىء يُخْرَجُوا من أخرج وإنما قال ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ بدل وما يخرجون للمبالغة.

(٣٨) ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ جملتان عند سيبويه إذ التقدير فيما يتلى عليكم السارق والسارقة أي حكمُهُما وجملة عند المبرِّد، والفاء للسببية دخل الخبر لتضمنهما معنى الشرط إذ المعنى: والذي سرق والتي سرقت. وقرىء بالنصب، وهو المختار في أمثاله لأن الإنشاء لا يقع خبراً إلا بإضمار وتأويل[3]. والسرقةُ: أخذ مال الغير في خفية، وإنما توجب القطع إذا كانت من حِرْزٍ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٢٨٨ رقم ١١/ ٣٨٤).

(٢) البقرة: «٦٨».

(٣) قول البيضاوي (وهو المختار في أمثاله) لا يفيد اختيار قراءة النصب والتي قرأ بها عيسىٰ بن عمر على قراءة عامة القراء بالرفع.
وقد فهم البعضُ من كلام سيبويه أنه يختار قراءة النصب ويرجحها على قراءة عامة القراء بالرفع كما فهم منها الفخر الرازي في التفسير الكبير (١١/ ٢٢٢) وقد رد على سيبويه في ذلك مبيناً أن سيبويه طعن بالتواتر... وكذا فهم الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٩).
لكن أبا حيان وغيره دافعوا عن سيبويه مبينين أنه لم يقصد إلى ذلك. وذلك أن جملة الأمر لا يصح أن تكون خبراً إذا جُرِّدت عن الفاء، فلما دخلت الفاء عليها حَسُن ذلك. فسيبويه يقوي قراءة الرفع بسبب دخول الفاء علىٰ =

والمأخوذُ ربعُ دينار أو ما يساويه لقوله عليه الصلاة والسلام: «القطع في ربع دينار فصاعداً»[١] وللعلماء خلاف في ذلك لأحاديثَ وردت فيه، وقد استقصيت الكلام فيه في شرح المصابيح. والمراد بالأيدي الأَيمان، ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أَيمانهما، ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[٢] اكتفاءً بتثنية المضاف إليه، واليدُ اسمٌ لتمام العضو ولذلك ذهب الخوارج إلى أن المقطع هو المِنكب، والجمهور على أنه الرسغ لأنه عليه الصلاة والسلام أتي بسارق فأمر بقطع يمينه منه[٣]. ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ منصوبان على المفعول له، أو المصدر ودل على فعلهما فاقطعوا ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

(٣٩) ﴿فَمَن تَابَ﴾ من السراق. ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أي بعد سرقته. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أَمْرَه بالتقصي عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة. وأما القطع فلا يَسْقُطُ بها عند الأكثرين لأن فيه حقَّ المسروق منه.

(٤٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل أحد. ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدَّم التعذيب على المغفرة إيتاء على ترتيب ما سبق، أو لأن استحقاق التعذيب مُقدم، أو لأن المراد به القطع وهو في الدنيا.

(٤١) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي صنيع الذين يقعون في الكفر

= جملة الأمر «فاقطعوا» ولولاه لكان النصب أولىٰ. (انظر البحر المحيط ٣/ ٤٧٦ وروح المعاني ٦/ ١٣٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٩) بلفظ «تقطع يد السارق في ربع دينار» وأخرجه مسلم (٣/ ١٣١٢ ج٢ ـ ٣) بلفظ «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً».

(٢) التحريم: «٤».

(٣) أخرجه البغوي وأبو نعيم في معرفة الصحابة من حديث الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة.

(٤) قوله تعالى «والسارق والسارقة» لما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضاً ـ مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في الأحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة ـ وذلك لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة في الزجر (س ٣/ ٣٤).

سريعاً أي في إظهاره إذا وجدوا منه فرصة[١]. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين، والباء متعلقة بقالوا لا بآمنا، والواو تحتمل الحال والعطف. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ عطف على مِنَ الذين قالوا ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر محذوف أي هم سماعون. والضمير للفريقين، أو للذين يسارعون، ويجوز أن يكون مبتدأ ومِنَ الذين خبره أي ومن اليهود قوم سماعون. واللام في للكذب: إما مزيدة للتأكيد، أو لتضمين السماع معنى القبول، أي: قابلون لما تفتريه الأحْبار، أو للعلة والمفعول محذوف أي: سماعون كلامك ليَكْذِبوا عليك فيه. ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي لجمع آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك وتجافَوْا عنك تكبراً وإفراطاً في البغضاء، والمعنى على الوجهين أي مُصْغون لهم قابلون كلامَهم، أو سماعون منك لأجلهم والإنهاءِ إليهم، ويجوز أن تتعلق اللام بالكذب لأن سماعون الثاني مكرَّر للتأكيد أي: سماعون ليكذبوا لقوم آخرين. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي يُميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها، إما لفظاً: بإهماله أو تغيير وضعه، وإما معنىً: بحمْلهِ على غير المراد وإجرائه في غير مورده. والجملة صفةٌ أخرى لقوم، أو صفة لسماعون، أو حال من الضمير فيه، أو استئناف لا موضع له، أو في موضع الرفع خبراً لمحذوف أي هم يحرفون، وكذلك ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ أي إن أوتيتم هذا المحرف فاقبلوه واعملوا به. ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم محمد بخلافه ﴿فَٱحْذَرُواْ﴾ أي احذروا قبول ما أفتاكم به. روي أن شريفاً من خيبر زنىٰ بشريفة، وكانا محصنين، فكرهوا رجمهما، فأرسلوهما مع رَهْط منهم إلىٰ بني قريظة ليسألوا رسولَ الله ﷺ عنه وقالوا: إن أَمَرَكم بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا، فَأَمَرَهم بالرجم، فأبوْا عنه، فَجَعَلَ ابنَ صوريا حكماً بينه وبينهم وقال له: «أُنْشِدُك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هلْ تجدون فيه الرجم على من أحصن؟» قال: نعم، فوثبوا عليه، فقال: خِفْت إن كَذَبْتُه أن يَنْزل علينا العذاب، فأمر رسول الله ﷺ بالزانيين فَرُجِما عند باب المسجد[٢]. ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ ضلالته أو فضيحته. ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر، وهو كما ترى نص على فساد قول المعتزلة. ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) قوله تعالىٰ «يا أيها الرسول..» خوطب عليه السلام بعنوان الرسالة للتشريف والإشعار بما يوجب عدم الحزن.
وقوله «يسارعون في الكفر» فآثر كلمة «في» علىٰ كلمة «إلىٰ» كما في قوله تعالىٰ: «وسارعوا إلى مغفرة..» ـ آل عمران «» ـ للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلىٰ بعض آخر (س ٣/ ٣٦).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي، وابن المنذر ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٧٥) ـ وليس فيه ذكر (خيبر) وفيه (إن أحبار اليهود اجتمعوا في بيت المدارس حين قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقد زنى رجل بعد إحصانه بامرأة من اليهود)، فذكر نحوه.
وأخرجه ابن جرير (٤/ج٦/ ٢٣٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) من حديث أبي هريرة. وإسناده ضعيف لجهالة رجل من مزينة.
وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر، فقد أخرجه البخاري (٦/ ٦٣١ رقم ٣٦٣٥) و(١٢/ ١٦٦ رقم ٦٨٤١) و(١٣/ ٥١٦ رقم ٧٥٤٣) ومسلم (٣/ ١٣٢٦ رقم ٢٦/ ١٦٩٩).

خِزْيٌ﴾ هَوَانٌ بالجزية والخوف من المؤمنين. ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الخلود في النار. والضمير للذين هادوا إن استأنفْتَ بقوله: «ومن الذين وإلا فللفريقين».

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

(٤٢) ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرره للتأكيد. ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي الحرام كالرُّشا، مِنْ سَحَتَهُ إذا استأصَلَه لأنه مسحوت البركة. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب في المواضع الثلاثة بضمتين وهما لغتان كالعُنْق والعُنُق، وقرىء بفتح السين على لفظ المصدر. ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا تحاكموا إليه بين الحُكْم والإعراض، ولهذا قيل: لو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم، وهو قول للشافعي، والأصح وجوبُه إذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً لأنا الْتزمنا الذبّ عنهم ودفعَ الظلم منهم، والآية ليست في أهل الذمة، وعند أبي حنيفة يجب مطلقاً. ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ بأن يعادوك لإعراضك عنهم فإن الله سبحانه وتعالى يعصمك من الناس. ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل الذي أمر الله به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ فيحفظهم ويعظم شأنهم.

(٤٣) ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ تعجيبٌ من تحكيمهم مَنْ لا يؤمنون به، والحالُ أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيهٌ على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامةَ الشرع. وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم وإن لم يكن حُكْمَ الله تعالى في زعمهم، و﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ حال من التوراة إن رفعتها بالظرف، وإن جَعَلْتَها مبتدأً فمِنْ ضميرها المستكن فيه، وتأنيثها لكونها نظيرة المؤنث في كلامهم لفظاً كمُوماة ودوداة. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم، وهو عطف على يحكمونك داخِلٌ في حكم التعجيب. ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بكتابهم لإعراضهم عنه أولاً وعما يوافقه ثانياً، أو بك وبه.

(٤٤) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الحق. ﴿وَنُورٌ﴾ يكشف عما استُبْهِم من الأحكام. ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، أو موسى ومَنْ بعده إن قلنا شَرْعُ مَنْ قبلَنا شرعٌ لنا ما لم يُنْسَخ، وبهذه الآية تمسك القائل به. ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ صفة أجريت على النبيين مدحاً لهم وتنويهاً بشأن المسلمين، وتعريضاً باليهود وأنهم بمعزل عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتفاءِ هديهم. ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ متعلق بأنزل، أو بيحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم، وهو يدل على أن

النبيين أنبياؤهم[١]. ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ زُهَّادهم وعلماؤهم السالكون طريقةَ أنبيائهم، عطف على النبيون ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف، والراجع إلى «ما» محذوفٌ، ومِنْ للتبيين. ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ رقباء لا يتركون أن يغير، أو شهداء يبينون ما يَخْفىٰ منه كما فعل ابنُ صوريا. ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ نهي للحكام أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ويُداهِنوا فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾ ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتُها. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو الرِّشوة والجاه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهيناً به منكِراً له. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله: الكافرون والظالمون والفاسقون، فكفرهم لإنكاره، وظلمهم بالحكم على خلافه، وفسقهم بالخروج عنه. ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حالٍ انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمةً لها، أو لطائفة كما قيل هذه في المسلمين لاتصالها بخطابهم، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وفرضنا على اليهود. ﴿فِيهَآ﴾ في التوراة. ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي أن النفس تُقتل بالنفس. ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ رَفَعَها الكسائي على أنها جمل معطوفةٌ على أنَّ وما في حيزها باعتبار المعنىٰ وكأنه قيل: وكتبنا عليهم النفسُ بالنفسِ، والعينُ بالعين، فإن الكتابة والقراءة تقعان على الجُمَل كالقول، أو مستأنفةٌ ومعناها: وكذلك العينُ مفقوءةٌ بالعين، والأنفُ مجدوعة بالأنف، والأذُنُ مصلومة بالأذن، والسن مقلوعة بالسن أو على أن المرفوع منها معطوف على المستكن في قوله بالنفس وإنما ساغ لأنه في الأصل مفصول عنه بالظرف والجار والمجرور حال مبيِّنة للمعنىٰ، وقرأ نافع والأُذْن بالأُذْن وفي أُذُنيه بإسكان الذال حيث وقع. ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص، وقرأة الكسائي أيضاً بالرفع ووافقه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر على أنه إجمال للحكم بعد التفصيل. ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين[٢]. ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص أي فمن عفا عنه. ﴿فَهُوَ﴾ فالتصدق. ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ للمتصدق يكفِّر الله به ذنوبه. وقيل للجاني يُسقط عنه ما لزمه. وقرىء فهو كفارته له، أي فالمتصدق كفارته التي يستحقها بالتصدق له لا ينقص منها شيء. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القصاص وغيره. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

---

(١) قوله «للذين هادوا» وَسَّطهم بين النبيين وبين الربانيين والأحبار للإيذان بأن الأصل في الحكم بها وحمل الناس علىٰ ما فيها هم النبيون، وإنما الربانيون والأحبار خلفاء ونواب لهم في ذلك، كما ينبىء عنه قوله تعالى: «بما استحفظوا..» (س ٣/ ٤١).

(٢) عبر عنه بالتصدق للمبالغة في الترغيب (س ٣/ ٤٣).

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٦) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي وأتبعناهم على آثارهم، فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه، والضمير للنبيون. ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ مفعولٌ ثان، عدِّي إليه الفعل بالباء. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وقرىء بفتح الهمزة. ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ في موضع النصب بالحال. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عطف عليه وكذا قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] ويجوز نصبهما على المفعول له عطفاً على محذوف، أو تعلقاً به، وعَطْفَ.

(٤٧) ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ عليه في قراءة حمزة[2]، وعلى الأول اللامُ متعلقة بمحذوفٍ أي وآتيناه ليحكم، وقرىء وأَنْ لِيَحْكم على أَنَّ أَنْ موصولة بالأمر كقولك: أمرتك بأن قم أي وأَمَرنا بأن ليحكم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ عن حكمه أو عن الإيمان إن كان مستهيناً به والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع، وحملها على وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خِلافُ الظاهر.

(٤٨) ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من جنس الكتب المنزلة، فاللام الأولى للعهد والثانية للجنس. ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ورقيباً على سائر الكتب يحفظه عن التغيير ويشهد له بالصحة والثبات. وقرىء على بُنْية المفعول أي هُومِنَ عليه وحُوفظ من التحريف والحافظ له هو الله سبحانه وتعالى، أو الحفّاظ في كل عصر. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي بما أنزل الله إليك[3]. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه، فعن صلةٌ لِلاَ تتَّبع لتضمنه معنىٰ لا تنحرف، أو حال من فاعله أي لا تتبع أهواءهم مائلاً عما جاءك. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الناس. ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة وهي الطريق إلى الماء، شُبِّه بها الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية. وقرىء بفتح الشين. ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقاً واضحاً في الدين من نهج الأمرُ إذا وضح. واستدل به على أنا غير متعبدين بالشرائع المتقدمة. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعة

---

(١) تخصيص كونه هدًى وموعظة بالمتقين لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه (س ٣/ ٤٣).

(٢) قراءة حمزة بكسر اللام «وَلِيَحْكُمَ».

(٣) قدم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم. ووضَع الموصول موضع الضمير للتنبيه علىٰ علية ما في حيز الصلة للحكم. والالتفاف بإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم (س ٣/ ٤٥).

متفقة على دين واحد في جميع الأعصار من غير نسخ وتحويل، ومفعول لو شاء محذوفٌ دل عليه الجواب، وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعَكم على الإسلام لأجبركم عليه. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لكل عصر وقرن، هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى الحكمة الإلهية، أم تزيغون عن الحق وتفرّطون في العمل. ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدم. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ استئناف فيه تعليل الأمر بالاستباق ووعد ووعيد للمبادرين والمقصرين. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل والعامل والمقصر.

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٩) ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ عطف على الكتاب أي أنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأنْ احكم، ويجوز أن يكون جملة بتقدير وأُمِرْنا أن احكم. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أن يضلوك ويصرفوك عنه، وأنْ بصلته بدل من هُمْ بدلُ الاشتمال أي احذر فتنتهم، أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك. روي أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إنْ اتبعناك اتَّبَعَنا اليهودُ كلهم، إنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ. فنزلت[1]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره. ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني ذنب التولي عن حكم الله سبحانه وتعالى، فعبّر عنه بذلك تنبيهاً على أن لهم ذنوباً كثيرة وهذا مع عظمه واحد منها معدود من جملتها، وفيه دلالة على التعظيم كما في التنكير ونظيره قول لبيد:

أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضُ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ لمتمردون في الكفر معتدون فيه.

(٥٠) ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾ الذي هو الميل والمداهنة في الحكم، والمراد بالجاهلية الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوىٰ. وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلىٰ[2]. وقرىء برفع الحكم على أنه مبتدأ ويبغون

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ج٦/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٣٦) وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٩٦ ـ ٩٧) ـ كلهم من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. وفيه محمد بن أبي محمد مجهول.

(٢) أخرج ابن أبي شيبة نحوه عن الشعبي قال: كان بين حيين من العرب قتال... فذكر القصة (الكافي الشاف

خبره، والراجعُ محذوف حَذَفَه في الصلة في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[١] واستُضْعف ذلك في غير الشعر، وقرىء أَفَحَكَمَ الجاهلية أي يبغون حاكماً كحكام الجاهلية يحكم بحسب شهيتهم، وقرأ ابن عامر تبغون بالتاء على قُلْ لهم أفحكم الجاهلية تبغون. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي عندهم، واللام للبيان كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[٢] أي هذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم فيعلمون أن لا أحسن حكماً من الله سبحانه وتعالى[٣].

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إيماء إلىٰ علة النهي، أي فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادتكم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتراءى ناراهما»[٤] أو لأن المَوالي لهم كانوا منافقين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، أو المؤمنين بموالاة أعدائهم[٥].

= ص٥٤ رقم ٤٥٥).

(١) الفرقان: «٤١».

(٢) يوسف: «٢٣».

(٣) قوله «أفحكمَ الجاهلية» قدم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولي عن حكمه عليه السلام وطلب حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب (س ٣/ ٤٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥) والترمذي (١٦٠٤) مرفوعاً من حديث جابر، وأخرجه النسائي (٤٧٨٤) عن قيس مرسلاً، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ١٣٤ ج٣٨٣٦) من حديث خالد بن الوليد، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٥/ ٢٥٣) فهو حديث صحيح وصححه الألباني في الإرواء رقم (١٢٠٧) وفي صحيح الجامع (٢/ ١٦).

(٥) قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا» وصفهم بعنوان الإيمان لحملهم من أول الأمر علىٰ الانزجار عما نهوا عنه.
وقوله «بعضهم أولياء بعض» أوثر الإجمال في البيان تعويلاً على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين فريقي اليهود والنصارىٰ.
وقوله «لا يهدي القوم الظالمين» وضع المظهر «الظالمين» موضع ضميرهم تنبيهاً على أن توليهم ظلم =

(٥٢) ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني ابن أبيّ وأضرابه[١]. ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم[٢]. ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. روي أن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال لرسول الله ﷺ: إن لي مواليَ من اليهود كثيراً عددهم، وإني أبرأ إلىٰ الله والىٰ رسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله، فقال ابن أبيّ: إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية موالي. فنزلت[٣]. ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يقطع شأفة اليهود من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم. ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أي هؤلاء المنافقون. ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾ على ما استبطنوه من الكفر والشك في أمر الرسول ﷺ، فضلاً عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم.

(٥٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالرفع قراءةُ عاصم وحمزة والكسائي علىٰ أنه كلام مبتدأ، ويؤيده قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعاً بغير واو على أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ، وبالنصب قراءة أبي عمرو ويعقوب عطفاً على أن يأتي باعتبار المعنى، وكأنه قال: عسىٰ أن يأتي الله بالفتح ويقولَ الذين آمنوا، أو يجعله بدلاً من اسم الله تعالى داخلاً في اسم عسىٰ مُغْنياً عن الخبر بما تضمنه من الحدث، أو على الفتح بمعنىٰ عسىٰ الله أن يأتي بالفتح وبقول المؤمنين فإن الإتيان بما يوجبه كالإتيان به. ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ بقول المؤمنين بعضهم لبعض تعجباً من حال المنافقين وتبجحاً بما منَّ الله سبحانه وتعالىٰ عليهم من الإخلاص، أو يقولونه لليهود. فإن المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكىٰ الله تعالى عنهم: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾[٤] وجَهْدُ الأيمان أغلظُها، وهو في الأصل مصدر، ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم، فحُذِف الفعل وأقيم المصدر مقامه ولذلك ساغ كونها معرفة، أو على المصدر لأنه بمعنىٰ أقسموا. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ إما من جملة المقول، أو من قول الله سبحانه وتعالى شهادة لهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم.

(٥٤) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ قرأه على الأصل نافع وابن عامر وهو كذلك في الإمام[٥]، والباقون بالإدغام. وهذا من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها، وقد ارتد من

= (س ٣/ ٤٨).

(١) وضع الموصول موضع الضمير للإشارة إلى أن ما ارتكبوه بسبب مرض النفاق (س ٣/ ٤٨).

(٢) وعدىٰ فعل المسارعة بفي للدلالة على استقرارهم في الموالاة.. (س ٣/ ٤٨).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٢٧٥) وابن أبي شيبة ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٩٩) من رواية عطية بن سعد.
وأخرج ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٢٧٥) من طريق ابن إسحاق عن إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت.

(٤) الحشر: «١١».

(٥) أي بدالين «يَرْتَدِدْ».

العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج وكان رئيسهم ذا الخمار الأسود العنسي، تنبّأ باليمن واستولى على بلاده ثم قتله فيروزُ الديلمي ليلةَ قُبِضَ رسول الله ﷺ من غدها وأَخْبر الرسولُ ﷺ في تلك الليلة فسُرَّ المسلمون وأتى الخبرُ في أواخر ربيع الأول[1]. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة تنبأَ وكتبَ إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ﷺ أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجاب: «من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» فحاربه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بجند من المسلمين وقتله وَحْشيُّ قاتلُ حمزة. وبنو أسد قومُ طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسولُ الله ﷺ خالداً فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسُن إسلامه. وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه سبعٌ: فَزَارة قوم عيينة بن حصن، وغَطَفان قوم قرة بن سلمة القشيري، وبنو سُلَيْم قوم الفجاءة بن عبد يا ليل، وبنو يُربوع قوم مالك بن نويرة، وبعضُ تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة زوجة مسيلمة، وكِنْدة قوم

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف (ص٥٥ رقم ٤٦٠): «وفي هذا الكلام من التخليط غير شيء، فإنَّ قوله: استولى على بلاد اليمن وأخرج عمال رسول الله ﷺ، ظاهره يقتضي أن لا يبقى منهم هناك أحد وليس الأمر كذلك، بل بقي منهم على ما كان عليه جماعة منهم من المهاجرين: ابن أبي أمية ومعه جميع السواحل. وكان باليمن أيضاً معاذ بن جبل وغيره من عمال رسول الله ﷺ في سواحل اليمن، وإنما استولى العنسي على صنعاء، وبعض البلاد الجبالية. وقد نقض الزمخشري ـ والقاضي ـ كلامه بقوله: فإنه ﷺ كتب إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. ولكن الجمع بين كلاميه: بأن مراده، إخراج عمال رسول الله ﷺ الذين حاربهم فيكون المراد إخراج بعضهم لا جميعهم» هـ.

وقال ابن حجر أيضاً في الكافي الشاف (رقم: ٤٦١). قوله: في آخر شهر ربيع الأول: ليس بصحيح فإنه ﷺ مات في أول شهر ربيع الأول. وقيل: في ثامنه. وقيل: في ثاني عشر. وسيأتي بيان الاختلاف في وقت المجيء برأس الأسود وقصة الأسود العنسي قد أخرجها مطولة جميع من صنف في الردة كابن إسحاق والواقدي وسيف بن عمر. وسيمة بن الفرات. وأخرجها الحاكم في الإكليل والبيهقي في الدلائل. قال الواقدي: اسم الأسود ذو الخمار. وقال غيره: اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار، لأنه كان يلقي على وجهه قناعاً ويهمهم. وكان له شيطانان أحدهما سحيق والآخر بشقيق، قال الواقدي: وملك الأسود نجران وأقام بها ستة أشهر ثم خرج في ستمائة ممن تبعه إلى صنعاء فحاصر الأساورة منهم باذان، وفيروز ودادويه في آخرين، وكانوا أسلموا وأرسلوا بإسلامهم فردة بن مسك المرادي فاقتتل الفريقان حتى غلب الأسود فقتل منهم طائفة، وخيَّر طائفة بين أن يخرجوا من صنعاء إلى بلد آخر ويقيموا بها ويضرب عليهم الخراج ويصيروا عبيداً له. واصطفى الأسود المرزبانة امرأة باذان لنفسه. وكانت جميلة وكان يشرب الخمر ويقع عليها ولا يغتسل ولا يصلي، فكرهته المرزبانة وأرسلت الأساورة وفيهم فيروز. فواعدتهم البستان في الوقت الذي يسكر فيه الأسود. فدخل عليه فيروز ودادويه وقيس بن مكشوح وهو سكران. فقالت المرزبانة: لفيروز وهو أحدثهم سناً: دونك الرجل. قال فيروز: كنت قد أنسيت سيفي من الدهش فوقعت على الأسود فخنقته حتى حوّلت وجهه إلى قفاه. ثم دخل صاحباه فحرزوا رأسه. واجتمع الأساورة بباب المدينة يقتلون أصحاب العنس. فذكر تمام القصة. إنما اختصرناها.

وروى النسائي من حديث عبدالله بن فيروز الديلمي عن أبيه قال: «أتيت النبي ﷺ برأس الأسود العنسي» قال عبدالحق: لا يصح في هذا الباب شيء. وتعقبه ابن القطان بأن إسناد النسائي صحيح، ولا يعارضه ما جاء أن الخبر بقتله إنما جاء أثر موت النبي ﷺ لأن رواية النسائي ليس فيها التصريح أنه صادف النبي ﷺ. نعم رواية الطبري زيادة تدل على ذلك» هـ. =

الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قومُ الحطم بن زيد، وكفىٰ اللهُ أمرهم على يده، وفي إمرة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه غسانُ قوم جِبلّة بن الأيهم تنصّر وسار إلى الشام. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قيل هم أهل اليمن لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: «هم قوم هذا»[١] وقيلَ الفُرْس لأنه عليه الصلاة والسلام سئل عنهم فضرب يده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه»[٢]. وقيل الذين جاهدوا يوم القادسية ألفان من النّخع وخمسة آلاف من كِنْدة وبَجِيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس. والراجع إلىٰ مَنْ محذوف تقديره فسوف يأتي الله بقوم مكانُهم. ومحبةُ الله تعالى للعباد إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، ومحبة العباد له إرادة طاعته والتحرز عن معاصيه[٣]. ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم، جمع ذليل لا ذَلُول فإن جمعَه ذُلُل، واستعماله مَعَ «علىٰ» إما لتضمنه معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خاضعون لهم أو للمقابلة. ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ شِداد متغلبين عليهم مِنْ عَزَّهُ إذا غلبه. وقرىء بالنصب على الحال[٤]. ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى لقوم، أو حال من الضمير في أعزة. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه. أو حال بمعنى أنهم مجاهدون وحالُهم خلافُ حال المنافقين، فإنهم يَخْرجون في جيش المسلمين خائفين ملامَةَ أوليائهم من اليهود فلا يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم. واللومَةُ المرَّة من اللوم، وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يمنحه ويوفق له ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفضل. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٧١ رقم ١٠١٦) وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦) وقال: رجاله رجال الصحيح.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٣) من حديث عياض الأشعري وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
وأخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ ٦٩٠/ ٢٨٤) من طرق وفي إحدى طرقه (عن عياض عن أبي موسى نفسه) كما أخرج عن شريح بن عبيدة نحوه، وساق أقوالاً وآثاراً في تفسير هذه الآية ورجح ما روي عن عياض الأشعري.

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٦٤): «هكذا رواه. وهو وهم منه فإن هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة ـ (٣) ـ من طريق أبي الغيث عن أبي هريرة وهو متفق عليه ـ البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧) ومسلم (٤/ ١٩٧٢ رقم ٢٣١) ـ وفي آية القتال ـ يعني سورة محمد الآية ٣٨ ـ رواه الترمذي ـ (٥/ ٣٨٣ رقم ٣٢٦٠) ـ وقال: حديث غريب في إسناده مقال. لأن فيه شيخاً مجهولاً من أهل المدينة ـ من حديث أبي هريرة ـ.
قلت: وانظر تفسير الآية (١٣٣) من سورة النساء.

(٣) انظر التعليق على محبة الله للعباد ومحبة العباد لله وحقيقة ذلك الآية «١٦٥» من سورة البقرة.

(٤) قوله «أذِلّة.. أعِزّة» صفتان لقوم وترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما (س٣/ ٥١).

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لما نهىٰ عن موالاة الكفرة ذكر عقبيه من هو حقيق بها، وإنما قال وليكم الله ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالىٰ على الأصالة ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة للذين آمنوا فإنه جرىٰ مجرى الاسم، أو بدل منه، ويجوز نصبه ورفعُه على المدح. ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ متخشعون في صلاتهم وزكاتهم، وقيل هو حال مخصوصة بيُؤْتون، أو يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومسارعةً إليه. وإنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمة[1]، واستدل بها الشيعةُ على إمامته زاعمين أن المراد بالولي المتولّي للأمور والمستحق للتصرف فيها، والظاهرُ ما ذكرناه، مع أن حمل الجمع على الواحد أيضاً خلاف الظاهر، وإن صح أنه نزل فيه فلعله جيء بلفظ الجمع لترغيب الناس في مثل فعله فيندرجوا فيه، وعلىٰ هذا يكون دليلاً على أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها وأن صدقة التطوع تسمى زكاة.

(٥٦) ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ومن يتخذهم أولياء. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي فإنهم هم الغالبون، ولكنْ وَضَعَ الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على البرهان عليه فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزبُ الله هم الغالبون وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حَزَبَهمْ.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ﴾ نزلت في رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٦٣): «رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن كهيل قال تصدق علي بخاتمة وهو راكع فنزلت «إنما وليكم الله ورسوله» ولابن مردويه من رواية سفيان الثوري عن ابن سنان عن الضحاك، عن ابن عباس قال كان علي قائماً يصلي، فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمة فنزلت ـ قلت: الضحاك لم يلقَ ابن عباس ـ وروى الحاكم في علوم الحديث ـ ص١٠٢ ـ من رواية عيسى بن عبدالله بن عمر بن علي. حدثنا أبي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب قال: نزلت هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله» الآية. فدخل رسول الله ﷺ المسجد، والناس يصلون بين قائم وراكع وساجد، وإذا سائل فقال له رسول الله ﷺ أعطاك أحد شيئاً، قال: لا. إلاَّ هذا الراكع يعنى علياً أعطاني خاتمه. رواه الطبراني في الأوسط ـ (المجمع: ٧/ ١٧) وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم ـ في ترجمة محمد بن على الصائغ. وعند ابن مردويه من حديث عمار بن ياسر، قال: وقف بعلي سائل وهو واقف في صلاته. الحديث وفي إسناده خالد بن يزيد العمري. وهو متروك ـ المجروحين (١/ ٢٨٤) والميزان (١/ ٦٤٦) ـ ورواه الثعلبي من حديث أبي ذر مطولاً وإسناده ساقط» هـ. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٧٤) فقد ساق هذه الآثار وضعفها كلها. وقال: هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت كما تقدم... قلت: وهذا هو الصواب.

يوادُّونهما[١]. وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هزواً ولعباً إيماءً إلى العلة وتنبيهاً على أن مَنْ هذا شأنُه بعيد عن الموالاة جدير بالمعاداة والبغضاء. وفَصّل المستهزئين بأهل الكتاب والكفارِ على قراءة من جَرّه وهم أبو عمرو والكسائي ويعقوب. والكفارُ وإن عمّ أهل الكتاب يطلق على المشركين خاصة لتضاعف كفرهم، ومَنْ نصبه عطفَه على الذين اتخذوا على أن النهي عن موالاة مَنْ ليس على الحق رأساً سواءٌ مَنْ كان ذا دين تَبِع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك المناهي. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان حقاً يقتضي ذلك. وقيل إن كنتم مؤمنين بوعده ووعيده[٢].

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

(٥٨) ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي اتخذوا الصلاة أو المناداة، وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة. روي: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أَحْرَقَ اللهُ الكاذب، فدخل خادمُه ذات ليلة بنار وأَهْلُه نيام فتطاير شررُها في البيت فأحرقَه وأهلَه[٣]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهزؤ به، والعقل يمنع منه.

(٥٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ هل تُنكرون منا وتُعيبون، يقال نَقَم منه كذا إذا أنكره وانتقَمَ إذا كافأه. وقرىء تَنْقَمُون بفتح القاف وهي لغة. ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ الإيمان بالكتب المنزّلة كلها. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ عطف على أَنْ آمنا وكأن المستثنى لازمُ الأمرين وهو المُخالفة أي: ما تنكرون منا إلا مخالَفَتكم حيث دَخَلْنا الإيمان وأنتم خارجون منه، أو كان الأصلُ واعتقاد أَنّ أكثركم فاسقون فَحُذِف المضاف، أو على مَا أَيْ: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أُنزِل وبأن أكثركم فاسقون، أو على علة محذوفة والتقدير: هل تنقمون منا إلا أنْ آمنا لقلة إنصافكم وفِسْقكم، أو نصب بإضمار فِعْلٍ يدل عليه هل تنقمون أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو رفعٌ على الابتداء والخبرُ محذوفٌ أي: وفسقُكم ثابت معلوم عندَكم ولكنْ حبُّ الرياسة والمال يمنعكم عن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٩٠) وابن المنذر وابن أبي حاتم، وفي سنده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول (الفتح السماوي وتخريجه ص٥٧٣).

(٢) قوله «من الذين أوتوا الكتاب» تعرض لعنوان إيتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم، لأن إيتاء وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدِّق لكتابهم (س٣/ ٥٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ ج٦/ ٢٩١) عن السدي. وفي إسناده ضعف.

الإنصاف[١]. والآية خطاب ليهود سألوا رسول الله ﷺ عمّن يؤمن به فقال: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾[٢] إلى قوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى: لا نعلم ديناً شراً من دينكم[٣].

(٦٠) ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي من ذلك المنقوم. ﴿مَّثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ جزاء ثابتاً عند الله سبحانه وتعالى. والمثوبةُ مختصة بالخير كالعقوبة بالشر فوضعت ههنا موضعها على طريقة قوله:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِم ضَرْبٌ وَجِيع

ونصبُها على التمييز عن بِشَرٍّ. ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ بدلٌ مِنْ بِشَرٍّ على حذف مضاف أي بشرٌ من أهل ذلك مَنْ لعنه الله، أوْ بشر مِنْ ذلك دينُ مَنْ لعنه الله، أو خبرٌ محذوف أي هو من لعنه الله وهم اليهود أبعدهُم الله من رحمته وسَخِط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، ومَسَخَ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام. وقيل كِلا المسخين في أصحاب السبت مُسِخَت شُبّانهم قردة ومشايخُهم خنازير. ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ عطف علىٰ صلة مَنْ، وكذا عُبِدَ الطاغوتُ على البناءِ للمفعول ورفعِ الطاغوت، وعُبِدَ بمعنى صار معبوداً، فيكون الراجعُ محذوفاً أي فيهم أو بينهم، ومن قرأ وعَابِدَ الطاغوت أو عَبِدَ على أنه نعت كفَطِن ويَقِظ أو عَبَدَةَ أو عَبَدَ الطاغوتِ على أنه جمع كخدم أو أن أصله عبدة فحذف التاء للإضافة عطَفَهُ على القردة، ومَنْ قرأ وعَبُدِ الطاغوتِ بالجرّ عطفه على مَنْ. والمراد من الطاغوت العجل، وقيل الكهنة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الملعونون. ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جَعَلَ مكانهم شراً ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم، وقيل مكاناً منصرفاً. ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قَصَدَ الطريقَ المتوسط بين غلوّ النصارى وقدح اليهود، والمراد من صيغتي التفضيل الزيادة مطلقاً لا بالإضافة إلى المؤمنين في الشرارة والضلالة.

وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

(٦١) ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نزلت[٤] في يهود نافقوا رسولَ الله ﷺ، أو في عامة المنافقين. ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثّر فيهم ما سمعوا منك. والجملتان حالان من فاعل قالوا، وبالكفر وبه حالان من فاعِلَيْ دخلوا وخرجوا. وقَدْ ـ وإن دخلت لتقريب

---

(١) وأسند الفسق لأكثرهم لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرد والعناد (س٣/ ٥٤).

(٢) البقرة: «١٣٦».

(٣) أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٩٢) عن ابن عباس، وفي سنده محمد بن أبي محمد وهو مجهول. وأخرجه البيهقي في الدلائل (٦/ ٢٧٥) وفي إسناده الكلبي وهو متروك.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٢٩٦) وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ـ كما في الدر المنثور (٣/ ١١٠) ـ.

الماضي من الحال ليصحَّ أن يقع حالاً ـ أفادت أيضاً ـ لما فيها من التوقع ـ أنّ أمارة النفاق كانت لائحةً عليهم، وكان الرسول ﷺ يظنه ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم.

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من اليهود، أو من المنافقين. ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ أي الحرام وقيل الكذب لقوله: ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾[1] ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم، أو مجاوزة الحد في المعاصي. وقيل الإثم ما يختص بهم، والعدوان ما يتعدىٰ إلى غيرهم. ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي الحرام خصه بالذكر للمبالغة. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لبئس شيئاً عملوه.

(٦٣) ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أبلغ من قوله لبئس ما كانوا يعملون من حيثُ إن الصنع عملُ الإنسان بعد تدرّب فيه وتروٍّ وتحري إجادة، ولذلك ذَمَّ به خواصَّهم، ولأن ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية، لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها ولا كذلك ترك الإنكار عليها فكان جديراً بأبلغ الذم.

(٦٤) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي هو ممسِك يُقتِّر بالرزق، وغَلُّ اليد وبسطُها مجاز عن البخل والجود، ولا قصد فيه إلى إثباتِ يَدٍ وغلٍّ وبسطٍ، ولذلك يستعمل حيث لا يُتصور ذلك كقوله:

جادَ الحِمَى بَسَطَ اليدينِ بِوابلٍ شكَرَتْ نَداهُ تِلاعُهُ وَوِهادُه

ونظيره من المجازات المركبة: شابت لمّة الليل. وقيل معناه إنه فقير لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[2]. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ دعاء عليهم بالبخل والنكد، أو بالفقر والمسكنة، أو بغَلّ الأيدي حقيقة يُغَلُّون أَسَارىٰ في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة فتكون المطابقة من حيث اللفظُ وملاحظة الأصل كقولك: سبَّني سبّ اللهُ دابِرَه. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ثَنّىٰ اليد مبالغةً في الرد ونفي البخل عنه تعالى، وإثباتاً لغاية الجود. فإن غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيَه

---

(١) المائدة: «٦٣».

(٢) آل عمران: «١٨١».

بيديه، وتنبيهاً على منح الدنيا والآخرة وعلى ما يُعطىٰ للاستدراج وما يُعطىٰ للإكرام. ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تأكيد لذلك أي هو مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته، لا علىٰ تَعَاقُب سَعَةٍ وضيق في ذات يد، ولا يجوز جَعْلُه حالاً من الهاء للفصل بينهما بالخبر ولأنها مضاف إليها، ولا مِنَ اليدين إذ لا ضمير لهما فيه ولا من ضميرهما لذلك. والآيةُ نزلت في فنحاص بن عازوراء فإنه قال ذلك لما كفَّ الله عن اليهود ما بَسَط عليهم من السَّعة بشؤم تكذيبهم محمداً ﷺ، وأُشْرِك فيه الآخرون لأنهم رضُوا بقوله. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي هم طاغون كافرون ويزدادون طغياناً وكفراً بما يسمعون من القرآن كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء[1]. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فلا تتوافقُ قلوبُهم ولا تتطابق أقوالهم. ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ وإثارةَ شرٍّ عليه ردهم الله سبحانه وتعالى بأن أوقع بينهم منازعةً كفّ بها عنه شرهم، أو كلما أرادوا حربَ أحدٍ غُلبوا فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله عليهم بَخْتنصر ثم أفسدوا فسلّط عليهم فطرس الرومي ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمين. وللحرب صلةُ أوقدوا أو صفة ناراً. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي للفساد وهو اجتهادهم في الكيد وإثارة الحروب والفتن وهتك المحارم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فلا يجازيهم إلا شراً.

(٦٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به. ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما عددنا من معاصيهم ونحوه. ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي فعلوها ولم نؤاخذهم بها. ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وجعلناهم داخلين فيها. وفيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه وإنْ جَلَّ، وأنّ الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يُسْلم[2].

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بإذاعة ما فيهما من نعت محمد عليه الصلاة والسلام والقيام بأحكامها. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني سائر الكتب المنزلة فإنها من حيث إنهم مكلفون بالإيمان بها كالمنزّل إليهم، أو القرآن[3] ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لوسّع عليهم أرزاقَهم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض، أو يكثر ثمرة الأشجار وغَلة الزروع، أو يرزقهم الجنان اليانعةَ الثمارِ. فيجتنونَها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض. بَيَّن بذلك أنّ ما كُفَّ عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا لقُصورِ الفيض، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين. ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ عادلة غير غاليَة ولا مقصّرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، وقيل مقتصدة متوسطة في عداوته. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس ما يعملونه، وفيه معنى التعجب أي ما أَسْوَأَ عَمَلَهم وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراضُ عنه والإفراط في العداوة.

---

(١) قدم المفعول «كثيراً» للاعتناء به. وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لأن بعضهم ليس كذلك (س٣/ ٥٨).

(٢) وإيرادهم بعنوان أهل الكتاب للتشنيع عليهم لأن أهلية الكتاب توجب إيمانهم به وإقامتهم له (س٣/ ٥٩).

(٣) وإضافة الرب إلى ضميرهم مزيد لطف بهم في الدعوة إلى الإقامة (س٣/ ٦٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٧) ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ جميع ما أنزل إليك غيرَ مراقبٍ أحداً ولا خائف مكروهاً. ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾ وإن لم تبلغ جميعَه كما أمرتُك. ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فما أديت شيئاً منها، لأن كِتمان بعضها يضيع ما أُدِّي منها كترك بعض أركان الصلاة، فإن غرض الدعوة ينتقض به، أو فكأنك ما بلغت شيئاً منها كقوله: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1] من حيث إن كِتمان البعض والكل سواءٌ في الشفاعة واستجلاب العقاب. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر رسالاتِه بالجمع وكسر التاء. ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ عِدَةٌ وضمان من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه صلى الله عليه وسلم من تعرض الأعادي وإزاحةٌ لمعاذيره. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لا يمكنهم مما يريدون بك. وعن النبي ﷺ: «بعثني الله برسالاته فضِقْتُ بها ذرعاً، فأوحىٰ الله تعالى إليَّ إن لم تبلغ رسالتي عذبتُك، وضمن لي العصمةَ فقَويتُ»[2]. وعن أنس رضي الله تعالى عنه، كان رسول الله ﷺ يُحرَسُ حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبةِ أَدَمٍ فقال: «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس»[3]. وظاهرُ الآية يوجب تبليغ كل ما أُنزِل، ولعل المرادَ به تبليغُ ما يتعلق به مصالح العباد، وقَصَدَ بإنزاله إطلاعهَم عليه فإن من الأسرار الإلهية ما يَحْرُم إفشاؤه.

(٦٨) ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أيْ دينٍ يُعتدُّ به ويصح أن يسمىٰ شيئاً لأنه باطل ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ والإذعانُ لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها آمرة بالإيمان بمن صدقه والمعجزةُ ناطقةٌ بوجوب الطاعة له، والمرادُ إقامةُ أصولها وما لم ينسخ من فروعها[4]. ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ

---

(١) المائدة: «٣٢».

(٢) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن. انظر الدر المنثور (٣/١١٦ ـ ١١٧) كذلك ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/٣٩٦) والشوكاني في (فتح القدير) (٢/٦٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٢٥١ رقم ٣٠٤٦) وقال: هذا حديث غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن الجُريري عن عبدالله بن شقيق قال: كان النبي ﷺ يُحرس ولم يذكروا فيه عن عائشة.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣١٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وأخرجه الطبري (٤/ج٦/٣٠٧) كلهم من حديث عائشة.
وقد حسنه ابن حجر في الفتح. وكذلك الألباني في صحيح الترمذي.

(٤) تقديم إقامة الكتابين على ما أُنزل مع أن ما أُنزل هو المقصود لرعاية حق الشهادة واستنزالهم عن رتبة الشقاق. =

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلِّغُه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم[1].

(٦٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة والصابئون رفعٌ علىٰ الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إنّ، والتقديرُ: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمُهم كذا والصابئون كذلك كقوله:

فإنِّي وقَيَّارٌ بها لَغَرِيبُ

وقوله:

وإلا فَـــاعْلَمُـــوا أَنَّـــا وَأَنْتُـــمْ بُغَـــاةٌ مَـــا بَقِينـــا فـــي شِقَـــاق

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، وهو كاعتراضٍ دلّ به على أنه لما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلها يُتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح كان غيرُهم أولىٰ بذلك، ويجوز أن يكون والنصارى معطوفاً عليه ومَنْ آمن خبرُهما وخبرُ إنّ مقدر دل عليه ما بعده كقوله:

نحْـــنُ بِمَـــا عِنْـــدَنَـــا وَأَنْـــتَ بِمَـــا عِنْـــدَكَ رَاضٍ وَالـــرَّأْيُ مُخْتَلِـــفُ

ولا يجوزُ عطفه على محل إنّ واسمِها فإنه مشروط بالفراغ من الخبر، إذ لو عطف عليه قبله كان الخبرُ خبرَ المبتدأ وخبرَ إنّ معاً فيجتمع عليه عاملان، ولا على الضمير في هادوا لعدم التأكيد والفصل، ولأنه يوجب كون الصابئين هوداً. وقيل إنّ بمعنى نعم وما بعدها في موضع الرفع بالابتداء. وقيل الصابئون منصوب بالفتحة وذلك كما جُوِّز بالياء جوز بالواو. ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في محل الرفع بالابتداء وخبرُه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والجملةُ خبرُ إنّ أو خبر المبتدأ كما مرّ والراجع محذوف، أي: من آمن منهم، أو النصب على البدل من اسم إن وما عُطف عليه. وقرىء والصابئين وهو الظاهر، والصابيون بقلب الهمزة ياء، والصابون بحذفها من صبأ بإبدال الهمزة ألفاً أو من صبوت لأنهم صَبَوْا إلى اتباع الشهوات ولم يتبعوا شرعاً ولا عقلاً.

(٧٠) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ليُذَكِّروهم وليبينوا لهم أمر دينهم. ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكاليف. ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ جواب الشرط، والجملة صفةُ رسلاً، والراجع محذوف أي رسول منهم. وقيل الجواب محذوف دل عليه ذلك وهو استئناف. وإنما جيء بيقتلون موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبيهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً، ومحافظة على رؤوس الآي[2].

وإيراده بعنوان الإنزال إليهم لأنهم مأمورون بإقامته والإيمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب. وفي إضافة الرب إلى ضميرهم من اللطف في الدعوة (س٣/ ٦١) وهذا على معنى أن ما أنزل هو القرآن الكريم.

(١) وإظهار لفظ الكافرين للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر (س٣/ ٦٢).

(٢) وتقديم فريقاً في الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع إلى ما فعلوا به، لا للقصر (س٣/ ٦٣).

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٧١) ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي وحسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب لا تكونُ بالرفع علىٰ أَنْ أَنْ هي المخففة من الثقيلة، وأصلُه أنه لا تكون فتنة فَخُفِّفت أن وحُذِف ضمير الشأن فصار: أن لا تكون، وإدخالُ فِعْل الحُسْبان عليها وهي للتحقيق تنزيلٌ له منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم، وأَنَّ أو أَنْ بما في حيزها سادّ مسد مفعوليه. ﴿فَعَمُواْ﴾ عن الدين، أو الدلائل والهدىٰ. ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماع الحق كما فعلوا حين عبدوا العجل. ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي ثم تابوا فتاب الله عليهم. ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ كرة أخرى. وقرىء بالضم فيهما على أن الله تعالى أعماهم وأصمهم أي رماهم بالعَمىٰ والصّمم، وهو قليل، واللغة الفاشية أعمى وأصم. ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ بدل من الضمير، أو فاعل والواو علامة الجمع كقولهم: أكلوني البراغيث، أو خبر مبتدأ محذوف أي العمى والصم كثير منهم. وقيل مبتدأ والجملةُ قبله خبرُه وهو ضعيف لأن تقديم الخبر في مثله ممتنع. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيهم على وفق أعمالهم[1].

(٧٢) ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ أي إني عبد مربوب مثلُكم فاعبدوا خالقي وخالقَكم. ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال. ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يُمْنَع من دخولها كما يُمْنع المُحَرَّمُ عليه من المحرم فإنها دار الموحدين[2]. ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ فإنها المعَدة للمشركين. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أي وما لهم أحد ينصرهم من النار، فوضَعَ الظاهر موضع المضمر تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك وعَدَلوا عن طريق الحق، وهو يُحْتَمَل أن يكون من تمام كلام عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأن يكون من كلام الله تعالى نبه به علىٰ أنهم قالوا ذلك تعظيماً لعيسىٰ ﷺ وتقرباً إليه وهو معاديهم بذلك ومخاصمهم فيه، فما ظنّك بغيره؟

(٧٣) ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ أي أَحَدُ ثلاثة، وهو حكاية عمّا قاله النسطورية والملكانية منهم القائلون بالأقانيم الثلاثة وما سبق قول اليعقوبية القائلين بالاتحاد. ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ وما في الوجود ذاتٌ واجب مستحقٌّ للعبادة ـ من حيث إنه مُبدِىء جميع الموجودات ـ إلا إله واحدٌ. موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن قبول الشَّرِكَة. ومِنْ مزيدةٌ للاستغراق. ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ولم يُوَحِّدوا. ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليمسن الذين بَقُوا منهم على

---

١) وصيغة المضارع في «يعملون» لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة (س٣/ ٦٥).

٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة (س٣/ ٦٦).

الكفر، أو ليمسنّ الذين كفروا من النصارى، وضَعَه موضِعَ ليمسنهم تكريراً للشهادة على كفرهم وتنبيهاً على أن العذاب على من دام على الكفر ولم ينقلعْ عنه فلذلك عقبه بقوله:

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ أي أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائغة ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا. وفي هذا الاستفهام تعجيب من إصرارهم.

(٧٥) ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قَبْلَه خصه الله سبحانه وتعالى بالآيات كما خصهم بها، فإن إحياءَ الموتىٰ على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعىٰ علىٰ يد موسى عليه السلام وهو أعجب، وإنْ خَلَقَه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب. ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ كسائر النساء اللاتي يُلازمن الصدق، أو يُصَدِّقْن الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ ويفتقران إليه افتقار الحيوانات. بيّن أولاً أقصىٰ ما لهما من الكمال ودل على أنه لا يوجب لهما ألوهيةً لأن كثيراً من الناس يشاركُهما في مثله، ثم نبه على نَقْصِهما وذَكَرَ ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكونا من عِدَاد المركَّبات الكائنة الفاسدة، ثم عَجِبَ لمن يدعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصْرَفون عن استماع الحق وتأمله. وثم لتفاوت ما بين العجبين أي إن بياننا للآيات عَجَبٌ وإعراضهم عنها أعجب[1].

(٧٦) ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو وإن ملك ذلك بتمليك الله سبحانه وتعالى إياه لا يَمْلِكُه من ذاته، ولا يملك مِثْلَ ما يَضُرُّ اللهُ تعالى به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحة والسعة، وإنما قال «ما» نظراً إلى ما هو عليه في ذاته توطئةً لنفي القدرة عنه رأساً وتنبيهاً على أنه مِنْ هذا الجنس ومَنْ كان له حقيقة تَقْبَل المجانسة والمشاركة فبمعزلٍ عن الألوهية، وإنما قدم الضر لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع. ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بالأقوال والعقائد فيجازي عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

(٧٧) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي غُلُوّاً باطلاً فترفعوا عيسى عليه الصلاة

---

١) وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب (س٣/ ٦٨).

والسلام إلى أن تَدّعوا له الألوهية، أو تضعوه فتزعُموا أنه لغير رشدة. وقيل الخطاب للنصارىٰ خاصة[١]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد ﷺ في شريعتهم. ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم. ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه ﷺ لما كذبوه وبَغَوْا عليه، وقيل الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع.

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٨) ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ أي لعنهم الله في الزبور والإنجيل على لسانهما. وقيل إن أهل أيلة لما اعتدوْا في السبت لعنهم الله تعالى على لسان داود فمسخهم الله تعالى قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى عليه السلام ولعنهم فأصبحوا خنازيرَ وكانوا خمسة آلاف رجل. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعنُ الشنيعُ المقتضي للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم[٢].

(٧٩) ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيؤوا له، أو لا ينتهون عنه من قولهم تناهىٰ عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع. ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم[٣].

(٨٠) ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ من أهل الكتاب. ﴿يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي لبئس شيئاً قدموه ليَرِدُوا عليه يوم القيامة. ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ هو المخصوص بالذم، والمعنى موجب سخط الله والخلود في العذاب، أو علةُ الذمّ والمخصوص محذوف أي لبئس شيئاً ذلك لأنه كسّبهم السخط

---

(١) وذكرهم بعنوان أهل الكتاب للتذكير بأن الإنجيل أيضاً ينهاهم عن الغلو (س٣/ ٦٩).

(٢) قوله «لُعِن» بناؤه للمفعول للجري علىٰ سنن الكبرياء.
وقوله «ذلك» أثر اسم الإشارة على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال فظاعته وبعده في الشناعة (س٣/ ٦٩).

(٣) قوله «كانوا لا يتناهون» جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لاستمرار عدم تناهيهم عن المنكر (س٣/ ٦٩).

والخلود.

(٨١) ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ يعني نبيَّهم وإن كانت الآية في المنافقين فالمراد نبينا عليه السلام. ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إذ الإيمان يمنع ذلك. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم، أو متمردون في نفاقهم.

(٨٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى ورُكونهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ لِلين جانبهم ورقة قلوبهم وقلة حرصهم على الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعملِ والإعراضَ عن الشهوات محمود وإن كانت من كافر[1].

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

(٨٣) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ عطف على لا يستكبرون، وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأبِّيهم عنه. والفيضُ انصباب عن امتلاء، فوُضِع موضع الامتلاء للمبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ مِنْ الأولى للابتداء، والثانية لتبيين ما عَرَفوا أو للتبعيض بأنه بعض الحق، والمعنى أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف إذا عرفوا كله؟!. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بذلك أو بمحمد. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مِنَ الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته، أو مِنْ أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة.

(٨٤) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي وهو الطمعُ في الانخراط مع الصالحين والدخول في مداخلهم، أو جوابُ سائلٍ قال لِمَ آمنتم؟ ولا نؤمنُ حال من الضمير والعامل ما في اللام من معنى

---

١) وتقديم اليهود على المشركين مع كونهما في قرن واحد للإشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أن في تقديمهم عليهم في قوله تعالى: «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا..». إيذاناً بتقدمهم عليهم في الحرص.
وقوله «الذين قالوا إنا نصارى» عبر عنهم بذلك إشعاراً بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله.
واختلاف التعبير بين اليهود والنصارى لما بينهما من التباين (س٣/ ٧١).

الفعل، أي أيّ شيء حصل لنا غير مؤمنين بالله أي بوحدانيته فإنهم كانوا مُثَلِّثين أو بكتابه ورسوله فإن الإيمان بهما إيمان بـه حقيـقة، وذَكَره توطئة وتعظيماً، ونطمعُ عطف على نؤمن أو خبر محذوف، والواو للحال أي ونحن نطمع والعامل فيها عامل الأولىٰ مقيَّداً بها أو نؤمن.

(٨٥) ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ أي عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أي معتقَدُه. ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور. والآياتُ الأربع روي أنها نزلت في النجاشي وأصحابه بعث إليه الرسول ﷺ بكتابه فقرأه، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين، فأَمَر جعفراً أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكُوا وآمنوا بالقرآن[١] وقيل نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه وفدوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة يٰسٓ فبكوا وآمنوا[٢].

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ عَطَف التكذيب بآيات الله على الكفر وهو ضرب منه لأن القصد إلى بيان حال المكذبين، وذَكَرَهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب.

(٨٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي ما طاب ولذ منه، كأنه لما تضمن ما قبلَه مَدْحَ النصارى على ترهبهم والحث على كسر النفس ورفض الشهوات عَقَّبَه النهيَ عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حد الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً فقال: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) قال الولي العراقي: لم أجده.
وقال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٧٢): «أظن صاحب الكشاف ذكره بالمعنى من قصة جعفر بن أبي طالب مع عمرو بن العاص لما أرسلته قريش بهديتها إلى النجاشي ليدفع إليهم جعفراً ورفقاه فإن معنى ما ذكر موجوداً فيها إلا قراءة (مريم) أخرجه ابن إسحاق في المغازي من طريق ابن هشام من حديث أم سلمة» هـ.
● في الكافي الشاف: (طه) والصواب (مريم) وذكر قراءتها موجود في المغازي. و(ابن حبان) والصواب (ابن هشام) كما في المغازي. انظر المغازي (ص١٩٤ ـ ١٩٧). وأخرج ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/٥) عن الزهري أنه قال: ما زلت أسمع علماءنا يقولون: نزلت في النجاشي وأصحابه. وإسناد الأثر حسن.
وأخرج ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/٥) عن عروة قال: كانوا يرون أن هذه الآيات نزلت في النجاشي. وإسناد الأثر صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/٤) عن سعيد بن جبير.
وأخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/٥) عن السدي أنه قال: بعث النجاشي إلى النبي ﷺ اثني عشر رجلاً يسألونه ويأتون بخبره، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن فبكوا فأنزل الله فيهم «وإذا سمعوا» إلى آخر الآية.

﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. ويجوز أن يراد به ولا تعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حَرَّم داعيةً إلى القصد بينهما. روي أن رسول الله ﷺ وصف القيامة لأصحابه يوماً وبالغ في إنذارهم، فرقُّوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودَكَ[1] ولا يقربوا النساء والطيب ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح[2] ويسيحوا في الأرض ويَجُبّوا مذاكيرهم[3]، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال لهم: «إني لم أومر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. فنزلت[4].

(٨٨) ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله، فيكونُ حلالاً مفعولَ كلوا وممّا حال منه تقدمت عليه لأنه نكرة، ويجوز أن تكون مِنْ ابتدائية متعلقة بكلوا، ويجوز أن تكون مفعولاً وحلالاً حال من الموصول، أو العائد المحذوف، أو صفة لمصدر محذوف. وعلى الوجوه لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) الودك: هو دسم اللحم.

(٢) المسح: كساء الشعر، والكثير منه (المسوح) بضم الميم. لسان العرب. مادة: مسح.

(٣) يَجُبّوا مذاكيرهم: ـ أي يقطعوها ـ.

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٠٥ ـ ٢٠٦ بلفظ المصنف عن المفسرين بغير إسناد.
وقد أخرجه الطبري في جامع البيان (٥/ج٧/ ٩ ـ ١٠) عن السدي.
وقال ابن حجر في الكافي الشاف (ص٥٨): «وهو منتزع من أحاديث. وأصله في الصحيحين ـ البخاري (٩/ ١٠٤ رقم ٥٠٦٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠ رقم ٥/ ١٤٠١) ـ عن عائشة أن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواجه عن عمله في السر. فقال بعضهم: لا آكل اللحم. وقال بعضهم: لا أتزوج النساء. وقال بعضهم: لا أنام على فراشي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ولكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم. وآكل اللحم وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني.
وفي الصحيحين ـ البخاري (٩/ ١١٧ رقم ٥٠٧٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠ رقم ٦، ٧، ٨/ ١٤٠٢) عن سعد بن أبي وقاص قال: «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا».
وفي الصحيحين ـ البخاري (٣/ ٣٨ رقم ١١٥٣) ومسلم (٢/ ٨١٤ رقم ١٨٦/ ١١٥٩) ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص في قصة مراجعته النبي ﷺ في الصوم والصلاة. فقال: صلى الله عليه وسلم «صم وأفطر، وقم ونم. فإن لنفسك عليك حقاً. . . الحديث».
وروى الطبري (٥/ج٧/ ١٠ ـ ١١) ـ من طريق ابن جريج عن مجاهد قال «أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبدالله بن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح». وفي سنده «سنيد» وهو ضعيف.
ومن طريق ابن جريج عن عكرمة (٥/ج٧/ ١١) «أن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالماً مولى أبي حذيفة، في جماعة من الصحابة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس، وهموا بالاختصاء واجتمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ـ الآية» قال: فبعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: إنّ لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا، وصلوا وناموا. فليس منا من ترك سننا» وفي سنده «سنيد» وهو ضعيف.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الرجل: لا والله وبلىٰ والله، وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل الحلف على ما يَظُنّ أنه كذلك ولم يكن وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وفي أيمانكم صلةُ يؤاخذُكم أو اللغو لأنه مصدر، أو حال منه. ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ بما وثّقتم الأيمان عليه بالقصد والنية، والمعنىٰ ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم إذا حنثتُم أو ينكث ما عقدتم فحُذِفَ للعلمِ بهِ. وقرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم عَقَدْتُم بالتخفيف، وابنُ عامر برواية ابن ذكوان عاقَدْتُم وهو من فَاعَلَ بمعنى فَعَل. ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ فكفارة نَكْثه أي الفِعْلة التي تذهب إثمَه وتستره، واستُدل بظاهره على جواز التكفير بالمال قبل الحنث وهو عندنا خلافاً للحنفية لقوله عليه الصلاة والسلام: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأتِ الذي هو خير»[1]. ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ مِنْ أَقْصَدِهِ في النوع أو القدر، وهو مُدٌّ لكل مسكين عندنا ونصفُ صاع عند الحنفية. و«ما» محلُّه النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديرُه: أن تطعموا عشرة مساكين طعاماً من أوسط ما تُطعِمون، أو الرفعُ على البدل من إطعام. وأَهْلُون كأَرَضُون. وقرىء أهاليكم بسكون الياء على لغة من يسكِّنها في الأحوال الثلاث كالألف، وهو جمع أَهْل كالليالي في جمع ليل والأراضي في جمع أرض، وقيل هو جمع أهلاة. ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطفٌ على إطعام، أو من أوسط إنْ جُعِل بدلاً. وهو ثوب يغطي العورة، وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو إزار. وقرىء بضم الكاف وهو لغة كقُدوة في قِدْوة وكأُسوتِهم بمعنى، أوْ كمِثْل ما تطعمون أهليكم إسرافاً كان أو تقتيراً تواسون بينهم وبينهم إن لم تُطْعموهم الأوسط، والكافُ في محل الرفع وتقديرُه: أو إطعامُهم كأسوتهم. ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أو إعتاق إنسان، وشَرَط الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه الإيمان قياساً على كفارة القتل، ومعنى أو إيجابُ إحدى الخصال الثلاث مطلقاً وتخييرُ المكفِّر في التعيين. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي واحداً منها. ﴿فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ فكفارته صيام ثلاثة أيام، وشَرَط فيه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه التتابع لأنه قرىء ثلاثة أيام متتابعات، والشواذ ليست بحجة عندنا إذا لم تثبت كتاباً ولم تُرْوَ سنة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور. ﴿كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم. ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ بأن تضنُّوا بها ولا تبذلوها لكل أمر، أو بأن تبرُّوا فيها ما استطعتم ولم يَفُت بها خير، أو بان تكفِّروها إذا حنثتم. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أعلام شرائعه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة التعليم أو نعمَهُ الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧١ ـ ١٢٧٢ رقم ١١، ١٢، ١٣، ١٤/ ١٦٥٠) من حديث أبي هريرة.
كما أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧٢ ـ ١٢٧٣ رقم ١٥، ١٦، ١٧/ ١٦٥١) من حديث عدي بن حاتم.
وأخرج البخاري (١١/ ٥١٧ رقم ٦٦٢٣) ومسلم (٣/ ١٢٦٨ رقم ١٦٤٩) من حديث أبي موسى: «.. وإني والله إن شاء اللهُ لا أحلف على يمين ثم أرى خيراً منها، إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

(٩٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾ أي الأصنام التي نصبت للعبادة. ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ سبق تفسيرها في أول السورة. ﴿رِجْسٌ﴾ قذر تعاف عنه العقول، وأفرده لأنه خبر للخمر، وخبرُ المعطوفات محذوفٌ أو لمضاف محذوفٍ كأنه قال: إنما تعاطي الخمر والميسر. ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه. ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير للرجس، أو لما ذكر، أو للتعاطي. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه.

واعلم أنه سبحانه وتعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأنْ صدَّر الجملة بإنما، وقرنهما بالأنصاب والأزلام. وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شرّ بحت أو غالب، وأَمَرَ بالاجتناب عن عينهما، وجعله سبباً يرجىٰ منه الفلاح، ثم قرر ذلك بأن بيّن ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال تعالى:

(٩١) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وإنما خصهما بإعادة الذكر وشَرَح ما فيهما من الوبال تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان، وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن»[1]. وخص الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم والإشعارِ بأن الصادّ عنها كالصادِّ عن الإيمان من حيث إنها عِمادُه والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتَّباً على ما تقدم من أنواع الصوارف فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ إيذاناً بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت.

---

(١) أخرجه البزار (٣/ ٣٥٣ ـ كشف) من حديث مجاهد عن عبدالله بن عمرو بهذا. ورواه الحارث بن أسامة (٢/ ١٠٥ ـ المطالب العالية) وأبو نعيم في الحلية (رقم: ٤٧٧ ـ الكافي الشاف) قلت: وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٥٤) ـ من طريقه من رواية الحسن عن عبدالله بن عمرو به.
وفيه الخليل بن زكريا ـ (متروك: التقريب (١/ ٢٢٨) ـ وفي الذي قبله ثابت بن محمد ـ (صدوق يخطىء في أحاديث: التقريب (١/ ١٧٧) ـ وهو أصلح حالاً من الخليل. ولابن ماجه (٢/ ١١٢٠ رقم ٣٣٧٥) من حديث أبي هريرة، بلفظ «مد من خمر كعابد وثن» وإسناده جيد ـ قلت: وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ـ قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن سليمان الأصبهاني عن سهيل عن أبيه عنه به.
ورواه ابن حبان ـ (ص٣٣٥ رقم ١٣٧٩ ـ موارد) ـ من حديث ابن عباس. بهذا اللفظ وقال: الشبه أن يكون فيمن استحلها. وفي مسند إسحاق ومن رواية عمر بن عبدالعزيز عن بعض أصحابه بلفظ «من شرب الخمر فمات مات كعابد وثن».
وللطبراني في الأوسط ـ (المجمع: ٥/ ٧٥) ـ من حديث أنس بلفظ: «المقيم على الخمر كعابد وثن. وإسناده ضعيف. والخلاصة أن الحديث حسن بمجموع طرقه والله أعلم.
[انظر (الكافي الشاف رقم: ٤٧٧) والصحيحة للمحدث الألباني (رقم: ٦٧٧)].

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما أمرا به. ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ ما نهيا عنه أو مخالفتهما. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي فاعلموا أنكم لم تضروا الرسول ﷺ بتوليكم، فإنما عليه البلاغ وقد أدى، وإنما ضررتم به أنفسكم.

(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ مما لم يحرَّم عليهم لقوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي اتقوا المحرم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ ما حرم عليهم بعد كالخمر. ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بتحريمه. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي. ﴿وَّأَحْسَنُوا۟﴾ وتحروا الأعمال الجميلة واشتغلوا بها. روي أنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر. فنزلت[1]. ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث استعمالُ

---

(١) أخرج أحمد في المسند (٢/ ٣٥١) من رواية ابن وهب مولى أبي هريرة قال: حرمت الخمر.. إلى قوله: فنزلت «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر. الآية» فقالوا انتهينا يا رب. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان. فأنزل الله «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ـ الآية». فقال النبي ﷺ «لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم». قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٧٨): إسناده ضعيف فإنه من رواية أبي معشر عن أبي وهب. وأبو معشر ضعيف.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/٣٨) من حديث علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: في قوله تعالى «ليس على الذين آمنوا.. الآية» قالوا يا رسول الله: ما تقول في إخواننا الذين ماتوا كانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر. فأنزل الله الآية.

قلت: في إسناده عبدالله بن صالح وهو أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف [التقريب (١/ ٤٢٣)] ولكن روايته هذه مقبولة نظراً إلى متابعاته.

● وأخرج البخاري (٥/ ١١٢ رقم ٢٤٦٤) ومسلم (٣/ ١٥٧٠ رقم ٣/ ١٩٨٠) عن أنس رضي الله عنه «كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذٍ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: «ألا إن الخمر قد حرمت. قال فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة، فقال بعض القوم قد قتل قوم وهي في بطونهم. فأنزل الله «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» الآية.

● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٥٤ رقم ٣٠٥٠) والطيالسي (ص٩٧ رقم ٧١٥) وابن حبان (ص٤٣٠ رقم ١٧٤٠ ـ موارد) والطبري في جامع البيان (٥/ج٧/ ٣٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مات رجال من أصحاب النبي ﷺ قبل أن تحرّم الخمر. فلما حرمت الخمر قال رجال: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر؟ فنزلت «ليس على الذين آمنوا، وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات» =

الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله تعالى، ولذلك بدّل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة إشارةً إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يُتقىٰ فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات تحرزاً عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ نزلت في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرِمون. والتقليل والتحقير في بشيء للتنبيه على أنه ليس من العظائم التي تدحض الأقدام كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه. ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ليتميز الخائف من عقابه وهو غائب منتظر لقوة إيمانه ممن لا يخافه لضَعف قلبه وقلة إيمانه، فذكَر العلم وأراد وقوع المعلوم وظهوره أو تعلق العلم. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك الابتلاء بالصيد. ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالوعيد لاحقٌ به، فإن من لا يملك جأشه في مثل ذلك ولا يراعي حكم الله فيه فكيف به فيما تكون النفس أميل إليه وأحرص عليه؟!.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۖ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

(٩٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي محرِمون جمع حرام كرداح ورُدُح، ولعله ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم، وأراد بالصيد ما يؤكل لحمه لأنه الغالب فيه عرفاً ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «خمس يقتلن في الحل والحرم»: الحدأة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور»[(١)]، وفي رواية أخرى الحيّة بدل العقرب[(٢)]، مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذ واختُلف في أن هذا النهي هل يُلغي حكم الذبح فيُلحق مذبوح المُحرِم بالميتة ومذبوحِ الوثني أوْ

= [المائدة: ٩٤].

قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني بشواهده.

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٥٥ رقم ٣٣١٤)، ومسلم (٢/ ٨٥٦ رقم ١١٩٨).

والترمذي (٣/ ١٩٧ رقم ٨٣٧) والنسائي (٥/ ١٨٨)، وابن ماجه (٢/ ١٠٣١ رقم ٣٠٨٧)، والطيالسي في المسند (ص٢١٤ رقم ١٥٢١)، وأحمد في المسند (٦/ ٩٧، ٩٨)، والدارمي (٢/ ٣٦، ٣٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ١٦٦)، والبيهقي (٥/ ٢٠٩). من رواية جماعة عن عائشة بألفاظ.

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٨٥٨ رقم ٧٥/ ١٢٠٠).

لا فيكون كالشاة المغصوبة إذا ذبحها الغاصب. ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم﴾ ذاكراً لإحرامه عالماً بأنه حرام عليه قبلَ ما يقتله، والأكثرُ على أنّ ذِكْره ليس لتقييد وجوب الجزاء فإن إتلاف العامد والمخطىء واحد في إيجاب الضمان، بل لقوله ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ والآية نزلت فيمن تعمد إذ روي: أنه عَنّ لهم في عمرة الحديبية حمارُ وحشٍ فطعنه أبو اليسر[1] برمحه فقتله. فنزلت[2]. ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ برفع الجزاء، والمِثْل قراءة الكوفيين ويعقوب بمعنى فعَلَيه أي فواجِبُه جزاءٌ يماثل ما قتل من النعم، وعليه لا يتعلق الجارّ بجزاءٌ للفصل بينهما بالصفة فإن متعلَّق المصدر كالصلة له فلا يوصَفُ ما لم يتم بها، وإنما يكون صفته، وقرأ الباقون على إضافة المصدر إلى المفعول وإقحام مِثْل كما في قولهم مثلي لا يقول كذا[3]، والمعنى فعليه أن يُجزىٰ مثلُ ما قتل، وقرىء فجزاءَ مثلَ ما قتل بنصبهما على فليُجْز جزاءَ، أو فعليه أن يَجزي جزاءَ يماثل ما قتل، وفجزاؤُه مثلُ ما قتل، وهذه المماثلة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما، والقيمةِ عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وقال: يُقَوَّم الصيد حيثُ صِيد فإن بلغت القيمةُ ثَمَنَ هدي تخير بين أن يهدي ما قيمتَه قيمته وبين أن يشتري بها طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بُر أو صاعاً من غيره وبين أن يصوم عن طعام كلِّ مسكين يوماً، وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم، واللفظُ للأول أوفقُ. ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ صفةُ جزاء، ويحتمل أن يكون حالاً من ضميره في خبره أو منه إذا أضفته أو وصفته ورفعته بخبر مقدر لمن، وكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد يحتاج إلى المماثلة في الخلقة والهيئة إليها، فإن الأنواع تتشابه كثيراً. وقرىء ذو عدل على إرادة الجنس أو الإمام. ﴿هَدْيًۢا﴾ حال من الهاء في به أو مِنْ جزاء وإنّ نُوِّن لتخصصه بالصفة، أو بدلٌ من مثْل باعتبار محله أو لفظِهِ فيمن نصبه. ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ وصف به هدياً لأن إضافته لفظية، ومعنى بلوغه الكعبة ذبحُه بالحرم والتصدق به، وقال أبو حنيفة يذبح بالحرم ويتصدق به حيث شاء. ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾ عطف على جزاء إنْ رفعتَه، وإنْ نصبتَه فخبر محذوف. ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ عطف بيان، أو بدل منه، أو خبر محذوف أي هي طعام. وقرأ نافع وابن عامر كفارةُ طعامٍ بالإضافة للتبيين كقولك: خاتم فضة، والمعنى عند الشافعي أو أن يكفِّر بإطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدي من غالب قوت البلد فيعطي كل مسكين مُداً. ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أو ما ساواه من الصوم فيصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وهو في الأصل مصدر أطلق للمفعول. وقرىء بكسر العين وهو ما عدل بالشيء في المقدر كعِدْل الحمل وذلك إشارة إلى الطعام، وصياماً تمييز للعدل. ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ متعلق بمحذوف أي فعليه الجزاءُ أو الطعام أو الصوم ليذوق ثقل فعله وسوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله تعالى. وأصل الوَبْل الثقل ومنه الطعام الوبيل. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ منْ قتل الصيد محْرِماً في الجاهلية أو قبل التحريم، أو في هذه المرة. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ مثل هذا. ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ فهو ينتقم الله منه. وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد كما حكي عن ابن عباس وشريح. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ مما أصر على عصيانه.

---

(١) أبو اليسر هو كعب بن عمرو الأنصاري، صحابي، بدري، توفي بالمدينة ٥٥هـ (التقريب ٢/ ١٣٥).

(٢) البخاري (١٨٢١ ـ ١٨٢٣) ومسلم (٥٦ ـ ٦٤).

(٣) أي قرؤوا «فجزاءُ مِثْلِ..».

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

(٩٦) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ ما صيد منه مما لا يعيش إلا في الماء، وهو حلال كله لقوله عليه الصلاة والسلام في البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»(١)، وقال أبو حنيفة لا يحل منه إلا السمك، وقيل يَحِل السمك وما يؤكل نظيرُه في البَرّ. ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما قذفه أو نَضبَ عنه. وقيل الضمير للصيد وطعامه أكْلُه. ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ تمتيعاً لكم نصب على الغرض. ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي ولسيارتكم يتزودونه قَديداً. ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ أي ما صيد فيه أو الصيد فيه، فعلى الأول يَحْرُم على المُحْرِم أيضاً ما صاده الحلال وإن لم يكن له فيه مَدْخل، والجمهورُ على حِلِه لقوله عليه الصلاة والسلام «لحم الصيد حلال لكم، ما لم تصطادوه أو يُصَدْ لكم»(٢) ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي محرمين وقرىء بكسر الدال من دام يَدَام. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(٩٧) ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ﴾ صيّرها، وإنما سمي البيت كعبة لتكعُّبه. ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ عطفُ بيان على جهة المدح، أو المفعول الثاني ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ انتعاشاً لهم أي سبب انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار ويتوجه إليه الحجاج والعمار، أو ما يقوم به أَمْرُ دينهم ودنياهم. وقرأ ابن عامر قِيَماً على أنه مصدر على فعل كالشبع أُعِلّ عينه كما أعل في فعله، ونصبه على المصدر أو الحال. ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ سبق تفسيرها، والمراد بالشهر الشهرُ الذي يؤدّىٰ فيه الحج وهو ذو الحجة لأنه المناسب لقرنائه، وقيل الجنس. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر بحفظ حُرمة الإحرام وغيره. ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٢ رقم ١٢) وأبو داود (١/ ٦٤ رقم ٨٣)، والترمذي (١/ ١٠٠ رقم ٦٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٥٠ رقم ٥٩) و(١/ ١٧٦ رقم ٣٣٢)، و(٧/ ٢٠٧ رقم ٤٣٥٠)، وابن ماجة (١/ ١٣٦ رقم ٣٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٣١)، وابن خزيمة (١/ ٥٩ رقم ١١١) والشافعي في الأم (١/ ١٦)، وفي ترتيب المسند (١/ ٢٣ رقم ٤٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٧، ٣٦١، ٣٧٨، ٣٩٢)، والدارمي (١/ ١٨٦)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٤٧٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٧١ رقم ١٢٤٠) و(ص٦٠ رقم ١١٩ ـ موارد)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٤٠)، وفي علوم الحديث ص٨٧، والبيهقي (١/ ٣) وغيرهم.
وهو من رواية مالك عن صفوان بن سُليم، عن سعيد بن سلمة من آل ابن الأزرق، عن المغيرة بن أبي بُرْدَة أنه سمع أبا هريرة يقول: . . . . الحديث.
وانظر الكلام عليه في تخريجنا لبلوغ المرام الحديث الأول.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٦٢)، وأبو داود (٣/ ٤٢٨ رقم ١٨٥١)، والترمذي (٣/ ٢٠٣ رقم ٨٤٦)، والنسائي (٥/ ١٨٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٨٠ رقم ٢٦٤١)، وابن حبان في الموارد (ص٢٤٣ رقم ٩٨٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٢)، والدارقطني في السنن (٢/ ٢٩٠ رقم ٢٤٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ١٩٠)، وهو حديث ضعيف.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فإنّ شَرْع الأحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها دليلُ حكمة الشارع وكمالِ علمه. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ۖ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ۖ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

(٩٨) ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصر عليه ولمن أقلع عنه.

(٩٩) ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أُمِر به أي الرسول، أتى بما أُمِر به من التبليغ ولم يبقَ لكم عذر في التفريط. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

(١٠٠) ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله سبحانه وتعالىٰ بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها، رَغّب به في مصالح العمل وحلال المال. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، والخطاب لكل معتبر ولذلك قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر وآثروا الطيب وإن قلّ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تبلغوا الفلاح. روي: أنها نزلت في حُجَّاج اليمامة لما همَّ المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عنه وإن كانوا مشركين[1].

(١٠١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ۖ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ۖ﴾ الشرطيةُ وما عطف عليها صفتان لأشياء والمعنى: لا تسألوا رسول الله ﷺ عن أشياءَ إنْ تَظْهَر لكم تَغُمكم وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تَظْهَر لكم، وهما كمقدمتين تُنْتِجان ما يمنع السؤال وهو أنه مما يغمهم والعاقلُ لا يفعل ما يغمه. وأشياء اسم جمع كطَرْفاء غير أنه قلبت لامه فجعلت لَفْعاء. وقيل أَفْعَلاء حذفت لامُه جمعٌ لشيء على أن أصله شيء كهين، أو شيء كصَدِيق فخفف. وقيل أَفْعَال جمع له من غير تغيير كبيت وأبيات ويرده منع صرفه. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ صفة أخرى أي عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلف بها، إذ روي أنه لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[2] قال سراقة بن مالك[3]: أكلُّ عامٍ؟

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/٥٩) عن عكرمة والسدي، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص١٢٥ عن ابن عباس بنحوه.
وهو حسن عن طريق السدي كما في الفتح السماوي ص٥٤٧.

(٢) آل عمران: «٩٧».

(٣) سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي أبو سفيان أسلم بعد الطائف «ب د ع». =

فأعرض عنه رسولُ الله ﷺ حتى أعاد ثلاثاً فقال: «لا، ولو قلت نعم لوَجَبَت، ولو وجبت لما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم». فنزلت[1]. أو استئناف أي عفا الله عما سلف من مسألتكم

= انظر تجريد أسماء الصحابة للذهبي (١/ ٢١٠ رقم ٢١٨٤).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٤٨٠):

«هذا السياق لم أجده لا عن سراقة ولا عن عكاشة. فأما سراقة: فروى مسلم ـ (٢/ ٨٨٦ رقم ١٤٧/ ١٢١٨) ـ من حديث جابر الطويل في صفة الحج: «فقال سراقة بن مالك بن جعشم: يا رسول الله، ألعامنا هذا، أم للأبد؟ قلت: وهو عند البخاري ـ (٣/ ٦٠٦ رقم ١٧٨٥) ـ أيضاً من وجه آخر عن جابر. وللنسائي ـ (٥/ ١٧٨ رقم ٢٨٠٦) ـ وابن ماجه ـ (٢/ ٩٩١ رقم ٢٩٧٧) ـ من حديث سراقة بن مالك نفسه أنه قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله، عمرتنا هذه لعامنا أم للأبد؟ فقال: لا، بل للأبد. دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» ـ قلت حديث سراقة صحيح ـ.

وأما عكاشة بن محصن: فرواه الطبري ـ في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ٨٢) ـ وابن مردويه ـ وأبو الشيخ: كما في الدر المنثور (٣/ ٢٠٦) ـ من طريق محمد بن زياد: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس، كتب عليكم الحج، فقال عكاشة بن محصن الأسدي: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: أما أنا لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عني ما سكت عنكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فأنزل الله «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ـ الآية» وهو أقرب إلى سياق المصنف. دون ما في آخره مما ذكره المصنف فهو في الحديث الآتي.

وأخرج الطبري ـ في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ٨٢) ـ من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري، عن ابن عياض، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج فقال رجل: كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثاً، فقال: من السائل؟ فقيل فلان. فقال «والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما أطقتموه، ولو تركتموه لكفرتم. فأنزل الله تعالى هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء.. الآية».

وأخرج الطبري في جامع البيان (٥/ ج٧/ ٨٢ ـ ٨٣) ـ أيضاً من طريق معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة أنه سمعه يقول: «قام رسول الله ﷺ في الناس، وقال: كتب عليكم الحج فقام رجل من الأعراب ـ فذكر الحديث، وفيه مقال: ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لكفرتم، وأما بقيته ففيما أخرجه مسلم (٢/ ٩٧٥ رقم ٤١٢/ ١٣٣٧) ـ من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

وقد سأل عن الحج الأقرع بن حابس فعند بعض أصحاب السنن ـ (أبو داود ٢/ ٣٤٤ رقم ١٧٢١) والنسائي (٥/ ١١١ رقم ٢٦٢٠) وابن ماجه (٢/ ٩٦٣ رقم ٢٨٨٦) ـ من حديث ابن عباس أن الأقرع بن حابس سأل رسول الله ﷺ: الحج في كل سنة أو مرة واحدة؟ فقال: مرة واحدة، فما زاد فهو تطوع».

وأخرجه الطبري ـ (في جامع البيان ٥/ ج٧/ ٨٣) ـ من هذا الوجه ـ قلت: سنده ضعيف ـ فسمى الرجل محصنا الأسدي، وعند غيره عكاشة بن محصن» اهـ، وأما حديث علي فأخرجه الترمذي (٣/ ١٧٨ رقم ٨١٤) و(٥/ ٢٥٦ رقم ٣٠٥٥) وابن ماجه (٢/ ٩٦٣ رقم ٢٨٨٤) وأحمد (١/ ١١٣) والدارقطني (٢/ ٢٨٠ رقم ٢٠٢) من طريق أبي البختري عنه.

قال الترمذي: حديث علي حديث حسن غريب. وقال ابن حجر في التلخيص (٢/ ٢٢٠ رقم ٩٥٢): عن حديث =

فلا تعودوا لمثلها. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبةِ ما يَفْرُط منكم ويعفو عن كثير، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب ذات يوم وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يَعْنيهم فقال: «لا أُسْأَل عن شيء إلا أجبت» فقال رجل: أين أبي؟ فقال: «في النار» وقال آخر: مَنْ أبي؟ فقال: «حذافة» وكان يدعىٰ لغيره فنزلت[1].

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ الضمير للمسألة التي دل عليها تسألوا ولذلك لم يُعَدَّ بعن، أو لأشياء بحذف الجارّ. ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بسألها وليس صفةً لقوم، فإن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثّة ولا حالاً منها ولا خبراً عنها. ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي بسببها حيث لم يأتمروا بما سألوا جحوداً.

= علي بأنه منقطع. وقد ضعفه الألباني في الإرواء (٤/ ١٥٠).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٨١ ـ ٨٢) من حديث أبي هريرة وفي سنده عبدالعزيز بن أبان الأموي، من ولد سعيد بن العاص، كان كذاباً يضع الأحاديث وذمه يطول. وانظر رقم (١٠٢٩٥ ـ شاكر) لتقف على ترجمته وترجمة (الحارث بن أبي سلمة) و(قيس بن الربيع الأسدي).

● وأخرج البخاري (٢/ ٢١ رقم ٥٤٠) بعضه من حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة، فذكر أن فيها أموراً عِظاماً، ثم قال «من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل، فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ما دمت في مقامي هذا». فأكثر الناس في البكاء، وأكثر أن يقول «سلوني» فقام عبدالله بن حذافة السهمي فقال: من أبي؟ قال: «أبوك حذافة» ثم أكثر أن يقول «سلوني» فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. فسكت. ثم قال «عرضت عليّ الجنة والنار آنفاً في عُرض هذا الحائط، فلم أر كالخير والشر».

● ثم أخرج البخاري (١/ ١٨٧ رقم ٩٢) ومسلم (٤/ ١٨٣٤ رقم ١٣٨/ ٢٣٦٠) من حديث أبي موسى، قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب ثم قال للناس: سلوني عما شئتم قال رجل من أبي؟ قال: أبوك حذافة. فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال أبوك سالم مولى شيبة. فلما رأى عمر ما في وجهه قال: يا رسول الله إنا نتوب إلى الله عز وجل».

● وقد أخرج البخاري (٨/ ٢٨٠ رقم ٤٦٢١) ومسلم (٤/ ١٨٣٢ رقم ١٣٤/ ٢٣٥٩) من حديث أنس قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبي؟ قال أبوك فلان. فنزلت هذه الآية «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»...

● وأخرج البخاري (٨/ ٢٨٠ رقم ٤٦٢٢) وابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» حتى فرغ من الآية كلها.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في سبب نزولها أقوال أخرى، ثم جمع بينها بقوله: «... لا مانع أن يكون الجميع سبب نزولها والله أعلم» هـ. =

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ردٌّ وإنكار لما ابتدعه أهل الجاهلية وهو أنهم إذا نَتَجت الناقة خمسة أبطن آخرُها ذَكَر بَحروا أُذُنها أي شقوها وخلوا سبيلها فلا تُركَب ولا تُحلَب، وكان الرجل منهم يقول: إن شُفيت فناقتي سائبة ويجعلُها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا وَلَدت الشاة أنثىٰ فهي لهم وإن وَلَدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدتهما قالوا: وَصَلت الأنثىٰ أخاها فلا يذبح لها الذَّكَر، وإذا نَتِجت من صلب الفحل عشرةَ أبطن حرموا ظهره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعىٰ وقالوا: قد حُمِيَ ظهره. ومعنىٰ ما جَعَل ما شَرَع ووَضَع، ولذلك تَعدّىٰ إلىٰ مفعول واحد وهو البحيرة، ومِنْ مزيدة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بتحريم ذلك ونسبته إلىٰ الله سبحانه وتعالى. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الحلال من الحرام والمبيح من المحرم، أو الآمر من الناهي ولكنهم يُقَلِّدون كبارهم، وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعُهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

(١٠٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ﴾ بيان لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد وأن لا سند لهم سواه. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو للحال، والهمزة دخلت عليها لإنكار الفعل على هذه الحال أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جَهَلَة ضالّين، والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بمن عُلِمَ أنه عالم مهتد وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد.

(١٠٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي احفظوها والزموا إصلاحها، والجارّ مع المجرور جُعِل اسماً لالزَمُوا ولذلك نصب أنفسَكم. وقرىء بالرفع على الابتداء. ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ لا يضركم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن يُنكِر المنكَر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»[1]. والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنوْن إيمانهم، وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سَفَّهْت آباءك، فنزلت[2]. ولا يضركم يَحْتَمِل الرفعَ على أنه مستأنفٌ ويؤيده أن قرىء لا يضيرُكم، والجزمَ على الجواب أو النهي لكنه ضمت الراءُ اتباعاً لضمة الضاد المنقولةِ إليها من الراء المدغمة وتنصره قراءة من قرأ لا يَضُرَّكم بالفتح، ولا يَضِرَّكم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعيد للفريقين وتنبيهٌ علىٰ أن أحداً لا يؤاخَذُ بذنب غيره.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٩ رقم ٧٨/ ٤٩) من حديث أبي سعيد.

(٢) أخرجه الثعلبي عن ابن زيد. انظر الفتح السماوي ص٥٩٦.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾

(١٠٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ أي فيما أُمِرْتم شهادةُ بينكم، والمراد بالشهادة الإشهاد في الوصية، وإضافتُها إلى الظرف على الاتساع. وقرىء شهادةً بالنصب والتنوين على لِيَقُم. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ إذا شارفه وظهرت أماراتُه، وهو ظرف للشهادة[1]. ﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ بدلٌ منه، وفي إبداله تنبيه على أن الوصية مما ينبغي أن لا يُتهاون فيه، أو ظرفُ حَضَر. ﴿ٱثۡنَانِ﴾ فاعلُ شهادةُ، ويجوزُ أن يكون خبرُها على حذف المضاف. ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي من أقاربكم، أو من المسلمين، وهما صفتان لاثنان. ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ عطفٌ على اثنان، ومَنْ فسر الغير بأهل الذمة جَعَلَه منسوخاً، فإن شهادته على المسلم لا تُسمع إجماعاً. ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سافرتم فيها. ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ أي قاربتم الأجل. ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ تَقِفُونهما وتُصَبِّرونهما، صفةٌ لآخران، والشرط بجوابه المحذوف المدلول عليه بقوله: «أو آخران من غيركم» اعتراضٌ، فائدتُه الدلالةُ على أنه ينبغي أن يشهد اثنان منكم فإن تعذر ـ كما في السفر ـ فمن غيركم، أو استئناف كأنه قيل: كيف نعمل إن ارتبنا بالشاهدين؟ فقال: تحبسونهما. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار. وقيل أي صلاة كانت. ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ إن ارتاب الوارث منكم. ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ مُقْسَم عليه، وإن ارتبتم اعتراضٌ يفيد اختصاص القسم بحال الارتياب. والمعنى لا نستبدل بالقسم أو بالله عَرَضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذباً لطمع. ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ ولو كان المقسَم له قريباً منا، وجوابُه أيضاً محذوف أي لا نشتري. ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي الشهادة التي أمرنا الله بإقامتها، وعن الشعبي[2] أنه وَقَفَ على شهادة، ثم ابتدأ الله بالمدّ على حذف

---

(١) وقدم المفعول «أحدكم» على الفاعل لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها، فإنه أدخل في تهوين أمر الموت (س٣/ ٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (٥/ج٧/ ١١١) عنه.
والشعبي هو: أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، قاضي الكوفة، سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة. قال ابن عيينة: كان الناس تقول بعد الصحابة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه. وقال ابن معين، وأبو زرعة، وغير واحد: الشعبي ثقة، وقال عاصم ما رأيت أحداً أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز من الشعبي، وقال ابن عطية: كان جلة من السلف كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه، تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم».
[تهذيب التهذيب (٥/ ٥٧ ـ ٦٠) ومقدمة تفسير القرطبي (١/ ٣٤)].

حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه، وروي عنه بغيره كقولهم الله لأفعلن. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ﴾ أي إنْ كتمنا. وقرىء لَمِلأَثِمين بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام النون فيها.

(١٠٧) ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ فإن اطُّلع. ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي فَعَلا ما أوجب إثماً كتحريفٍ. ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران. ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ من الذين جُنِي عليهم وهم الورثة[1]. وقرأ حفص استَحَق علىٰ البناء للفاعل وهو الأوليان. ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ الأحَقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما، وهو خبر محذوف أي: هما الأوليان، أو خبرُ آخَرَان، أو مبتدأ خبرُه آخران، أو بدل منهما أو من الضمير في يقومان. وقرأ حمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم الأوَّلِين على أنه صفة للذين، أو بدل منه أي من الأوَّلِين الذين استحق عليهم، وقرىء الأوَّلَيْن على التثنية وانتصابه على المدح، والأولان وإعرابه إعراب الأوليان. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أصدق منها وأولىٰ بأن تقبل. ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ وما تجاوزنا فيها الحق. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضِعين الباطل موضع الحق، أو الظالمين أنفسَهم إن اعتدينا. ومعنى الآيتين أن المحتضِر إذا أراد الوصية ينبغي أن يُشْهِد عدلين من ذوي نَسَبه أو دينه علىٰ وصيته، أو يوصي إليهما احتياطاً فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فآخرين مِنْ غيرهم، ثم إن وقع نزاعٌ وارتياب أقْسَما على صدق ما يقولان بالتغليظ في الوقت، فإن اطُّلع على أنهما كَذَبا بأمارة أو مظنَّةٍ حَلَفَ آخران من أولياء الميت، والحكمُ منسوخ إن كان الاثنان شاهدَيْن فإنه لا يَحْلف الشاهدُ ولا يعارَضُ يمينُه بيمين الوارث وثابتٌ إن كانا وصيين ورُدَّ اليمينُ إلىٰ الورثة إما لظهورِ خيانةِ الوصيين فإن تصديق الوصي باليمين لأمانته أو لتغييرِ الدعوى. إذ روي أن تميماً الداري وعدي بن يزيد[2] خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً، فلما قدموا الشام مرض بديلٌ فدوَّن ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما به وأوصىٰ إليهما بأن يدفعا متاعه إلىٰ أهله ومات، ففتشاه وأخذا منه إناء من فضة فيه ثلثمائة مِثْقالٍ منقوشاً بالذهب فغَيَّباه، فأصاب أهلُه الصحيفة فطالبوهما بالإناء، فجحدا، فترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، فَحَلَّفهما رسولُ الله ﷺ بعد صلاة العصر عند المنبر وخلّىٰ سبيلهما، ثم وُجِدَ الإناءُ في أيديهما، فأتاهما بنو سهم في ذلك، فقالا: قد اشتريناه منه ولكن لم يكن لنا عليه بيِّنة فكرهنا أن نُقِرَّ به، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان فحلفا واستحقاه[3]. ولعل تخصيص العدد فيهما لخصوص الواقعة.

---

(١) وهذا على معنى من قرأ بالبناء للمفعول، أي «استُحِقَّ».

(٢) الصحيح أنه عدي بن بدّاء كما في الفتح السماوي ص٥٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٨ رقم ٣٠٥٩) وابن جرير في جامع البيان (٥/ ج٧/ ١١٥) قال الترمذي: «هذا حديث غريب، وليس إسنادُهُ بصحيح، وأبو النَّضْرِ الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر وقد تركه أهل الحديث، وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن اسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر، ولا نعرف لسالم أبي النّضر المدني رواية عن أبي صالح مولى أمِّ هانىء.

وقد روى عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه» هـ.

قلت: وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، =

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ۘ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۖ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

(١٠٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الحكم الذي تقدم، أو تحليف الشاهد. ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمينِ الكاذبة. وإنما جمع الضمير لأنه حكم يعم الشهود كلهم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما توصون به سمع إجابة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوماً فاسقين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة. فقوله تعالى:

(١٠٩) ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ ظرف له، وقيل بدل من مفعول واتقوا بدلَ الاشتمال، أو مفعول واسمعوا على حذف المضاف أي واسمعوا خبر يوم جَمْعهم، أو منصوب بإضمار اذكر. ﴿فَيَقُولُ﴾ أي للرسل. ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أيَّ إجابة أجبتم؟ علىٰ أن ماذا في موضع المصدر، أو بأي شيء أجبتم؟ فحذف الجار، وهذا السؤال لتوبيخ قومهم كما أن سؤال الموءودة لتوبيخ الوائد ولذلك ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ أي لا علم لنا بما لست تعلمه. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فتعلم ما نعلمه مما أجابونا وأظهروا لنا وما لا نعلم مما أضمروا في قلوبهم، وفيه التشكي منهم ورد الأمر إلى علمه بما كابدوا منهم. وقيل المعنى لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا وإنما الحكم للخاتمة. وقرىء علامَ بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله: إنك أنت، أي إنك أنت الموصوف بصفاتك المعروفة وعلاّمَ منصوبٌ على الاختصاص أو النداء، وقرأ أبو بكر وحمزة الغيُوب بكسر الغين حيث وقع.

(١١٠) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ بدل من يومَ يجمع وهو على طريقة

وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة.

● وأخرجه البخاري (٥/٤٠٩ رقم ٢٧٨٠) وأبو داود (٤/٣٠ رقم ٣٦٠٦) والترمذي (٥/٢٥٩ رقم ٣٠٦٠) مختصراً من حديث ابن عباس.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/١١٧): «وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين منهم عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك، وهذا يدل على اشتهارها في السلف وصحتها» هـ.

والخلاصة أن الحديث حسن نظراً لما تقدم والله أعلم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾[1] والمعنى أنه سبحانه وتعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وتعديدِ ما أَظْهَر عليهم من الآيات فكذبتْهم طائفة وسمّوهم سحرة وغلا آخرون فاتخذوهم آلهةً. أو نصبٌ بإضمار اذكر[2]. ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك وهو ظرف لنعمتي، أو حال منه. وقرىء آيدتُك. ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ بجبريل عليه الصلاة والسلام، أو بالكلام الذي يحيا به الدينُ أو النفسُ حياةً أبدية ويَطْهَر من الآثام ويؤيده قوله: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ أي كائناً في المهد وكهلاً، والمعنى تكلمهم في الطفولة والكهولة على سواء، والمعنى إلحاقُ حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل والتكلم، وبه استُدل على أنه سينزل فإنه رفع قبل أن يَكْتهل. ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران. وقرأ نافع ويعقوب طائراً، ويحتمل الإفراد والجمع كالباقر. ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ يعني اليهود حين همّوا بقتله. ﴿إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ظرف لكففت. ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين[3]. وقرأ حمزة والكسائي إلا ساحر، فالإشارة إلى عيسىٰ عليه الصلاة والسلام.

وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾

(١١١) ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أي أمرتهم على ألسنة رسلي. ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ يجوز أن تكون أن مصدرية، وأن تكون مفسرة. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ مخلصون.

(١١٢) ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ منصوب باذكر، أو ظرف لقالوا فيكونُ تنبيهاً على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم. ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لم يكن بَعدُ عن تحقيق واستحكامِ معرفة. وقيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة. وقيل المعنى هل يطيع ربكَ أي هل يجيبك، واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب وأجاب. وقرأ الكسائي تَسْتطيعُ ربَّكَ أي سؤالَ ربك، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف. والمائدة الخوان إذا كان عليه الطعام، من مَاد الماءُ يَميد إذا تحرك، أو من مادَهُ إذا أعطاه كأنها تُميد من تقدم إليه، ونظيرُها قولهم شجرة مُطْعِمة. ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، أو صدقتم في ادعائكم الإيمان.

---

(١) الآية في الأعراف «٤٤». وقوله: (على طريقة...) أي أن أصحاب الجنة إنما قالوا ذلك شماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم.

(٢) وقد خص عيسىٰ عليه السلام بالذكر لأن شأنه متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب. وصيغة الماضي في قوله «إذ قال» للدلالة على تحقق الوقوع. (س٣/ ٩٤).

(٣) وقوله «الذين كفروا» حيث وضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما في حيز الصلة (س٣/ ٩٥).

قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

(١١٣) ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عُذْرٍ وبيان لِمَا دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا بالأكل منها. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بانضمام عِلْمِ المشاهدة إلى تعلم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالىٰ. ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في ادعاء النبوة، أو أن الله يجيب دعوتنا. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ إذا استشهدتنا، أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

(١١٤) ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لمّا رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، أو أنهم لا يقلعون عنه فأراد إلزامَهم الحجة بكمالها. ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي يكون يومُ نزولها عيداً نعظمه[1]. وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمي يوم العيد عيداً. وقرىء تَكُنْ على جواب الأمر. ﴿لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من لنا بإعادة العامل أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا. روي: أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيداً. وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا. وقرىء لأُولانا وأُخرانا بمعنى الأمة أو الطائفة. ﴿وَآيَةً﴾ عطف على عيد. ﴿مِّنكَ﴾ صفة لها أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي. ﴿وَارْزُقْنَا﴾ المائدة والشكر عليها. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من يرزق، لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

(١١٥) ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابة إلى سؤالكم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم مُنَزِّلها بالتشديد[2]. ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي تعذيباً، ويجوز أن يجعل مفعولاً به على السعة. ﴿لَّا أُعَذِّبُهُ﴾ الضمير للمصدر، أو للعذاب إن أريد ما يُعَذَّبُ به على حذف حرف الجر. ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانهم، أو العالمين مطلقاً فإنهم مُسخوا قردة وخنازير ولم يعذَّبْ بمثل ذلك غيرُهم. روي[3]: أنها نزلت سفرةٌ حمراء بين غَمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم،

---

(١) قوله: «اللهم ربنا» ناداه مرتين مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية وذلك إظهاراً لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء (س٣/ ٩٨).

(٢) كأن الأصل عند البيضاوي قراءة التخفيف «مُنْزِلُها» وقد قرأ بها الأكثرون.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٠١٣) عن سلمان مطولاً. وأخرجه ابن أبي حاتم. كما في تفسير ابن كثير (٢/ ١٢١ ـ ١٢٣) من نفس طريق أبي الشيخ، وقال «هذا أثر غريب جداً...» وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٧٢) «في هذا الحديث مقال ولا يصح من قبل إسناده».

وأورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٣٢) وعزاه إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم =

فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مُثْلَةً وعقوبة، ثم قام فتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خيرِ الرازقين، فإذا سمكةٌ مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسةُ أرغفةٍ على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله أمِنْ طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما ولكن اخترَعه الله سبحانه وتعالى بقدرته كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله لو أريتنا مِنْ هذه الآية آيةً أخرى، فقال: يا سمكةُ احيي بإذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنتِ فعادت مشوية ثم طارت المائدة، ثم عصوْا بعدها فمسخوا. وقيل كانت تأتيهم أربعين يوماً غباً يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون، حتى إذا فاء الفيءُ طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس لذلك فمُسِخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً. وقيل لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة استعفَوْا وقالوا: لا نريد فلَمْ تَنْزِل. وعن مجاهد أن هذا مَثَلٌ ضربه الله لمقترحي المعجزات. وعن الصوفية: المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن، وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها، فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه فسأَلَ لأجل اقتراحهم، فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالاً بعيداً.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد به توبيخ الكفرة وتبكيتهم. ومن دون الله صفة لإلهين، أو صلة اتخذوني. ومعنى «دون» إما المغايرة فيكون فيه تنبيه على أن عبادة الله سبحانه وتعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبده، أو للقصور فإنهم لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة وإنما زعموا أن عبادتهما توصل إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وكأنه قيل: اتخذوني وأمي إلهين متوصلين بنا إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أنزهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك. ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله. ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. وقوله في نفسك للمشاكلة، وقيل المراد بالنفس الذات. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه.

= وأبو الشيخ في العظمة، وأبو بكر الشافعي في فوائده المعروفة بالغيلانيات. =

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

(١١٧) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ تصريح بنفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه. ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ عطف بيان للضمير في به، أو بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً ليلزم بقاء الموصول بلا راجع، أو خبر مضمر أو مفعوله مثل هو أو أعني، ولا يجوز إبداله مِنْ ما أمرتني به فإن المصدر لا يكون مفعول القول، ولا أن تكون أَنْ مفسرة لأن الأمر مسند إلى الله سبحانه وتعالى، وهو لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم والقول لا يفسر بل الجملة تحكي بعده إلا أن يؤول القول بالأمر فكأن قيل: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به أن اعبدوا الله. ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهِداً لأحوالهم من كفر وإيمان. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ بالرفع إلى السماء لقوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾[1] والتوفي أخذ الشيء وافياً، والموت نوع منه قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾[2]. ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع عليه مراقب له.

(١١٨) ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عَبَدوا غيرك. ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا عجز ولا استقباح فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبتَ فعَدْل وإن غفرتَ ففضل. وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد والتعليق بأن.

(١١٩) ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقرأ نافع يومَ بالنصب على أنه ظرف لقال وخبر هذا محذوف، أو ظرف مستقر وقع خبراً والمعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع. وقيل إنه خبر ولكن بني على الفتح بإضافته إلى الفعل وليس بصحيح، لأن المضاف إليه معرَب. والمراد بالصدق الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف. ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بيان للنفع.

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تنبيه على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل ومَنْ فيهن تغليباً للعقلاء وقال وما فيهن اتباعاً لهم غير أولي العقل

---

(١) آل عمران: «٥٥».

(٢) الزمر: «٤٢».

إعلاماً بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية وإهانة لهم وتنبيهاً على المجانسة المنافية للألوهية، ولأن ما يطلق متناولاً للأجناس كلها فهو أولىٰ بإرادة العموم. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات ومحي عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا»[1].

☆ ☆ ☆

(١) هذا الحديث موضوع. انظر الموضوعات لابن الجوزي (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) أبواب تتعلق بالقرآن ـ باب فضائل القرآن ـ.
وانظر تخريجه مفصلاً في الكافي الشاف ص٣٧ و٦٠ رقم (٣١١ و٤٨٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد، ونبه على أنه المستحق له على هذه النعم الجسام حُمِد أو لم يُحمد، ليكون حجة على الذين هم بربهم يعدلون. وجَمْعُ السموات دون الأرض وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدّمها لشرفها وعلو مكانها وتقدم وجودها. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أنشأهما. والفرقُ بين خَلَقَ وجَعَلَ الذي له مفعول واحد: أن الخلق فيه معنى التقدير والجعْلَ فيه معنى التضمن، ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثَّنَوية. وجَمْعُ الظلمات لكثرة أسبابها والأجرامِ الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة الضلال وبالنور الهدى، والهدىٰ واحد والضلال متعدد، وتقديمها لتقدم الإعدام على الملكات. ومن زعم أن الظلمة عَرَضٌ يضاد النور احتج بهذه الآية، ولم يعلم أن عدم الملكة ـ كالعَمَىٰ ـ ليس صرفَ العدم حتى لا يتعلقَ به الجعل. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ عطفٌ على قوله: «الحمد لله» علىٰ معنىٰ: أن الله سبحانه وتعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد. ثم الذين كفروا به يعْدِلون فيكفرون نعمته، ويكون بربهم تنبيهاً على أنه خلق هذه الأشياء أسباباً لتكوُّنهم وتعيشهم، فمِن حقه أن يُحمد عليها ولا يكفَر، أو على قوله «خَلَق» على معنى أنه سبحانه وتعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى «ثم»: استبعاد عدولهم بعد هذا البيان. والباء على الأول متعلقة بكفروا، وصلةُ يعدلون محذوفةٌ أي يعدلون عنه ليقع الإنكار على نفس الفعل، وعلى الثاني متعلقة بيعدلون، والمعنى: أن

الكفار يعدلون بربهم الأوثان أي يسوُّونها به سبحانه وتعالى[١].

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي ابتدأ خَلْقكم منه، فإنه المادة الأولىٰ وأن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه، أو خلق أباكم فحُذِف المضاف. ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجل الموت. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجل القيامة. وقيل الأول ما بين الخلق والموت والثاني ما بين الموت والبعث، فإن الأجل كما يطلق لآخر المدة يطلق لجملتها. وقيل الأول النوم والثاني الموت. وقيل الأول لمن مضى والثاني لمن بقي ولمن يأتي. وأجل نكرة خُصِّصت بالصفة ولذلك استغني عن تقديم الخبر، والاستئنافُ به لتعظيمه ولذلك نُكِّر ووصِف بأنه مسمّى أي مثبت معيّن لا يقبل التغيير، وأُخبِر عنه بأنه عند الله لا مَدْخَلَ لغيره فيه بعلم ولا قدرة ولأنه المقصودُ بيانه. ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن من قَدِر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث. والامتراء الشك، وأصله المَرْي وهو استخراج اللبن من الضرع[٢].

(٣) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ الضمير لله سبحانه وتعالى واللهُ خبره. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق باسم الله، والمعنى: هو المستحق للعبادة فيهما لا غير، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[٣] أو بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ والجملة خبر ثان، أو هي الخبر والله بدل، ويكفي لصحة الظرفية كونُ المعلوم فيهما كقولك رميت الصيد في الحرم إذا كنت خارجَه والصيد فيه، أو ظرف مستقر وقع خبراً، بمعنى أنه سبحانه وتعالى لكمال علمه بما فيهما كأنه فيهما، ويعلم سركم وجهركم بيان وتقرير له، وليس متعلقاً بالمصدر لأن صفته لا تتقدم عليه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير أو شر فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أريد بالسر والجهر ما يَخفى وما يظهر من أحوال الأنفس وبالمكتسب أعمال الجوارح.

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ مِنْ الأولى مزيدة للاستغراق والثانية للتبعيض، أي: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن. ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه[٤].

---

(١) قوله «خلق السموات والأرض» خصهما بالذكر لاشتمالهما على مجمل النعم.
وقوله «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» وضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع عليهم، وتقديم «بربهم» لمزيد الاهتمام والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار. وتزك المفعول لظهوره أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل بتنزيله منزلة اللازم إيذاناً بأنه المدار في الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول (س٣/ ١٠٥).

(٢) قوله تعالى «خلقكم...» خصص خلقهم بالذكر لأن محل النزاع هو بعثهم ودلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر وهم بشؤون أنفسهم أعرف..
والالتفات إلى الخطاب لمزيد التشنيع والتوبيخ.
وقوله «ثم قضى أجلاً» فأورد كلمة «ثم» للإيذان بتفاوت ما بين خلقهم وبين تقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحكمة البالغة. (س٣/ ١٠٦).

(٣) الزخرف: «٨٤».

(٤) والالتفات إلى الغيبة للإشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحاً. وصيغة المضارع =

(٥) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني القرآن وهو كاللازم مما قبله كأنه قيل: إنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا به لما جاءهم، أو كدليل عليه على معنى أنهم لما أعرضوا عن القرآن وكذبوا به وهو أعظم الآيات فكيف لا يعرضون عن غيره، ولذلك رتب عليه بالفاء. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، أو عند ظهور الإسلام وارتفاعِ أمره[1].

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي من أهلِ زمان. والقرن مدة أغلب أعمار الناس وهي سبعون سنة، وقيل ثمانون، وقيل القرن أهل عصر فيه نبي أو فائقٌ في العلم، قلت: المدة وإن كثرت واشتقاقه من قرنت. ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً وقَرَنّاهم فيها وأعطيناهم من القُوىٰ والآلات ما تمكنوا بها من أنواع التصرف فيها. ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ما لم نجعل لكم من السعة وطول المقام يا أهل مكة، أو ما لم نعطكم من القوة والسعة في المال والاستظهار في العدد والأسباب. ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم﴾ أي المطر، أو السحاب، أو المظلة فإن مبدأ المطر منها. ﴿مِّدْرَارًا﴾ أي مغزاراً. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار. ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لم يغن ذلك عنهم شيئاً. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ وأحدثنا. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ بدلاً منهم، والمعنىٰ أنه سبحانه وتعالى كما قدِر على أن يهلك مَنْ قبلكم كعاد وثمود وينشىء مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده يَقْدِر أن يفعل ذلك بكم.

(٧) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ مكتوباً في ورق. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فمسوه، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا، ولأنه يتقدمه الإبصار حيث لا مانع، وتقييده بالأيدي لدفعِ التجوز فإنه قد يُتجوز به للفحص كقوله ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾[2] ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ

= «تأتيهم» لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على الاستمرار التجددي. وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه (س٣/ ١٠٩).

(١) قوله «.. أنباء..» أورده بلفظ الإنباء للإيذان بعظم شأنه لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر العظيم الوقع (س٣/ ١١٠).

(٢) الجن: «٨».

﴿هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ تعنتاً وعناداً.

(٨) ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ هلاّ أنزل معه ملك يكلمنا أنه نبي كقوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[١]. ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ جواب لقولهم وبيان هو المانع مما اقترحوه والخلل فيه، والمعنى أن المَلَك لو أنزل بحيث عاينوه كما اقترحوا لحق إهلاكهم فإن سنة الله قد جرت بذلك فيمن قبلهم. ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ بعد نزوله طرفة عين[٢].

(٩) ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ جواب ثان إن جُعل الهاء للمطلوب، وإن جُعل للرسول فهو جواب اقتراح ثان، فإنهم تارة يقولون لولا أنزل عليه ملك وتارة يقولون لو شاء ربُّنا لأنزل ملائكة، والمعنى ولو جعلنا قريناً لك مَلَكاً يعاينونه أو الرسولَ مَلَكاً لمثَّلْناه رجلاً كما مُثِّل جبريل في صورة دحية الكلبي، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، وإنما رآهم كذلك الأفرادُ من الأنبياءعليهم الصلاة والسلام بقوتهم القُدُسية. ولَلَبسنا جواب محذوف أي ولو جعلناه رجلاً للبسنا أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم فيقولون ما هذا إلا بشر مثلكم. وقرىء لبسنا بلام واحد ولبَّسنا بالتشديد للمبالغة[٣].

(١٠) ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما يَرى من قومه. ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فأحاط بهم الذين كانوا يستهزئون به حيث أُهلكوا لأجله، أو فنزل بهم وَبَال استهزائهم[٤].

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾

(١١) ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال كي تعتبروا، والفرق بينه وبين قوله ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾[٥] أي السير ثَمَّة لأجل النظر

---

(١) الفرقان: «٧».

(٢) بناء الفعل الأول في الجواب للفاعل ـ أي قوله «أنزلنا» ـ مع أنه في السؤال مبنياً للمفعول لتهويل الأمر وتربية المهابة، وبناء الثاني للمفعول ـ أي «لقُضي» ـ للجري على سنن الكبرياء.
وكلمة «ثم» في قوله «ثم لا ينظرون» للتنبيه على تفاوت ما بين قضاء الأمر وعدم الإنظار (س٣/ ١١٣).

(٣) قوله «لجعلناه رجلاً» إيثار كلمة «رجلاً» على بشراً للإيذان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة (س٣/ ١١٣).

(٤) قدم المفعول «الذين سخروا» على الفاعل للمسارعة إلى بيان لحوق الشرّ بهم (س٣/ ١١٤).

(٥) النمل: «٦٩».

ولا كذلك ههنا، ولذلك قيل معناه إباحةُ السير للتجارة وغيرها وإيجابُ النظر في آثار الهالكين.

(١٢) ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وهو سؤال تبكيت. ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقريراً لهم وتنبيهاً على أنه المتعين للجواب بالإنفاق، بحيث لا يُمْكنهم أن يذكروا غيره. ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ التزمها تفضلاً وإحساناً. والمراد بالرحمة ما يعم الدارين، ومن ذلك الهدايةُ إلى معرفته والعلمُ بتوحيده بنصب الأدلة وإنزالُ الكتب والإمهالُ على الكفر. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ استئناف وَقَسَم للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي: ليجمعنكم في القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم، أو في يوم القيامة، وإلى بمعنى في. وقيل بدلٌ من الرحمة بدلَ البعض فإن من رحمته بعثُهُ إياكم وإنعامُه عليكم. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو الجمع. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرةُ الأصلية والعقل السليم. وموضعُ «الذين» نصب على الذم، أو رفع على الخبر أي: وأنتم الذين، أو على الابتداءِ والخبرُ: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبَّب عن خسرانهم، فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدىٰ بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمانِ.

(١٣) ﴿وَلَهُ﴾ عطف على لله. ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من السُّكنىٰ، وتَعْديتُه بفي. كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾[1] والمعنىٰ ما اشتملا عليه، أو من السكون أي ما سكن فيهما وتحرك فاكْتُفِي بأحد الضدين عن الآخر. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل مسموع. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم فلا يخفىٰ عليه شيء، ويجوز أن يكون وعيداً للمشركين على أقوالهم وأفعالهم.

(١٤) ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ إنكارٌ لاتخاذ غير الله ولياً لا لاتخاذ الولي، فلذلك قُدِّم وأُولي الهمزة، والمراد بالولي المعبود لأنه رد لمن دعاه إلى الشرك. ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفت معنى الفاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها أي ابتدأتُها[2]. وجرُّه على الصفة لله، فإنه بمعنى الماضي، ولذلك قرىء فَطَر. وقرىء بالرفع والنصب على المدح. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يَرزق ولا يُرزق، وتخصيص الطعام لشدة الحاجة إليه. وقرىء ولا يَطْعَم بفتح الياء وبعكس الأول على أن الضمير لغير الله، والمعنى كيف أُشْرك بمَنْ هو فاطرُ السموات والأرض ما هو نازلٌ عن رتبة الحيوانية وبينانهما للفاعل على أن الثاني من أولهم بمعنى استطعم أو على معنى أنه يُطْعِم تارة ولا يُطْعِم أخرىٰ كقوله: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾[3]. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابقُ أمته في الدين. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي ولا تكونن، ويجوز عطفه علىٰ قلْ.

---

(١) إبراهيم: «٤٥».

(٢) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث (٤/ ٣٧٣) وفي فضائل القرآن، بإسناد حسن ليس فيه إلاّ (إبراهيم بن مهاجر) ـ كما في (الكافي الشاف) (ص٦١ رقم٣) ـ قلت: إبراهيم بن مهاجر: صدوق لين الحفظ من الخامسة من رجال مسلم.
[التقريب: (١/ ٤٤ رقم ٢٨٤) ورجال صحيح مسلم (١/ ٤٦ رقم ٤٦)].

(٣) البقرة: «٢٤٥».

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مبالغةٌ أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، والشرط معترِض بين الفعل والمفعول به وجوابه محذوف دل عليه الجملة.

(١٦) ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يُصرف العذابُ عنه. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم يَصْرِفْ على أن الضمير فيه لله سبحانه وتعالى، وقد قرىء بإظهاره. والمفعول به محذوف، أو يومئذ بحذف المضاف. ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ نجاه وأنعم عليه. ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الصرف أو الرحمة.

(١٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ببلية كمرض وفقر. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ فلا قادر على كشفه. ﴿إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ بنعمة كصحة وغنىً. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على دفعه كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[1].

(١٨) ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم.

(١٩) ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ نزلت جين قالت قريش: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكْر ولا صفة فأرنا مَنْ يشهد لك أنك رسول الله[2]. والشيء يقع على كل موجود، وقد سبق القول فيه في سورة البقرة. ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي اللهُ أكبر شهادة، ثم ابتدأ ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي هو شهيد بيني وبينكم، ويجوز أن يكون الله شهيد هو الجواب لأنه سبحانه وتعالى إذا كان الشهيد كان أكبر شيء شهادة. ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، واكتُفي بذكر الإنذار عن ذكر البشارة. ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ عطف على ضمير المخاطبين، أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن بلغه إلى يوم القيامة، وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومَنْ بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد. ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي بل أشهد أن لا إله إلا هو. ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني الأصنام.

---

(١) يونس: «١٠٧».

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص٢١٤ عن الكلبي بدون سند.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعرفون رسول الله ﷺ بحِلْيته المذكورة في التوراة والإنجيل[١]. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بحُلاهم. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركين. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ كأن كذبوا بالقرآن والمعجزات وسموها سحراً. وإنما ذكر «أو» وهم قد جمعوا بين الأمرين تنبيهاً على أن كلاً منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن[٢]. ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فضلاً عمن لا أحد أظلم منه.

(٢٢) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ منصوب بمضمر تهويلاً للأمر. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله. وقرأ يعقوب يَحْشرهم ويَقُول بالياء. ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان، والمراد من الاستفهام التوبيخ، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لمّا لم ينفعوهم فكأنهم غيب عنهم.

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ أي كفرهم، والمراد عاقبته، وقيل معذرتهم التي يتوهمون أن يتخلصوا بها، مِنْ فَتَنْتُ الذهب إذا خلصته، وقيل جوابهم وإنما سماه فتنة لأنه كذب أو لأنهم قصدوا به الخلاص. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم لم تكن بالتاء وفتنتُهم بالرفع على أنها الاسم، ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عنه بالتاء والنصب على أن الاسم أَنْ قالوا، والتأنيثُ للخبر كقولهم من كانت أمك، والباقون بالياء والنصب. ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يكذبون ويحلفون عليه مع علمهم بأنه لا ينفعهم من فَرْط الحيرة والدهشة، كما يقولون: «ربنا أخرجنا منها» وقد أيقنوا بالخلود. وقيل معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا وهو لا يوافق قوله:

(٢٤) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بنفي الشرك عنها، وحملُه على كذبهم في الدنيا تعسف يخلّ بالنظم، ونظير ذلك قوله ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[٣]. وقرأ حمزة والكسائي ربنا بالنصب على النداء أو المدح. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الشركاء[٤].

---

(١) وإيرادهم بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بمدار ما أسند إليهم (س٣/ ١١٨).

(٢) ومدار وضع ضمير الشأن موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره. وفائدة تصدير الجملة به الإيذانُ بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن، فكأنه قيل: إن الشأن الخطير هذا هو.. (س٣/ ١١٩).

(٣) المجادلة: «١٨».

(٤) وإيقاع الافتراء عليها مع أنه في الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية والشركة والشفاعة ونحوها للمبالغة في=

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾[1] حين تتلو القرآن، والمراد أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابُهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول؟ فقال: والذي جعلها بيتَه ما أدري ما يقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطيرَ الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان إني لأرى حقاً، فقال أبو جهل كلاّ. ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية، جمع كِنَان، وهو ما يستر الشيء. ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفقهوه. ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ يمنع من استماعه، وقد مر تحقيق ذلك في أول البقرة[2]. ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم. ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ أي بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم جاؤوك يجادلونك. وحتى هي التي تقع بعدها الجمل، لا عمل لها، والجملةُ إذا وجوابه وهو: ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فإنَّ جَعْل أصدق الحديث خرافات الأولين غاية التكذيب، ويجادلونك حالٌ لمجيئهم، يجوز أن تكون الجارّةُ وإذا جاؤوك في موضع الجرّ ويجادلونك حال ويقول تفسير له. والأساطيرُ الأباطيلُ جمع أسطورة أو إسطارة أو أسطار جمع سطر، وأصله السّطْر بمعنى الخط[3].

(٢٦) ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي ينهون الناس عن القرآن، أو الرسول ﷺ والإيمان به. ﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ بأنفسهم، أو ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأون عنه فلا يؤمنون به كأبي طالب[4]. ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ ﴾ وما يهلكون بذلك. ﴿ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنّ ضرره لا يتعداهم إلى غيرهم.

(٢٧) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ جوابه محذوف أي: لو تراهم حين يوقَفُون على النار حتى يعاينوها أو يطلعون عليها أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها لرأيتَ أمراً شنيعاً. وقرىء وَقَفُوا على البناء للفاعل من وقف عليها وقوفاً. ﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ تمنياً للرجوع إلى الدنيا. ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ استئنافٌ، كلامٌ منهم على وجه الإثبات كقولهم: دعني ولا أعود، أي وأنا لا أعود تركتَني أوَلَم تتركني، أو عطفٌ على نرد، أو حالٌ من الضمير فيه فيكون في حكم التمني، وقولُه ﴿ وَإِنَّهُمْ

أمرها كأنها نفس المفترى (س٣/ ١٢٠).

(١) وقد أورد قوله «مَنْ يستمع إليك» بالإفراد مراعاة للفظها، أما قوله: «ومنهم من يستمعون إليك» ـ يونس «٤٢» ـ فقد راعى فيها جانب المعنى (س٣/ ١٢١).

(٢) عند قوله «ختم الله على قلوبهم...» ـ البقرة «٧» ـ.

(٣) وقوله «الذين كفروا..» حيث وضع الموصول موضع ضميرهم ذماً لهم بما في حيز الصلة وإشعاراً بعلة الحكم (س٣/ ١٢١).

(٤) قوله «وينأون عنه» أي يتباعدون عنه إظهاراً لنفورهم عنه وتأكيداً لنهيهم عنه، ولذلك أخر النأي عن النهي، لأن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات النهي (س٣/ ١٢٢).

﴿لَكَٰذِبُونَ﴾[1] راجع إلى ما تضمنه التمني من الوعد. ونصبهما حمزة ويعقوب وحفص على الجواب بإضمار أنْ بعد الواو إجراءً لها مجرى الفاء. وقرأ ابن عامر برفع الأول على العطف ونصب الثاني على الجواب.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ الإضرابُ عن إرادة الإيمان المفهومة من التمني، والمعنى أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم أو قبائح أعمالهم فتمنوْا ذلك ضجراً لا عزماً على أنهم لو رُدُّوا لآمنوا[2]. ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ أي إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور. ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما وُعدوا به من أنفسهم.

(٢٩) ﴿وَقَالُوا﴾ عطفٌ على لعادوا أو على إنهم لكاذبون أو على نُهوا، أو استئنافٌ بذكر ما قالوه في الدنيا. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الضمير للحياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

(٣٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مجاز عن الحبس للسؤال والتوبيخ، وقيل معناه وُقِفوا على قضاء ربهم أو جزائه، أو عرفوه حق التعريف. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ كأنه جواب قائل قال: ماذا قال ربهم حينئذ؟ والهمزةُ للتقريع على التكذيب والإشارةِ إلى البعث وما يتبعه من الثواب والعقاب. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إقرار مؤكَّد باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء. ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو ببدله.

(٣١) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ إذ فاتهم النعم واستوجبوا العذاب المقيم. ولقاءُ الله البعثُ وما يتبعه[3]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ غاية لكذبوا لا لخسر، لأن خسرانهم لا غايةَ له. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ونصبُها على الحال، أو المصدر فإنها نوع من المجي. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ أي تعالَيْ فهذا أوانُك. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قصّرنا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا، أُضمِرت وإن لم يَجْرِ ذِكْرها للعلم بها، أو في الساعة، يعني في شأنها والإيمان بها. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام[4]. ﴿أَلَا سَاءَ مَا

---

(١) الأنعام: «٢٨».

(٢) قوله «ما كانوا يُخفون...» آثاره على إبراز صريح التكذيب كما في قوله تعالى: «هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون» ـ الرحمن: ٤٣ ـ وذلك لمراعاة ما في مقابلته من الإبداء (س٣/ ١٢٣).

(٣) قوله «الذين كفروا» وضع الموصول موضع الضمير للإيذان بتسبب خسرانهم بما في حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى (س٣/ ١٢٥).

(٤) قوله: «وهم يحملون...» حال من فاعل قالوا، وفائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصوراً على ما ذكر من =

﴿يَزِرُونَ﴾ بئس شيئاً يَزُرُونه وِزْرُهم.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

(٣٢) ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي وما أعمالها إلا لعب ولَهْوٌ يلهي الناس ويشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية، وهو جواب لقولهم ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾[١]. ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لِدَوامها وخلوص منافعها ولذاتها. وقولُه ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تنبيه على أنّ ما ليس من أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عامر ولَدارُ الآخرة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيَّ الأمرين خير[٢]. وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب بالتاء على خطاب المخاطبين به، أو تغليب الحاضرين على الغائبين.

(٣٣) ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ معنى «قد» زيادة الفعل وكثرتُه كما في قوله:

ولكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهْ

والهاء في إنه للشأن. وقرىء لَيُحْزِنُك من أحزن. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الحقيقة. وقرأ نافع والكسائي لا يُكْذِبُونَكَ، مِنْ أَكْذَبَه إذا وجده كاذباً أو نسبه إلى الكذب. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولكنهم يجحدون بآيات الله ويكذبونها، فوضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أنهم ظلموا بجحودهم أو جحدوا لتمرّنهم على الظلم[٣]. والباء لتضمين الجحود معنى التكذيب. روي أن أبا جهل كان يقول: ما نكذبك وإنك عندنا لصادق وإنما نكذب ما جئتنا به. فنزلت[٤].

الحسرة على ما فات بل إنهم يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال، وكذا للإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات، والسرّ فيه أن العذاب الروحاني أشد من الجسماني (س٣/ ١٢٥).

(١) الأنعام: «٢٩».

(٢) أثبتها في الأصل على من قرأ بالياء «أفلا يعقلون».

(٣) إيراد الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه كما في قوله تعالى: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» ـ النمل: ١٤ ـ (س٣/ ١٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦١ رقم ٣٠٦٤) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب=

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ، وفيه دليل على أن قوله: لا يكذبونك ليس لنفي تكذيبه مطلقاً. ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم فتأسَّ بهم واصبر. ﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه إيماء بوعد النصر للصابرين[١]. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لمواعيده، من قوله: ﴿﴾[٢] لآيات[٣]. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾ أي بعض قصصهم وما كابدوا من قومهم.

(٣٥) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ عَظُم وشق. ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عنك وعن الإيمان بما جئتَ به. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى جوف الأرض فتُطْلع لهم آية، أو مصعداً تصعد به إلى السماء فتُنْزِل منها آية. وفي الأرض صفة لنفقاً، وفي السماء صفة لسُلّماً، ويجوز أن يكونا متعلقين بتبتغي، أو حالين من المستكن، وجواب الشرط الثاني محذوف تقديرُه فافعل، والجملةُ جواب الأول. والمقصودُ بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتىٰ بها رجاء إيمانهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا ولكن لم تتعلق به مشيئته، فلا تتهالَكْ عليه. والمعتزلة أوّلوه بأنه لو شاء لجمعهم على الهدىٰ بأن يأتيهم بآية ملجِئة، ولكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بالحرص على ما لا يكون والجزعِ في مواطن الصبر، فإن ذلك من دأب الجهلة.

(٣٦) ﴿﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ إنما يُجيب الذين يسمعون بفهم وتأمّل، لقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٤] وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون. ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ فيُعْلِمهم حين لا ينفعهم الإيمان. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للجزاء.

(٣٧) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي آية بما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أُنْزِل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عناداً ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى

عن علي به.
وأخرجه الترمذي أيضاً من طريق عبدالرحمٰن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق عن ناجية به، وقال الترمذي «لم يذكر فيه عن علي وهذا أصح».
قلت: وهذا الموقوف على ناجية، أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ١٨٢).
من طريق يحيى بن آدم عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية به.
وأما الموصول فقد أخرجه الحاكم في «المستدرك (٢/ ٣١٥) من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن ناجية عن علي به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: «ما خرجا لناجية شيئاً» ثم تعقّبه الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط في تخريج جامع الأصول (٢/ ١٣٢) التعليقة رقم (٢): بقوله «وهذا صحيح، فإن الشيخين لم يخرجا لناجية بن كعب شيئاً، ولكنه تابعي ثقة، فالحديث صحيح، وإن لم يكن على شرطهما» هـ.

(١) الالتفات إلى نون العظمة لإبراز الاعتناء بشأن النصر (س٣/ ١٢٨).
(٢) الصافات: «٣٧».
(٣) قوله «لكلمات الله» الالتفات فيه إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية من موجبات أن لا يغالبه أحد في فعل ولا يقع منه تعالى خُلف في قول (س٣/ ١٢٨).
(٤) ق: «٣٧».

الإيمان كنتق الجبل، أو آية إن جحدوها هلكُوا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على إنزالها[1] وأنَّ إنزالها يستجلب عليهم البلاء وأن لهم فيما أنزل مندوحة عن غيره. وقرأ ابن كثير يُنْزِل بالتخفيف والمعنى واحد.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ۖ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تدب على وجهها. ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في الهواء، وصفه به قطعاً لمجاز السرعة ونحوها. وقرىء ولا طائرٌ بالرفع على المحل. ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ محفوظةٌ أحوالها مقدَّرة أرزاقها وآجالها، والمقصودُ من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية. وجَمْعُ الأمم للحمل على المعنى. ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ فإنه مشتمِل على ما يجري في العالم من الجَلِيل والدقيق لم يُهمل فيه أمرُ حيوانٍ ولا جماد، أو القرآن فإنه قد دُوِّن فيه ما يُحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً. ومِنْ مزيدة، وشيء في موضع المصدر لا المفعول به، فإنّ فَرَط لا يتعدى بنفسه وقد عُدِّي بفي إلى الكتاب. وقرىء ما فَرَطْنَا بالتخفيف. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها فيُنْصِفُ بعضَها من بعض، كما روي أنه يأخذ للجمّاء من القرناء[2]. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حشرها موتها[3].

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظم قدرته سماعاً تتأثر به نفوسهم. ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق. ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ خبر ثالث أي خابطون في ظلمات الكفر، أو في ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في الخبر. ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ من يشأ الله إضلاله يُضْلله، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة. ﴿وَمَن

---

(١) وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعناداً (س٣/ ١٣١).

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧ رقم ٦٠/ ٢٥٨٢).
وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٥، ٣٢٣، ٣٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
أن رسول الله ﷺ قال «لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاةِ الجلْحاءِ من الشاةِ القرناء».
ـ الجلحاء: التي لا قرن لها [النهاية: (١/ ٢٨٤)].
ـ الجماء: كذلك [النهاية: (١/ ٣٠٠)].

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ١٨٨) عن ابن عباس.

﴿يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشدَه إلى الهدى ويحمله عليه.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ استفهامُ تعجيب، والكافُ حرف خطاب أكّد به الضمير للتأكيد لا محل له من الإعراب لأنك تقول: أرأيتك زيداً ما شأنُه؟ فلو جعلْتَ الكاف مفعولاً كما قاله الكوفيون لعدّيتَ الفعل إلى ثلاثة مفاعيل، وللزم في الآية أن يقال: أرأيتموكم بل الفعل معلق أو المفعول محذوف تقديره: أرأيتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها. وقرأ نافع أرأيتكم وأرأيتَ وأرأيتُم وأفرأيتُم وأفرأيتَ وشبهَها إذا كان قبل الراء همزة بتسهيل الهمزة التي بعد الراء، والكسائي يحذفها أصلاً، والباقون يحققونها، وحمزةُ إذا وقف وافق نافعاً. ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ كما أتىٰ مَنْ قبلكم. ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهولُها، ويدل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ وهو تبكيت لهم. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن الأصنام آلهة، وجوابه محذوف أي فادعوه.

(٤١) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصونه بالدعاء كما حكى عنهم في مواضع، وتقديمُ المفعول لإفادة التخصيص. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي ما تدعونه إلى كشفه. ﴿إِن شَآءَ﴾ أي يتفضل عليكم، ولا يشاء في الآخرة. ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت لِمَا رَكَزَ في العقول على أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدة الأمر وهوله[1].

(٤٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي قَبْلَكَ، وَمن زائدة[2]. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أي فكفروا وكذبوا المرسلين فأخذناهم. ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالشدة والفقر. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ والضر والآفات، وهما صيغتا تأنيث لا مذكَّر لهما: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتذللون لنا ويتوبون عن ذنوبهم.

فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٣) ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ معناه نفي تضرعهم في ذلك الوقت مع قيام ما يدعوهم أي لم يتضرعوا. ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ استدراك على المعنى وبيانٌ

(١) قوله «فيكشف..» توسيط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة (س٣/ ١٣٣).

(٢) تصدير الجملة بالقسم لإظهار مزيد الاهتمام بمضمونه (س٣/ ١٣٣).

للصارف لهم عن التضرع وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابُهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

(٤٤) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا به. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أنواع النعم مراوحةً عليهم بين نوبتي الضراء والسراء وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة، أو مكراً بهم لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مكْر بالقوم ورب الكعبة»[١]. وقرأ ابن عامر فَتَّحْنا بالتشديد في جميع القرآن، ووافقه يعقوب فيما عدا هذا والذي في الأعراف[٢]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا﴾ أُعجبوا ﴿بِمَآ أُوتُوٓا﴾ من النعم ولم يزيدوا غير البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه سبحانه وتعالى. ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ متحسرون آيسون[٣].

(٤٥) ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي آخرُهم بحيث لم يبقَ منهم أحد، مِنْ دَبَرَه دُبُراً ودُبُوراً إذا تبعه. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على إهلاكهم، فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها.

(٤٦) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أصمكم وأعماكم[٤]. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ بأن يغطي عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم. ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾ أي بذلك، أو بما أخذ وختم عليه، أو بأحد هذه المذكورات. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نكررها تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين. ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يُعرضون عنها، و«ثم» لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

(٤٧) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ من غير مقدمة. ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بتقدمة أمارة تؤذن بحلوله، وقيل ليلاً أو نهاراً. وقرىء بَغَتَة أو جَهَرَة. ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ أي ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب. ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولذلك صح الاستثناء المفرغ منه. وقرىء يَهلك بفتح الياء[٥].

(٤٨) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ المؤمنين بالجنة[٦]. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليُقترَح عليهم ويُتلهى بهم. ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب إصلاحه على ما شرع لهم. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوات الثواب[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٢٧٠) ـ.

(٢) الأعراف: «٩٦».

(٣) قوله «فتحنا» في ترتيب الفتح على النسيان المذكور إشعار بأن التذكر في الجملة غير خال عن النفع (س٣/ ١٣٣).
وقوله «فإذا هم مظلمون» إيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على تلك الحال الفظيعة (س٣/ ١٣٤).

(٤) وتقديم السمع على البصر لأن مورد الآيات في المسموعات (س٣/ ١٣٤).

(٥) وتقديم البغتة على الجهرة لكونها أهول وأفظع (س٣/ ١٣٥).

(٦) قوله «نرسل» بصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الإلهية (س٣/ ١٣٥).

(٧) وتقديم نفي الخوف على نفي الحزن مراعاة للمقام (س٣/ ١٣٥).

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماسّاً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستُغْنِي بتعريفه عن التوصيف. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

(٥٠) ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ مقدوراته أو خزائن رزقه. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ ما لم يُوحَ إلي ولم يُنْصَبْ عليه دليل، وهو من جملة المقول. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي من جنس الملائكة، أو أقدر على ما يقدرون عليه. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ تبرأ عن دعوى الألوهية والمُلْكية وادّعى النبوةَ التي هي من كمالات البشر رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مُدَّعاه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مَثَلٌ للضالّ والمهتدي، أو الجاهل والعالم، أو مدعي المستحيل كالألوهية والمُلْكية ومدعي المستقيم كالنبوة[1]. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتهتدوا أو فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه.

(٥١) ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ الضمير لما يوحىٰ إليّ. ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المؤمنون المُفْرِطُون في العمل، أو المجوِّزون للحشر مؤمناً كان أو كافراً مقرّاً به أو متردداً فيه، فإن الإنذار ينفع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته. ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال مِنْ يُحشروا، فإن المخوف هو الحشر على هذه الحالة. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوا.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ بعدما أَمَرَهُ بإنذار غير المتقين ليتقوا أَمَرَهُ بإكرام المتقين وتقريبِهم وأنْ لا يطردهم ترضيةً لقريش. روي أنهم قالوا: لو طردْتَ هؤلاء الأَعْبُد ـ يعنون فقراء المسلمين، كعمار وصهيب وخباب وسلمان ـ جلسنا إليك وحادثناك، فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا: فأَقِمْهُم عنّا إذا جئناك، قال: «نعم»[2]. وروي أن عمر رضي الله عنه قال له: لو

---

(١) تكرير الأمر بـ«قُل» لتثنية التبكيت وتأكيد الإلزام (س٣/ ٣٠٢).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٦١ رقم٧): «رواه البيهقي في الشعب في أواخره. والواحدي في «الأسباب» من رواية أبي مشجعة بن ربعي عن سلمان قال: «جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينه بن بدر، والأقرع بن حابس، وذووهم فقالوا يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبا ذر، وسلمان، وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك.
فأنزل الله تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ـ إلى قوله ـ للظالمين ناراً» فقام النبي ﷺ يلتمسهم. الحديث».
=

فعلتَ حتى ننظر إلى ماذا يصيرون، فدعا بالصحيفة وبعلي رضي الله تعالى عنه ليكتب، فنزلت[١]. والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام، وقيل صلاتا الصبح والعصر. وقرأ ابن عامر بالغُدْوَة هنا وفي الكهف[٢]. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حال من يَدْعون أي يدعون ربهم مخلصين فيه. قَيّد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر، ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامَهم وينافي إبعادَهم. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي ليس عليك حسابُ إيمانهم[٣]، فلعل إيمانهم عند الله أعظم من إيمان مَنْ تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا، أوليس عليك اعتبارُ بواطنهم وإخلاصهم لِمَا اتّسموا بسيرة المتقين وإنْ كان لهم باطن غير مرضي كما ذكره المشركون وطعنوا في دينهم فحسابُهم عليهم لا يتعداهم إليك كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم، وقيل ما عليك من حساب رزقهم أي من فقرهم، وقيل الضمير للمشركين والمعنى: لا تؤاخَذُ بحسابهم ولا هم بحسابك حتى يَهُمّك إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعاً فيه. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فتبعدهم وهو جواب النفي ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب النهي، ويجوز عطفه على فتطردهم على وجه التسبب، وفيه نظر.

= ولابن ماجه (٢/ ١٣٨٢ ـ ١٣٨٣ رقم ٤١٢٧)، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير (٤/ ٧٥ ـ ٧٧ رقم ٣٦٩٣) ـ وأبو نعيم في ترجمة خباب ـ الحلية (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧) وإسحاق وأبو يعلى، والبزار، والبيهقي. في الدلائل (١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣) والواحدي ـ في أسباب النزول ص٢١٧ ـ من طريق أبي الكنود عن خباب في قوله تعالى «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء ـ الآية ـ إلى: الظالمين» قال: جاء الأقرع وعيينة فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب، وبلال، وعمار وخباب قاعداً في ناس من ضعفاء المؤمنين. فذكره مطولاً» هـ.

● وأورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣٩) وقال عقبة: ورواه ابن جرير (٥/ج٧/ ٢٠١) من حديث أسباط به، وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر» هـ.

● وأخرج مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٨ رقم ٤٥، ٤٦/ ٢٤١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نَفَر، فقال المشركون للنبي ﷺ اطرُدْ هؤلاء لا يجترِئون علينا.

قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هُذيل، وبلال ورجلان لستُ أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع. فحدَّث نفسه.

فأنزل الله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه».

● وأخرج أحمد (١/ ٤٢٠) وابن جرير (٥/ج٧/ ٢٠٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٨ رقم ١٠٥٢٠) من حديث عبدالله بن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده أناس من المسلمين وصهيب وخباب، فقالوا يا محمد أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا؟ لو طردت هؤلاء لاتبعناك. فأنزل الله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» إلى قوله «أليس الله بأعلم بالشاكرين» وأورده الهيثمي في «المجتمع» (٧/ ٢١) وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٠٢) والواحدي في «الأسباب» ص٢١٨ في قوله عكرمة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٦١ رقم٨) «هو في حديث خباب المذكور آنفاً دون مشورة عمر واعتذاره» هـ.

(٢) الكهف: «٢٨».

(٣) وتقديم «عليك» في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به ـ عليه السلام ـ إذ هو الداعي إلى تصديه ـ عليه السلام ـ لحسابهم (س٣/ ١٣٩).

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفَتْن، وهو اختلاف أحوال الناس في أمور الدنيا. فتنّا أي ابتلينا بعضهم ببعض في أمر الدين فقدّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش بالسبْق إلى الإيمان. ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي أهؤلاء مَنْ أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا؟ ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء، وهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[1]. واللام للعاقبة أو للتعليل على أنّ فتنا متضمن معنى خذلنا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه وبمن لا يقع منه فيخذُله.

(٥٤) ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الذين يؤمنون هم الذين يَدْعون ربهم، وصَفَهُم بالإيمان بالقرآن واتّباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلامَ الله تعالى إليهم ويبشرَهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله بعد النهي عن طردهم إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقَرَّب ولا يطرد ويعزّ ولا يُذَل ويُبَشّر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة. وقيل إن قوماً جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً، فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا، فنزلت[2]. ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ استئناف بتفسير الرحمة. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح على البدل منها. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ في موضع الحال أي من عمل ذنباً جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، كعمر فيما أشار إليه، أو ملتبساً بفعل الجهالة فإن ارتكاب ما يؤدي إلى الضرر من أفعال أهل السفه والجهل. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعد العمل أو السوء. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والعزم على أن لا يعود إليه. ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتحه من فتح الأول غير نافع على إضمار مبتدأ، أو خبرٌ أي فأمره أو فله غفرانه.

(٥٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين المصرين منهم والأوابين. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قرأ نافع بالتاء ونصب السبيل على معنى ولتستوضح يا محمد سبيلَهم فتعامل كلاً منهم بما يحق له فصّلْنا هذا التفصيل،

---

(١) الأحقاف: «١١».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/٢٠٧).
والفريابي وعبد بن حميد، وسدد في مسنده، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان مرسلاً ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٢٧٦) ـ.
قلت: ماهان هو الحنفي أبو صالح الكوفي. قال الحافظ في التقريب (٢/ ٢٢٧) ثقة قتله الحجاج سنة (٨٣هـ).

وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم برفعه على معنى ولِتَبين سبيلُهم، والباقون بالياء والرفع على تذكير السبيل فإنه يذكر ويؤنث، ويجوز أن يعطف على علة مقدرة أي نفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين[1].

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ صُرفت وزُجرت بما نُصِب لي من الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر التوحيد. ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ عن عبادة ما تعبدون من دون الله، أو ما تدّعونها آلهةً أي تسمونها. ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ تأكيد لقطع أطماعهم وإشارةٌ إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم واستجهالٌ لهم، وبيانٌ لمبدأ ضلالهم وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى، وتنبيه لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي اتبعت أهواءكم فقد ضللت. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريض بأنهم كذلك[2].

(٥٧) ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تنبيه على ما يجب اتباعه بعد ما بيّن ما لا يجوز اتباعه. والبينةُ الدلالة الواضحة التي تفصل الحق من الباطل. وقيل المراد بها القرآن والوحي، أو الحجج العقلية، أو ما يعمها. ﴿مِّن رَّبِّي﴾ من معرفته وأنه لا معبود سواه، ويجوز أن يكون صفة لبيّنة. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ الضمير لربي أي كذبتم به حيث أشركتم به غيره، أو للبينة باعتبار المعنى. ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تعجيل العذاب وتأخيره. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾[4] أي القضاء الحق، أو يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع إذا صنعها، فيما يقضي من تعجيل وتأخير وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر، وأصل الحكم المنع فكأنه منع الباطل. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم «يَقُصُّ» من قص الأثر، أو من قص الخبر. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ القاضين[5].

---

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالياء، أي «وليستبين» أي على تذكير الفعل.

(٢) قوله «قل لا أتبع» كرر الأمر بالقول اعتناء بشأن المأمور به، أو إيذاناً باختلاف المقولين، من حيث إن الأول حكاية لما من جهته تعالى من النهي والثاني لما من جهته ﷺ من الانتهاء عما ذكر من عبادة ما يعبدونه.
وقوله «وما أنا من المهتدين» عدل للجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار (س٣/ ١٤١).

(٣) الأنفال: «٣٢».

(٤) أثبتها البيضاوي في الأصل «يقضي» وقراءة حفص المتداولة «يقص».

(٥) قوله «من ربي» في التعرض فيه لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من التشريف ورفع المنزلة=

(٥٨) ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي﴾ أي في قدرتي ومكنتي. ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب. ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، وانقطع ما بيني وبينكم. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في معنى الاستدراك كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يُمْهل منهم.

(٥٩) ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه جمع مَفْتح ـ بفتح الميم ـ وهو المخزن، أو ما يتوصل به إلى المغيبات مستعار من المفاتح الذي هو جمع مِفْتَح ـ بكسر الميم ـ وهو المفتاح، ويؤيده أنه قرىء مفاتيح، والمعنى أنه المتوصل إلى المغيبات المحيط علمه بها. ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم فيُظْهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ عطف للإخبار عن تعلق علمه تعالى بالمشاهَدات على الإخبار عن اختصاص العلم بالمغيبات به. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ معطوفات على ورقة، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بدل من الاستثناء الأول بدلَ الكل على أن الكتاب المبين عِلْم الله سبحانه وتعالى، أو بدلُ الاشتمال إن أريد به اللوح. وقرئت بالرفع للعطف على محل ورقة، أو رفعاً على الابتداء والخبر: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

(٦٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ ينيمكم فيه ويراقبكم، استُعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز فإن أصله قبض الشيء بتمامه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه خص الليلَ بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ يوقظكم، أطلق البعث ترشيحاً للتوفي ﴿فِيهِ﴾ في النهار. ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمّى له في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بالموت. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه. وقيل الآية خطاب للكفرة والمعنى أنكم مُلقَوْن كالجِيَف بالليل وكاسبون للآثام بالنهار، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعمارَكم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم، ثم إليه مرجعكم بالحساب، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون بالجزاء.

(٦١) ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون.

= ما لا يخفى (س٣/ ١٤٢).

والحكمةُ فيه أن المكلف إذا عَلِم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشِم منه احتشامه مِنْ خدمِه المطلعين عليه[1]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ مَلَكُ الموت وأعوانُه. وقرأ حمزة توفّاه بالألف ممالة. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتواني والتأخير. وقرىء بالتخفيف، والمعنى: لا يجاوزون ما حدّ لهم بزيادة أو نقصان.

ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه. ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ الذي يتولّى أمرهم. ﴿ٱلْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق. وقرىء بالنصب على المدح. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم لغيره فيه. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حَلْب شاة لا يشغله حساب عن حساب.

(٦٣) ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ من شدائدهما، استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتهما في الهول وإبطالِ الإبصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر. وقرأ يعقوب يُنْجِيكُم بالتخفيف والمعنى واحد. ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ معلنين ومسرين، أو إعلاناً وإسراراً. وقرأ أبو بكر هنا وفي الأعراف[2] وخِفْيَة بالكسر[3]، وقرىء خيفة. ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على إرادة القول أي تقولون لئن أنجيتنا. وقرأ الكوفيون لئن أنجانا، ليوافقَ قولَه تَدْعُونه، وهذه إشارة إلى الظُّلَمة.

(٦٤) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ شدده الكوفيون وهشام، وخففه الباقون. ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ غمّ سواها. ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد، وإنما وضع «تشركون» موضع لا تشكرون تنبيهاً على أن مِن أشرك بعبادة الله سبحانه وتعالى فكأنه لم يعبده رأساً.

(٦٥) ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل[4]. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما أغرَق فرعون وخسَف بقارون. وقيل من فوقكم أكابركم وحكامكم ومن تحت أرجلكم سفلَتُكم وعبيدكم. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم. ﴿شِيَعًا﴾ فِرَقاً متحزّبين على أهواء شتّى، فينشب

---

(١) تقديم «عليكم» على المفعول «حفظة» للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (س٣/ ١٤٤).

(٢) الأعراف: «٥٥».

(٣) أي بكسر الخاء «خِفْيَة».

(٤) وتقديم «عليكم» على المفعول الصريح «عذاباً» للاعتناء به، والمسارعة إلى بيان كون المبعوث مما يضرهم، ولتهويل أمر المؤخر (س٣/ ١٤٦).

القتال بينكم قال:

وكَتِيبَـــــةٌ لَبَسْتُهَـــــا بِكَتِيبَـــــةٍ حتَّـــى إِذَا التَبَسَـــتْ نَفَضْـــتُ لَهَـــا يَـــدِي

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يقاتل بعضكم بعضاً. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ بالوعد والوعيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي بالعذاب، أو بالقرآن[1]. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواقع لا محالة أو الصدق. ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ وكّل إليّ أمرُكم فأمنعكم من التكذيب أو أجازيكم، إنما أنا منذر والله الحفيظ.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبرٌ يريد به إما بالعذاب أو الإيعاد به. ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار ووقوع. ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند وقوعه في الدنيا والآخرة.

(٦٨) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وقُم عنهم. ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أعاد الضمير على معنى الآيات لأنها القرآن. ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي. وقرأ ابن عامر يُنَسِّينك بالتشديد. ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بعد أن تذكره. ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي معهم، فوضع الظاهر موضع المضمر دلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وما يلزم المتقين من قبائح أعمالهم وأقوالهم الذين يجالسونهم. ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ شيء مما يحاسبون عليه. ﴿وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ ولكن عليهم أن يذكّروهم ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويُظهِروا كراهتها. وهو يحتمل النصب على المصدر، والرفع على ولكن عليهم ذكرى، ولا يجوز عطفه على محل «من شيء» لأن مِنْ حسابهم يأباه ولا على «شيء» لذلك ولأن مِنْ لا تزاد في الإثبات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يجتنبون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم، ويحتمل أن يكون الضمير للذين يتقون والمعنى: لعلهم يثبتون على تقواهم ولا تنثلم بمجالستهم. روي: أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزءوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، ونطوف، فنزلت.

---

١) وإيرادهم بلفظ «قومُكَ» لبيان كمال سوء حالهم، فإن تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه ـ عليه السلام ـ مما يقضي بغاية عتوهم ومكابرتهم (س٣/ ١٤٦).

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

(٧٠) ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي بَنَوْا أمر دينهم على التشهي وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كُلِّفوه لعباً ولهواً حيث سَخِروا به، أو جعلوا عيدَهم الذي جُعِل ميقاتُ عبادتهم زمانَ لهوٍ ولعب. والمعنى أَعْرِض عنهم ولا تبالِ بأفعالهم وأقوالهم، ويجوز أن يكون تهديداً لهم كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[1] ومَنْ جعله منسوخاً بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم وترك التعرض لهم. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ حتى أنكروا البعث. ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تُسْلَمَ إلى الهلاك وتُرهن بسوء عملها. وأصل الإبسال والبَسْل المنع، ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تفلت منه، والباسل الشجاع لامتناعه من قَرْنه، وهذا بَسْل عليك أي حرام. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها العذاب. ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ وإن تَفْدِ كل فداء، والعدلُ الفدية لأنها تعادل المفدي وههنا الفداء. وكل نصب على المصدرية. ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ الفعل مسند إلى منها لا إلى ضميره بخلاف قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[2] فإنه المفدى به. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي سُلِّموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة. ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ تأكيد وتفصيل لذلك، والمعنى هم بين ماء مغلي يتجرجر في بطونهم ونارٍ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟﴾ أنعبد. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ ما لا يقدر على نفعنا وضرنا. ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا﴾ ونرجع إلى الشرك[3]. ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ فأنقذنا منه ورزقنا الإسلام. ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كالذي ذهبت به مردة الجن في المهامه، استفعال من هوى يهوي هويّاً إذا ذهب. وقرأ حمزة استهواه بألف ممالة. ومحل الكاف النصب على الحال من فاعل نُرَدّ أي: مُشْبهين الذين استهوته، أو على المصدر أي رداً مثل ردّ الذي استهوته. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ متحيراً ضالاً عن الطريق. ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ لهذا المستهوي رفقة. ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ إلى أن يهدوه الطريق المستقيم، أو إلى الطريق المستقيم، وسماه هدى تسمية للمفعول بالمصدر. ﴿ٱئْتِنَا﴾ يقولون له ائتنا. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى

---

(١) المدثر: «١١».

(٢) البقرة: «٤٨».

(٣) وإيثار لفظ «نُرَدّ» على نرتد لتوجيه الإنكار إلى الارتداد برد الغير تصريحاً بمخالفة المضلين وقطعاً لأطماعهم الفارغة وإيذاناً بأن الارتداد من غير راد ليس في حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفيه وإنكاره (س٣/١٤٩).

﴿ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام[١]. ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وحده وما عداه ضلال. ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من جملة المقول، عطفٌ على إن هدى الله، واللام لتعليل الأمر أي أمرنا بذلك لنسلم وقيل هي بمعنى الباء وقيل هي زائدة.

وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

(٧٢) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ عطف على لنسلم أي للإسلام ولإقامة الصلاة، أو على موقعه كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا الصلاة. روي: أن عبدالرحمن بن أبي بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت[٢]. وعلى هذا كان أمر الرسول ﷺ بهذا القول إجابة عن الصديق رضي الله تعالى عنه تعظيماً لشأنه وإظهاراً للاتحاد الذي كان بينهما. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

(٧٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قائماً بالحق والحكمة. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ جملة اسمية قُدِّم فيها الخبر أي قولُه الحق يوم يقول، كقولك: القتال يوم الجمعة، والمعنى أنه الخالق للسموات والأرضين وقوله الحق نافذ في الكائنات. وقيل يومَ منصوب بالعطف على السموات، أو الهاء في واتقوه، أو بمحذوف دل عليه بالحق، وقولُه الحقُّ مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى. وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه كن فيكون، والمراد به حين يكوِّن الأشياءَ ويُحْدِثها أو حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشرَ الأموات وإحياءَها. ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٣]. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي هو عالم الغيب. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ كالفذلكة للآية[٤].

(٧٤) ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو عطف بيان لأبيه، وفي كتب التواريخ أن اسمه تارح فقيل هما عَلَمان له كإسرائيل ويعقوب، وقيل العَلَم تارح وآزرُ وصف معناه الشيخ أو المعوج، ولعل منع صرفه لأنه أعجمي حمل على موازنه أو نعت مشتق من الأزر أو الوزر، والأقرب أنه عَلَم أعجمي على فاعِل كعابِر وشالخ، وقيل اسم صنم يَعْبُدُه فلقِّب به للزوم عبادته، أو أطلق عليه بحذف المضاف.

---

(١) وتكرير الأمر بـ«قل» للاعتناء بشأن المأمور (س٣/ ١٥٠).

(٢) أورده المناوي في الفتح السماوي ص٦١٠ وسكت عنه، وقال ابن همات: لم أقف عليه.

(٣) غافر: «١٦».

(٤) قوله تعالى: «وله الملك يوم ينفخ في الصور» قيد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة في الدنيا المصححة للملكية المجازية في الجملة (س٣/ ١٥١).

وقيل المراد به الصنم ونصبُه بفعل مضمر يفسره ما بعده أي أتعبد آزر ثم قال: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تفسيراً وتقريراً، ويدل عليه أنه قرىء ﴿آزَرَ﴾ تتخذ أصناماً بفتح همزة آزر وكسرها وهو اسم صنم، وقرأ يعقوب بالضم على النداء وهو يدل على أنه علم. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق. ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر الضلالة.

وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(٧٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ومثلُ هذا التبصير نبصره، وهو حكاية حال ماضية. وقرىء تُرِي بالتاء ورفع الملكوت ومعناه تبصره دلائل الربوبية. ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ربوبيتها وملكها، وقيل عجائبها وبدائعها. والملكوت أعظم الملك، والتاء فيه للمبالغة. ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي ليَستدل وليكون، أو وفعلنا ذلك ليكون.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ تفصيل وبيان لذلك، وقيل عطف على قال ابراهيم، وكذلك نُري اعتراضٌ فإن أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال. وجن عليه الليل ستَره بظلامه. والكوكب كان الزهرة أو المشتري. وقوله: هذا ربي على سبيل الوضع فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصمُ ثم يَكُرُّ عليه بالإفساد، أو على وجه النظر والاستدلال، وإنما قاله زمانَ مراهقته أَوْ أول أوان بلوغه. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب. ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ فضلاً عن عبادتهم فإن الانتقال والاحتجاب بالأستار يقتضي الأمان والحدوث وينافي الألوهية.

(٧٧) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ مبتدئاً في الطلوع. ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ استعجَز نفسَه واستعان بربه في دَرْك الحق ـ فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه ـ إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً لتغير حاله لا يصلُح للألوهية، وأن من اتخذه إلهاً فهو ضال.

(٧٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ ذَكَّر اسم الإشارة لتذكير الخبر وصيانةً للرب عن شبهة التأنيث. ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ كبَّره استدلالاً أو إظهاراً لشبهة الخصم. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدِث يحدثها ومخصص يخصصها بما تختص به، ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

(٧٩) ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإنما احتج بالأُفول دون البزوغ مع أنه أيضاً انتقال لتعدد دلالته، ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال.

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ۖ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ وخاصموه في التوحيد. ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه وتعالى. وقرأ نافع وابن عامر بخلاف عن هشام بتخفيف النون. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ إلى توحيده. ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ أي لا أخاف معبوداتكم في وقت لأنها لا تضر بنفسها ولا تنفع. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها، ولعله جواب لتخويفهم إياه من آلهتهم وتهديد لهم بعذاب الله. ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ كأنه علة الاستثناء، أي أحاط به علماً فلا يبعُد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها[١]. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز[٢].

(٨١) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ ولا يتعلق به ضر. ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ وهو حقيق بأن يُخاف منه كلّ الخوف، لأنه إشراك للمصنوع بالصانع وتسوية بين المقدور العاجز بالقادر الضار النافع. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ ما لم ينزل بإشراكه كتاباً، أو لم ينصِب عليه دليلاً. ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ أي الموحدون أو المشركون، وإنما لم يقل أيُّنا أنا أم أنتم احترازاً من تزكية نفسه[٣]. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحق أن يخاف منه.

(٨٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ استئناف منه أو من الله بالجواب عما استُفهم عنه، والمراد بالظلم ههنا الشرك لما روي أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»[٤] وليس الإيمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الإشراك به. وقيل المعصية.

(٨٣) ﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أو من قوله: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ إليه. ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أرشدناه إليها، أو علمناه

---

(١) وإظهار لفظ «ربي» في موضع الإضمار لتأكيد المعنى المذكور والاستلذاذ بذكره تعالى (س٣/ ١٥٥).

(٢) وفي إيراد لفظ التذكر دون التفكر ونظائره إشارة إلى أن أمر أصنامهم مركوز في العقول لا يتوقف إلا على التذكر (س٣/ ١٥٥).

(٣) وجيء بصيغة التفضيل «أحقّ» المشعرة باستحقاقهم له في الجملة لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الإنصاف (س٣/ ١٥٦).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٨٧ رقم ٣٢) ومسلم (١/ ١١٤ رقم ١٢٤) والترمذي (٥/ ٢٦٢ رقم ٣٠٦٧) وأحمد في المسند (رقم: ٣٥٨٩ ـ شاكر) والطبري (رقم: ١٣٤٧٦ ـ شاكر) كلهم من حديث عبدالله بن مسعود.

إياها. ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق بحجتنا إن جُعِل خبرَ تلك وبمحذوفٍ إنْ جُعِل بدله، أي: آتيناها إبراهيم حجةً على قومه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ في العلم والحكمة. وقرأ الكوفيون ويعقوب بالتنوين[1]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في رفعه وخفضه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه واستعداده له[2].

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

(٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ أي كلاً منهما. ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ من قبل إبراهيم، عدّ هداه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه وشرفُ الوالد يتعدى إلى الولد. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ الكلام فيه، وقيل لنوح عليه السلام لأنه أقرب ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم، فلو كان لإبراهيم اختص البيان بالمعدودين في تلك الآية والتي بعدها، والمذكورون في الآية الثالثة عطف على نوحاً. ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ﴾ أيوب بن أموص من أسباط عيص بن إسحاق. ﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ونجزي المحسنين جزاءً مثل ما جزينا إبراهيم برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ هو ابن مريم، وفي ذِكْره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت. ﴿وَإِلْيَاسَ ۖ﴾ قيل هو إدريس جد نوح فيكون البيان مخصوصاً بمَنْ في الآية الأولى، وقيل هو من أسباط هارون أخي موسى. ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي.

(٨٦) ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ هو اليسع بن أخطوب. وقرأ حمزة والكسائي واليسع، وعلى القراءتين هو عَلَم أعجمي أُدخل عليه اللام كما أدخل على اليزيد في قوله:

رأَيْتُ الوَلِيْدَ بن اليَزِيدِ مُبَارَكاً ... شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الخِلاَفَةِ كَاهِلُهُ

﴿وَيُونُسَ﴾ هو يونس بن متّى. ﴿وَلُوطًا ۚ﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم. ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنبوة، وفيه دليل على فضلهم على مَنْ عداهم من الخلق.

(٨٧) ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ﴾ عطف على كلاً أو نوحاً أي فضلنا كلاً منهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فإن منهم من لم يكن نبياً ولا مهدياً. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ عطف على فضّلنا أو هدينا. ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تكرير لبيان ما هُدوا إليه.

---

(١) وقرأ آخرون بكسر التاء في درجات دون تنوينها، ولعله الأصل عند البيضاوي.

(٢) وفي وضع الرب موضع نون العظمة بطريق الالتفات في تضاعيف بيان أحوال إبراهيم عليه السلام إظهار لمزيد لطف وعناية به عليه السلام (س٣/ ١٥٧).

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

(٨٨) ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما دانوا به. ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ دليل على أنه متفضل عليهم بالهداية. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فضلهم وعلو شأنهم. ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها.

(٨٩) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به الجنس. ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق. ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ والرسالة. ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي بهذه الثلاثة. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني قريشاً. ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي بمراعاتها. ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ وهم[1] الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون ومتابعوهم. وقيل هم الأنصار أو أصحاب النبي ﷺ، أو كل من آمن به، أو الفرس. وقيل[2] الملائكة.

(٩٠) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم. ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فاختص طريقهم بالاقتداء، والمراد بهداهم ماتوافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلَف فيها فإنها ليست هدًى مضافاً إلى الكل ولا يمكن التأسي بهم جميعاً، فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبَّد بشرع من قبله. والهاء في اقْتَدِه للوقف ومَنْ أثبتها في الدَّرْج ساكنة كابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم أجرى الوصل مجرى الوقف، ويحذف الهاء في الوصل خاصة حمزة والكسائي، وأشبَعَها بالكسر ابنُ عامر برواية ابن ذكوان على أنها كناية المصدر، وكسرها بغير إشباع برواية هشام. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ أو القرآن. ﴿أَجْرًا﴾ جَعْلاً من جهتكم كما لم يسأل من قبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أُمر بالاقتداء بهم فيه. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي التبليغ أو القرآن أو الغرض. ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ إلا تذكير وموعظة لهم.

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد. ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٦٥) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٦٤) عن أبي رجاء.
وأورده السيوطي في «الدر» (٣/ ٣١٢) ونسبه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام وذلك من عظائم رحمته وجلائل نعمته، أو في السخط على الكفار وشدة البطش بهم حين جَسَرُوا على هذه المقالة، والقائلون هم اليهود قالوا ذلك مبالغةً في إنكار إنزال القرآن بدليل نقض كلامهم وإلزامِهم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾. وقراءةُ الجمهور: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بالتاء، وإنما قرأ بالياء ابنُ كثير وأبو عمرو حملاً على قالوا وما قدروا[1]، وتضمن ذلك توبيخُهم على سوء جهلهم بالتوراة وذمهم على تجزئتها بإبداءِ بعضٍ انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرقة وإخفاءِ بعضٍ لا يشتهونه. وروي أن مالك بن الصيف قاله لما أغضبه الرسولُ ﷺ بقوله: «أُنشدك اللهَ الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله يَبْغُض الحبْر السمين؟» قال: نعم، إن الله يبغُض الحبر السمين، قال عليه الصلاة والسلام: «فأنت الحَبْر السمين»[2]. وقيل هم المشركون، وإلزامُهم بإنزال التوراة لأنه كان من المشهورات الذائعة عندهم، ولذلك كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾[3]. ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ على لسان محمد ﷺ. ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ زيادة على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم، ونظيرُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[4]. وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي أنزله اللهُ أو اللهُ أنزله، أمرَه بأن يجيب عنهم إشعاراً بأن الجواب متعين لا يمكن غيره وتنبيهاً على أنهم بُهِتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب. ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ في أباطيلهم فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من هم الأول ـ والظرف صلة ذرهم أو يلعبون ـ، أو حال من مفعوله، أو فاعلِ يلعبون، أو من هم الثاني والظرف متصل بالأول.

(٩٢) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع. ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني التوراة أو الكتب التي قبله. ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ عطف على ما دل عليه مبارك أي للبركات ولِتنذر، أو علةٌ لمحذوف أي ولتنذر أهل أمِّ القرى أنزلناه. وإنما سميت مكةُ بذلك لأنها قِبْلةُ أهل القرى ومَحَجُّهم ومجتمعُهم وأعظم القرى شأناً، وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها، أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء أي ولينذر الكتاب. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فإن مَنْ صدَّق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزالُ الخوفُ يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبي والكتاب، والضمير يحتملهما ويحافظ على الطاعة. وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان.

---

(١) قراءتهم بالياء في: تجعلونه.. ويُبدونها... ويُخفون.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٦٧) عن سعيد بن جبير مرسلاً وفي سنده ابن حميد ضعيف.
وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٢٠ بدون سند، عن سعيد بن جبير.
● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٦٧) عن عكرمة نحوه وفي سنده «سنيد» وهو ضعيف.

(٣) الأنعام: «١٥٧».

(٤) النمل: «٧٦».

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

(٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنه بَعَثَه نبياً كمسيلمة[١] والأسود العنسي[٢]، أو اختلق عليه أحكاماً كعمرو بن لحيّ ومُتابعيه[٣]. ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبدالله بن سعد بن أبي سرح[٤] كان يكتب لرسول الله ﷺ، فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[٥] فلما بلغ قولَه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[٦]، قال عبدالله: فتبارك الله أحسن الخالقين، تعجباً من تفصيل خلق الإنسان فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتبها فكذلك نزلت» فشكّ عبدالله وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال[٧]. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كالذين قالوا: «لو نشاء لقلنا مثل هذا»[٨]. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حذف مفعولَه لدلالة الظرف عليه، أي ولو ترى الظالمين. ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ شَدَائده، مِنْ غمره الماءُ إذا غشيه. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟

---

(١) مسيلمة الكذّاب من بني حنيفة، قاتلهم المسلمون بقيادة خالد وهم يومئذٍ أكثر العرب فاستشهد خلق كثير، وهزم الله بني حنيفة وقُتِلَ مسيلمة. قتله وحشي بحربةٍ.
[تاريخ الإسلام للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين ـ ص٣٩، وتاريخ خليفة ص١٠٩].

(٢) الأسود العنسي: هو الذي غلب على صنعاء اليمن وقتل باذان عامل النبي ﷺ واستصفى امرأته المرزبانة لنفسه فتزوجها، وكانت تكرهه لما صنع بقومها. وخططت لقتله وتم لها ذلك.
[المعرفة والتاريخ: للبسوي (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) وتاريخ خليفة ص١١٦ ـ ١١٧].

(٣) هو عمرو بن ربيعة أبو خزاعة، وهو أول من ولي البيت منهم، ثم رحل إلى قومه بالشام ورأى الأصنام تعبد فأعجبته عبادتها، وقدم مكة بهبل، ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقته الحنيفية...
وعمرو بن لحي أول من بحر البحيرة، وسيب السائبة، وجعل الوصيلة والحام.
[«الأوائل» لأبي هلال العسكري ص٦٠ ـ ٦٢].

(٤) هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح الأموي هو أخ لعثمان رضي الله عنه من الرضاعة وَلاَّه عثمان على مصر، وقد فتحها مع عمرو بن العاص، وفتح في زمن ولايته على مصر بلاد إفريقية، واغتنم مالاً كثيراً، توفي في حالة الصلاة واختلف في سنة وفاته وصحح ابن كثير سنة ست وثلاثين، وكذا ابن كثير.
[الإصابة (٢/ ٣١٦ رقم ٤٧١١) وأسد الغابة (٣/ ٢٥٩ رقم ٢٩٧٤)].

(٥) المؤمنون: «١٢».

(٦) المؤمنون: «١٤».

(٧) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص٢٢٠ من قول ابن عباس في رواية الكلبي وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ٢٧٣) من رواية أحمد بن المفضل الحفري عن أسباط عن السدي بزيادة في آخره.
قلت: الحفري هذا صدوق شيعي في حفظه شيء: قاله ابن حجر في «التقريب» (١/ ٢٦ رقم ١٢٣).
● واعلم أن عبدالله بن سرح ارتد ثم إنه أسلم وحسن إسلامه.
انظر «عيون الأثر» لابن سيد الناس (٢/ ١٧٥).

(٨) الأنفال: «٣١».

أَيْدِيهِمْ﴾ بقبض أرواحهم كالمتقاضي الملظ[1]، أو بالعذاب. ﴿أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ﴾ أي يقولون لهم أخرجوها إلينا من أجسادكم تغليظاً وتعنيفاً عليهم، أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يريدون وقت الإماتة، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له. ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان يريدون العذاب المتضمن لشدة وإهانة، فإضافته إلى الهُون لعراقته وتمكنه فيه. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ كادعاء الولد والشريك له ودعوى النبوة والوحي كاذباً. ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

(٩٤) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء. ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه من الدنيا، أو عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم، وهو جمع فَرْد والألف للتأنيث كَكُسالى. وقرىء فُرَاداً كرُخال وفُرَاد كثلاث وفَرْدَى كسكرى. ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بدل منه أي على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد، أو حال ثانية إن جُوِّز التعدد فيها، أو حال من الضمير في فرادى أي مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلاً بهما، أو صفة مصدر جئتمونا أي مجيئاً كما خلقناكم. ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشُغلتم به عن الآخرة. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ما قدمتم منه شيئاً ولم تحتملوا نقيراً. ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي شركاء لله في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم. ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي تقطع وصلُكم وتشتت جمعكم. والبَيْنُ من الأضداد يستعمل للوصل والفصل، وقيل هو الظرف أُسند إليه الفعل اتساعاً والمعنى: وقع التقطُّع بينكم، ويشهد له قراءة نافع والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب على إضمار الفاعل لدلالة ما قبله عليه، أو أقيم مقام موصوفه وأصلُه لقد تقطع ما بينكم وقد قرىء به. ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل. ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم، أو أن لا بعث ولا جزاء.

(٩٥) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ﴾ بالنبات والشجر. وقيل المراد به الشِّقاق الذي في الحنطة والنواة. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ يريد به ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله. ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحب. ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾ ومخرج ذلك من الحيوان والنبات، ذَكَرَه بلفظ الاسم حملاً على فالق الحب فإن قوله: يخرج الحي واقع موقع البيان له. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي ذلكم المحيي المميت هو الذي يحق له العبادة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون عنه إلى غيره.

(٩٦) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ شاقّ عمودَ الصبح عن ظلمة الليل أو عن بياض النهار، أو شاقّ ظُلْمةَ

---

(١) الملظّ: أي الملحّ الذي يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة من غير إمهال.

الإصباح وهو الغَبَش الذي يليه. والإصباح في الأصل مصدر أصبح إذا دخل في الصباح سمي به الصبح. وقرىء بفتح الهمزة على الجمع وقرىء فالقَ الإصباح بالنصب على المدح. ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن إليه التَّعِبُ بالنهار لاستراحته فيه؛ مِنْ سكن إليه إذا اطمأن إليه استئناساً به، أو يَسْكُن فيه الخلق من قوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾[1]. ونصبُه بفعل دل عليه «جاعل» لا به[2] فإنه في معنى الماضي، ويدل عليه قراءة الكوفيين وجَعَلَ الليلَ حَمْلاً على معنى المعطوف عليه فإن فالقَ بمعنى فَلَق ولذلك قرىء به، أو به[3] على أن المراد منه جَعْلٌ مستمر في الأزمنة المختلفة وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطفاً على محل الليل ويشهد له قراءتهما بالجر، والأحسنُ نصبهما بجَعَلَ مقدراً. وقرىء بالرفع على الابتداء، والخبرُ محذوف أي مجعولان. ﴿حُسْبَانًا﴾ أي على أدوار مختلفة يُحْسَبُ بهما الأوقاتُ ويكونان علمَيْ الحسبان، وهو مصدر حَسَبَ ـ بالفتح ـ كما أن الحِسْبان ـ بالكسر ـ مصدر حَسِب، وقيل جمع حساب كشِهَاب وشُهبان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً، أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم. ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص. ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما والأنفع من التداوير الممكنة لهما.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

(٩٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ خلقها لكم. ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ في ظلمات الليل في البر والبحر وإضافتُها إليهما للملابسة، أو في مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة، وهو إفراد لبعض منافعها بالذكر بعد ما أجملها بقوله «لكم» ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ بيناها فَصْلاً فَصْلاً. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٩٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض، أو موضع استقرار واستيداع[4]. وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر القاف على أنه اسم فاعل. والمستودَع اسم مفعول أي

---

(١) يونس: «٦٧».

(٢) الضمير يعود على (جاعل).

(٣) أي منصوب به أي بجاعل.

(٤) والتعبير عن كونهم في الأصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعي، كما أن التعبير عن كونهم في الأرحام أو تحت الأرض بالاستيداع لأنهما ليس بمقرهم الطبيعي (س٣/ ١٦٥).

فمنكم قارّ ومنكم مستودَع، لأن الاستقرار منّا دون الاستيداع. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ذَكَرَ مع ذِكْر النجوم «يعلمون» لأن أمرَها ظاهر، ومع ذِكْر تخليق بني آدم «يفقهون» لأن إنشاءَهم من نفس واحدة وتصريفَهم بين أحوالٍ مختلفة دقيقٌ غامض يحتاج إلى استعمالِ فطنة وتدقيق نظر.

(٩٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب، أو من جانب السماء. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على تلوين الخطاب. ﴿بِهِۦ﴾ بالماء. ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نبت كل صنف من النبات. والمعنى: إظهارُ القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المفنَّنة المَسْقية بماء واحد، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾[1]. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات، أو الماء. ﴿خَضِرًا﴾ شيئاً أخضر، يقال أخضر وخَضِر كأعْوَر وعَوِر، وهو الخارج من الحبة المتشعب. ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخَضِر. ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل. ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان، أو من النخل شيء من طلعها قنوان، ويجوز أن يكون من النخل خبرُ قنوان ومِنْ طلعِها بدلٌ منه، والمعنى: وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو الأَعْذاق جمع قِنْوٍ كصِنْوان جمع صِنْوٍ. وقرىء بضم القاف كذئب وذُؤبان، وبفتحها على أنه اسم جمع إذ ليس فَعْلان من أبنية الجمع. ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة من المتناول، أو مُتْلَفة قريب بعضها من بعض. وإنما اقتصر على ذكرها عن مقابلها لدلالتها عليه وزيادة النعمة فيها. ﴿وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ عطف على نبات كل شيء. وقرأ نافع بالرفع على الابتداء أي ولكم أو ثم جنات أو من الكرْم جناتٌ، ولا يجوز عطفه على قنوان إذ العنب لا يخرج من النخل. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ أيضاً عطفٌ على نبات، أو نصب على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم. ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ حالٌ من الرمان أو من الجميع، أي بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة والقدر واللون والطعم. ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك. وقرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم، وهو جمع ثمرة كخَشَبَة وخَشَب أو ثمار ككتاب وكتب. ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمَرَه كيف يُثْمِر ضئيلاً لا يكاد ينتفع به. ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ وإلى حالِ نضجه أو إلى نضيجه كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة، وهو في الأصل مصدر يَنَعَتِ الثمرُ إذا أدركت وقيل جمع يانع كتاجر وتَجْر. وقرىء بالضم وهو لغة فيه، وبانعه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على وجود القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المتفننة من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ندّ يعارضه أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

(١٠٠) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ أي الملائكةَ بأنْ عبدوهم وقالوا الملائكة بناتُ الله؛ وسماهم جناً لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم، أو الشياطينَ لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشيطانُ خالق الشر وكل ضار كما هو رأي

(١) الرعد: «٤». وأثبتها على غير قراءة حفص عن عاصم. وقد قرأ بها قراء. وعند حفص «يُسقى».

الثنوية. ومفعولا جعلوا: لله شركاء؛ والجنَّ بدل من شركاء، أو شركاءَ الجنِّ، ولله متعلق بشركاء أو حالٌ منه. وقرىء الجنُّ بالرفع كأنه قيل مَنْ هم فقيل الجن، والجنِّ بالجر على الإضافة للتبيين. ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال بتقدير قد، والمعنى وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق. وقرىء وخَلْقَهُم عطفاً على الجن أي وما يخلقونه من الأصنام أو على شركاء أي وجعلوا له اختلافهم للإفك حيث نسبوه إليه. ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ افتعلوا وافتروا له. وقرأ نافع بتشديد الراء للتكثير، وقرىء وحرّفوا أي وزوّروا. ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ فقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكةُ بنات الله. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه ويروا عليه دليلاً، وهو في موضع الحال من الواو أو المصدر أي خرقاً بغير علم. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وهو أن له شريكاً أو ولداً.

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، أو إلى الظرف كقولهم: ثَبَت الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما. وقيل معناه المبدع وقد سبق الكلام فيه، ورفعُه على الخبر والمبتدأُ محذوفٌ أو على الابتداء وخبرُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي من أين أو كيف يكون له ولد. ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ يكون منها الولد. وقرىء بالياء للفصل، أو لأن الاسم ضمير الله أو ضمير الشأن. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، وإنما لم يقل به لتطرق التخصيص إلى الأول. وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه: الأول: أنه من مبدعَاته السموات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره ولا نظير له فلا ولد. والثاني: أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين والله سبحانه وتعالى منزه عن المجانسة. والثالث: أن الولد كفؤ الوالد ولا كفؤَ له لوجهين: الأول أن كل ما عداه مخلوقُه فلا يكافئه. والثاني أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات ولا كذلك غيره بالإجماع.

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أخبارٌ مترادفة، ويجوز أن يكون البعض بدلاً أو صفة والبعض خبراً. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ حكم مسبَّب عن مضمونها فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك الصفات متولي أموركم فَكِلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم ورقيب على أعمالكم فيجازيكم عليها.

(١٠٣) ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ أي لا تحيط به. ﴿الْأَبْصَارُ﴾ جمع بصر، وهي حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث إنها محلها. واستدل به المعتزلة على امتناع الرؤية وهو ضعيف، إذ ليس الإدراك مطلق

الرؤية ولا النفي في الآية عاماً في الأوقات فلعله مخصوص ببعض الحالات ولا في الأشخاص فإنه في قوة قولنا لا كل بصر يدركه مع أن النفي لا يوجب الامتناع. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ يحيط علمه بها. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار كالأبصار، ويجوز أن يكون من باب اللفّ أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكثيف لما لا يدرَك بالحاسة ولا ينطبع فيها.

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن، سميت بها الدلالة لأنها تُجلي لها الحق وتبصرها به. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي أبصر الحق وآمن به. ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أبصر لأن نفعه لها. ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عن الحق وضل. ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وبالُه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وإنما أنا منذر والله سبحانه وتعالى هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها، وهذا كلام ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام[1].

(١٠٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ومثلُ ذلك التصريف نصرف، وهو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة من الصرف وهو نقل الشيء من حال إلى حال. ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أي وليقولوا درست صرّفنا، واللام لام العاقبة، والدَّرْس القراءة والتعلم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو دارستَ أي دارست أهل الكتاب وذاكرتَهم، وابنُ عامر ويعقوب دَرَسَتْ من الدروس أي قَدِمت هذه الآيات وعَفَّت كقولهم أساطيرُ الأولين، وقرىء دَرُسَتْ بضم الراء مبالغة في درست، ودُرِسَتْ على البناء للمفعول بمعنى قرئت أو عُفِيت، ودَارَسَتْ بمعنى دَرَسْتَ أو دارستِ اليهودُ محمداً ﷺ، وجاز إضمارهم بلا ذكر لشهرتهم بالدراسة، ودرسَنْ أي عنون ودرس أي درس محمد ﷺ ودارسات أي قديمات أو ذوات درس كقوله تعالى ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[2]. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ اللام على أصله لأن التبيين مقصود التصريف. والضمير للآيات باعتبار المعنى، أو للقرآن وإن لم يذْكَر لكونه معلوماً، أو للمصدر. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به[3].

(١٠٦) ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ بالتدين به. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب الاتباع، أو حال مؤكدة مِنْ ربك بمعنى منفرداً في الألوهية. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت إلى آرائهم، ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمل الإعراض على ما يعم الكف عنهم.

---

(١) قوله «من ربكم» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمال اللطف بهم. وقوله «ومن عمي» عبر عنه بالعمى تقبيحاً له وتنفيراً عنه (س٣/ ١٧٠).

(٢) الحاقة: «٢١».

(٣) ووصفهم بالعلم للإيذان بغاية جهل الأولين وخلوهم عن العلم بالمرة (س٣/ ١٧١).

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٧) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ توحيدَهم وعدمَ إشراكهم. ﴿مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ وهو دليل على أنه سبحانه وتعالى لا يريد إيمان الكافرين وأن مراده واجب الوقوع. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيباً. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمورهم.

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ولا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح. ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله سبحانه وتعالى وبما يجب أن يذكر به. وقرأ يعقوب عُدُوّاً يقال عدا فلان عَدْواً وعُدُوّاً وعداء وعدواناً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام كان يطعن في آلهتهم فقالوا لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجُون إلهك، فنزلت[1]. وقيل كان المسلمون يسبونها فنُهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله سبحانه وتعالى[2]، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شر. ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يُمَكِّنهم منه ويحملهم عليه توفيقاً وتخذيلاً، ويجوز تخصيص العمل بالشر وكلّ أمة بالكفرة لأن الكلام فيهم، والمشبَّه به تزيينُ سبّ الله لهم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة عليه.

(١٠٩) ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ مصدر في موقع الحال، والداعي لهم إلى هذا القَسَم والتأكيدِ فيه التحكُّمُ على الرسول ﷺ في طلب الآيات واستحقار ما رأوْا منها. ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ من مقترحاتهم. ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم، استفهام إنكار. ﴿أَنَّهَآ﴾ أي أن الآية المقترَحة. ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا تدرون أنهم لا يؤمنون، أنكر السبب مبالغة في نفي المسبَّب، وفيه تنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وقيل «لا» مزيدة وقيل أنَّ بمعنى لعل إذْ قرىء لعلها، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب إنها بالكسر كأنه قال: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بما علم منهم والخطاب للمؤمنين فإنهم يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم، فنزلت. وقيل للمشركين إذ قرأ ابن عامر وحمزة «لا تؤمنون» بالتاء، وقرىء وما يشعِرهم أنها إذا جاءتهم فيكون إنكاراً لهم على حلفهم أي: وما يشعرهم أن قلوبهم حينئذٍ لم تكن مطبوعة كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات فيؤمنون بها.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٣٠٩) عن ابن عباس.
وفي سنده «أبو صالح كاتب الليث» ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٣٠٩) عن قتادة، بإسناده صحيح.

وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ عطف على لا يؤمنون أي: وما يشعركم أنا حينئذ نقلب أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه وأبصارَهم فلا يبصرونه فلا يؤمنون بها. ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي بما أنزل من الآيات. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وندعهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين. وقرىء وَيُقَلِّبُ ويَذَرُهم على الغيبة، وتُقَلَّبُ على البناء للمفعول والإسناد إلى الأفئدة.

(١١١) ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ كما اقترحوا فقالوا: لولا أُنزِل علينا الملائكة فأتوا بآبائنا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، وقُبُلاً جمع قبيل بمعنى كفيل أي: كفلاء بما بَشروا به وأنذروا به، أو جمع قَبيل الذي هو جمع قبيلة بمعنى جماعات، أو مصدر بمعنى مقابلة كقِبَلاً وهو قراءة نافع وابن عامر، وهو على الوجوه حال من كل وإنما جاز ذلك لعمومه. ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ لما سبق عليهم القضاء بالكفر. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي: لا يؤمنون في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله تعالى إيمانَهم، وقيل منقطع وهو حجة واضحة على المعتزلة[1]. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم مع أن مطلق الجهل يعمهم، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم.

(١١٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ أي كما جعلنا لك عدواً جعلنا لكل نبي سبقك عدواً، وهو دليل على أن عداوة الكَفَرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله سبحانه وتعالى وخلقه. ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ مردة الفريقين، وهو بدلٌ من عدواً، أو أول مفعوليْ جعلنا وعدواً مفعوله الثاني، ولكلٌ متعلق به أو حال منه. ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعضُ الجن إلى بعضٍ وبعض الإنس إلى بعض. ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ الأباطيل المموهة منه، مِنْ زخرفه إذازينه. ﴿غُرُورًا﴾ مفعول له، أو مصدر في موقع الحال. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ إيمانَهم[2]. ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعلوا ذلك يعني معاداة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإيحاءَ الزخارف، ويجوز أن يكون الضمير للإيحاء أو الزخرف أو الغرور، وهو أيضاً دليل على المعتزلة. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وكفرهم.

---

(١) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة (س٣/ ١٧٤).

(٢) الالتفات فيه والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لكمال اللطف في التسلية (س٣/ ١٧٦).

وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عطف على غروراً إن جُعِل علة، أو متعلق بمحذوف أي وليكون ذلك جَعَلْنا لكل نبي عدواً. والمعتزلةُ لما اضطروا فيه قالوا: اللام لام العاقبة، أو لام القسم كُسِرت لما لم يؤكد الفعل بالنون، أو لام الأمر وضعفه أظهر. والصغو: الميل، والضمير لما له الضمير في فعلوه[1]. ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم. ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ وليكتسبوا. ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

(١١٤) ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ على إرادة القول أي: قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب مَنْ يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل، وغيرَ مفعول أبتغي، وحَكَماً حال منه ويحتمل عكسه. وحَكَماً أبلغ من حاكم ولذلك لا يوصف به غير العادل. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن المعجز. ﴿مُفَصَّلًا﴾ مبيَّناً فيه الحق والباطل بحيث ينفي التخليط والالتباس. وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه وتقريره مغنٍ عن سائر الآيات. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ تأييد لدلالة الإعجاز على أن القرآن حق منزل من عند الله سبحانه وتعالى، يعلم أهلُ الكتاب به لتصديقه ما عندهم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبَهم ولم يخالط علماءهم، وإنما وَصَفَ جميعَهم بالعلم لأن أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن منه بأدنىٰ تأمل. وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب. وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم منزل بالتشديد. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل لجحود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهييج كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2] أو خطاب الرسول ﷺ لخطاب الأمة. وقيل الخطاب لكل أحد على معنى أن الأدلة لما تعاضدت على صحته فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه.

(١١٥) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بلغت الغاية أخبارُه وأحكامه ومواعيده[3]. ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار والمواعيد. ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأقضية والأحكام. ونصبهما يحتمل التمييز، والحال، والمفعول له. ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل، أو لا أحد يقدر أن يحرفها شائعاً ذائعاً كما فعل بالتوراة على أن المراد بها القرآن، فيكون ضماناً لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[4] أو لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها. وقرأ الكوفيون ويعقوب كلمةُ ربك أي ما تكلم به أو القرآن. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون فلا يهملهم.

---

(١) وخص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة إشعاراً بأنه المدار في إصغاء أفئدتهم لما يلقى إليهم (س٣/ ١٧٦).

(٢) الأنعام: «١٤».

(٣) أثبت البيضاوي الأصل بالجمع على قراءة من قرأ بها «وتمت كلمات ربك».

(٤) يوسف: «١٢».

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٦) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أكثر الناس يريد الكفار، أو الجهال، أو اتباع الهوى. وقيل الأرض أرض مكة. ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن الطريق الموصل إليه، فإن الضال في غالب الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو جهالاتهم وآراؤهم الفاسدة فإن الظن يطلق على ما يقابل العلم. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون على الله سبحانه وتعالىٰ فيما ينسبون إليه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان وُصلة إليه وتحليل الميتة وتحريم البحائر، أو يُقدِّرون أنهم على شيء وحقيقتُه ما يقال عن ظن وتخمين.

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي أعلم بالفريقين، ومَنْ موصولة أو موصوفة في محل النصب بفعلٍ دل عليه أعلم لا به فإن أفْعَلَ لا يُنصَب الظاهر في مثل ذلك، أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبرُ يضل والجملةُ معلقٌ عنها الفعل المقدر. وقرىء مَنْ يُضِل أي يضله الله، فتكون مَنْ منصوبة بالفعل المقدر أو مجرورة بإضافة أعلم إليه أي: أعْلَمُ المضلين من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾[1] أو من أضللته إذا وجدته ضالاً، والتفضيل في العلم بكثرته وإحاطته بالوجوه التي يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير.

(١١٨) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام، والمعنى كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتفَ أنفه. ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحله الله سبحانه وتعالى واجتناب ما حرمه.

(١١٩) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأي غرض لكم في أن تتحرجوا عن أكله وما يمنعكم عنه. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[2]. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر فُصِّل على البناء للمفعول، ونافع ويعقوب وحفص حَرَّم على البناء للفاعل. ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة.. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ بتحليل الحرام وتحريم الحلال. قرأ الكوفيون بضم الياء والباقون بالفتح. ﴿بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بتشهيهم من غير تعلق بدليل يفيد العلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين الحق إلى الباطل والحلالَ إلى الحرام.

---

(١) النساء: «٨٨».

(٢) المائدة: «٣».

وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ ما يُعلن وما يُسر، أو ما بالجوارح وما بالقلب. وقيل الزنا في الحوانيت واتخاذ الأخدان. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر في تحريم متروكِ التسمية عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب داود [1] وعن أحمد مثله، وقال مالك والشافعي بخلافه لقوله عليه الصلاة والسلام: «ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه» [2] وفرق أبو حنيفة رحمه الله بين العمد والنسيان وأوّلَه بالميتة أو بما ذُكِر غير اسم الله عليه لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ فإن الفسق ما أهل لغير الله به، والضمير لِمَا ويجوز أن يكون للأكل الذي دل عليه لا تأكلوا. ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون. ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ من الكفار. ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحُكم وتَدَعون ما قتله الله، وهو يؤيد التأويل بالميتة. ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرم. ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فإن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك، وإنما حسُن حذف الفاء فيه لأن الشرط بلفظ الماضي.

(١٢٢) ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ مثّل به مَنْ هداه الله سبحانه وتعالىٰ وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل. وقرأ نافع ويعقوب ميّتاً على الأصل. ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ صفتُه وهو مبتدأ خَبَرُه: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ حال من المستكنّ في الظرف لا من الهاء في مَثَله للفصل، وهو مَثَل لمن بقي على الضلالة لا يفارقها بحال. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زين للمؤمنين إيمانهم. ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ والآية نزلت في حمزة وأبي جهل وقيل في عمر أو عمار وأبي جهل.

---

(١) داود: هو الإمام داود بن علي بن خلف الأصبهاني الأصل الكوفي المولد البغدادي الدار الشهير بداود الظاهري، المكنى بأبي سليمان، ولد سنة ٢٠١ وتوفي سنة «٢٧٠هـ».
الجرح والتعديل، القسم الثاني من المجلد الأول ص٤١٠.

(٢) ● أخرج عبد بن حميد، عن راشد بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم حلال سمى أو لم يسمِّ مالم يتعمد، والصيد كذلك» كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٩).
● وأخرج أبو داود في «المراسيل» (ص٢٧٨ رقم ٣٧٨) عن الصلت، قال: قال رسول الله ﷺ «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر، إنه إن ذكرَ لم يذكُر إلاّ اسمَ الله».
والصلت: هو السدوسي، تابعي، لين الحديث، أرسل حديثاً. (التقريب: ١/ ٣٧٠).
● ويعضد هذا المرسل بما رواه الدارقطني [في السنن (٤/ ٢٩٥ رقم ٩٦)] عن ابن عباس قال «إذا ذبح المسلم، فلم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسماً من أسماء الله».
قلت: وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٤ ـ ١٧٨) مذاهب العلماء ـ وأدلتهم في المسألة، والذي يُرجح مذهب أبو حنيفة ومن معه من التفريق بين العمد والنيسان ـ والله أعلم ـ.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۚ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

(١٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها. وجعلنا بمعنى صيّرنا، ومفعولاه أكابر مجرميها على تقديم المفعول الثاني، أو في كل قرية أكابر، ومجرميها بدلٌ ويجوز أن يكون مضافاً إليه إن فُسر الجعل بالتمكين، وأفْعَل التفضيل إذا أضيف جاز فيه الإفراد والمطابقة ولذلك قرىء أكبر مجرميها، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس والمكر بهم. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وباله يحيق بهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ذلك.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يعني كفار قريش لما روي أن أبا جهل قال زاحمْنَا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفَرَسيْ رِهان قالوا: منّا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزلت: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ استئناف للرد عليهم بأن النبوة ليست بالنَّسب والمال وإنما هي بفضائلَ نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده فيجتبي لرسالاته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم رسالته[1]. ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ﴾ ذل وحقارة بعد كبرهم[2]. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، وقيل تقديره من عند الله. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم، أو جزاء على مكرهم.

(١٢٥) ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان. ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيتسع له ويفسح فيه مجاله، وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيأة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار عليه أفضل الصلاة والسلام حين سئل عنه فقال: «نور يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» فقالوا: هل لذلك من أمارة يعرف بها؟ فقال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله»[3]. ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ

---

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالجمع (رسالاته).

(٢) ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن إصابة ما يصيبهم لإجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبائح (س٣/ ١٨٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص١٠٦ رقم ٣١٥) ووكيع في «الزهد» (١/ ٢٣٨ رقم ١٥) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٢١ رقم ١٦١٦١) والطبري في «جامع البيان» (٥/ج٨/ ٢٦ ـ ٢٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص١٥٦ بأسانيدهم عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبدالله بن مسور المدائني. =

﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان. وقرأ ابن كثير ضَيْقاً بالتخفيف، ونافع وأبو بكر عن عاصم حَرِجاً بالكسر أي شديد الضيق، والباقون بالفتح وصفاً بالمصدر. ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ شبّهه مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مَثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود. وقيل معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق وتباعداً في الهرب منه. وأصل يصَّعَّد يتصعد وقد قرىء به، وقرأ ابن كثير يَصْعَد، وأبو بكر عن عاصم يَصّاعد بمعنى يتصاعد. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق. ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمر للتعليل.

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

(١٢٦) ﴿وَهَٰذَا﴾ إشارة إلى البيان الذي جاء به القرآن، أو إلى الإسلام، أو ما سبق من التوفيق والخذلان. ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ الطريق الذي ارتضاه، أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه، أو عادلاً مطّرداً. وهو حال مؤكِّدة كقوله: «وهو الحق مصدقاً» أو مقيِّدة، والعامل فيها معنى الإشارة. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن القادر هو الله سبحانه وتعالى وأن كل

= وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٤) إلى ابن المنذر، والفريابي وابن أبي حاتم وابن مردويه.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٨/ ٢٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص١٥٦ وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٥) عن أبي جعفر عبدالله بن مسور المدائني عن النبي ﷺ. وقال البيهقي: وهذا منقطع.
قلت: أبو جعفر هذا: عبدالله بن مسور بن عبدالله بن عون بن جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي، سكن المدائن، روى عن النبي ﷺ مرسلاً، كان يضع الحديث ويكذب.
[التاريخ الكبير (٥/ ١٩٥) والجرح والتعديل (٥/ ١٦٩)].
وقد روى الحديث موصولاً عن ابن مسعود من طرق، انظر تخريجها في «الزهد» الوكيع (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) وكذلك له شواهد، عن قتادة والحسن والفضيل. انظر تخريجها كذلك المرجع السابق (١/ ٢٤٠).
وقال الشيخ عبدالرحمٰن عبدالجبار الفريوائي في الختام «وهذه الطرق كلها معلولة بالإرسال والانقطاع، هذا وقد ذكر ابن كثير طرق عبدالرزاق، وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي جعفر، وطرق ابن مسعود، وقال: (فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً).
قلت: كذا قال، والراجح أن الحديث من طريق ابن مسعود وهم من الرواة، وطريق أبي جعفر عبدالله بن مسور ضعيف جداً لأجله، والطرق الأخرى كلها معلولة والله أعلم» هـ.
فالخلاصة: أن الحديث ضعيف.

ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه، وأنه عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم.

(١٢٧) ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ دار الله؛ أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره، أو دارٌ تحيتهم فيها سلام. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه، أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ مُواليهم أو ناصرهم. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزائها فيتولى إيصاله إليهم.

(١٢٨) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ نصب بإضمار اذكر أو نقول، والضمير لمن يُحشَر من الثقلين. وقرأ حفص عن عاصم وروح عن يعقوب يحشرهم بالياء[1]. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ يعني الشياطين. ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم، أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحُشِروا معكم كقوله: استكثر الأميرُ من الجنود. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم. ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بالجن بأن دَلُّوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، والجنُّ بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم. وقيل استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاوز وعند المخاوف، واستمتاعهم بالإنس اعترافُهم بأنهم يقدرون على إجارتهم. ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي البعث، وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان واتباع الهوى وتكذيب البعث وتحسر على حالهم. ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم، أو ذات مثواكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال، والعاملُ فيها مثواكم إن جُعل مصدراً ومعنى الإضافةِ إن جُعل مكاناً ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من النار إلى الزمهرير، وقيل إلاّ ما شاء الله قبل الدخول كأنه قيل: النار مَثْوَاكُمْ أبداً إلا ما أمهلكم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم.

(١٢٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا ﴾ نَكِل بعضَهم إلى بعض، أو نجعل بعضَهم يتولىٰ بعضاً فيغويَهم، أو أولياءَ بعض وقرناءهم في العذاب كما كانوا في الدنيا. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

(١٣٠) ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ الرسل من الإنس خاصة، لكن لما جُمِعوا مع الجن في الخطاب صح ذلك ونظيرُه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[2] والمرجانُ يخرج من المَلِح دون العذب، وتعلق بظاهره قوم وقالوا بُعِث إلى كلٍّ من الثقلين رسل من جنسهم. وقيل الرسل من الجن رسل الرسل إليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[3]. ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ

---

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالنون على قراءة من قرأ بها، أي «نحشرهم».
(٢) الرحمن: «٢٢».
(٣) الأحقاف: «٢٩».

﴿يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يعني يوم القيامة. ﴿قَالُوا﴾ جواباً. ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ بالجرم والعصيان وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب. ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المُخْدِجة[1] وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١٣١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إرسال الرسل، وهو خبر مبتدأ محذوف أي الأمرُ ذلك. ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ تعليل للحكم، وأنْ مصدرية أو مخففة من الثقيلة أي: الأمر لانتفاء كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهلِ القرى بسبب ظلم فعلوه أو ملتبسين بظلم أو ظالماً وهم غافلون لم يُنبَّهوا برسول، أو بدل من ذلك.

(١٣٢) ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلفين. ﴿دَرَجَاتٌ﴾ مراتب ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ من أعمالهم أو من جزائها، أو من أجلها. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب. وقرأ ابن عامر بالتاء على تغليب الخطاب على الغيبة.

(١٣٣) ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ عن العباد والعبادة. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتأسيسٌ لما بعده وهو قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ما به إليكم حاجة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها العصاة. ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ من الخلق[2]. ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن لكنّه أنبأكم ترحماً عليكم.

(١٣٤) ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله. ﴿لَآتٍ﴾ لكائن لا محالة[3]. ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ طالبكم به.

(١٣٥) ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مَكَنَ مكانة إذا تمكّن

---

(١) المخدَجة أي الناقصة.

(٢) قوله «ما يشاء» آثر «ما» على من لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء (س٣/ ١٨٧).

(٣) إيثار كلمة «الآت» على واقع ونحوه لبيان كمال سرعة وقوعه (س٣/ ١٨٨).

أبلغ التمكن، أو على ناحيتكم وجِهتكم التي أنتم عليها من قولهم مَكَان ومكانة كمَقام ومقامة. وقرأ أبو بكر عن عاصم مكاناتِكم بالجمع في كل القرآن وهو أمر تهديد، والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ما كنت عليه من المصابرة والثبات على الإسلام، والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعاً عليه فيحمله بالأمر على ما يفضي به إليه، وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضي عنه. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ إن جُعِل منْ استفهامية بمعنى أيُّنا تكون له عاقبة الدار الحسنى التي خلق الله لها هذه الدار فمحلها الرفع وفعلُ العلْم معلَّق عنه، وإن جُعِلت خبرية فالنصبُ يتعلمون أي فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة الدار، وفيه مع الإنذار إنصاف في المقال وحسن الأدب وتنبيه على وثوق المنذر بأنه مُحِقٌّ. وقرأ حمزة والكسائي يكون بالياء لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وضع الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٦) ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي مشركو العرب. ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق. ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ﴾ روي: أنهم كانوا يُعَيِّنون شيئاً من حرث ونتاج لله ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين وشيئاً منهما لآلهتهم وينفقونه على سَدَنتها ويذبحونه عندها، ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى بدّلوه بما لآلهتهم وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حباً لآلهتهم. وفي قوله «مما ذرأ» تنبيه على فرط جهالتهم فإنهم أشركوا الخالق في خلقه جماداً لا يَقْدِر على شيء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، وفي قوله «بزعمهم» تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله به. وقرأ الكسائي بالضم[1] في الموضعين وهو لغة فيه، وقد جاء فيه الكسر أيضاً كالوِدّ والوُدّ. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا.

(١٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك للتزيين في قِسْمة القُربان. ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ بالوأد ونحرهم لآلهتهم. ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ من الجن أو من السدنة، وهو فاعل زين. وقرأ ابن عامر زُيِّن على البناء للمفعول الذي هو القتل. ونصْبُ الأولاد وجرُّ الشركاء

(١) أي بضم الزاي «بِزُعْمِهِم».

بإضافة القتل إليه مفصولاً بينهما بمفعوله وهو ضعيف في العربية معدود من ضرورات الشعر[1] كقوله:

فزججتها بمزجة زجّ القلوصِ أبي مُزادَه

وقرىء بالبناء للمفعول وجرّ أولادِهم ورفع «شركاؤُهم» بإضمار فعل دل عليه زين. ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء. ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به. واللام للتعليلِ إن كان التزيين من الشياطين والعاقبةِ إن كان من السدنة. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم، أو الشركاء التزيينَ، أو الفريقان جميعَ ذلك. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ افتراءهم أو ما يفترونه من الإفك.

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

(١٣٨) ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ﴾ إشارة إلى ما جعل لآلهتهم. ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ حرام، فِعْلٌ بمعنى مفعول كالذِّبح يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى. وقرىء حُجْر بالضم وحرج أي مضيق. ﴿لَا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء. ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ من غير حجة. ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعني البحائر والسوائب والحوامي. ﴿وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح وإنما يذكرون أسماء الأصنام عليها، وقيل لا يَحُجّون على ظهورها. ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ نصب على المصدر لأن ما قالوه تقول على الله سبحانه وتعالى؛ والجارّ متعلق بقالوا أو بمحذوف هو صفة له، أو على الحال، أو على المفعول له والجار متعلق به أو بالمحذوف. ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بسببه أو بدله.

(١٣٩) ﴿وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعنون أجنّةَ البحائر والسوائب. ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ حلال للذكور خاصة دون الإناث إن وُلد حياً لقوله: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ فالذكور والإناث فيه سواء، وتأنيث الخالصة للمعنى فإن ما في معنى الأجنة، ولذلك وافق عاصم في رواية أبي بكر بن عامر في تكن بالتاء، وخالفه هو وابنُ كثير في ميتة فَنَصَبَ كغيرهم، أو التاء فيه للمبالغة كما في رواية الشعر، أو هو مصدر كالعافية وقع موقع الخالص. وقرىء بالنصب على أنه مصدر مؤكِّد والخبرُ لذكورنا، أو حال من الضمير الذي في الظرف لا من الذي في ذكورنا

(١) ما ذهب إليه البيضاوي من تضعيف قراءة ابن عامر ـ وهي قراءة متواترة ـ تبع فيه الزمخشري (الكشاف ٢/ ٤٢) وقد رد أبو حيان رداً عنيفاً على الزمخشري مبيناً صحة قراءة ابن عامر وفق العربية الصحيحة، فقال: (وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءةً متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم..) البحر المحيط ٤/ ٢٣٠.

ولا من الذكور لأنها لا تتقدم على العامل المعنوي ولا على صاحبها المجرور. وقرىء خالص بالرفع والنصب وخالصة بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان والمراد به ما كان حياً، والتذكير في فيه لأن المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الذكر. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي جزاءَ وصفِهم الكذب على الله سبحانه وتعالى في التحريم والتحليل من قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾[1] ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

(١٤٠) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتِهم مخافة السبي والفقر. وقرأ ابن كثير وابن عامر قَتَّلوا بالتشديد بمعنى التكثير. ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله سبحانه وتعالى رازق أولادَهم لا هم، ويجوز نصبه على الحال أو المصدر. ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر ونحوها. ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ يحتمل الوجوه المذكورة في مثله[2]. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الحق والصواب.

(١٤١) ﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ من الكروم. ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مرفوعات على ما يحملها. ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ملقيات على وجه الأرض. وقيل المعروشات ما غرسه الناس فعرشوه وغير معروشات ما نبت في البراري والجبال. ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ ثمرُه الذي يؤكل في الهيئة والكيفية، والضمير للزرع والباقي مقيس عليه، أو النخل والزرعُ داخل في حكمه لكونه معطوفاً عليه، أو للجميع على تقدير أُكُل ذلك أو كل واحد منهما، ومختلفاً حالاً مقدرة لأنه لم يكن ذلك عند الإنشاء. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم ولا يتشابه بعضها. ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ من ثمر كل واحد من ذلك. ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ وإن لم يدرك ولم يَيْنع بعدُ. وقيل فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى. ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يريد به ما كان يُتصدق به يوم الحصاد لا الزكاة المقدرة لأنها فُرضت بالمدينة والآية مكية. وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتنقية. وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي حِصَادِه بكسر الحاء وهو لغة فيه. ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في التصدق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا يرتضي فعلهم.

---

(١) النحل: «٦٢».

(٢) إظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وطغيانهم (س٣/ ١٩١).

وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

(١٤٢) ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ عطف على جنات أي وأنشأ من الأنعام ما يَحْمِل الأثقال وما يُفرَش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصوفه ووبره. وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها. ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ كلوا مما أحل لكم منه. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

(١٤٣) ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بدلٌ من حمولة وفرشاً، أو مفعولِ كُلوا ولا تتبعوا معترض بينهما أو فعلٍ دلّ عليه، أو حال من «ما» بمعنى مختلفة أو متعددة. والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه، وقد يقال لمجموعهما، والمراد الأول. ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين الكبش والنعجة. وهو بدل من ثمانية. وقرىء اثنان على الابتداء. والضأن اسم جنس كالإبل وجمعه ضئين، أو جمع ضائن كتاجر وتَجْر. وقرىء بفتح الهمزة وهو لغة فيه. ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالفتح[1] وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس، وقرىء المعزى[2]. ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ ذَكَرُ الضأن وذكر المعز. ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أم أنثييهما ونصب الذكرين والاثنين بحَرَّم ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ بأمرٍ معلوم يدل على أن الله تعالى حرم شيئاً من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه.

(١٤٤) ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾ كما سبق والمعنى إنكارَ أن الله حرم شيئاً من الأجناس الأربعة ذَكراً كان أو أنثى أو ما تحمل إناثها رداً عليهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثَها تارة أخرى وأولادَها كيف كانت تارة زاعمين أن الله حرمها. ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ بل أكنتم شاهدين حاضرين. ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا﴾ حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه تحريم مالم يحرم، والمراد كبراؤهم المقررون لذلك، أو عمرو بن لحي بن قمعة المؤسس لذلك. ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(١) أي بفتح العين في المعز، أي «المَعَز».

(٢) وقدم هذه الأصناف الأربعة مع تأخرها في الإجمال السابق «حمولة وفرشاً» لكون هذين النوعين عرضة للأكل الذي هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة، وهو السرّ في الاقتصار على الأمر به في قوله تعالى: «كلوا مما رزقكم الله» من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب ونحوه (س٣/ ١٩٣).

يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾[1]

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

(١٤٥) ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي في القرآن، أو فيما أوحي إليَّ مطلقاً، وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يُعلم بالوحي لا بالهوى. ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعاماً محرماً. ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ أن يكون الطعام ميتة. وقرأ ابن كثير وحمزة تكونَ ـ بالتاء ـ لتأنيث الخبر، وقرأ ابن عامر بالياء ورفع الميتة على أن «كان» هي التامة. وقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ عطفٌ على أنْ مع ما في حيزه أي إلا وجودَ ميتة أو دماً مسفوحاً أي مصبوباً كالدم في العروق لا كالكبد والطحال. ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوّده أكل النجاسة أو خبيث مخبث ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض للتعليل. ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفة له موضحة، وإنما سمي ما ذبح على اسم الصنم فسقاً لتوغله في الفسق، ويجوز أن يكون فسقاً مفعولاً له من أُهِلّ وهو عطف على يكون، والمستكنّ فيه راجع إلى ما رجع إليه المستكنُّ في يكون. ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فمن دعته الضرورة. ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه. والآية محكمة لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحي إلى تلك الغاية محرماً غير هذه، وذلك لا ينافي ورود التحريم في شيء آخر، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الأشياء غيرها إلا مع الاستصحاب.

(١٤٦) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ كل ماله أصبع كالإبل والسباع والطيور. وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفراً مجازاً، ولعل المسبب عن الظلم تعميم التحريم. ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الثروب وشحوم الكِلىٰ، والإضافة لزيادة الربط. ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا ما علقت بظهورهما. ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء، جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حوية كسفينة وسفائن. وقيل هو عطف على شحومهما، وأو بمعنىٰ الواو. ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ هو شحم الإلية لاتصالها بالعُصعص. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم، أو الجزاء. ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في الإخبار، أو الوعد والوعيد.

---

(١) قوله «بغير علم» وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى إيذاناً بخروجهم في الظلم عن الحدود والنهايات، فإن من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه إذا كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه؟ (س٣/ ١٩٤).

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

(١٤٧) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يُهْمِل. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقام مقامَه «ولا يرد بأسه» لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على تأنه لازِب بهم لا يمكن رده عنهم.

(١٤٨) ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ إخبار عن مستقبَل، ووقوعُ مخبَره يدل على إعجازه. ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ أي لو شاء خلاف ذلك مشيئةَ ارتضاءٍ كقوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] لَما فعلنا نحن ولا آباؤنا، أرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله لا الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله إياها منهم حتى ينهض ذمهم به دليلاً للمعتزلة، ويؤيده ذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا التكذيب لك في أن الله تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه كذَّب الذين من قبلهم الرسل، وعَطَفَ «آباؤنا» على الضمير في «أشركنا» من غير تأكيدٍ للفصل بِلاَ. ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم. ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ فتظهروه لنا. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ما تتبعون في ذلك إلا الظن. ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون على الله سبحانه وتعالى، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن سيما في الأصول، ولعل ذلك حيثُ يعارضه قاطع إذ الآية فيه.

(١٤٩) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات، أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه، وهي من الحَجّ بمعنى القصد كأنها تقصد إثبات الحكم وتطلبه. ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها، ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين.

(١٥٠) ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أحضروهم، وهو اسم فعلٍ لا يَتصرف عند أهل الحجاز، وفعلٍ يؤنث ويُجْمع عند بني تميم، وأصلُه عند البصريين: ها لُمَّ مِنْ لَمَّ إذا قصد حُذِفت الألف لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل، وعند الكوفيين هلْ أُمّ فحذفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام، وهو بعيد لأن «هل» لا تدخل الأمر ويكون متعدياً كما في الآية ولازماً كقوله هلُمّ إلينا. ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ يعني قدوتهم فيه، استحضرهم ليلزمهم الحجة ويظهِر بانقطاعهم ضلالَتَهم وأنه لا متمسَّك لهم كمَنْ

(١) الأنعام: «١٤٩». النحل: «٩».

يقلدهم، ولذلك قَيَّد الشهداء بالإضافة ووصفَهم بما يقتضي العهدَ بهم. ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فلا تصدقهم فيه وبيِّن لهم فساده، فإن تسليمه موافقة لهم في الشهادة الباطلة. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ مِنْ وَضْع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن مكذِّب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقاً بها. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كعَبَدَة الأوثان. ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(١٥١) ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟﴾ أمرٌ من التعالي، وأصلُه أن يقوله مَنْ كان في علوّ لمن كان في سفل فاتسع فيه بالتعميم. ﴿أَتْلُ﴾ أقرأ. ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ منصوب بأَتْل و«ما» تحتمل الخبرية والمصدرية، ويجوز أن تكون استفهامية منصوبة بحرّم، والجملة مفعول أَتل لأنه بمعنىٰ أقل، فكأنه قيل أتل أيَّ شيء حرم ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بحرّم أو أتل[1]. ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لا تشركوا به ليصح عطف الأمر عليه، ولا يمنعه تعليق الفعل المفسَّر بما حرّم؛ فإن التحريم باعتبار الأوامر يرجع إلى أضدادها ومَنْ جعل أَنْ ناصبة فمحلُّها النصبُ بعليكم ـ على أنه للإغراء ـ أو بالبدل من «ما» أو من عائده المحذوف ـ على أنّ لا زائدة ـ والجرُّ بتقدير اللام، أو الرفعُ على تقدير المتلو أن لا تشركوا أو المحرم أن تشركوا. ﴿شَيْـًٔا﴾ يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي وأحسنوا بهما إحساناً، وضَعَه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ من أجل فقر ومن خشية كقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾[2] ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ منعٌ لموجبيّة ما كانوا يفعلون لأجله واحتجاجٌ عليه. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ كبائر الذنوب أو الزنا. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل منه، وهو مثلُ قوله «ظاهر الإثم وباطنه». ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كالقَوَد وقتل المرتد ورجم المحصن. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر مفصلاً. ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ بحفظه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ترشدون فإن كمال العقل هو الرشد.

(١٥٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالفِعلة التي هي أحسنُ ما يُفعَل بماله كحفظه وتثميره. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حتى يصير بالغاً، وهو جمع شِدّة كنِعمة وأنْعُم أو شِدٍّ كصِرٍّ وأصُرّ، وقيل

---

(١) والتعرض لعنوان الربوبية «ربُّكم» مع الإضافة إلى ضميرهم للاعتناء بإيجاب الانتهاء (س٣/ ١٩٨).

(٢) الإسراء: «٣١».

مفرد كأنك. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والتسوية. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وذكره عقيب الأمر معناه أن إيفاء الحق عَسِر عليكم فعليكم بما في وُسعكم وما وراءه معفوٌّ عنكم. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ في حكومة ونحوها. ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يعني ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون به. وقرأ حمزة وحفص والكسائي تَذَكَّرون بتخفيف الذال حيث وقع إذا كان بالتاء، والباقون بتشديدها.

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾

(١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الإشارة فيه إلى ما ذكر في السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة. وقرأ حمزة والكسائي إن بالكسر على الاستئناف، وابنُ عامر ويعقوب بالفتح والتخفيف، وقرأ الباقون بها مشددة بتقدير اللام على أنه علة لقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ وقرأ ابن عامر صراطيَ بفتح الياء، وقرىء وهذا صراطي، وهذا صراطُ ربكم، وهذا صراط ربك. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ فتفرقكم وتزيلكم. ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع. ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضلال والتفرق عن الحق.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ عطف على وصاكم، وثم للتراخي في الإخبار أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً ثم أعْظَمُ من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب. ﴿تَمَامًا﴾ للكرامة والنعمة. ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ على كل من أحسن القيام به، ويؤيده أن قرىء على الذين أحسنوا أو على الذي أحسن تبليغه وهو موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، أو تماماً على ما أحسنه أي أجاده من العلم والتشريع أي زيادة على علمه إتماماً له. وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي على الذي هو أحسنُ أو على الوجه الذي هو أحسنُ ما يكون عليه الكتب. ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين، وهو عطف على تمام، ونصبهما يحتمل العلة والحال والمصدر. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾ لعل بني إسرائيل. ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بلقائه للجزاء.

(١٥٥) ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن. ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع. ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بواسطة اتّباعه، وهو العمل بما فيه.

(١٥٦) ﴿أَن تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا، علةٌ لأنزلناه. ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى، ولعل الاختصاص في «إنما» لأن الباقي المشهور حينئذ من الكتب السماوية لم يكن غير

كتبهم. ﴿وَإِن كُنَّا﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، ولذلك دخلت اللام الفارقة في خبر كان، أي وإنه كنا. ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم. ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لا ندري ما هي، أو لا نعرف مثلها.

أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُوا۟﴾ عطف على الأول. ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لحدةِ أذهاننا وثقابة أفهامنا ولذلك تلقفْنا فنوناً من العلم كالقصص والأشعار والخطب على أنّا أميون. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حجة واضحة تعرفونها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لمن تأمل فيه وعمل به[1]. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد أن عرف صحتها، أو تمكن من معرفتها. ﴿وَصَدَفَ﴾ أعرض أو صد. ﴿عَنْهَا﴾ فضلّ أو أضل. ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ شدته. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم أو صدهم.

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون، يعني أهل مكة وهم ما كانوا منتظرين لذلك، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين. ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملائكة الموت أو العذاب. وقرأ حمزة والكسائي بالياء هنا وفي النحل[2]. ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ أي أَمْرُه بالعذاب، أو كل آية يعني آيات القيامة والهلاك الكلي لقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يعني أشراط الساعة[3] وعن حذيفة بن اليمان والبراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نتذاكر الساعة، قال: «إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، ونارا تخرج من عدن»[4]. ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾

---

(١) عبر عن القرآن الكريم بالبينة إيذاناً بكمال تمكنهم من دراسته، ثم عبر عنه بالهدى والرحمة تنبيهاً على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة (س٣/ ٢٠٢).

(٢) النحل: «٣٣».

(٣) والتعبير عنها بالبعض للتهويل والتفخيم، كما أن إضافة الآيات في الموضعين إلى اسم الرب المنبىء عن المالكية الكلية لذلك وإضافته إلى ضميره عليه السلام للتشريف (س٣/ ٢٠٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٢٥ ـ ٢٢٢٦ رقم ٣٩/ ٢٩٠١).
من حديث حذيفة بن أسيدٍ الغفاري.
وهو من الأحاديث التي تتبعها الدارقطني في «التتبع» (ص٢٥٨ رقم ٥٤) وقد قال «وهذا لم يرفعه غير فرات عن أبي الطفيل من وجه يصح مثله. ورواه عبدالعزيز بن رفيع وعبدالملك بن ميسرة عن أبي الطفيل موقوفاً. . . .» =

كالمحتضر إذ صار الأمر عياناً والإيمان برهاني. وقرىء تنفع بالتاء لإضافة الإيمان إلى ضمير المؤنث. ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ صفة نفساً. ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ عطف على آمنت والمعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدِّمة إيمانَها أو مقدِّمة إيمانَها غير كاسبة في إيمانها خيراً، وهو دليل لمن لم يعتبر الإيمان المجرد عن العمل، وللمعتبر تخصيص هذا الحكم بذلك اليوم، وحمل الترديد على اشتراط النفع بأحد الأمرين على معنى لا ينفع نفساً خلت عنها إيمانها، والعطف على لم تكن بمعنى لا ينفع نفساً إيمانُها الذي أحدثته حينئذ وإن كسبت فيه خيراً. ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وعيد لهم، أي: انتظروا إتيان أحد الثلاثة فإنا منتظرون له وحينئذ لنا الفوز وعليكم الويل.

(١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بددوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو افترقوا فيه قال عليه الصلاة والسلام: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة»[1]. وقرأ حمزة والكسائي فارَقُوا أي باينوا. ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ فرقاً تشيع كل فرقة إماماً.

= ١هـ.

وقال النووي في شرح مسلم (١٨/ ٢٧) بعد كلام الدارقطني «وقد ذكر مسلم رواية ابن رفيع موقوفة كما قال، ولا يقدح هذا في الحديث فإن عبدالعزيز بن رفيع ثقة حافظ متفق على توثيقه فزيادته مقبولة» ١هـ.

وتعقبه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في «التتبع» ص٢٦٠: «كذا قال النووي والصواب فإن فراتاً القزاز فهو راوي الرفع لابن رفيع.

وأقول: عبدالعزيز بن رفيع وفرات القزاز كلاهما ثقة كما في التقريب، فيحمل على أن أبا الطفيل كان يحدث به على الوجهين وكلا الوجهين صحيح والله أعلم» هـ.

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) ● أخرج أبو داود (٥/ ٤ رقم ٤٥٩٦) والترمذي (٥/ ٢٥ رقم ٢٦٤٠).

وابن ماجه (٢/ ١٣٢١ ـ ١٣٢٢ رقم ٣٩٩١) وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢) والحاكم (١/ ١٢٨) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقتِ اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقتِ النصاري على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وتعقبهما الألباني في «الصحيحة» (١/ ٣٥٦) بقوله «وفيه نظر فإن محمد بن عمرو، فيه كلام ولذلك لم يحتج به مسلم، وإنما روى له متابعة وهو حسن الحديث. . .» هـ.

● أخرج أبو داود (٥/ ٥ رقم ٤٥٩٧) والدارمي (٢/ ٢٤١) والحاكم (١/ ١٢٨) وأحمد (٤/ ١٠٢) عن معاوية بن أبي سفيان، أنه قام فينا، فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألاَ إنَّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة وإنّ هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

وزاد ابن يحيى وعمرو في حديثيهما «وإنه سيخرج من أمتي أقوام تُجَارَى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه» وقال عمرو «الكلب بصاحبه» لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلاَّ دخله».

وقال الحاكم وقد ساقه عقب حديث أبي هريرة المتقدم «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث» ووافقه الذهبي. =

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي من السؤال عنهم وعن تفرقهم، أو من عقابهم، أو أنت بريء منهم. وقيل هو نهي عن التعرض لهم، وهو منسوخ بآية السيف. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يتولى جزاءهم. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بالعقاب[1].

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

(١٦٠) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي عشر حسنات أمثالها فضلاً من الله. وقرأ يعقوب عشرةٌ بالتنوين وأمثالها بالرفع على الوصف. وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر الكثرة دون العدد. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ قضية للعدل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

(١٦١) ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نَصَبَ من الحجج. ﴿دِينًا﴾ بدل من محل إلى صراط؛ إذ المعنى هداني صراطاً كقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2]، أو مفعول فعل مضمر دل عليه الملفوظ. ﴿قِيَمًا﴾ فيعل من قام كسَيِّد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة والمستقيم باعتبار الصيغة. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي قِيَماً على أنه مصدر نُعِت به وكان قياسه قِوَماً كعِوَض فأُعِل لإعلال فعله كالقيام. ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف بيان لدِيناً. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عطف عليه.

(١٦٢) (١٦٣) ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ عبادتي كلها، أو قرباني، أو حجي. ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطاعة، أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى

= وقال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٦٣ رقم ١٧): وإسناده حسن والخلاصة أن الحديث صحيح.

● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٦ رقم ٢٦٤١) والحاكم (١/ ١٢٨).

عن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: ليأتينّ على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذوَ النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمَّهُ علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين مِلّة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلاّ مِلّة واحدة قالوا: ومن هي يا رسول الله، قال: ما أنا عليه وأصحابي.

قال الترمذي: هذا حديث مفسر غريب لا نعرفُهُ مثلَ هذا إلا من هذا الوجه.

قلت: في إسناده «عبدالرحمٰن الأفريقي» وهو ضعيف، لكن هذه الزيادة صحيحة انظر «الصحيحة» للألباني (١/ ٣٥٦ رقم ٢٠٣) و(١/ ٣٥٨ رقم ٢٠٤).

(١) عبر عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة في أنهما سببان للعلم تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته (س٣/ ٢٠٦).

(٢) الفتح: «٢».

الممات كالوصية والتدبير، أو الحياة والممات أنفسهما. وقرأ نافع محياي بإسكان الياء إجراء للوصل مجرى الوقف. ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ خالصة له لا أشرك فيها غيراً. ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ القول أو الإخلاص. ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

(١٦٤) ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ فأُشركه في عبادتي، وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ حال في موضع العلة للإنكار والدليل له، أي وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية. ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فلا ينفعني في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جواب عن قولهم: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بتبيين الرشد من الغي وتمييز المحق من المبطل.

(١٦٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً، أو خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السالفة على أن الخطاب للمؤمنين. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في الشرف والغنى ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الجاه والمال ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت قريب، أو لأنه يسرع إذا أراده. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَصَفَ العقاب ولم يُضِفْه إلى نفسه ووَصَف ذاتَه بالمغفرة وضمَّ إليه الوصف بالرحمة وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات معاقب بالعَرَض كثير الرحمة مبالِغ فيها كثيرُ العقوبة مسامِح فيها. عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة، يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد»[1]، «فمن قرأ

---

(١) ● أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ٨١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٤٤) وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٤٣) من حديث ابن عمر.
قال الطبراني: لم يروه عن ابن عون إلا يوسف بن عطية تفرد به إسماعيل بن عمرو.
وقال أبو نعيم: غريب من حديث ابن عون لم نكتبه إلا من حديث إسماعيل عن يوسف.
وقال الحافظ في التقريب (٢/ ٣٨١): يوسف بن عطية: متروك.
● وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢١٥ رقم ١٢٩٣٠) عن ابن عباس وفيه علي بن زيد وفيه كلام وبقية رجاله رجال صحيح.
● وأخرجه الطبراني ـ كما في «المجمع» (٧/ ٢٠) ـ من حديث أنس بلفظ «ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين» وقال الهيثمي «رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبدالله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي. ولم أعرفها وبقية رجاله ثقات».
● وأخرجه الحاكم (٢/ ٣١٥) عن جابر، بلفظ «لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. فإن إسماعيل هذا هو السدي ولم يخرجه البخاري ورد الذهبي عليه بقوله «لا والله لم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعاً. =

الأنعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف مَلَك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة»[1].

☆ ☆ ☆

= قلت: وانظر «الدر المنثور» (٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) فقد ساق روايات عن علي وأبي جُحيفة وابن مسعود بدون أسانيد.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٦٣ رقم ١٨): «سبقت طرقه في سورة آل عمران. وله طريق أخرى أخرجها الثعلبي من حديث أبي بن كعب بتمامه وفيه: عصمة. وهو متهم بالكذب».
قلت: أبو عصمة: هو نوح بن أبي مريم المروزي يعرف بالجامع، قال الحافظ كذّبوه في الحديث. وقال ابن المبارك: كان يضع الحديث.
انظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٨/ ٤٨٤) والضعفاء للعقيلي (٤/ ٣٠٤) والمجروحين (٣/ ٤٨)، والتقريب (٢/ ٣٠٩).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

سورة الأعراف مكية غير ثمان آيات من قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل﴾[1] محكمة كلها.

وقيل: إلا قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2] وآيها مائتان وخمس أو ست آيات.

(١) ﴿الٓمٓصٓ﴾ سبق الكلام في مثله[3].

(٢) ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف أي هو كتاب، أو خبر المص، والمراد به السورة أو القرآن. ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ صفتُه[4]. ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي شك، فإن الشك حرج الصدر أو ضيق قلب من تبليغه مخافة أن تكذب فيه أو تقصّر في القيام بحقه، وتوجيهُ النهي فيه للمبالغة كقولهم: لا أرينّك ههنا. والفاء تحتمل العطف والجواب فكأنه قيل: إذا أنزل إليك لتنذر به فلا يحرج صدرك. ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ متعلق بأُنزل أو بلا يكن لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخَفْهم أو علم أنه موفق للقيام بتبليغه. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل النصب بإضمار فعلها أي لتنذر وتذكر ذكرىٰ فإنها بمعنى التذكير، والجرَّ عطفاً على محل تنذر، والرفعَ عطفاً على كتاب أو خبراً

---

(١) من (١٦٣ ـ ١٧٠).
(٢) (١٩٩).
(٣) في أول سورة البقرة.
(٤) وبناء الفعل للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه (س٣/ ٢٠٩).

لمحذوف[١].

(٣) ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعم القرآن والسنة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[٢] ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ يضلونكم من الجن والإنس. وقيل الضمير في من دونه لما أنزل، أي ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء. وقرىء ولا تبتغوا. ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تذكرون حيث تَتْرُكون دين الله وتتبعون غيره. وما مزيدة لتأكيد القلّة، وإن جعلت مصدرية لم ينتصب قليلاً بتذكرون. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم تذكرون بحذف التاء، وابن عامر يتذكرون على أن الخطاب بعد مع النبي ﷺ[٣].

(٤) ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ ﴾ وكثيراً من القرى. ﴿ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أردنا إهلاك أهلها، أو أهلكناها بالخذلان. ﴿ فَجَآءَهَا ﴾ فجاء أهلها. ﴿ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا. ﴿ بَيَٰتًا ﴾ بائتين كقوم لوط، مصدر وقع موقع الحال. ﴿ أَوْهُمْ قَآئِلُونَ ﴾ عطف عليه أي: قائلين نصف النهار كقوم شعيب، وإنما حذفت واو الحال استثقالاً لاجتماع حرفي العطف، فإنها واو عطف استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير فإنه غير فصيح. وفي التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب، ولذلك خص الوقتين ولأنهما وقت دَعَة واستراحة فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع.

(٥) ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم، أو ما كانوا يدعونه من دينهم. ﴿ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسراً عليهم.

(٦) ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل. ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ عما أجيبوا به، والمراد من هذا السؤال توبيخ للكفرة وتقريعهم، والمعنى في قوله: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[٤] سؤال استعلام. أو الأول في موقف الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة.

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨

(٧) ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم ﴾ على الرسل حين يقولون «لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب»، أو على الرسل والمرسل إليهم ما كانوا عليه. ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم، أو بمعلومنا منهم. ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ عنهم فيخفى علينا شيء من أحوالهم.

(٨) ﴿ وَٱلْوَزْنُ ﴾ أي القضاء، أو وزن الأعمال وهو مقابلتُها بالجزاء. والجمهور على أن صحائف

---

(١) وتخصيص التذكير بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالكفرة. وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام (س٣/ ٢١٠).

(٢) النجم: «٤».

(٣) وتخصيصهم بالذكر لمزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المنكرين (س٣/ ٢١١).

(٤) القصص: «٧٨».

الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمَعْدلة وقطعاً للمعذِرة، كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم، ويؤيده ما روي: أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فيُنْشَر عليه تسعة وتسعون سِجلاً كل سجلٍّ مَدُّ البصر، فيخرَج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة[1]. وقيل توزن الأشخاص لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «إنه ليأتي العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[2]. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الوزن. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفته، أو خبر محذوف ومعناه العدل السوي. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ حسناته، أو ما يوزن به حسناته فهو جمع موزون أو ميزان وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب.

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها، واقتراف ما عرضها للعذاب. ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فيكذبون بدل التصديق[3].

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أسباباً تعيشون بها، جمع معيشة. وعن نافع أنه همزه تشبيهاً بما الياء فيه زائدة كصحائف[4]. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيما صنعت إليكم..

(١١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ[5] ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صورناه، نزَّل خلقَه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره، أو ابتدأنا خلقكم ثم تصويرَكم بأن خلقنا آدم ثم صورناه. ﴿ثُمَّ قُلْنَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤ ـ ٢٥ رقم ٢٦٣٩) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧ رقم ٤٣٠٠) وابن حبان (ص٦٢٥ رقم ٢٥٢٤) والحاكم (١/ ٦) من طرق عن عبدالله بن عمرو بن العاص.
قال الترمذي: حسن غريب.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم فقد احتج مسلم بأبي عبدالرحمٰن الحبلي عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وعامر بن يحيى مصري ثقة، والليث إمام، ويونس المؤدب ثقة متفق على إخراجه في الصحيحين.
قلت: ـ وكذلك رجال الترمذي وابن ماجه كلهم ثقات ـ.
وصحح الألباني الحديث. انظر «الصحيحة» (رقم: ١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٢٦ رقم ٤٧٢٩) ومسلم (٤/ ٢١٤٧ رقم ١٨/ ٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا (س٣/ ٢١٤).

(٤) وتقديم اللام «لكم» على في «فيها» لما أنه المنبىء عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتم والمسارعة إلى ذكره أهم (س٣/ ٢١٤).

(٥) وتصديرها والتي قبلها بالقسم وحرف التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونهما (س٣/ ٢١٤).

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ وقيل ثم لتأخير الإخبار. ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي أن تسجد، و«لا» صلةٌ، مِثْلُها في لئلا يعلم مؤكِّدة معنى الفعل الذي دخلت عليه ومنبهة على أن الموبَّخ عليه ترك السجود. وقيل الممنوع عن الشيء مضطر إلى خلافه فكأنه قيل: ما اضطرك إلى ألا تسجد[1]. ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور. ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جواب من حيث المعنى، استُأنِف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله كأنه قال: المانعُ أني خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف يحسن أن يؤمر به؟! فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً. ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تعليل لفضله عليه، وقد غلط في ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[2] أي بغير واسطة، وباعتبار الصورة كما نبه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[3] وباعتبار الغاية وهو ملاكُه، ولذلك أمر الملائكة بسجوده لمّا بين لهم أنه أعلم منهم وأن له خواص ليست لغيره. والآية دليل الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة، ولعل إضافة خلق الإنسان إلى الطين والشيطان إلى النار باعتبار الجزء الغالب.

(١٣) ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنة. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح. ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي، فإنها مكان الخاشع والمطيع. وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه. ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ممن أهانه الله لتكبره، قال عليه الصلاة والسلام «من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه الله»[4].

(١٤) ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم القيامة فلا تُمِتني، أو لا تعجل عقوبتي.

(١٥) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سأله ظاهراً، لكنه محمول على ما جاء مقيداً بقوله تعالى: «إلى يوم الوقت المعلوم» وهو النفخة الأولى، أو وقت يعلم الله انتهاء أجله فيه، وفي إسعافه إليه ابتلاء العباد وتعريضهم للثواب بمخالفته.

---

(١) ولعل الثاني هو الأولى، لأنه ورد «ما منعك أن تسجد..» ـ ص«٧٥» ـ وورد «ما منعك ألا تسجد» ففي الأولى سأله عن المانع من سجوده لآدم، وفي الثانية سأله عن المانع من عدم سجوده له.

(٢) ص: «٧٥».

(٣) الحجر: «٢٩».

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٧٥ رقم ٨١٣٩) عن عمر بن الخطاب موقوفاً بسند صحيح. وأخرجه البيهقي أيضاً (٦/ ٢٧٦ رقم ٨١٤٠) عن عمر بن الخطاب مرفوعاً. بسند صحيح أيضاً.

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي بعد أن أمهلتني لاجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني بسبب إغوائك إياي بواسطتهم تسمية أو حملاً على الغي، أو تكليفاً بما غَوَيت لأجله. والباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بأقعدنّ، فإن اللام تصد عنه، وقيل الباء للقسم ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ ترصداً بهم كما يقعد القطاع للسابلة. ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ طريق الإسلام، ونصبه على الظرف كقوله:

لَـــذُنٌ بِهَـــزِّ الكَـــفِّ يَعْسِـــلُ مَتْنُـــهُ فيـــهِ كَمَـــا عَسَـــلَ الطَّـــرِيـــقَ الثَّعْلَـــبُ

وقيل تقديره على صراطك كقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن.

(١٧) ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي من جميع الجهات الأربع. مَثَّل قصدَه إياهم بالتسويل والإضلال من أي وجه يمكنه بإتيان العدو من الجهات الأربع، ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وقيل لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه يوحش الناس. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من بين أيديهم من قبل الآخرة، ومن خلفهم من قبل الدنيا، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم. ويحتمل أن يقال من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز عنه، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم. وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما موجه إليهم، وإلى الأخيرين بحرف المجاوزة فإن الآتي منهما كالمنحرف عنهم المار على عرضهم، ونظيره قولهم جلست عن يمينه. ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ مطيعين، وإنما قاله ظناً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾[1] لما رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً ومبدأ الخير واحداً، وقيل سمعه من الملائكة.

(١٨) ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ مذموماً من ذأمه إذا ذمه. وقرىء مذموماً كمَسُول في مسؤول أو كمكول في مكيل، من ذامه يذيمه ذيماً. ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً. ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام فيه لتوطئة القسم، وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط. وقرىء لِمَنْ بكسر اللام على أنه خبر لأملأن على معنى: لمن تبعك هذا الوعيد، أو علة لاخرُج ولأملأن جواب قسم محذوف، ومعنى منكم منك ومنهم فغلّب المخاطب.

---

(١) سبأ: «٢٠».

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ أي وقلنا يا آدم[1]. ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وقرىء هذا وهو الأصل لتصغيره على ذيّا، والهاء بدل من الياء[2]. ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسَهم، وتكونا يحتمل الجزم على العطف والنصب على الجواب.

(٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي فعل الوسوسة لأجلهما، وهي في الأصل الصوت الخفي كالهيمنة والخشخشة ومنه وسوس الحلي. وقد سبق في سورة البقرة كيفية وسوسته. ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ ليظهر لهما، واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما، ولذلك عبر عنهما بالسوأة. وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع. ﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما غطي عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر، وإنما لم تقلب الواو المضمومة همزة في المشهور كما قلبت في أُويْصل تصغير واصل لأن الثانية مدة. وقرىء سوأتهما بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو، وسوأتهما بقلبها واواً وإدغام الواو الساكنة فيها. ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا﴾ إلاَّ كراهة أن تكونا. ﴿مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون في الجنة، واستدل به على فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجوابه: أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تنقلب وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً ما للملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدل على فضلهم مطلقاً.

(٢١) ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي أَقْسَم لهما على ذلك، وأخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة. وقيل أقسما له بالقبول. وقيل أقسما عليه بالله إنه لمن الناصحين فأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة.

(٢٢) ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، نبه به على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل. ﴿بِغُرُورٍ ۚ﴾ بما غرهما به من القسم فإنهما ظنّا أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، أو ملتبسين بغرور. ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي فلما وجدا طعمها آخذين في الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما. واختلف في أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما، وأن اللباس كان نوراً أو

---

(١) تصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلق المأمور به (س٣/ ٢٢٠).

(٢) وتوجيه الخطاب لهما لتعميم التشريف والإيذان بتساويهما في مباشرة المأمور به (س٣/ ٢٢٠).

حلة أو ظفراً. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة. ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ورق التين، وقرىء يُخْصِفان من أخصف أي يخصفان أنفسهما ويخصفان من خصف ويَخِصِّفان وأصله يختصفان. ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عتاب على مخالفة النهي، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة. ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دليل على أن الصغائر معاقب عليها إن لم تغفر. وقالت المعتزلة لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر، ولذلك قالوا: إنما قالا ذلك على عادة المقربين في استعظام الصغير من السيئات واستحقار العظيم من الحسنات.

(٢٤) ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو لهما ولإبليس. كرر الأمر له تبعاً ليعلم أنهم قرناء أبداً وأخبر عما قال لهم متفرقاً. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال أي متعادين. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار أي موضع استقرار. ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتمتع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن تقضى آجالكم.

(٢٥) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للجزاء. وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان ومنها تَخْرُجون، وفي الزخرف كذلك تَخْرُجون بفتح التاء وضم الراء.

(٢٦) ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[2]. ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. روي: أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فنزلت[3]. ولعله ذكر قصة آدم مقدِّمة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم. ﴿وَرِيشًا﴾

---

(١) الزمر: «٦».

(٢) الحديد: «٢٥».

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٣٩).
وأصله في صحيح مسلم (٤/ ٢٣٢٠ رقم ٣٠٢٨/٢٥) من حديث ابن عباس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت المرأةُ تطوف بالبيت وهي عُريانةٌ. فتقول: من يُعيرني تِطوَافاً تَجْعَلُهُ على فرجها. وتقول:

اليـــوم يبـــدو بعضُـــهُ أو كُلُّـــهُ فمـــا بـــدا مِنْـــهُ فـــلا أحِلُّـــهُ

فنزلت هذه الآية «خذوا زينتكم عند كلِّ مسجد» [الأعراف: ٣١].

ولباساً تتجملون به، والريش الجمال. وقيل مالاً ومنه تريش الرجل إذا تمول. وقرىء رياشاً وهو جمع ريش كشعب وشِعاب. ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ خشية الله، وقيل الإيمان، وقيل السمت الحسن، وقيل لباس الحرب. ورفعه بالابتداء وخبرُه: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أو خبر وذلك صفتُه كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ولباسَ التقوى بالنصب عطفاً على لباساً. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إنزال اللباس. ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون نعمته، أو يتعظون فيتورعون عن القبائح.

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لا يمتحننكم بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم[1]. ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيهم عن اتباعه والافتنان به. ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا﴾ حال من أبويكم أو من فاعل أَخْرَج، وإسناد النزع إليه للتسبب. ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تعليل للنهي وتأكيد للتحذير من فتنته. وقبيلُه جنودُه، ورؤيتُهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثّلهم لنا. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما سوّلوا لهم. والآية مقصود القصة وفذلكة الحكاية.

(٢٨) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ فِعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف. ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ اعتذروا واحتجوا بأمرين: تقليدِ الآباء والافتراءِ على الله سبحانه وتعالى، فأعْرَض عن الأول لظهور فساده ورد الثاني بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، أو الحث على مكارم الخصال. ولا دلالة فيه على أن أقبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه آجلاً عقلي، فإن المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لهم لما فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليها آباءنا، فقيل ومن أين أخذ آباؤكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقاً. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالى.

(٢٩) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، وهو الوَسَط من كل أمر المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط. ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، أو أقيموها نحو

---

(١) والتصدير بالنداء للاعتناء بمضمون ما صدر به (س٣/ ٢٢٢).

القبلة. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقت سجود أو مكانه وهو الصلاة، أو في أي مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. ﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الطاعة فإن إليه مصيركم. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ كما أنشأكم ابتداء. ﴿تَعُودُونَ﴾ بإعادته فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة، وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها. وقيل كما بدأكم من التراب تعودون إليه. وقيل كما بدأكم حفاة عراة غرلاً تعودون. وقيل كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

(٣٠) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفقهم للإيمان. ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ﴾ بمقتضى القضاء السابق. وانتصابه بفعل يفسره ما بعده أي وخذل فريقاً. ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لخذلانهم، أو تحقيق لضلالهم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يدل على أن الكافر المخطىء والمعاند سواء في استحقاق الذم، وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر.

(٣١) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ ثيابكم لمواراة عورتكم. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لطواف أو صلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ما طاب لكم. روي: أن بني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجّهم فهمّ المسلمون به، فنزلت[1]. ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة[2]. وقال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب في نصف آية فقال: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»[3]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرتضي فعلهم.

(٣٢) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب وسائر ما يتجمل به. ﴿الَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف، والمعادن كالدروع. ﴿وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المستلذات من

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٢٥) بدون سند.
وذكره الواحدي في «الأسباب» ص٢٢٦ من قول الكلبي في أهل الجاهلية...

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٤٠٥) من حديث ابن عباس وعبدالله بن عمرو معاً وأخرجه النسائي (٥/ ٧٩ رقم ٢٥٥٩) وابن ماجه (٢/ ١١٩٢ رقم ٣٦٠٥).
وأحمد في المسند (٢/ ١٨١) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٥) وعبد بن حميد في تفسيره كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٤٣) كلهم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٦٤ رقم ٢٥) لم أجد لها إسناداً.

المآكل والمشارب. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة، لأن الاستفهام في من للإنكار. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ بالأصالة، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فتَبَعٌ. ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم، وانتصابُها على الحال. وقرأ نافع بالرفع على أنها خبر بعد خبر. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لهم.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَتِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَحِشَ﴾ ما تزايد قبحه، وقيل ما يتعلق بالفروج. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرها وسرها. ﴿وَالْإِثْمَ﴾ وما يوجب الإثم، تعميم بعد تخصيص. وقيل شرب الخمر. ﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم أو الكبر، أفرده بالذكر للمبالغة. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلق بالبغي مؤكد له معنًى. ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَنًا﴾ تهكم بالمشركين، وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان. ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته سبحانه وتعالى، والافتراء عليه كقولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة أو وقت نزول العذاب بهم، وهو وعيد لأهل مكة. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ انقرضت مدتهم، أو حان وقتهم. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت، أو لا يطلبون التأخر والتقدم لشدة الهول[1].

(٣٥) ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي﴾ شرط ذكره بحرف الشك للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب كما ظنه أهل التعليم، وضمت إليها «ما» لتأكيد معنى الشرط ولذلك أكد فعلها بالنون، وجوابه: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والمعنى فمن اتقى التكذيب وأصلح عمله منكم والذين كذبوا بآياتنا منكم، وإدخال الفاء في الخبر الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَتِهِۦٓ﴾ ممن تقول على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله. ﴿أُولَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَٰبِ﴾ مما كتب لهم من الأرزاق والآجال. وقيل الكتاب اللوح

(١) صيغة الاستفعال «لا يستأخرون» للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له (س٣/ ٢٢٥).

المحفوظ، أي مما أثبت لهم فيه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي يتوفون أرواحهم، وهو حال من الرسل، وحتى غايةٌ لنيلهم وهي التي يبتدأ بعدها الكلام. ﴿قَالُوٓاْ﴾ جواب إذا ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها؟ وما وصلت بأين في خط المصحف وحقُّها الفصل لأنها موصولة. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عنا. ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه.

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ﴾ أي قال الله تعالى لهم يوم القيامة، أو أحد من الملائكة. ﴿فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين. ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلق بادخلوا. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ أي في النار. ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلت بالاقتداء بها. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار. ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع. ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي لأجل أولاهم إذ الخطاب مع الله لا معهم. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ سنُّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم. ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مضاعفاً لأنهم ضلّوا وأضلوا. ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكم أو ما لكل فريق. وقرأ عاصم بالياء على الانفصال.

(٣٩) ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ عطفوا كلامهم على جواب الله سبحانه وتعالى لأخراهم ورتبوه عليه، أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب. ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من قول القادة، أو من قول الفريقين.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ أي عن الإيمان بها. ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأدْعِيتهم وأعمالهم أو لأرواحهم، كما تفتح لأعمال المؤمنين وأرواحهم لتتصل بالملائكة. والتاء في تفتّح لتأنيث الأبواب، والتشديد لكثرتها. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف، وحمزة والكسائي به وبالياء لأن التأنيث غير حقيقي والفعل مقدم، وقرىء على البناء للفاعل ونصب الأبواب بالتاء على أن الفعل للآيات، وبالياء لأن الفعل لله. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي حتى يدخل ما هو مَثَلٌ في عظم الجرْم وهو البعير فيما هو مَثَل في ضيق المسلك وهو ثقبة الإبرة، وذلك مما لا يكون فكذا ما يتوقف عليه. وقرىء الجُمَّل كالقُمّل، والجُمَل كالنُّغَر، والجُمْل كالقُفْل، والجُمُل كالنُّصُب، والجَمْل كالحبل وهو الحبل الغليظ من القنب، وقيل حبل السفينة. وسُمّ بالضم والكسر وفي سم المخيط وهو والخِياط ما يخاط به كالحِزام والمِحزم. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع. ﴿نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش. ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ﴾ أغطية، والتنوين فيه للبدل عن الإعلال عند سيبويه، وللصرف عند غيره. وقرىء غواشٌ على إلغاء المحذوف. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الأوصاف الذميمة، وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيهاً على أنه أعظم الإجرام.

(٤٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ على عادته سبحانه وتعالى في أن يشفع الوعيد بالوعد، ولا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراضٌ بين المبتدأ وخبرِه للترغيب في اكتساب النعيم المقيم بما تسعه طاقتهم ويسهل عليهم. وقرىء لا تكلف نفسٌ.

(٤٣) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي نخرج من قلوبهم أسباب الغل، أو نطهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التواد[1]. وعن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم[2]. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ لما جزاؤه هذا. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ لولا هداية الله وتوفيقه، واللام لتوكيد النفي، وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله. وقرأ ابن عامر ما كنا بغير واو على أنها مبينة للأولى. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم. يقولون ذلك اغتباطاً وتبجحاً بأن ما علموه يقيناً في الدنيا صار لهم عين اليقين في الآخرة. ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ إذا رأوها من بعيد، أو بعد دخولها والمنادى له بالذات. ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أعطيتموها بسبب أعمالكم، وهو حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة، أو خبر، والجنة صفة تلكم. وأنْ في المواقع الخمسة هي المخففة، أو المفسِّرة لأن المناداة والتأذين من القول.

(٤٤) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إنما قالوه تبجحاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم، وإنما لم يقل ما وعدكم كما قال «ما وعدنا» لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصاً وعده بهم كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة. ﴿قَالُوا

---

(١) صيغة الماضي «نزعنا» للإيذان بتحققه وتقرره (س٣/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٨/ ١٨٣) عنه وهو منقطع.
وأخرجه ابن أبي شيبة في رواية ربعي عن علي وهو متصل. قاله الحافظ في «الكافي الشاف».

﴿نَعَمٌ﴾ وقرأ الكسائي بكسر العين وهما لغتان. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ قيل هو صاحب الصُّور. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين. ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقرأ ابن كثير في رواية للبزي وابن عامر وحمزة والكسائي أنَّ لعنةَ الله بالتشديد والنصب، وقرىء إنّ بالكسر على إرادة القول أو إجراء أذّن مجرى قال.

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة للظالمين مقررة، أو ذمّ مرفوع أو منصوب. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ زيغاً وميلاً عما هو عليه. والعِوَج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم تكن منتصبة، وبالفتح ما كان في المنتصبة كالحائط والرمح. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

(٤٦) ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي بين الفريقين لقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾[1] أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداها إلى الأخرى. ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ وعلى أعراف الحجاب أي أعاليه، وهو السور المضروب بينهما، جمع عرف، مستعار من عرف الفرس. وقيل العرف ما ارتفع من الشيء فإنه يكون لظهوره أعرف من غيره. ﴿رِجَالٌ﴾ طائفة من الموحدين قصّروا في العمل فيُحبَسون بين الجنة والنار حتى يقضي الله سبحانه وتعالى فيهم ما يشاء. وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو الشهداء رضي الله تعالى عنهم، أو خيار المؤمنين وعلمائهم، أو ملائكة يُرَون في صورة الرجال. ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا﴾ من أهل الجنة والنار. ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله بها كبياض الوجه وسواده، فِعْلى مِنْ سام إبله إذا أرسلها في المرعى معلمة، أو مِنْ وَسَمَ على القلب كالجاه من الوجه، وإنما يَعْرِفون ذلك بالإلهام أو تعليم الملائكة. ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي إذا نظروا إليهم سلموا عليهم. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال من الواو على الوجه الأول، ومن أصحاب على الوجوه الباقية.

(٤٧) ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟﴾ نعوذ بالله[2]. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي في النار[3].

(٤٨) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾ من رؤساء الكفرة. ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ كثرتكم، أو جمعُكم المال. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحق، أو على الخلق. وقرىء تستكثرون من الكثرة.

---

(١) الحديد: «١٣».

(٢) والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف إشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل الثاني بخلافه (س٣/ ٢٣٠).

(٣) وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال ـ الذي هو الموجب للدعاء ـ إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفي العذاب فقط بل مع ما يوجبه ويؤدي إليه من الظلم (س٣/ ٢٣٠).

أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

(٤٩) ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ﴾ من تتمة قولهم للرجال، والإشارةُ إلى ضعفاء أهل الجنة الذين كانت الكَفَرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون أن الله لا يُدخلهم الجنة. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي فالتفتوا إلى أصحاب الجنة وقالوا لهم ادخلوا وهو أوفق للوجوه الأخيرة، أو فقيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى بعد أن حُبسوا حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا. وقيل لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله سبحانه وتعالى أو بعض الملائكة أهؤلاء الذين أقسمتم. وقرىء أُدْخِلوا ودَخَلوا على الاستئناف، وتقديره دَخَلوا الجنة مقولاً لهم لا خوف عليكم.

(٥٠) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي صبوه، وهو دليل على أن الجنة فوق النار. ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة، أو من الطعام كقوله: علفتها تبناً وماء بارداً. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ منعهما عنهم منع المحرَّم من المكلَّف.

(٥١) ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ كتحريم البَحيرة والتصدية والمُكاء حول البيت واللهوُ صرف الهمّ بما لا يحسن أن يصرف به واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب بهز ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ نفعل بهم فعل الناسين فنتركهم في النار. ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ فلم يخطروه ببالهم ولم يستعدوا له. ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكما كانوا منكرين أنها من عند الله.

(٥٢) ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيماً، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى عالم بعلم، أو مشتملاً على علم فيكون حالاً من المفعول. وقرىء فضلناه أي على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الهاء.

(٥٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ﴾ إلا ما يؤل إليه أمره مِنْ تبين صدقه بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد. ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ تركوه تركَ الناسي. ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي قد تبين أنهم جاؤوا بالحق. ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ اليوم. ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد

إلى الدنيا. وقرىء بالنصب عطفاً على فيشفعوا، أو لأن أو بمعنى إلى أن، فعلى الأول المسؤول أحد الأمرين الشفاعة أو ردهم إلى الدنيا، وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد وهو الرد. ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ جواب الاستفهام الثاني. وقرىء بالرفع أي فنحن نعمل. ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم في الكفر. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ بطل عنهم فلم ينفعهم.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

(٥٤) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في ستة أوقات كقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾[1] أو في مقدار ستة أيام، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن حينئذ. وفي خلق الأشياء مدرّجاً مع القدرة على إيجادها دفعةً دليل للاختيار واعتبارٌ للنظّار وحثّ على التأني في الأمور. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استوى أمرُه أو استولى، وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف، والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن. والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير المَلِك فإن الأمور والتدابير تنزل منه. وقيل المُلْك. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يغطيه به ولم يُذكَر عكسه للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما، ولذلك قرىء يغشي الليلَ النهارُ بنصب الليل ورفع النهار. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بالتشديد فيه وفي الرعد[2]، للدلالة على التكرير. ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء. والحثيثُ فعيل من الحث، وهو صفة مصدر محذوف، أو حال من الفاعل بمعنى حاثاً أو المفعول بمعنى محثوثاً. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بقضائه وتصريفه، ونصبُها بالعطف على السموات ونصبُ مسخرات على الحال. وقرأ ابن عامر كلَّها بالرفع على الابتداء والخبر. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية. وتحقيق الآية ـ والله سبحانه وتعالى أعلم ـ أنّ الكفرة كانوا متخذين أرباباً فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[3] وعَمَد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثارِ والأفعال وأشارَ إليه بقوله: «وخلق الأرض» أي ما في جهة السفل في يومين، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولاً وتصويرها ثانياً كما قال تعالى بعد قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى

(١) الأنفال: «١٦».
(٢) الرعد: «٣».
(٣) فصلت: «١٢».

يَوْمَيْنِ﴾[١] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾[٢] أي مع اليومين الأولين لقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٣] ثم لما تم له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالمَلِكِ الجالس على عرشه لتدبير المملكة، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والأيام، ثم صرح بما هو فَذْلكة التقرير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤] ثم أمرهم بأن يدعوه متذللين مخلصين فقال:

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي ذوي تضرع وخفية فإن الإخفاء دليل الإخلاص. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره، نبه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصعود إلى السماء. وقيل هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه. وعن النبي ﷺ، «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ «إنه لا يحب المعتدين»[٥].

(٥٦) ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ ببعث الأنبياء وشرع الأحكام. ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ذوي خوف من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم، وطمع في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ترجيح للطمع وتنبيه على ما يتوسل به للإجابة، وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم، أو لأنه صفة محذوف أي أمر قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول، أو الذي هو مصدر كالنقيض، أو الفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره.

(٥٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح على الوحدة. ﴿بُشْرًۢا﴾

---

(١) فصلت: «٩».
(٢) فصلت: «١٠».
(٣) السجدة: «٤».
(٤) الأعراف: «٥٤».
(٥) أخرجه أبو يعلى في المسند (٢/ ٧١ رقم ٢٧/ ٧١٥) وأحمد (١/ ١٧٢، ١٨٢٠) من طريق عبدالرحمٰن بن مهدي، وأبي النضر كلاهما عن شعبة بهذا الإسناد. وقد تصحّف فيه «ابن عبادية» إلى أبي عبادية.
وأخرجه أحمد (١/ ١٨٢) وأبو داود (٤/ ١٦١ ـ ١٦٢ رقم ١٤٨٠) من طريقين عن شعبة به، وفيه «ابن لسعد» بدل «مولى لسعد» وعند أحمد عن الاثنين معاً. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣١). =

جمع نشور بمعنى ناشر، وقرأ ابن عامر نُشْراً بالتخفيف حيث وقع، وحمزة والكسائي نَشْراً بفتح النون حيث وقع على أنه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان، وعاصم بُشْراً وهو تخفيف بشر جمع بشير وقد قرىء به، وبَشْراً بفتح الباء مصدر بشره بمعنى باشرات أو للبشارة، وبُشْرى. ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قدّام رحمته، يعني المطر فإن الصَّبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدرّه والدَّبور تفرقه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ أي حملت، واشتقاقه من القِلة فإن المقل للشيء يستقله. ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء، جمعه لأن السحاب جمع بمعنى السحائب. ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي السحاب، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ. ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأجله، أو لإحيائه، أو لسقيه. وقرىء ميت. ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح وكذلك. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ ويحتمل فيه عود الضمير إلى الماء، وإذا كان للبلد فالباء للإلصاق في الأول وللظرفية في الثاني، وإذا كان لغيره فهي للسببية فيهما. ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل أنواعها. ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت، أي كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

(٥٨) ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الأرض الكريمة التربة. ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته وتيسيره، عبّر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لأنه أوقعه في مقابلة: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ أي كالحرة والسبخة. ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قليلاً عديم النفع، ونصبُه على الحال وتقدير الكلام: والبلد الذي خبث لا يخرج نباته إلا نكداً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعاً مستتراً. وقرىء يُخْرِج أي يخرجه البلد، فيكون إلا نكداً مفعولاً ونكداً على المصدر أي ذا نكد ونَكْداً بالإسكان للتخفيف. ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نرددها ونكررها. ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله فيتفكرون فيها ويعتبرون بها. والآية مَثَل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها.

(٥٩) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ جواب قسم محذوف، ولا تكاد تطلق هذه اللام إلا مع قد لأنها مظنة التوقع، فإن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها. ونوح بن لمك بن متوشلح بن إدريس أول نبي بعده، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين. ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اعبدوه وحده[1] لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وقرأ الكسائي غيرِه بالكسر نعتاً أو بدلاً على اللفظ حيث وقع إذا

(١) وترك التقييد بـ«وحده» للإيذان بأنها العبادة حقيقة، وأما العبادة بالإشراك فليست من العبادة في شيء (س ٣/ ٢٣٥). =

كان قبل إله مِنْ التي تخفض، وقرىء بالنصب على الاستثناء. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ إن لم تؤمنوا، وهو وعيد وبيان للداعي إلى عبادته. واليوم يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان[1].

قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

(٦٠) ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي الأشراف فإنهم يملؤون العيون رُواء. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ﴾ زوال عن الحق. ﴿مُّبِينٖ﴾ بين.

(٦١) ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ أي شيء من الضلال، بالغَ في النفي كما بالغوا في الإثبات وعرّض لهم به. ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استدراك باعتبار ما يلزمه، وهو كونه على هدًى كأنه قال: ولكني على هدى في الغاية لأني رسول من الله سبحانه وتعالى.

(٦٢) ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ صفات لرسول أو استئناف، ومساقها على الوجهين لبيان كونه رسولاً. وقرأ أبو عمرو أُبْلِغكم بالتخفيف. وجَمْعُ الرسالات لاختلاف أوقاتها، أو لتنوع معانيها كالعقائد والمواعظ والأحكام، أو لأن المراد بها ما أوحي إليه وإلى الأنبياء قبله كصحف شيث وإدريس. وزيادة اللام في لكم للدلالة على إمحاض النصح لهم. وفي «أعلمُ من الله» تقرير لما أوعدهم به، فإن معناه أعلم من قدرته وشدة بطشه، أو من جهته بالوحي أشياء لا علم لكم بها[2].

(٦٣) ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف أي أكذبتم وعجبتم. ﴿أَن جَآءَكُمۡ﴾ من أن جاءكم. ﴿ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ رسالة أو موعظة. ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ على لسان رجل. ﴿مِّنكُمۡ﴾ من جملتكم أو من جنسكم، فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[3]. ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ عاقبةَ الكفر والمعاصي. ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ منهما بسبب الإنذار. ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بالتقوى. وفائدة حرف الترجي: التنبيه على أن التقوى غير موجب، والترحمُ من الله سبحانه وتعالى تفضل، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله تعالى.

(٦٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ وهم من آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل

---

(١) ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه وتكميل الإنذار (س٣/ ٢٣٥).

(٢) في قوله «رسالات ربي» تخصيص لربوبيته تعالى به عليه السلام ـ بعد بيان عمومها للعالمين ـ للإشعار بعلة الحكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم، فإن ربوبيته تعالى له عليه السلام من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته إليهم.
وقوله «وأنصح» بصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته لهم (س٣/ ٢٣٦).

(٣) المؤمنون: «٢٤».

تسعة بنوه سام وحام ويافث وستة ممن آمن به. ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ متعلق بمعه أو بأنجيناه، أو حال من الموصول أو من الضمير في معه. ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ بالطوفان[1]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عُمْيَ القلوب غير مستبصرين، وأصله عميين فخفف. وقرىء عامين والأول أبلغ لدلالته على الثبات.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

(٦٥) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ عطف على نوحاً إلى قومه. ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لأخاهم والمراد به الواحد منهم، كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم، فإنه هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل هود بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح، ابن عم أبي عاد، وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف بحاله وأرغب في اقتفائه. ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استأنف به ولم يعطِف كأنه جواب سائل قال: فما قال لهم حين أرسل؟ وكذلك جوابُهم. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، وكأن قومه كانوا أقرب من قوم نوح عليه الصلاة والسلام ولذلك قال «أفلا تتقون».

(٦٦) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ إذ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ متمكناً في خفة عقل راسخاً فيها حيث فارقتَ دين قومك. ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

(٦٧) ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

(٦٨) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

(٦٩) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ سبق تفسيره[2]. وفي إجابة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكفرةَ عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراضِ عن مقابلتهم كمالُ النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفي قوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[3]

---

(١) وتقديم ذكر إنجاء نوح عليه السلام على إغراقهم للمسارعة إلى الإخبار به، والإيذان بسبق الرحمة ـ التي هي مقتضى الذات على الغضب ـ الذي يظهر أثره بمقتضى جرائمهم (س٣/ ٢٣٧).

(٢) قوله «وأنا لكم ناصح أمين» جيء بالجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار (س٣/ ٢٣٨).

(٣) الآية: «٦٣».

تنبيه على أنهم عَرَفُوه بالأمرين. وقرأ أبو عمرو أُبْلِغُكم في الموضعين في هذه السورة وفي الأحقاف[1] مخففاً. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً فإن شداد بن عاد ممن مَلَك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شجر عمان. خوّفهم من عقاب الله ثم ذكّرهم بإنعامه. ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ قامة وقوة. ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ تعميم بعد تخصيص. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح.

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ استبعدوا اختصاصَ الله بالعبادة والإعراضَ عما أشرك به آباؤهم انهماكاً في التقليد وحباً لما أَلِفوه، ومعنى المجيء في أجئتنا إما المجيء من مكان اعتزل به عن قومه أو من السماء على التهكم، أو القصد على المجاز كقولهم ذهب يسبني. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله «أفلا تتقون» ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه.

(٧١) ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ قد وجب وحق عليكم، أو نَزَل عليكم على أن المتوقّع كالواقع. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب. ﴿وَغَضَبٌۖ﴾ إرادة انتقام. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ أي في أشياء سميتموها آلهةً وليس فيها معنى الإلهية، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحقت كان استحقاقُها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حُجة، بيّن أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمّى، وإسنادُ الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم، واستُدِل به على أن الاسم هو المسمى وأن اللغات توقيفية إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله بها سلطاناً، وضعفهما ظاهر. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لما وضح الحق وأنتم مصرون على العناد نزول العذاب بكم. ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

(٧٢) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ في الدين. ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ عليهم. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ أي استأصلناهم. ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان. روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وازدادوا عتواً فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جَهِدهم، وكان الناس حينئذ مسلمهم ومشركهم إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه قيل بن عنز ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقةُ أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاوية بن بكر، فلما

(١) الأحقاف: «٢٣».

قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنّيهم الجرادتان قَيْنتان له، فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا له أهمه ذلك واستحيا أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم فعلّم القينتين:

أَلاَ يَا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لَعَلَّ اللهَ يُسْقِينَا الغَمَامَا
فَيُسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَاداً ... قَد امْسَوا مَا يُبِينُونَ الكَلاَمَا

حتى غنتا به، فأزعجهم ذلك فقال مرثد: والله لا تُسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سبحانه وتعالى سُقيتم، فقالوا لمعاوية: احبسه عنا لا يقدمنّ معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال قيل: اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء يا قيل: اختر لنفسك ولقومك. فقال اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من وادي المغيث فاستبشروا بها وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله سبحانه وتعالى فيها حتى ماتوا[1].

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

(٧٣) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ قبيلة أخرى من العرب سُموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل سموا به لقلة مائهم من الثمْد وهو الماء القليل. وقرىء مصروفاً بتأويل الحي أو باعتبار الأصل. وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القُرى. ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي، وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ استئنافٌ لبيانها، و«آية» نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة، و«لكم» بيان لِمَنْ هي له آية، ويجوز أن تكون ناقةُ الله بدلاً أو عطفَ بيان ولكم خبراً عاملاً في آية، وإضافةُ الناقة إلى الله لتعظيمها ولأنها جاءت من عنده بلا وسائط وأسبابٍ معهودة ولذلك كانت آية. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة في الأمر وإزاحة للعذر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جواب للنهي.

---

(١) أورد هذه القصة ابن كثير عن محمد بن إسحاق، وقال: وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة... وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله (تفسير ابن كثير ٢/٢١٦).

(٧٤) ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ الحجر. ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي تبنون في سهولها، أو من سهولة الأرض بما تعملون منها كاللَّبن والآجرّ. ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وقرىء تَنْحتون بالفتح وتَنْحاتُون بالإشباع، وانتصاب بيوتاً على الحال المقدرة أو المفعول على أن التقدير بيوتاً من الجبال، أو تنحتون بمعنى تتخذون ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

(٧٥) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي عن الإيمان. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ أي للذين استضعفوهم واستذلوهم. ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استُضعفوا بدلَ الكل إنْ كان الضمير لقومه وبدلَ البعض إن كان للذين. وقرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو. ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قالوه على الاستهزاء. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نَعَمْ تنبيهاً على أنّ إرساله أظهرُ من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذوي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر فلذلك قال:

(٧٦) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على وجه المقابلة[1]، ووضعوا آمنتم به موضع أُرسل به رداً لما جعلوه معلوماً مُسَلَّماً.

(٧٧) ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ فنحروها. أُسْنِد إلى جميعهم فِعْلُ بعضهم للملابسة، أو لأنه كان برضاهم. ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ واستكبروا عن امتثاله، وهو ما بلّغهم صالح عليه الصلاة والسلام بقوله: فذروها. ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(٧٨) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة. ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ خامدين ميتين. روي: أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا، وعمّروا أعماراً طوالاً لا تفي بها الأبنية، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في خصب وسعة فعتوْا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً من أشرافهم فأنذرهم، فسألوه آية فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وندعو آلهتنا فمن استجيب له اتُّبع، فخرج معهم فدعوْا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها الكاثبة وقال: له أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة

---

(١) أعيد الموصول مع صلته «الذين استكبروا» مع كفاية الضمير إيذاناً بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار (س٣/ ٢٤٣).

جوفاء وَبْراء إن فعلت صدقناك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلتُ ذلك لتؤمنن؟ فقالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النَّتُوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وَبْراء كما وَصَفوا وهم ينظرون، ثم نَتِجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع في جماعة، ومَنَع الباقين من الإيمان ذؤابُ بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صخر كاهنُهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتَرِد الماء غِبّاً[1] فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفحج فيحلِبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامُهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزينت عقْرَها لهم عنيزةُ أم غنم وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، فرقى سَقَبُها[2] جبلاً اسمه قارة فرَغَا ثلاثاً فقال صالح لهم أدرِكوا الفصيل عسى أن يُرفَع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه إذ انفجرت الصخرة بعد رُغائه فدخلها فقال لهم صالح: تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة، ثم يصبِّحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا[3].

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

(٧٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ظاهرُه أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قَلِيب بدر[4] وقال «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»[5]. أو ذُكِر

(١) غِبّاً أي يوماً بعد يوم.

(٢) سَقَبُها أي فصيلها وهو فصيل الناقة.

(٣) أورد القصة ابن كثير ولم يعلق عليها (تفسير ابن كثير ٢/٢١٨) ونسبها الألوسي لمحمد بن إسحاق (روح المعاني ٨/١٦٦).

(٤) القليب: يعني قليب بدر. وهو حفرة رميت فيها جيف كفار قريش المقتولين ببدر. وفسر بالبئر العادية القديمة. ولفظه مذكر. ليس كلفظ البئر ولذا قال: وفيه قتلى بدر، والقتلى جمع قتيل.

(٥) أخرج البخاري (٧/٣٠٠ رقم ٣٩٧٦) ومسلم (٤/٢٢٠٤ رقم ٢٨٧٥) عن أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمرَ يومَ بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذِفوا في طوىً من أطواء بدرٍ خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قومٍ أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ. فلما كان ببدر اليوم الثالث أمرَ براحلتهِ فشُدَّ عليها رحلُها، ثم مشى واتبعهُ أصحابه وقالوا ما نرى ينطلِقُ إلاَّ لبعض حاجته، حتى قام على شفةِ الرَّكي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدَ ربكم حقاً. قال فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلمُ من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم».
قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه، توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرةً وندماً قلت: ويؤيد تفسير قتادة حديث أخرجه البخاري (٧/٣٠١ رقم ٣٩٨١) ومسلم (٢/٦٤٣ رقم ٩٣٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول. فذكر لعائشة، فقالت: «إنما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنتُ أقول لهم هو الحق. ثم قرأت «إنك =

ذلك على سبيل التحسر عليهم[١].

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

(٨٠) ﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وقت قوله لهم، أو واذكُر لوطاً وإذ بدلٌ منه. ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ توبيخ وتقريع على تلك الفعلة المتمادية في القبح. ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ما فعلها قبلكم أحد قط. والباء للتعدية، ومِنْ الأولى لتأكيد النفي والاستغراق، والثانية للتبعيض. والجملة استئناف مقرر للإنكار كأنه وبّخهم أولاً بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ.

(٨١) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ بيان لقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ وهو أبلغ في الإنكار والتوبيخ، وقرأ نافع وحفص إنكم على الإخبار المستأنف، و«شهوةً» مفعول له أو مصدر في موقع الحال، وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الوطر. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضرابٌ عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار عليها إلى الذم على جميع معايبهم، أو عن محذوف مثل لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الإسراف.

(٨٢) ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ أي ما جاؤوا بما يكون جواباً عن كلامه، ولكنهم قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه فيمن معه من المؤمنين من قريتهم والاستهزاء بهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي من الفواحش[٢].

(٨٣) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي مَنْ آمن به. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تُسرّ الكفر. ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الذين بقُوا في ديارهم فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور.

(٨٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ أي نوعاً من المطر عجيباً وهو مبيّن بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٣]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ روي: أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر مع

= لا تُسمعُ الموتى» حتى قرأت الآية.
وإذا أردت الوقوف على المسألة وأدلتها فارجع إلى الكتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» تأليف نعمان بن المفسر الألوسي. تحقيق وتخريج وتعليق المحدث محمد ناصر الدين الألباني.

(١) قوله «لا تحبون» بصيغة المضارع للدلالة على استمرارهم بذلك (س٣/ ٢٤٤).

(٢) ووصفهم بالتطهير للاستهزاء والسخرية بهم (س٣/ ٢٤٦).

(٣) هود: «٨٢». الحجر: «٧٤».

عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام نزل بالأردن، فأرسله الله إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا. وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

(٨٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله شعيب بن ميكائيل بن يسجر بن مدين، وكان يقال له خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لحسن مراجعته قومَه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ يريد المعجزة التي كانت له وليس في القرآن أنها ما هي، وما روي[١] من محاربة عصا موسى عليه الصلاة والسلام التنين وولادة الغنم التي دفعها إليه الدرع خاصة وكانت الموعودة له من أولادها ووقوع عصا آدم على يده في المرات السبع متأخرة عن هذه المقاولة، ويحتمل أن تكون كرامة لموسى عليه السلام أو إرهاصاً لنبوته. ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي آلة الكيل على الإضمار، أو إطلاقُ الكيل على المكيال كالعيش على المعاش لقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ كما قال في سورة هود: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾[٢] أو الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان مصدراً كالميعاد. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير. وقيل كانوا مَكّاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه[٣]. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والحَيْف. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ﴾ بعد ما أُصلح أمرُها أو أهلَها الأنبياءُ وأتباعهم بالشرائع، أو أصلحوا فيها والإضافة إليها كالإضافة في «بل مكر الليل والنهار»[٤]. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه، ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقاً أو في الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال.

(٨٦) ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ بكل طريق من طرق الدين كالشيطان، وصراطُ الحق وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام، وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى في شيء منها

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٨/ ١٧٦) بدون راوٍ ولا سند.

(٢) هود: «٨٥».

(٣) المكس هو نقص الثمن، إذ يأخذه بغير حق.

(٤) سبأ: «٣٣». والإضافة فيها على تقدير: بل مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً. (البيضاوي ٢/ ٢٦٢).

منعوه. وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيباً إنه كذاب فلا يفسك عن دينك ويوعِدون لمن آمن به. وقيل كانوا يقطعون الطريق. ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني الذي قعدوا عليه فوضَع الظاهر موضع المضمر بياناً لكل صراط، ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقبيحاً لما كانوا عليه أو الإيمانِ بالله. ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي بالله، أو بكل صراط على الأول، ومَنْ مفعول تصدون على إعمال الأقرب ولو كان مفعول توعدون لقال وتصدونهم، وتوعِدون بما عطف عليه في موقع الحال من الضمير في تقعدوا. ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً بإلقاء الشبه، أو وصفها للناس بأنها معوجة. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ عَدَدَكُمْ أو عُدَدَكُمْ. ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالبركة في النسل أو المال. ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم قبلكم فاعتبروا بهم.

وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

(٨٧) ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟﴾ فتربصوا. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ﴾ أي بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حَيْف فيه.

(٨٨) ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ أي لَيكوننّ أحدُ الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غَلَّبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أُجري الجواب في قوله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدوننا في حال كراهتنا.

(٨٩) ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قد اختلفنا عليه. ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ شرطٌ جوابه محذوف دليلُه: قد افترينا وهو بمعنى المستقبل لأنه لم يقع لكنه جعل كالواقع للمبالغة، وأدخل عليه «قد» لتقريبه من الحال أي قد افترينا الآن إن هممنا بالعود بعد الخلاص منها حيث نزعم أن لله تعالى نداً، وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه باطل وما أنتم عليه حق. وقيل إنه جواب قسم وتقديره: والله لقد افترينا. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ وما يصح لنا. ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ خذلاننا وارتدادنا، وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله. وقيل أراد به حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون. ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم. ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار. ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ احكم بيننا وبينهم، والفتّاح

القاضي. والفِتَاحة الحُكُومة. أو أظْهِر أمرَنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل، مِنْ فَتَح المُشْكِل إذا بينه. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ على المعنيين.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

(٩٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وتركتم دينكم[1]. ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لاستبدالكم ضلالته بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف، وهو ساد مسد جواب الشرط والقسم الموطأ باللام.

(٩١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة وفي سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾[2] ولعلها كانت من مباديها. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي في مدينتهم.

(٩٢) ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ مبتدأ خبرُه ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي استؤصلوا كأن لم يقيموا بها والمغْنى المنزِل ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا، فإنهم الرابحون في الدارين. وللتنبيه على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول واستأنف بالجملتين وأتى بهما اسميتين.

(٩٣) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم. والمعنى لقد بالغتُ في الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعي في النصح والإشفاق فلم تصدقوا قولي، فكيف آسى عليكم. وقرىء فكيف أيسي بإمالتين.

(٩٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالبؤس والضر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ حتى يتضرعوا ويتذللوا.

(٩٥) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة ابتلاء لهم بالأمرين. ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ كثروا عَدَداً وعُدَداً يقال عفا النبات إذا كثر ومنه إعفاء

---

(١) وتغيير الصلة «الذين كفروا» لأن مدار قولهم هذا هو الكفر، كما أن مناط قولهم السابق هو الاستكبار (س٣/ ٢٥١).

(٢) الحجر: «٨٣».

اللحى. ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ كفراناً لنعمة الله ونسياناً لذكره واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءنا منه مثل ما مسنا[1]. ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

(٩٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ يعني القرى المدلول عليها بقوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ وقيل مكة وما حولها. ﴿آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ مكان كفرهم وعصيانهم. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب، وقيل المراد المطر والنبات. وقرأ ابن عامر لفتّحنا بالتشديد. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ الرسل. ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

(٩٧) ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ عطف على قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وما بينهما اعتراض، والمعنى: أبعد ذلك أمن أهل القرى؟! ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ تبييتاً أو وقت بيات أو مبيتاً أو مبيتين، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ويجيء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم. ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بياتاً.

(٩٨) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «أوْ» بالسكون على الترديد. ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ ضحوة النهار، وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يلهون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم.

(٩٩) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ ومكرُ الله استعارة لاستدراج العبد وأخذِه من حيث لا يحتسب. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار.

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي يخلفون مَنْ خلا قبلهم ويرثون ديارهم، وإنما عدي يهْدِ باللام لأنه بمعنى يبيِّن[2] ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أنّ الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم كما أصبنا مَنْ قبلهم، وهو فاعل يهدِ، ومن قرأه بالنون جعله مفعولاً. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على ما دل عليه، أو لم يهدِ أي يغفلون عن الهداية، أو منقطع عنه بمعنى ونحن

---

(١) ولعل تأخير السراء للإشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها (س٣/ ٢٥٣).

(٢) أو لتنزيل فعل الهداية منزلة اللازم (س٣/ ٢٥٤).

نطبع، ولا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى وطبعنا لأنه في سياقه جواب لو لإفضائه إلى نفي الطبع عنهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واعتبار.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

(١٠١) ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ يعني قرى الأمم المارّ ذكرهم. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ حال إن جُعِل القرى خبراً وتكون إفادته بالتقييد بها، وخبرٌ إن جُعِلتْ صفة، ويجوز أن يكونا خبرين، ومِنْ للتبعيض أي نقصّ بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لا نقصها. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيئهم بها. ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ بما كذبوه من قبل الرسل بل كانوا مستمرين على التكذيب، أو فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة، واللامُ لتأكيد النفي والدلالة على أنهم ما صلحوا للإيمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر.

(١٠٢) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ لأكثر الناس، والآية اعتراض، أو لأكثر الأمم المذكورين. ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ من وفاءِ عهد، فإن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم في الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، أو ما عاهدوا إليه حين كانوا في ضرر مخافة مِثْل: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1]. ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ﴾ أي علمِناهم. ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ مِنْ وجدتُ زيداً إذاً لحافظٌ لدخول إنْ المخففة واللام الفارقة، وذلك لا يسُوغ إلا في المبتدأ والخبر والأفعالِ الداخلة عليهما، وعند الكوفيين إنْ للنفي واللامُ بمعنى إلا.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ الضمير للرسل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾[2] أو للأمم[3]. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يعني المعجزات. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ بأن كفروا بها مكان الإيمان الذي هو من حقها لوضوحها، ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا. وفرعونُ لَقَبٌ لمَنْ ملك مصر ككسرى لمَنْ ملك فارس، وكان اسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[4].

---

(١) يونس: «٢٢».

(٢) الأعراف: «١٠١».

(٣) التعبير بـ«ثم» الدالة على التراخي للإيذان بأن بعثه عليه السلام تجرى على سنن السنة الإلهية من إرسال الرسل تترى. وتقديم «من بعدهم» على المفعول للاعتناء بالمقدم والتشويق للمؤخر (س٣/ ٢٥٧).

(٤) وتخصيص الملأ بالذكر مع أنهم داخلون في رسالته عليه السلام لأصالتهم في تدبير الأمور واتباع غيرهم لهم في =

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليك، وقوله:

(١٠٥) ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ لعله جواب لتكذيبه إياه في دعوى الرسالة، وإنما لم يُذكر لدلالة قوله: «فظلموا بها» عليه، وكان أصله حقيقٌ عليَّ أَنْ لا أَقُول، كما قرأ نافع فقُلب لأمن الإلباس كقوله: وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر. أو لأن ما لزمك فقد لزمتَه، أو للإغراق في الوصف بالصدق، والمعنى أنه حق واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، أو ضمّن حقيق معنى حريص، أو وضع على مكان الباء لإفادة التمكن كقولهم: رميت على القوس وجئت على حال حسنة، ويؤيده قراءة أبيّ بالباء. وقرىء حقيق أن لا أقول بدون عَلَى. ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فخلهم حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال.

(١٠٦) ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عند من أرسلك. ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدعوى.

(١٠٧) ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ أمرِه لا يشك في أنه ثعبان، وهو الحية العظيمة. روي: أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشْعَرَ فاغراً فاهُ بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذه فعاد عصا[1].

(١٠٨) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه. ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة تجتمع عليها النَّظَّارة، أو بيضاء للنظّار لا أنها كانت بيضاء في جِبِلَّتها. روي: أنه عليه السلام كان آدمَ شديدَ الأَدْمَة، فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه ثم نزعها فإذا هي بيضاء نورانية غلب شعاعُها شعاعَ الشمس[2].

= الورود والصدور (س٣/ ٢٥٧).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ١٤) عن السدي.
وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبته لابن أبي حاتم (٣/ ٥١٢).
وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) عن ابن عباس والسدي.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٣) بدون راوٍ ولا سند.
وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (٩/ ٢١).

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾

(١٠٩) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قيل قاله هو وأشرافُ قومه على سبيل التشاور في أمره، فحُكي عنه في سورة الشعراء[1] وعنهم ههنا.

(١١٠) ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون في أن نفعل.

(١١١) ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

(١١٢) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ كأنه اتفقت عليه آراؤهم فأشاروا به على فرعون. والإرجاءُ التأخير أي أَخِّرْ أمره، وأصلُه أَرْجِئْهُ كما قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب مِنْ أرجأتُ، وكذلك أرجئهوه[2] على قراءة ابن كثير على الأصل في الضمير، أو أرجهي من أرجيت كما قرأ نافع في رواية ورش وإسماعيل والكسائي، وأما قراءته في رواية قالون أَرْجِهِ بحذف الياء فللاكتفاء بالكسرة عنها، وأما قراءة حمزة وعاصم وحفص أَرْجِهْ بسكون الهاء فلتشبيه المنفصل بالمتصل وجعل جِهْ كَإِبْل في إسكان وسطه، وأما قراءة ابن عامر برواية ابن ذكوان أَرْجِئْهِ بالهمزة وكسر الهاء فلا يرتضيه النحاة فإن الهاء لا تكسر إلا إذا كان قبلها كسرة أو ياء ساكنة، ووجهُه أن الهمزة لما كانت تقلب ياء أجريت مجراها[3]. وقرأ حمزة والكسائي بكل سحّار فيه وفي يونس ويؤيده اتفاقهم عليه في الشعراء[4].

(١١٣) ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم[5]. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[6] استأنف به كأنه جواب سائل قال: ما قالُوا إذ جاؤوا؟ وقرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ على الإخبار وإيجاب الأجر كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر، والتنكيرُ للتعظيم.

(١١٤) ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إن لكم لأجراً. ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عطف على ما سدّ مسدَّه «نعم» وزيادة على الجواب لتحريضهم.

(١١٥) ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ خيّروا موسى مراعاة للأدب أو إظهاراً

---

(١) الشعراء: «٣٤».

(٢) الذي وجدته في كتب القراءات «أرجئهو» بدون هاء في آخر الكلمة.

(٣) ما ذهب إليه البيضاوي من تضعيف قراءة ابن عامر... غير مقبول، فإنها قراءة متواترة وثابتة عن النبي عليه السلام وقد تلقتها الأمة بالقبول ولها توجيه في العربية. انظر في ذلك البحر المحيط (٤/ ٣٦٠).

(٤) الشعراء: «٣٧».

(٥) ولم يصرح بإرسال فرعون في طلب السحرة كما في قوله تعالى: «فأرسل فرعون في المدائن حاشرين» ـ الشعراء «٥٣» ـ للإيذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال (س٣/ ٢٥٩).

(٦) أثبتها في الأصل بالاستفهام على قراءة من قرأ بها، أي «أئن لنا لأجراً».

للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يُلْقوا قبله فنُبِّهوا عليها بتغيير النظم إلى ما هو أبلغ وتعريفِ الخبر وتوسيطِ الفصل أو تأكيدِ ضميرهم المتصل بالمنفصل فلذلك:

قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

(١١٦) ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ كرماً وتسامحاً، أو ازدراء بهم ووثوقاً على شأنه. ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيلوا إليها ما الحقيقةُ بخلافه. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم طلبوا رهبتهم. ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في فنه. روي أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي وركِبَ بعضها بعضاً.

(١١٧) ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حية. ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يزوّرونه من الإفك، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول. روي: أنها لما تلقفت حبالَهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالُنا وعصينا[1]. وقرأ حفص عن عاصم تَلْقَفُ ههنا وفي طه والشعراء[2].

(١١٨) ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ فثبت لظهور أمره. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من السحر والمعارضة.

(١١٩) ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين، والضمير لفرعون وقومه.

(١٢٠) ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ جَعَلَهم ملقين على وجوههم تنبيهاً على أن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبقَ لهم تمالك، أو أن الله ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعونُ بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلبَ الأمر عليه، أو مبالغة في سرعة خرورهم وشدته.

(١٢١) ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أبدلوا الثاني من الأول لئلا يُتوهم أنهم أرادوا به فرعون.

(١٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بالله أو بموسى، والاستفهام فيه للإنكار. وقرأ حمزة والكسائي

---

(١) الفاء في قوله «فإذا هي...» هي الفصيحة، أي فألقاها فصارت حية فإذا.. وحذف ذلك للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب (س٣/ ٢٦٠).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ بالتشديد «تَلَقَّفُ». وقراءة حفص بالتخفيف هنا وفي طه: «٦٩» وفي الشعراء: «٤٥».

وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وهشام بتحقيق الهمزتين على الأصل. وقرأ حفص آمنتم به على الإخبار، وقرأ قُنبل قال فرعون، وآمنتم يُبدل في حال الوصل من همزة الاستفهام واواً مفتوحة ويمدّ بعدها مدة في تقدير أَلِفَيْن، وقرأ في طه على الخبر بهمزة وألف، وقرأ في الشعراء على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة في تقدير أَلِفَيْن، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة الأولى وتليين الثانية. ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أي إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى. ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل أن تخرجوا للميعاد. ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ يعني القبط وتخلص لكم ولبني إسرائيل. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهو تهديد مجمل تفصيلُه:

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

(١٢٤) ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ من كل شق طرفاً. ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم. قيل إنه أول من سن ذلك فشرعه الله للقطّاع تعظيماً لجرمهم ولذلك سماه محاربة لله ورسوله، ولكن على التعاقب لفرط رحمته.

(١٢٥) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بالموت لا محالة فلا نبالي بوعيدك، أو إنا منقلبون إلى ربنا وثوابه إن فعلت بنا ذلك، كأنهم استطابوه شغفاً على لقاء الله، أو مصيرُنا ومصيرك إلى ربنا فيحكم بيننا.

(١٢٦) ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وما تنكر منا. ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضاتك، ثم فزِعوا إلى الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أفض علينا صبراً يغمرنا كما يُفرغ الماء، أو صبّ علينا ما يطهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام. قيل إنه فعل بهم ما أوعدهم به. وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

(١٢٧) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بتغيير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك. ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطف على يفسدوا، أو جواب الاستفهام بالواو كقول الحطيئة:

أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي ... وَبَيْنَكُمُ المَوَدَّةُ وَالإِخَاءُ

على معنى أَيكون منك ترك موسى ويكون منه تركه إياك. وقرىء بالرفع على أنه عطف على أتذرُ أو استئناف أو حال. وقرىء بالسكون كأنه قيل: يفسدوا ويذرْك كقوله تعالى ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾[2] ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ معبوداتك. قيل كان يعبد الكواكب، وقيل صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً

---

(١) القصص: «٣٥».

(٢) المنافقين: «١٠».

إليه ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1] وقرىء إلاهتك أي عبادتك. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ كما كنا نفعل من قبل ليُعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجّمون والكهنةُ بذهاب ملكنا على يده. وقرأ ابن كثير ونافع سنَقْتُل بالتخفيف. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

(١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم. ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ تسليةٌ لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت في الأمر. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعد لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارَهم وتحقيق له. وقرىء والعاقبةَ بالنصب، عطفٌ على اسم إنّ. واللام في الأرض تحتمل العهد والجنس.

(١٢٩) ﴿قَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل. ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادته. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ تصريحاً بما كنّى عنه أولاً لما رأى أنهم لم يتسلوْا بذلك، ولعله أتى بفعل الطمع لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم. وقد روي أن مصر إنما فُتح لهم في زمن داود عليه السلام[2]. ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ما تعملون من شكر وكفران وطاعة وعصيان فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ بالجدوب لقلة الأمطار والمياه، والسَّنَة غَلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به، ثم اشتق منها فقيل أَسنَتِ القومُ إذا قحطوا. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بكثرة العاهات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعظوا، أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده[3].

(١٣١) ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ من الخصب والسعة. ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ لأجلنا ونحن مستحقوها. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء. ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ يتشاءموا بهم ويقولوا: ما أصابتْنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل

---

(١) النازعات: «٢٤».

(٢) مجيء فعل الطمع للجري على سنن الكبرياء (س٣/ ٢٦٣).

(٣) وتصدير الجملة بالقسم لإظهار الاعتناء بمضمونها (س٣/ ٢٦٣).

التماسك سيمَا بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغيّ. وإنما عَرّف الحسنة وذَكَرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الإرادةِ بإحداثها بالذات، ونكّر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سبب خيرهم وشرهم عنده وهو حكمته ومشيئته، أو سبب شؤمهم عند الله وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوءهم. وقرىء إنما طَيْرُهم، وهو اسم الجمع وقيل هو جمع[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى أو من شؤم أعمالهم[2].

وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

(١٣٢) ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا﴾ أصلها ما الشرطية ضُمَّت إليها ما المزيدة للتأكيد، ثم قُلبت ألفها هاء استثقالاً للتكرير. وقيل مركبة من مَهْ الذي يصوت به الكاف وما الجزائية، ومحلها الرفع على الابتداء أو النصب بفعل يفسره. ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ أي أيما شيء تحضرنا تأتنا به. ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ بيان لمهما، وإنما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا. والضمير في به وبها لمهما، ذَكّره قبل التبيين باعتبار اللفظ وأنّثه بعده باعتبار المعنى.

(١٣٣) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ ماءً طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل، وقيل الجدري، وقيل الموتان، وقيل الطاعون. ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيل هو كبار القِرْدان، وقيل أولادُ الجراد قبل نبات أجنحتها. ﴿وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ روي[3]: أنهم مُطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماءُ بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها ودام ذلك عليهم أسبوعاً، فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا اللهَ فكشف عنهم ونبت لهم من الكلأ والزرع ما لم يُعهد مثله ولم يؤمنوا. فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب، ففزِعوا إليه ثانياً، فدعا وخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا. فسلط الله عليهم القمّل فأكل ما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصّها، ففزِعوا إليه، فرُفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر. ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشَف ثوب

---

(١) وتصدير الجملة بأداة التنبيه «ألا» لإبراز كمال العناية بمضمونها (س٣/ ٢٦٤).

(٢) ووصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون للإشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر إنما هو من عند الله (س٣/ ٢٦٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٥١٩) ـ.

ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي وأفواههم عند التكلم، ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا، فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهود. ثم أرسل عليهم الدم فصارت مياههم دماً حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه، وقيل سلط الله عليهم الرعاف. ﴿ءَايَٰتٍ﴾ نصب على الحال. ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبيَّنات لا تُشْكِل على عاقل أنها آياتُ الله ونقمته عليهم، أو مفصلات لامتحان أحوالهم إذ كان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة أسبوعاً. وقيل إن موسى لبث فيهم بعد ما غلب السحرةَ عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان. ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ يعني العذاب المفصل، أو الطاعون الذي أرسله الله عليهم بعد ذلك. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوَه به فيجيبك كما أجابك في آياتك. وهو صلةٌ لادعُ، أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عنك، أو متعلق بفعل محذوف دل عليه التماسهم مثل أَسْعِفْنا إلى ما نطلب منك بحق ما عهد عندك، أو قسم مجاب بقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أَقْسَمْنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلن.

(١٣٥) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت. وقيل إلى أجل عينوه لإيمانهم. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جوابٌ لمّا أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث من غير تأمل وتوقف فيه.

(١٣٦) ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأردنا الانتقام منهم. ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي البحر الذي لا يدرَك قعره. وقيل لُجَّتُهُ. ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها. وقيل الضمير للنُّقْمة المدلول عليها بقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

(١٣٧) ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستبعاد وذبح الأبناء من مستضعفيهم. ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني أرض الشام مَلَكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها. ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة العيش. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ومضت عليهم واتصلت بالإنجاز عِدَتُه إياهم بالنصرة والتمكين وهو قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ إلى قوله ﴿مَّا

﴿كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1]. وقرىء كلماتُ ربك لتعدد المواعيد ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم على الشدائد. ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ وخربنا. ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من القصور والعمارات[2]. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان. وقرأ ابن عامر وأبو بكر هنا وفي النحل يَعْرُشون بالضم. وهذا آخر قصة فرعون وقومه.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

(١٣٨) وقوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ وما بعدَه ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مَنَّ الله عليهم بالنعم الجسام وأراهم من الآيات العظام تسلية لرسول الله ﷺ مما رأى منهم، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. روي[3]: أن موسى عليه الصلاة والسلام عَبَر بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً. ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمروا عليهم. ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يقيمون على عبادتها، قيل كانت تماثيل بَقَر وذلك أول شأن العجل، والقوم كانوا من العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم، وقيل من لخم. وقرأ حمزة والكسائي يَعْكِفُون بالكسر. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ مثالاً نعبدُه. ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ يعبدونها، وما كافَّة للكافِ. ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وَصَفَهم بالجهل المطلق وأكَّده لبُعْدِ ما صدر عنهم ـ بعد ما رأوا من الآيات الكبرى ـ عن العقل.

(١٣٩) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى القوم. ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مكسر مدمّر. ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ يعني أن الله يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها رُضاضاً ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ مضمحلّ. ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ في هذا الكلام بإيقاع هؤلاء اسم إن والإخبار عما هم فيه بالتَّبار وعما فعلوا بالبطلان، وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لإن للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة وأن الإحباط الكلي لازب لما مضى عنهم تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا.

(١٤٠) ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أطلب لكم معبوداً. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من أمثالهم لما لم يستحقوه تفضلاً بأن قصدوا أن يشركوا به أخس شيء من مخلوقاته.

---

(١) القصص: «١ ـ ٢».

(٢) والعدول إلى صيغة المضارع في قوله «يصنع» لاستحضار الصورة (س٣/ ٢٦٧).

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٧٣) من قول الكلبي.
وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (٩/ ٤٠).

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ واذكروا صنيعه معكم في هذا الوقت. وقرأ ابن عامر أَنْجاكم. ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ استئناف لبيان ما أنجاهم منه، أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما. ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ بدل منه مبين. ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وفي الإنجاء أو العذاب نعمة أو محنة عظيمة.

(١٤٢) ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ ذا القعدة. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وَوَعدنا. ﴿ وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ من ذي الحجة. ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ بالغاً أربعين. روي: أنه عليه الصلاة والسلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مَهْلك فرعون بكتاب من الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره الله بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خُلُوفَ فِيه فتسوّك، فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحةَ المسك فأفسدتَه بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً. وقيل أمره بأن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها. ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحاً. ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ولا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه.

(١٤٣) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ لوقتنا الذي وقّتناه، واللام للاختصاص أي اختص مجيئه لميقاتنا. ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ من غير وسيط كما يكلم الملائكة، وفيما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المُحْدَثين. ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أرني نفسك بأن تمكنني من رؤيتك، أو تتجلى لي فأنظر إليك وأراك. وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله ولذلك رده بقوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ دون لن أُرَى أو لن أريك أو لن تنظر إليَّ، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على مَعَدّ في الرائي لم يوجد فيه بعد، وجَعَل السؤالَ لتبكيت قومه الذين قالوا: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[1] خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتَهم كما فعل بهم حين قالوا: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا ﴾[2] ولا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3].

---

(١) النساء: «١٥٣».

(٢) الأعراف: «١٣٨».

(٣) الأعراف: «١٤٢».

والاستدلالُ بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أن لا يراه أبداً وأن لا يراه غيرُه أصلاً فضلاً عن أن يدل على استحالتها، ودعوى الضرورة فيه مكابرة أو جهالة بحقيقة الرؤية. ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيقُه، وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن. والجبل قيل هو جبل زبير. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ ظهر له عظمتُه وتصدى له اقتداره وأمرُه. وقيل أعطى له حياة ورؤية حتى رآه. ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكاً مفتتاً، والدكّ والدق أخوان كالشك والشق. وقرأ حمزة والكسائي دكاءَ أي أرضاً مستوية، ومنه ناقة دكّاء التي لا سنام لها، وقرىء دُكّاً أي قطعاً جمع دكاء. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى. ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ﴾ تعظيماً لما رأى. ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجراءة والإقدام على السؤال من غير إذن. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مر تفسيره. وقيل معناه أنا أول من آمن بأنك لا تُرى في الدنيا.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

(١٤٤) ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي الموجودين في زمانك، وهارونُ وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع. ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ يعني أسفار التوراة. وقرأ ابن كثير ونافع برسالتي. ﴿وَبِكَلَٰمِى﴾ وبتكليمي إياك. ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أعطيتك من الرسالة. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على النعمة فيه. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وإعطاء التوراة كان يوم النحر.

(١٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين. ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بدل من الجار والمجرور، أي وكتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. واختلف في أن الألواح كانت عشرة أو سبعة، وكانت من زمرد أو زبرجد، أو ياقوت أحمر أو صخرة صماء لينها الله لموسى فقطعها بيده وسقفها بأصابعه وكان فيها التوراة أو غيرها. ﴿فَخُذْهَا﴾ على إضمار القول عطفاً على كتبنا، أو بدل من قوله: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ والهاء للألواح، أو لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء، أو للرسالات. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بأحسن ما فيها كالصبر والعفو بالإضافة إلى الانتصار، والاقتصاص على طريقة الندب والحث على الأفضل كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾. أو بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره، ويجوز أن يراد بالأحسن البالغ في الحسن مطلقاً لا بالإضافة، وهو المأمور به كقولهم الصيفُ أحر من الشتاء. ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها، أو منازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا، أو دارهم في الآخرة وهي جهنم. وقرىء سأُوْريكم بمعنى سأبين لكم من أوريت الزند، وسأورّثكم، ويؤيده قوله ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾[1].

(١) الأعراف: «١٣٧».

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

(١٤٦) ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقيل سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما فعل فرعون فعاد عليه بإعلائها أو بإهلاكهم. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صلة يتكبرون أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل، أو حال من فاعله. ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾ منزلة أو معجزة. ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لعنادهم واختلال عقولهم بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد، وهو يؤيد الوجه الأول. ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم. وقرأ حمزة والكسائي الرَّشَد بفتحتين، وقرىء الرشاد، وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم للآيات، ويجوز أن ينصب ذلك على المصدر أي سأصرف ذلك الصرف بسببهما.

(١٤٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، أو ما وعد الله في الدار الآخرة. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لا ينتفعون بها. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلا جزاء أعمالهم.

(١٤٨) ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه للميقات. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروا من القبط حين هموا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم أو ملكوها بعد هلاكهم. وهو جمع حُلِي كثَدْي وثَدِيّ. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر بالاتباع كدِلِي، ويعقوب على الإفراد[1]. ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ بدناً ذا لحم ودم، أو جسداً من الذهب خالياً من الروح، ونصبه على البدل. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت البقر. روي أن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فصار حياً، وقيل صاغه بنوع من الحيَل فتدخل الريح جوفه وتصوت. وإنما نسب الاتخاذ إليهم وهو فعلُه إما لأنهم رضوا به أو لأن المراد اتخاذهم إياه إلهاً. وقرىء جؤار أي صياح. ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر، والمعنى ألم يروا حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على إرشاد سبيل كآحاد البشر حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقُدر. ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذوه إلهاً. ﴿وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ واضعين الأشياء في غير مواضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم.

---

(١) قراءة حمزة والكسائي «حِلِيّهم» وقراءة يعقوب «حَلْيِهم».

وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾

(١٤٩) ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها. وقرىء سَقَطَ على بناء الفعل للفاعل، بمعنى وقع العض فيها. وقيل معناه سقط الندم في أنفسهم. ﴿وَرَأَوْا﴾ وعلموا. ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذ العجل[1]. ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوراة. ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة[2]. ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وقرأهما حمزة والكسائي بالتاء وربَّنا على النداء[3].

(١٥٠) ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ شديد الغضب وقيل حزيناً. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ فعلتم بعدي حيث عبدتُم العجل والخطاب للعَبَدة، أو أقمتم مقامي فلم تكفّوا العبدة والخطاب لهارون والمؤمنين معه! وما نكرة موصوفة تفسر المستكنّ في بئس، والمخصوص بالذم محذوف تقديرُه بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، ومعنى من بعدي من بعد انطلاقي، أو من بعد ما رأيتم مني من التوحيد والتنزيه والحمل عليه والكف عما ينافيه. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أتركتموه غير تام، كأنه ضمَّن عَجِلَ معنى سبق فعُدي تعديتَه، أو أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين وقدَّرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرتِ الأممُ بعد أنبيائهم. ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حميَّة للدين. روي: أن التوراة كانت سبعة أسباع في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها وكان فيها تفصيل كل شيء وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام. ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه. ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ توهماً بأنه قصّر في كفهم، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين وكان حمولاً ليناً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل. ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم ليرققه عليه وكانا من أب وأم. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي طه[4] يا ابن أمَّ بالكسر، وأصله يا ابن أمي فحذفت الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفاً كالمنادى المضاف إلى الياء، والباقون بالفتح زيادة في التخفيف لطوله أو تشبيهاً بخمسةَ عشرَ. ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه، والمعنى بذلت وسعي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله. ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة أو نسبة التقصير.

---

(١) وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية ـ مع كونه متأخراً عنها ـ للمسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته، كأنه سابق على الرؤية (س٣/ ٢٧٣).

(٢) وتقديم الرحمة على المغفرة ـ مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية ـ إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم (س٣/ ٢٧٣).

(٣) قراءة حمزة والكسائي «لئن لم ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا».

(٤) طه: «٩٤».

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

(١٥١) ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ بما صنعتُ بأخي. ﴿وَلِأَخِى﴾ إن فرّط في كفهم، ضمَّه إلى نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعاً للشماتة عنه. ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام علينا. ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا.

(١٥٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم. ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي خروجهم من ديارهم، وقيل الجزية. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ على الله، ولا فرية أعظم من فريتهم وهي قولهم هذا إلهكم وإله موسى، ولعله لم يفترِ مثلها أحد قبلهم ولا بعدهم.

(١٥٣) ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد السيئات. ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾ واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه من الأعمال الصالحة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة. ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإن عظم الذنب كجريمة عبدة العجل وكثُر كجرائم بني إسرائيل.

(١٥٤) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن، وقد قرىء به. ﴿عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ باعتذار هارون، أو بتوبتهم. وفي هذا الكلام مبالغة وبلاغة من حيث إنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمِر به والمغري عليه، حتى عبر عن سكونه بالسكوت. وقرىء سُكِّتَ وأُسْكِتَ، على أن المسكت هو الله أو أخوه أو الذين تابوا. ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها. ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ وفيما نسخ فيها أي كتب، فُعْلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أي من الألواح المنكسرة. ﴿هُدًى﴾ بيان للحق. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير. ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام على المفعول لضعف الفعل بالتأخير، أو حذف المفعول واللام للتعليل والتقدير يرهبون معاصي الله لربهم.

(١٥٥) ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ أي من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل إليه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ روي أنه تعالى أمره أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان، فقال: ليتخلف منكم رجلان، فتشاجروا، فقال: إن لمَنْ قعد أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجداً، فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة أي الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها. ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ﴾ تمنىٰ هلاكهم وهلاكه قبل أن يَرى ما رأى، أو بسبب آخر، أو عنى به أنك قدِرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم وبإغراقهم في البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالإنقاذ

منها فإن ترحمت عليهم مرة أخرى لم يبعد من عميم إحسانك. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، وكان ذلك قاله بعضهم. وقيل المراد بما فعل السفهاء عبادةُ العجل، والسبعون اختارهم موسى لميقات التوبة عنها، فغشيتهم هيبة قلقوا منها ورجفوا حتى كادت تَبِينُ مفاصلُهم وأشرفوا على الهلاك، فخاف عليهم موسى فبكى ودعا فكشفها الله عنهم. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية، أو أوجدت في العجل خواراً فزاغوا به. ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ ضلالَه بالتجاوز عن حده، أو باتباع المخايل. ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ هداه فيقوىٰ بها إيمانه. ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ القائم بأمرنا. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ بمغفرة ما قارفنا. ﴿وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة[1].

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(١٥٦) ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حُسن معيشة وتوفيق طاعة. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجنة. ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ تبنا إليك، من هاد يهود إذا رجع. وقرىء بالكسر[2] من هادَه يَهيدُه إذا أماله، ويحتمل أن يكون مبنياً للفاعل وللمفعول بمعنى أَمَلْنا أنفسَنا وأَمَلْنا إليك، ويجوز أن يكون المضموم أيضاً مبنياً للمفعول منه على لغة من يقول عُودَ المريض. ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الدنيا المؤمن والكافر بل المكلف وغيره[3]. ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فسأثبتها في الآخرة، أو فسأكتبها كَتْبة خاصة منكم يا بني إسرائيل. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ خصها بالذكر لإنافتها ولأنها كانت أشق عليهم. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكفرون بشيء منها.

(١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾ مبتدأ خبرُه يأمرهم، أو خبرُ مبتدأ تقديره هم الذين، أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل، والمراد من آمن منهم بمحمد ﷺ، وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى

---

(١) وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام (س٣/ ٢٧٧).

(٢) أي بكسر الهاء «هِدْنا».

(٣) وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فبمقتضىٰ معاصي العباد، والمشيئة معتبرة في جانب الرحمة أيضاً وعدم التصريح بها للإشعار بغاية الظهور (س٣/ ٢٧٨).

الله تعالى ونبياً بالإضافة إلى العباد. ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، وصفه به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته. ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ اسماً وصفة. ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما حرم عليهم كالشحوم. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ كالدم ولحم الخنزير، أو كالربا والرشوة. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة كتعيين القصاص في العمد والخطأ وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة. وأصل الإصْر الثِّقَل الذي يأصِر صاحبه أي يحبسه من الحراك لثقله. وقرأ ابن عامر آصارَهُم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظموه بالتقوية. وقرىء بالتخفيف[1] وأصله المنع ومنه التعزير. ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ لي. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي مع نبوته يعني القرآن، وإنما سماه نوراً لأنه بإعجازه ظاهرٌ أمرُه مظهِر غيرَه، أو لأنه كاشف الحقائق مظهر لها، ويجوز أن يكون «معه» متعلقاً باتبعوا أي واتبعوا النور المنزل مع اتباع النبي فيكون إشارة إلى اتباع الكتاب والسنة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية، ومضمون الآية جواب دعاء موسى عليه السلام.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

(١٥٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الخطاب عام، وكان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين، وسائرُ الرسل إلى أقوامهم. ﴿جَمِيعًا﴾ حال مِنْ إليكم. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صفة لله وإن حيل بينهما بما هو متعلق المضاف إليه لأنه كالتقدم عليه، أو مدح منصوب أو مرفوع، أو مبتدأ خبرُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو على الوجوه الأُوَل بيان لما قبله، فإن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره، وفي ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية. ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما أُنزِل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه. وقرىء «وكَلِمَتِهِ» على إرادة الجنس أو القرآن، أو عيسى تعريضاً لليهود وتنبيهاً على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه، وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له[2]. ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيهاً على أن مَنْ صدّقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة.

---

(١) أي بتخفيف الزاي «وعَزَرُوه».

(٢) إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات إلى الغيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال بأمره. ووصفه بالنبي الأمي لمدحه عليه السلام بهما ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين (س٣/ ٢٨١).

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

(١٥٩) ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني من بني إسرائيل. ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يهدون الناس مُحِقِّين أو بكلمة الحق. ﴿وَبِهِۦ﴾ بالحق. ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم في الحكم، والمراد بها الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه، أَتْبَع ذكرَهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. وقيل مؤمنو أهل الكتاب. وقيل قوم وراء الصين رآهم رسول الله ﷺ ليلة المعراج فآمنوا به[1].

(١٦٠) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ وصيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض. ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ مفعول ثان لقطّع فإنه متضمن معنى صيّر، أو حال وتأنيثه للحمل على الأمة أو القِطْعة. ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه ولذلك جُمع، أو تمييز له على أن كل واحد من اثنتي عشرة أسباط فكأنه قيل: اثنتي عشرة قبيلة. وقرىء بكسر الشين وإسكانها. ﴿أُمَمًا﴾ على الأول بدلٌ بعد بدل أو نعت أسباط، وعلى الثاني بدل من أسباط. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ في التيه. ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي فضرب فانبجست، وحذفُه للإيماء على أن موسى عليه السلام لم يتوقف في الامتثال. وأَنّ ضربَه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط. ﴿مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ ليقيهم حر الشمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟﴾ أي وقلنا لهم كلوا. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة[2].

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بإضمار اذكر، والقريةُ بيت المقدس[3]. ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ مثل ما في سورة البقرة معنى، غير أن قوله فكلوا فيها بالفاء أفاد تسبب سكناهم للأكل منها، ولم يتعرض له اكتفاء بذكره ثمة، أو بدلالة الحال عليه. وأما تقديم قوله «قولوا» على «وادخلوا» فلا أثر له في المعنى لأنه لا يوجب الترتيب، وكذا الواو العاطفة بينهما. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالغفران والزيادة عليه بالإثابة، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف للدلالة على أنه تفضل محض ليس في مقابلة ما أُمروا به. وقرأ

---

(١) وصيغة المضارع في «يهدون» و«يعدلون» لحكاية الحال الماضية (س٣/ ٢٨١).

(٢) البقرة: «٥٨».

(٣) إيراد الفعل «قيل» على البناء للمفعول مع استناده إليه تعالى للجري على سنن الكبرياء، والإيذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل. وتغيير النظم بالأمر بالذكر للتشديد في التوبيخ (س٣/ ٢٨٣). =

نافع وابن عامر ويعقوب تُغْفَرْ بالتاء والبناء للمفعول وخطيئاتُكم بالجمع والرفع، غير ابن عامر فإنه وَحَّد، وقرأ أبو عمرو خَطَاياكم.

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

(١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ مضىٰ تفسيره فيها[1].

(١٦٣) ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ للتقرير والتقريع بقديم كفرهم وعصيانهم والإعلام بما هو من علومهم التي لا تُعلم إلا بتعليم أو وحي ليكون لك ذلك معجزة عليهم. ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها وما وقع بأهلها. ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه وهي أيلة قرية بين مدين والطور[2] على شاطىء البحر، وقيل مدين، وقيل طبرية. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت، وإذ ظرف لكانت أو حاضرة أو للمضاف المحذوف أو بدل منه بدل اشتمال. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف ليَعْدون، أو بدل بعد بدل. وقرىء يَعَدُّون وأصله يعتدون، ويُعِدُّون من الإعداد أي يعدون آلات الصيد يوم السبت وقد نهوا أن يشتغلوا فيه بغير العبادة[3]. ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت، مصدر سَبَتَت اليهود إذا عظمت سبتها بالتجرد للعبادة. وقيل اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه، ويؤيد الأول أن قرىء يوم إسباتهم، وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وقرىء لا يُسبِتون من أسبَتَ، ولا يُسْبَتُون على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت، وشرّعاً حال من الحيتان ومعناه ظاهرة على وجه الماء من شَرَع علينا إذا دنا وأشرف. ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم. وقيل كذلك متصل بما قبله أي لا تأتيهم مثل إتيانهم يوم السبت، والباء متعلق بيَعْدون[4].

(١٦٤) ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ عطف علىٰ إذ يعدون. ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ جماعة من أهل القرية يعني صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم حتى أيسوا من اتعاظهم. ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ مخترمُهم. ﴿أَوْ

---

(١) البقرة: «٥٩».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ٩٠، ٩١) عن ابن عباس.

(٣) وإضافة الحيتان إليهم للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة (س٣/ ٢٨٤).

(٤) وصيغة المضارع بقوله «نبلوهم» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجب منها (س٣/ ٢٨٥).

﴿مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة لتماديهم في العصيان، قالوه مبالغة في أن الوعظ لا ينفع فيهم، أو سؤالاً عن علة الوعظ ونفعه وكأنه تقاول بينهم، أو قول من ارعوى عن الوعظ لمن لم يرعو منهم، وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعّاظهم رداً عليهم وتهكماً بهم. ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ جواب للسؤال أي موعظتنا إنهاءَ عذر إلى الله حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر[١]. وقرأ حفص معذرة بالنصب على المصدر أو العلة أي اعتذرنا به معذرةً، أو وعظناهم معذرة[٢]. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

(١٦٥) ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ تركوا تَرْك الناسي. ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما ذكرهم به صلحاؤهم. ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله. ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد، فعيل من بَؤُسَ يَبْؤس بؤساً إذا اشتد. وقرأ أبو بكر بَيْئَس على فَيْعَل كضَيْغَم، وابنُ عامر بِئْس بكسر الباء وسكون الهمز على أنه بَئِس كحَذِر كما قرىء به فخفف عينه بنقل حركتها إلى الفاء ككَبْد في كَبِد، وقرأ نافع بِيسٍ على قلب الهمزة ياء كما قلبت في ذئب أو على أنه فعل الذم وصف به فجعل اسماً، وقرىء بَيِّس كريس على قلب الهمزة ياء ثم إدغامها، وبَيْسٍ بالتخفيف كهين، وبائِسٍ كفاعل[٣]. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ تكبروا عن ترك ما نُهوا عنه كقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[٤]. ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٥] والظاهرُ يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمَسَخَهم، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى. روي: إن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنَتَهم، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يوماً ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين فقالوا: إن لهم شأناً فدخلوا عليهم فإذا هم قردة فلم يعرفوا أنسباءهم ولكن القردة تعرفهم، فجعلت تأتي أنسباءَهم وتشم ثيابهم وتدور باكية حولهم ثم ماتوا بعد ثلاث. وعن مجاهد مُسِخت قلوبهم لا أبدانُهم[٦].

---

(١) الأصل عند البيضاوي «معذرة» بالرفع.
(٢) في إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين «ربكم» نوع تعريض بالسائلين (س٣/ ٢٨٥).
(٣) وتنكير العذاب للتفخيم (س٣/ ٢٨٦).
(٤) الأعراف: «٧٧».
(٥) النحل: «٤٠».
(٦) رجح ابن كثير أن المسخ كان صورياً ومعنوياً، ورد قول مجاهد (تفسير ابن كثير ١/ ١٠٢).

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

(١٦٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أعْلَمَ، تَفَعَّل مِنَ الإيذان بمعناه كالتوعّد والإيعاد، أو عزم لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله فأجري مجرىٰ فعل القسم كعَلِم الله وشهد الله، ولذلك أجيب بجوابه وهو: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ والمعنى وإذ أوجب ربك على نفسه ليسلطنّ على اليهود ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية. بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرّب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث الله محمداً ﷺ ففعل ما فعل ثم ضرب عليهم الجزية، فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ عاقبهم في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن.

(١٦٨) ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ وفرقناهم فيها بحيث لا يكاد يخلو قُطْر منهم تتمة لأدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط، وأمماً مفعول ثان أو حال. ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ تقديره ومنهم أناس دون ذلك، أي منحطون عن الصلاح وهم كَفَرَتُهم وفسقتهم، صفة أو بدل منه، وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم. ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالنعم والنقم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتهون فيرجعون عما كانوا عليه.

(١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين. ﴿خَلْفٌ﴾ بدل سوءَ، مصدرٌ نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع، وقيل جمع. وهو شائع في الشر، والخَلَف بالفتح في الخير، والمراد به الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ. ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها.. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ حطام هذا الشيء الأدنى يعني الدنيا، وهو من الدنو أو الدناءة وهو ما كانوا يأخذون من الرُّشا في الحكومة وعلى تحريف الكلم، والجملة حال من الواو. ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، وهو يحتمل العطف والحال. والفعل مسند إلى الجار والمجرور، أو مصدر يأخذون. ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ حال من الضمير في لنا، أي يرجون المغفرة مصرين على الذنب عائدين إلى مثله غير تائبين عنه. ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي في الكتاب. ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ عطف بيان للميثاق، أو متعلق به أي بأن يقولوا. والمرادُ توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج عن ميثاق الكتاب. ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فإنه تقرير، أو على ورثوا وهو اعتراض. ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مما يأخذ هؤلاء. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد. وقرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء على التلوين.

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

(١٧٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عطف على الذين يتقون وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ اعتراض أو مبتدأ خبرُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع. وقرأ أبو بكر يُمْسِكون بالتخفيف وإفراد الإقامة لإنافتها على سائر أنواع التمسكات[1].

(١٧١) ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعناه ورفعناه فوقهم، وأصل النتق الجذب. ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ سقيفة، وهي ما أظلك. ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ وتيقنوا. ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت في الجوّ ولأنهم كانوا يوعدون به، وإنما أطلق الظن لأنه لم يقع متعلقُه وذلك أنهم أبوْا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله الطور فوقهم وقيل لهم إن قبلتم ما فيها وإلا ليَقعنّ عليكم. ﴿خُذُوا۟﴾ على إضمار القول، أي وقلنا خذوا أو قائلين خذوا. ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزم على تحمل مشاقه، وهو حال من الواو. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ بالعمل به ولا تتركوه كالمنسي. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

(١٧٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن، ومن ظهورهم بدل من بني آدم بدل البعض. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب ذرياتِهم[2]. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أي ونَصَبَ لهم دلائل ربوبيته وركّب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم ألست بربكم؟ قالوا بلىٰ فَنَزّل تمكينهم من العلم بها وتمكِنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل، ويدل عليه قوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي كراهة أن تقولوا. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لم ننبه عليه بدليل.

(١٧٣) ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟﴾ عطف على أن تقولوا. وقرأ أبو عمرو كليهما بالياء لأن أول الكلام على الغيبة. ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم، لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذراً. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك. وقيل لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذرية كالذرّ وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك لحديث

---

(١) قوله «يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة» غير النظم في إقامة الصلاة للدلالة على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر في جميع الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها.
وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات لإنافتها عليها (س٣/ ٢٨٨).

(٢) قوله «وإذ أخذ...» آثر الأخذ على الإخراج للإيذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه الإخبار عن الاصطفاء وهو السبب في إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي (س٣/ ٢٨٩).

رواه عمر[١] رضي الله تعالى عنه، وقد حققتُ الكلام فيه في شرحي لكتاب المصابيح. والمقصودُ من إيراد هذا الكلام إلزامُ اليهود بمقتضى الميثاق العام بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاجُ عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعُهم عن التقليد، وحملُهم على النظر والاستدلال كما قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

(١٧٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن التقليد واتباع الباطل.

(١٧٥) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود. ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ هو أحد علماء بني إسرائيل، أو أمية بن أبي الصلت فإنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسِلٌ رسولاً في ذلك الزمان، ورجا أن يكون هو فلما بعث محمد عليه السلام حسده وكفر به، أو بلعم بن باعوراء من الكنعانيين أوتي علم بعض كتب الله، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها[٢]. ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حتى

---

(١) أخرج مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٨ رقم ٢) وأحمد في المسند (١/ ٤٤، ٤٥) والبخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٩٧) وأبو داود (٥/ ٧٩ ـ ٨٠ رقم ٤٧٠٣ ورقم ٤٧٠٤) والترمذي (٥/ ٢٦٦ رقم ٣٠٧٥) وابن حبان (ص٤٤٧ رقم ١٨٠٤ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) كلهم من طريق مالك، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبدالحميد بن عبدالرحمٰن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار عن عمر. إلا البخاري وأبا داود (رقم: ٤٧٠٤) فقد روياه عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة عن عمر.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً.
قلت: هذا الرجل هو «نعيم بن ربيعة الأزدي» وهو مقبول كما في «التقريب» (٢/ ٣٠٥). وهو حديث صحيح بشواهده.
(منها): حديث عبد الرحمٰن بن قتادة السلمي ولفظه «إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فقال قائل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر».
أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٨٦) والحاكم في المستدرك (١/ ٣١).
وأورده الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٤٨).
(ومنها): حديث أبي الدرداء بنحو حديث عبدالرحمٰن بن قتادة.
أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٤١) والبزار والطبراني ـ كما في «المجمع» (٧/ ١٨٥) ـ.
وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.
وصححه الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٤٩).
(ومنها) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بنحو حديث عمر في سياق أطول منه. أخرجه أحمد (٢/ ١٦٧) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥ رقم: ٣٤٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٨).
وحسنه الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٨٤٨) وتخريج السنة.
قلت: وانظر روايات أخرى عن جماعة من الصحابة في «الدر المنثور» (٣/ ٥٩٨ ـ ٦٠٧).

(٢) عبر عنه بالانسلاخ المنبىء عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملاقاة بينهما أبداً للإيذان بكمال مباينته =

لحقه وقيل استتبعه. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالين. روي أن قومه سألوه أن يدعو على موسى ومَنْ معه فقال: كيف أدعو على مَنْ معه الملائكةُ، فألحوا حتى دعا عليهم فبقُوا في التيه.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

(١٧٦) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء. ﴿بِهَا﴾ بسبب تلك الآيات وملازمتها. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا، أو إلى السفالة. ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضىٰ الآيات، وإنما علقَ رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العَبْد تنبيهاً على أن المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وأن عدمه دليل عدمها دلالةَ انتفاء المسبب على انتفاء سببه، وأن السبب الحقيقي هو المشيئة وأن ما نشاهده من الأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث إن المشيئة تعلقت به كذلك، وكان من حقه أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد إلى الأرض واتبع هواه مبالغةً وتنبيهاً على ما حمله عليه وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ فصفته التي هي مَثَلٌ في الخسة. ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ كصفته في أخس أحواله، وهو: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي يلهث دائماً سواء حُمِل عليه بالزجر والطرد أو تُرِك ولم يُتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده. واللهْثُ إدلاع اللسان من التنفس الشديد، والشرطية في موضع الحال والمعنى: لاهثاً في الحالتين، والتمثيل واقع موقعَ لازم التركيب الذي هو نفيُ الرفع ووضعُ المنزلة للمبالغة والبيان. وقيل لما دعا على موسى عليه السلام خرج لسانُه فوقع على صدره وجعل يلهث كالكلب. ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ القصة المذكورة على اليهود فإنها نحو قصصهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الاتعاظ.

(١٧٧) ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ أي مَثَلُ القوم، وقرىء ساء مَثَلُ القوم على حذف المخصوص بالذم. ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم بها. ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ إما أن يكون داخلاً في الصلة معطوفاً على كذبوا بمعنى: الذين جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعاً عنها بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وَبَاله لا يتخطاها، ولذلك قدم المفعول.

(١٧٨) ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ تصريح بأن الهدىٰ والضلال من الله وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفرادُ في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين،

= للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال (س٣/ ٢٩٢).